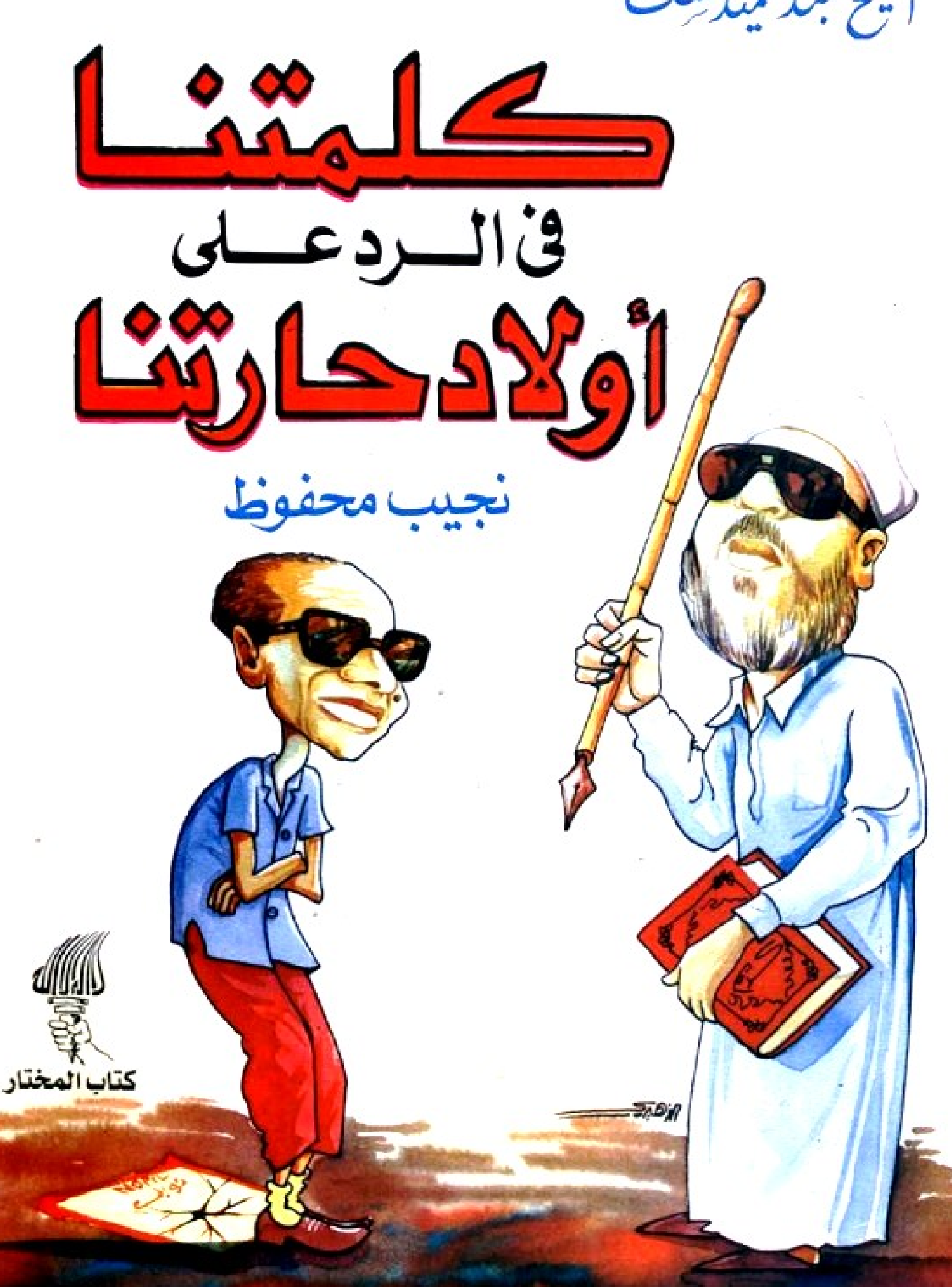
الشيخ عبد الحميد كشك

كلمتنا في الرد على أولاد حارتنا

نجيب محفوظ

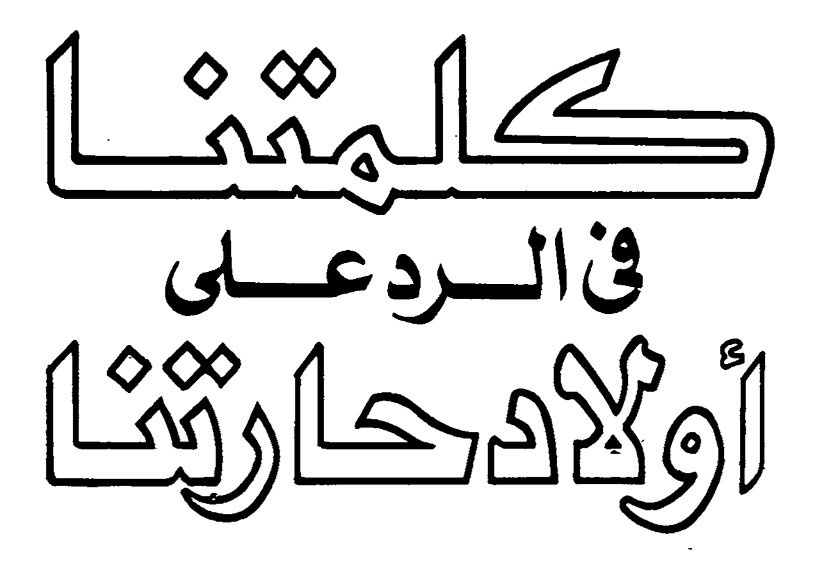


كتاب المختار



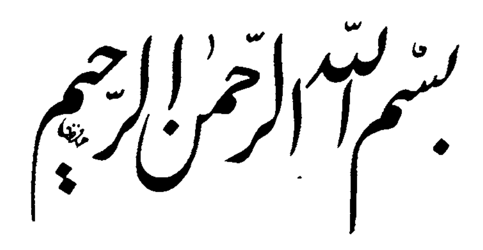
منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

الشيخ عبد الحميد كشك



نجيب محفوظ





حقوق الطبع محفوظة للناشر

كتاب المختار
أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩

٣ حارة الجمل - ميدان السيدة زينب - القاهرة - تليفون وفاكس ٣٩٢٢١٥١

الإهداء

أهدى كتابى هذا إلى الذين ينشدون الحق ولا يبغون عنه حولا ولا يبتغون إلى غيره سبيلا إلى الذين قال الله لهم : ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها** ﴾ .

وقال لهم : ﴿ **فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾ .

وقال لهم : ﴿ **قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدّى إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون** ﴾ .

اهدى كتابى هذا إلى الذين لا يرضون بالحق بديلا ودعوا الله قائلين : « **اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا إتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه** » .

إلى الذين وقفوا كثيرا عند قوله تعالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا** ﴾ .

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا** ﴾ .

أهدى كتابى هذا إلى الذين تأملوا قوله تعالى : ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ .

أقول لهؤلاء وأولئك لقد قطع الله المعاذير على العباد عندما أرسل رسلا وأنزل كتبا وزود الإنسان بالعقل الذى فضله به على كثير مما خلق تفضيلا . قال تعالى : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ **ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا**

فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا : بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾** .

فاللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك قد أرسلت إلينا رسلا وأنزلت إلينا كتبا وخلقت لنا عقلا كما نشهدك أن نبيك محمداً صلوات ربى وسلامه عليه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة ومحا الظلمة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته ورسولا عن قومه .

عبد الحميد كشك

مقدمة الكتاب

ما من يوم ينشق فجره إلا ويزيدنا الله بالإسلام يقينا ذلك لأنه دين الله والله هو الحق المبين : ﴿ **فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ .

﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ وقد أكمل الله دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام دينا فإذا كان الله أكمل دينه فدين الله لا ينقص أبدا وقد أتم نعمته فهى ليست فى حاجة إلى زيادة أبداً ورضى لنا الإسلام دينا ﴿ **فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا** ﴾ .

﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ . ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ .

وقد تعلمنا من دروس التاريخ وأحداث الأيام أن هذا الدين العظيم وهو الإسلام يزداد شموخا ورسوخا وأصالة فهو كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها يزداد على الأيام رسوخاً أشد من الجبال الراسيات والرواسى الشم فكلما ادلهمت الخطوب واحتدمت الأحداث واشتدت الإحن وعصفت المحن فإنها لا تنال من الإسلام شيئا بل إنه يتألق ويطاول السماء ويزاحم الجوزاء ذلك لأن الله العلى القدير تعهد بحفظه : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ . ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ .

﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾ .

﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** ﴾ . ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ .

وكم بغت قوى على الإسلام وجارت ثم زالت واندحرت ورد الله كيدها فى نحورها وتلك عقبى التعدى .

لقد لاقى صاحب الرسالة العصماء وأستاذ الإنسانية الأكبر وقائد المسلمين الأعظم محمد ﷺ كما لاقى أصحابه رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم من رافعى لواء التوحيد لاقوا من الحرب الضروس ما يعجز عنه البيان . لقد وقف لهم المشركون فى مكة كما تحركت جحافلهم إلى المدينة كما وقف لهم اليهود فى بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وفى خيبر كما وقف لهم الرومان فى تبوك واليرموك كما وقف لهم الصليبيون أيام صلاح الدين ومن قبله ومن بعده كما وقف لهم المغول حتى هزمهم الله فى موقعة عين جالوت وما زال وسيظل الإسلام فى حرب مع أعداء الحق وشرار الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولكن لا يصح إلا الصحيح : ﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ .

﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾ إن من الحقائق الثابتة التى لا مراء فيها أنه لن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل وكثيرا ما رددت من فوق المنبر هذه العبارة : (أنا لا أخشى على الإسلام من أعدائه إنما أخشى عليه من أدعيائه) ولقد طالعتنا فى القديم والحديث وستظل تطالعنا كتب وأفلام وقصص تتعرض لمقدسات الإسلام ولكن لن ينالوا من الإسلام شيئا وإننى أقول بصراحة صريحة لو اجتمع أهل الأرض جميعا ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم وستبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

وأقول لرسول الله ﷺ هذه الأبيات التى قالها فيلسوف الإسلام محمد إقبال :

فكم زالت رياض من رباها   وكم بادت نخيل فى البوادى
ولكن نخلة الإسلام تنمو   على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الإسلام باق   بقاء الشمس والسبع الشداد

وقد أثبت الله تعالى أن الزبد يذهب جفاء وأن ما ينفع الناس فسيظل باقيا فى الأرض قال تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماءا فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ .

وبين أيدينا كتاب (أولاد حارتنا) للكاتب نجيب محفوظ .

وهذا الكتاب قصة رمزية لا تختفى فيها الرموز إلا خلف غلالة رقيقة من الواقع الاجتماعى .

وخطورة هذا الكتاب التى تدمر وتضل عن سواء السبيل تكمن فى أنها تتعرض لقضايا دينية مقدسة كما أن كاتب هذه الرواية تعرض لأشخاص الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته من آدم إلى خاتم الأنبياء محمد ﷺ بل لقد جعل فى هذه الرواية شخصا يمثل الله عز وجل ولله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

كما أن صاحب هذا الكتاب قد بلغ من جرأته أنه صور الله جل جلاله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام كما صور الحقيقة الإيمانية على غير ما آمن على ذلك المؤمنون وسوف نتعرض لهذا الكتاب بالرد الإسلامى الصحيح حتى لا تزل أقدام ولا تتعثر أقلام وحتى لا ينفلت خيال الكاتبين وسنعرض لهذا الكتاب بأسلوب موضوعى علمى وهذا شرطى على نفسى وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب وعلى الله فليتوكل المؤمنون وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وحسبنا ما قاله الله لرسوله : ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكلْ عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ والله تعالى من وراء القصد فاللهم إنا نسألك ونتوجه إليك أن تجعلنا من عبادك الذين قلت فيهم : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمناربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد** ﴾ .

عبد الحميد كشك

الفصل الأول

خطورة هذا الكتاب

تكمن خطورة هذا الكتاب الذى نال صاحبه جائزة نوبل ١٩٨٨ وقامت له الدنيا ولم تقعد وأحدث ضجيجا وعجيجا من قبل الجائزة ومن بعدها ذلك لأنه احتوى على قضايا كثيرة تعرضت للمقدسات الإسلامية مما أثار ردود فعل عنيفة كان أول هذه الخطورة أن هذا الكتاب تعرض أولا :

١ - لشئون الدين تعرضا لا يليق بالله ورسله فقد جعل فيها رموزا لله وصوّر أنبيائه فى رموز أخرى . وكذلك رمز للرسالات السماوية وصور حقيقة الإيمان التى نؤمن بها على غير وجهها الصحيح .

٢ - كما أن هذه القصة جعلت من الشيوعية الماركسية والاشتراكية العلمية بديلا للدين الذى أنزله الله والوحى الذى بعث به أنبياءه عليهم السلام ليسعدوا به الناس فى الدنيا والآخرة والذى قال الله تعالى فيه : **﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ . ﴿ وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾** .

٣ - كذلك جعل من الاشتراكية العلمية بديلا للألوهية وأن العلم الدنيوى المادى بديلا للدين بل هو الذى سيحل مشاكل العالم .

وقد رأى فى هذه القصة أن الدين قد أصابه البلى وقد خارت قواه . ومما هو جدير بالذكر أن هذه القصة قد بدأ نشرها مسلسلة فى الأهرام سنة ١٩٥٩ .

وقد ثارت ثورة الأزهر على هذه القصة وبين وجه الافتراء فيها على الإسلام وأبدى الرأى فى ذلك صريحا واضحا فما كان من رئيس تحرير الأهرام وقتئذ محمد حسنين هيكل إلا أن أنبرى لثورة علماء الأزهر على هذا الكتاب وأبدى احتجاجه الشديد اللهجة على رد

العلماء وشجع الأستاذ نجيب محفوظ على مواصلة نشر هذه القصة ولم يعبأ بما أبداه علماء الأزهر من غضبة لله تعالى ودفاع عن شرع رسوله الكريم ﷺ فاستمر نشر هذه القصة فى تلك الظروف القائمة السواد .

ولم تظهر هذه القصة فى كتاب مكتمل فى مصر ولكنها صدرت فى بيروت عن دار الآداب سنة ١٩٦٧ وتذكر بعض الآراء أن الناشر قد حذف منها بعض العبارات مما يدل على أنها كانت مليئة بالسموم الناقعات مفعمة بما يندى له جبين العقيدة حياء أو خجلا .
ومما هو معلوم الثبوت أن هذه القصة ترجمت إلى الانجليزية وصدرت سنة ١٩٨١ عن دار هاينهان وقال المترجم (فيليب استيوارت) فى مقدمته وكذلك الناشر على الغلاف أنها أكمل طبعة لهذه الرواية .

٤ – هذه القصة تلقفها أصحاب الدراسات الأدبية العربية من أجانب ومستشرقين ومستغربين بل وخصوها بجانب متميز من دراساتهم لأدب نجيب محفوظ حتى لقد بلغ من اهتمامهم بهذه القصة أنه لا تكاد تخلو ترجمة لإحدى قصصه إلى الانجليزية من الحديث عن هذه القصة (أولاد حارتنا) فى المقدمة ومناقشة لقضاياها الفلسفية (الجريئة) التى أثارتها .

٥ – ولا ينسين أحدٌ أن هذه القصة بالذات كانت على رأس الحيثيات التى منحت كاتبها هذه الجائزة (جائزة نوبل) وذلك لأنهم اعتبروها قصة غير عادية وقد صرحوا بذلك كما جاء فى الخطاب الذى ألقاه سكرتير لجنة الجائزة فى حفل التسليم باستوكهولم والذى أشار فى هذا الخطاب وهو يمدح المؤلف ويطريه مشيرا إلى ما تضمنته القصة من (موت الإله) وهكذا يتبين لنا ما جبلت عليه نفوس هؤلاء من حقد دفين على الإسلام فقد تحركت عقارب البغضاء وزحفت ثعابين الحقد فى الصدور لتوجه إلى عقيدة المسلمين سهما طائشا عندما زعموا كذبا وبهتانا أن الدين قد استنفد وخوت قواه وخارت عزائمه وأن البديل للدين هو الاشتراكية العلمية وسبحان الله رب العالمين الذى يقول : ﴿ **ولا تدع مع الله إلهاآخرلا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ .

(أ) أضـــواء كاشفـــة

وقبل أن نتعرض لأحداث هذه القصة بالرد ودحض ما جاء بها من شبهات قبل ذلك نرى أن من الأهمية القصوى أن يعلم الناس أن الاعلام سلاح ذو حدين فهو إما أن يبنى فيرتفع البناء إلى عنان السماء إن سار على الضراط السوى ولم يتنكب جادة الطريق قال بعضهم : (أعطنى شاشة أبنى بها شعبا) هذا فى البناء وقد يكون الاعلام سلاحا هداما إذا حاد عن الطريق الصحيح وانحرف عن سواء السبيل . كان كارل ماركس يقول : (لأنسين

الناس الله بالمسرح) هذا القول قاله قبل اختراع وسائل الاعلام الحديثة التى امتلأ بها الأثير عبر الأجواء والكتاب جزء من الاعلام له دوره الخطير فى الهدم والبناء لذا يحسن بنا أن نسجل هذه السطور المستفيضة عن وسائل الاعلام التى كان لها دور خطير فى اعلان الحرب على الإسلام والمسلمين فإننا إذا رجعنا إلى الوراء أيام الاحتلال البريطانى الذى خيم ظله على أرض مصر الإسلامية وما كان لذلك من فساد وإفساد لرأينا عجبا .

ولنبدأ القصة من تاريخ محمد على وأبنائه .

كان محمد على وأبناؤه حتى الخديو إسماعيل عند حسن ظن فرنسا بهم فأسسوا للنفوذ الفرنسى فى مصر وقاموا بعملية التغريب على النحو المطلوب وقال إسماعيل قولته المشهورة : (أريد أن أجعل مصر قطعة من أوربا) حتى جاء توفيق فتغير الربان الذى يمسك بالدفة ولكن لم يتغير الاتجاه بدأ النفوذ الانجليزى فى عهده يتدخل فى شئون مصر من بعيد ثم انتهى الأمر باحتلال الانجليز لمصر عام ١٩٨٢ م .

وكانت الخطة الجديدة بطبيعة الحال هى التغريب على الطريقة الانجليزية بدلا من الفرنسية ، وإن كان العجيب أن انجلترا لم تتعرض قط للمؤسسات الصليبية الفرنسية كالمدارس والمعاهد التبشيرية وما شاكلها رغم حرصها على طرد النفوذ الفرنسى السياسى ذلك أن دول أوربا الصليبية قد تتنافس فيما بينها على النفوذ والمغانم تنافسا عنيفا يؤدى إلى الحرب بين الحين والحين ولكنها إزاء الإسلام تتساند كلها ويحمى بعضها مصالح بعض .

يقول الأستاذ محمد قطب :

(أهم ما حدث من التغيير هو الأسلوب الانجليزى البارد فى تحويل الناس عن الإسلام ذلك الأسلوب الذى يتفق مع مثلهم المشهور Alow but Sure بطىء ولكنه أكيد المفعول .

كان فى نابليون حماقة الفرنسيين يغضب فيضرب فيؤدى الضرب إلى مزيد من اليقظة ومزيد من المقاومة كما حدث حين ضرب الأزهر بالقنابل وجعله اصطبلا للخيل .

أما الانجليز فهم لا يقلون فى صليبيتهم عن الفرنسيين ولا يقلون فى مقتهم للأزهر عن غيرهم من الصليبيين ولكن طريقتهم فى التغيير تختلف فى الوسائل وإن لم تختلف فى الأهداف فتأتى بنتائج مختلفة فى نهاية المطاف .

بطىء ولكنه أكيد المفعول . يعمل عمله دون أن يتيقظ الناس للتغيير .

يقول اللورد كرومر أول (معتمد بريطانى) فى مصر : (إن مهمة الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد [يقصد مصر] هو تثبيت دعائم الحضارة

المسيحية إلى أقصى حد ممكن بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس . وإن كان من الواجب – منعا من إثارة الشكوك – ألا يعمل على تنصير المسلمين وأن يرعى من منصبه الرسمى المظاهر الزائفة للدين الإسلامى كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك) .

وحين بدأ حكمه فى مصر شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيق عليهم ! فلما أرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إليه ليرد عليها ، جمع المبشرين وقال لهم : هل تتصورون أننى يمكن أن أضيق عليكم ؟! ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع ، وتخطفون الرجال لتنصيرهم فتستفزون المسلمين فيزدادون تمسكا بدينهم ولكنى اتفقت مع شاب تخرج قريبا فى كلية اللاهوت بلندن ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم ! هكذا يكون العمل البطىء الأكيد المفعول ! سياسة تعليمية تحقق جميع أهداف المبشرين – أى جميع الأهداف الصليبية – على مهل ودون ضجة تثير الانتباه (منعا من إثارة الشكوك) .

تفيد الحقائق التاريخية التى لا تحتمل الجدل أو الانكار أن المستر دنلوب القسيس الذى عينه كرومر مستشارا لوزارة المعارف تولى مهام منصبه وكان فى يد (سعادة المستشار) – كما كانوا يسمونه – **السلطة الفعلية الكاملة فى وزارة المعارف المصرية الإسلامية .**

وحين يكون القسيس على رأس السلطة فى وزارة التعليم فما الذى يتوقع أن يكون من أمر التعليم ؟

جاء دنلوب ليضرب الأزهر – موطن الخطر على كنيسة المسيح – ولكن بغير حماقة نابليون ، وقد علم أن ضربه بتلك الحماقة كان سببا فى استثارة المسلمين .

ترك دنلوب الأزهر على ما هو عليه لم يتعرض له على الاطلاق ولكنه على الأسلوب البطىء الأكيد المفعول فتح مدارس جديدة تعلم العلوم الدنيوية ولا تعلم الدين إلا تعليما هامشيا هو فى ذاته كما سيجىء جزء من خطة إخراج المسلمين من الإسلام .

وقال الناس فى بادىء الأمر – على البديهة واستيحاء من البقية الباقية من الحس الإسلامى فى قلوبهم – أن هذه المدارس مدارس كفر لأنها لا تعلم القرآن إذ كانت المدارس الأولية التى تمهد لدخول الأزهر تعلم القرآن كله فى سنوات الدراسة الأربع .

ولكن مدارس الكفر هذه أصبحت بتدبير دنلوب – هى الوسيلة للرزق من ناحية وللمكانة الاجتماعية من ناحية أخرى .

لقد كان المتخرج من هذه المدارس – بعد أربع سنوات فقط من الدراسة – يعين فور تخرجه فى دواوين الحكومة براتب يبلغ أربعة جنيهات كاملة كانت فى ذلك الوقت ثروة

ضخمة إذ كانت الأسعار زهيدة إلى حد لا يتصور بالنسبة للأسعار الحالية وكانت القوة الشرائية للجنيه المصرى عظيمة بحيث كانت الجنيهات الأربعة تكفى للحياة الكريمة فى العاصمة ذاتها. ويستطيع صاحبها أن يتزوج ويكون أسرة ويتبقى معه بعد ذلك ما يدخره ليشترى به الأطيان فى الريف .

أما خريج الأزهر الذى يقضى فى الدراسة عشرين سنة من عمره فى بعض الأحيان فلا يجد عملا وإن وجد عملا فى إقامة الشعائر فى المسجد فبمائة وعشرين قرشا تكفى للحياة نعم ولكنها حياة ذليلة ضئيلة بالنسبة لخريج المدرسة الابتدائية الذى يعمل فى الديوان .

وحين يكون الوضع على هذا النحو ويكون لك ولد تريد تعليمه فإلى أين تذهب به ؟

تذهب به إلى الأزهر ليقضى زهرة شبابه هناك ثم يتخرج ليبقى عاطلا أو يعمل مقيم شعائر فى المسجد بهذا المرتب الضئيل ؟

أم تذهب به إلى مدارس دنلوب فيتخرج بعد أربع سنوات ليكون من المشار إليهم فى المجتمع من موظفى الحكومة الذين يتودد إليهم البقال والجزار وصاحب المسكن ويحتلون المكانة المرموقة فى كل مكان .

لقد كان الانتساب إلى الأزهر فيما مضى شرفا تتسابق إليه الأسر وكانت الأسرة التى تحوى ضمن أفرادها عالما أى واحداً من خريجى الأزهر تصبح محط الأنظار سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم وينظر إليها الناس بالتبجيل والاكبار لأن العلم فى حس الناس هو علم الدين الذى هو خير الدنيا والآخرة ولأن وظائف الدولة يحتل معظمها خريجو الأزهر فينالون فى المجتمع الإسلامى كل وسائل الرفعة والصعود .

وبصرف النظر عما كان فى الأزهر من تخلف عن المنهج الإسلامى الصحيح الذى كانت تمثله جامعات الأندلس بل كان يمثله الأزهر نفسه فى عصور الازدهار من الجمع بين علوم الدين والدنيا وإعداد الناس لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى فقد كان مرتبطا فى حس الناس بالإسلام وكان رمزا حيا له فى ضمائرهم ومن ثم كان اعتزازهم به وتوجههم إليه وكانت لخريجيه تلك المكانة فى المجتمع الإسلامى فأما الآن – فى عهد دنلوب – فقد تغير الحال تماما .

لم يعد يذهب إلى الأزهر إلا الفقراء الذين يعجزون عن دفع مصروفات المدارس الحديثة . وفى الوقت ذاته ينالون جزاء فقرهم ضياعاً فى المجتمع وهوانا فيه .

وقد تبعث بعض الأسر العريقة واحداً من أبنائها للأزهر من أجل البركة وابتغاء المكانة فى الريف خاصة – كما صنعت أسرة مصطفى عبد الرازق مثلا – ولكن هؤلاء الأفراد القلائل

من خريجى الأزهر من الأسر العريقة والثرية لم يكونوا لينفوا الصورة العامة التى صار الأزهر إليها وهى أنه مأوى الفقراء العاجزين عن دفع تكاليف التعليم الحديث العاجزين فى الوقت ذاته عن نيل المكانة فى المجتمع الحديث .

أما خريجو المدارس الجديدة فأولئك هم الطبقة الجديدة فى المجتمع الطبقة الصاعدة الذين يلوون ألسنتهم برطانة المستعمر ويفاخرون بها ويحتضنهم المستعمر من جانبه ويؤدى عن طريقهم الدور المطلوب البطىء الخطوات الأكيد المفعول .

من هم أولئك الخريجون ؟ ما ثقافتهم ؟ ما وجهتهم ؟ كيف نفذ بهم دنلوب أهدافه الصليبية التى انتدبه من أجلها كرومر ومنحه من أجلها ما منحه من سلطان ؟ فلننظر فى المناهج التى وضعها دنلوب فى مدارسه ولنتخير من بينها أشدها خطرا وأبعدها أثرا مناهج اللغة العربية ومناهج الدين ومناهج التاريخ فأما اللغة العربية – لغة القرآن الذى يحترق قلب الصليبية حقدا عليه – فقد خطط دنلوب لقتلها والقضاء عليها .

فقد كان الراتب الذى يتقاضاه المدرسون من أصحاب المؤهلات العليا **اثنى عشر جنيها** إلا مدرس اللغة العربية وحده يتقاضى **أربعة جنيهات** وكان لهذا الوضع انعكاساته ولا شك سواء فى داخل المدرسة أو فى المجتمع على اتساعه .

فأما فى داخل المدرسة فلم يعد مدرس اللغة العربية هو المقدم بل أصبح فى ذيل القافلة ! يتقدمه المدرسون جميعا حتى ذوو المؤهلات المتوسطة بل يتقدمه – فى الرواتب – فراش المدرسة أحيانا إذا كان ذا أقدمية طويلة !!

ومن ثم لم تعد له كلمة فى المدرسة فلا هو يستشار فى شئونها ولا هو يشارك فى شىء من ادارتها ولم يعد له كذلك عند التلاميذ احترام ولولا العصا التى يحملها ويؤدب بها التلاميذ ما وقره أحد ولا عمل له حساب ! بينما يحظى مدرس اللغة الانجليزية بالذات بأكبر قدر من التوقير والاحترام .

أما فى المجتمع الواسع فهو أشد ضياعا منه فى المدرسة! فالناس جميعا يعلمون وضعه المالى ويعلمون أنه فى ذيل القافلة وأن المدرسين الآخرين مقدمون عليه فى الراتب وفى الاحترام سواء !

وإذا كانت العصا التى يحملها تخيف منه تلاميذه فيلتزمون بالأدب فى درسه فإن المجتمع فى الخارج لا يخشى عصاه تلك بل يتخذها مادة للتندر والهزء والاستخفاف بينما العصا التى يحملها زميله مدرس اللغة الانجليزية توفر له الاحترام داخل المدرسة ولا تعيبه فى المجتمع بشىء ، إن لم توفر له المهابة والتقدير والتعظيم .

وهكذا ينحدر وضع مدرس اللغة العربية فى المجتمع بقدر ما ينحدر راتبه ويصبح مادة دائمة للسخرية يتحدث الناس عن جهله وتخلفه وضيق أفقه وفقره وانحطاط مستواه الاجتماعى والفكرى .

وأشد ما يعاب عليه ويزدرى من أجله أنه لا يعرف لغة أجنبية .

وحين يصبح مدرس اللغة العربية فى هذا الوضع المهين الذى لا يبعث على الاحترام فإن وضعه يؤثر حتما على المادة التى يدرسها وقد كان هذا هو الهدف المقصود من وراء ذلك التدبير الخبيث .

لقد انتقل الوضع المهين المزرى من المدرس إلى المادة وصارت اللغة العربية موضع الازدراء والتحقير والنفور .. فالطلاب يشكون من صعوبة اللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة ونصوصا وأدبا وقد ظلوا يعايشونها ثلاثة عشر قرنا قبل ذلك بلا شكوى وكأنما اكتشفوا فجأة تلك الصعوبة التى تصرفهم عنها صرفا وقد بدأوا يوازنون بينها وبين اللغات الأجنبية – وبالذات الانجليزية – ليجدوا أن اللغات الأجنبية أيسر وبالذات الانجليزية فى كل شىء فهى لغات غير معربة لا تحير القارىء بين الرفع والنصب والجر ونحوها سهل ، وهجاؤها سهل وتراكيبها غير معقدة والخلاصة التى يصلون إليها أن العناية باللغة العربية غير واجبة بل ربما كانت غير جائزة بينما العناية باللغة الأجنبية – وبالذات الانجليزية – واجبة كل الوجوب ! وأصبح الطالب الذى وجه هذا التوجيه وطبع ذلك الطبع يخطىء فى النحو العربى فينصب الفاعل ويرفع المفعول بلا تحرج ولا مبالاة ، فإذا صحح له خطؤه أو نبه إليه هز كتفيه مستنكفا وقال : يا عم ! دعك من (الفقهنة) هل أنا (فقى) بينما يحترز كل الاحتراز أن يخطىء فى نطق كلمة من لغة أجنبية أو فى تصريف فعل من أفعالها أو فى صياغة تركيب من تراكيبها وإذا وقع منه الخطأ صار سخرية المجلس كله ورمى بالجهل المعيب والكتاب يشكون من جمود اللغة وعدم مرونتها وعدم طواعيتها وعدم قدرتها على نقل المعانى (وظلال المعانى) كما تستطيع ذلك اللغات الأجنبية – وبالذات الانجليزية – فى طلاقة ويسر ورشاقة وعمق وكأنما الكتاب لم يصحبوا هذه اللغة ثلاثة عشر قرنا من قبل ذلك وعبرت عن خلجات نفوسهم كلها بغير عجز ! وكأنما اكتشفوا قصورها فجأة وكانوا غافلين عنه .. فانصرفوا إلى دراسة آداب اللغات الأخرى وهجروا الأدب العربى وأصبح المتنبى والبحترى أو علقمة وامرؤ القيس أسماء سخيفة ممجوجة تصم صاحبها لتوه بالتخلف العقلى والحضارى !

وأصبح دانتى وشكسبير ووردزورث وبايرون واندريه جيد وأناتول فرانس وفيكتور هوجو هى التى تتردد على ألسنة المثقفين للدلالة على أنهم مثقفون ولو لم يكن لهم من حصيلتها إلا حفظ الأسماء !

والعلماء أو بالأحرى مترجمو العلوم يشكون من أن اللغة العربية لغة غير علمية !!

إن صلحت للأدب – أى الأدب الردىء – فإنها لا تصلح للعلم جامدة معقدة محدودة متخلفة ولابد من اتخاذ اللغات الأجنبية وبالذات الانجليزية لدراسة العلوم ولابد أن نعلمها لأبنائنا فى المدارس إذا أردنا أن يكون لدينا فى يوم من الأيام علماء !

وكأنما لم يكن لهذه اللغة أصل بالعلم من قبل – فى عصور الازدهار – بل كأنها لم تكن فى وقت من الأوقات هى لغة العلم ، يوم قال روجر بيكون : (من أراد أن يتعلم فليتعلم العربية فهى لغة العلم) .

وهكذا صوبت السهام إلى اللغة العربية من كل جانب ولم تعد شيئا يعتز به المسلم العربى كما كان يعتز طيلة ثلاثة عشر قرنا من قبل بل أصبحت معرة يسارع الإنسان إلى الانسلاخ منها ويمعن فى العيب فيها والانتقاد عليها لكى يصبح من المثقفين ولم يكن بد من أن ينتقل هذا الوضع المزرى من اللغة ذاتها إلى ما هو مكتوب بتلك اللغة وكان هذا هو الهدف الأخير المطلوب من ذلك التخطيط الخبيث .

فالمكتوب باللغة العربية هو تراث الأمة كله وعلى رأسه القرآن !!

والمطلوب هو صرف الأمة عن تراثها كله وعلى رأسه القرآن !!

وانصرف الناس بالفعل عن قرآنهم وتراثهم بالتدريج فلم يعودوا يشعرون أنه هو (الزاد) إنما الزاد هو المكتوب بلغة السادة الغالبين ، أما درس الدين فى مناهج دنلوب فلا يقل سوءا إن لم يكن أسوأ .

فمدرس الدين هو نفسه مدرس اللغة العربية الذى وضعه دنلوب فى هذا الوضع المزرى المهين ولكن يزيد عليه أن أكبر المدرسين سنا هو الذى يوكل إليه تدريس الدين بحجة إراحته من تعب تصحيح الدفاتر وحملها من المدرسة إلى البيت وبالعكس ويزيد على ذلك أيضا أن حصة الدين توضع فى نهاية الجدول المدرسى فهى – فى أغلب الأحيان – السابعة يوم السبت أو الخامسة يوم الخميس أو السادسة فى بقية الأيام !

وفحوى ذلك أن التلاميذ يتلقون درس الدين وهم فى حالة الضجر والاعياء فى نهاية اليوم المدرسى ، وهم ينتظرون دق الجرس لينفلتوا إلى الشوارع وإلى البيوت ويتلقونه من مدرس عجوز فان يسعل ويتفل ويتحرك فى تراخ ظاهر فيقترن درس الدين فى نفوسهم بالعجز والفناء والضجر والضيق والرغبة فى الانفلات !

فوق أنه درس ميت فى طريقة تدريسه فهو مجموعة من النصوص تلقى لتحفظ حفظا وتستظهر بلا حركة ولا حياة ولا روح !

ولكى تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من درس الدين ثم من الدين ذاته فى النهاية كتنفيرهم من اللغة العربية ومما هو مكتوب بها فاعلم أن درس الدين المسيحى فى المدارس التبشيرية حتى التى تزعم أنها (علمانية) لا علاقة لها بالدين والتى يؤمها التلاميذ (المسلمون) ويحضرون درس الدين يقام فى الصباح الباكر والتلاميذ قادمون بنشاطهم كله وبشرهم كله ويقوم بتدريسه أشب المدرسين والمدرسات وأحبهم إلى قلوب التلاميذ ولا يقام فى فصل الدراسة حتى لا تكون له رتابة الدروس اليومية العادية إنما يقام فى كنيسة المدرسة ويقام فى وسط الأناشيد التى تتجاوب بها حناجر التلاميذ وقلوبهم فيقترن درس الدين فى نفوسهم بالفرحة والبهجة والنشاط والحركة والاستبشار بالحياة . أضف إلى ذلك أن درس الدين فى منهج دنلوب هو فى الحقيقة رقعة فى الثوب الدراسى غير متجانسة معه إن لم نقل متنافرة معه فهو ثوب علمانى بحت لا علاقة له بالدين على الاطلاق على الطريقة الغربية اللادينية التى فصلت الدين عن العلم وفصلته عن الحياة فإذا جاء درس الدين ذكر الله ورسوله وذكر الدين والآخرة ولكنه حتى فى أفضل أحواله صوت ضعيف لا يكاد صداه يبلغ الآذان فضلا عن القلوب فإذا كان على حالته التى يلقى بها بالفعل نصوصا لا تشرح ولا تبث فيها الحياة بل تستظهر استظهارا بغير فهم ويقوم بتدريسها ذلك العجوز الفانى الضعيف فقد خمد الصوت تماما ولم يعد له أثر بل صار له الأثر العكسى وهو التنفير من الدين وذلك هو المطلوب ولكى تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من الدين فلتعلم أن الدين فى المدارس التبشيرية التى يؤمها التلاميذ المسلمون لا يقتصر على ذلك الدرس مع حيويته التى أشرنا إليها وإحاطته بالفرح والنشاط والبهجة بل هو (روح) تلقى إلى التلاميذ فى كل مناسبة فى أثناء الدروس وأثناء اللعب وأثناء الوقوف فى الصف وأثناء الانصراف إلى الفصول أو الانصراف من المدرسة ومن ثم يكون ذا أثر عميق فى نفوس التلاميذ ولا يكون درس الدين المتخصص رقعة فى الثوب متنافرة معه وغير متناسقة بل قطعة طبيعية من نسيج الثوب متناسقة معه ومزينة له .

وزيادة فى النكاية لدرس الدين فقد وضعه المنهج الدنلوبى ضمن (المواد الإضافية) التى تحذف فى جدول الصيف المختصر الذى يقتصر على (المواد الرئيسية) فيحذف منه الدين والرسم والاشغال اليدوية والألعاب الرياضية وهكذا يصبح فى حس التلاميذ مادة (هامشية) ليس لها اعتبار . وبهذا التدبير البطىء الأكيد المفعول تخرجت أجيال وراء أجيال لا تحس بأى توقير نحو الدين .

أما (ثالثة الأثافى) فهى درس التاريخ بشقيه الإسلامى والأوربى فأما منهج التاريخ

الإسلامى فيبدأ كالمعتاد بدراسة أحوال الجاهلية تمهيدا لدراسة البعثة النبوية وصدر الإسلام .

وفى دراسة الجاهلية ترد تلك الجملة (الشهيرة) : كان العرب فى الجاهلية يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات السلب والنهب فجاء الإسلام فنهاهم عن ذلك . وتبدو هذه الجملة بريئة فى ظاهرها ولكنها خبيثة كل الخبث فى واقعها فأما البراءة الظاهرية فمصدرها أن العرب فى الجاهلية كانوا حقيقة على الصورة التى تصفها هذه العبارة وأن الإسلام قد أزال تلك الصورة بالفعل وأما الخبث فمنشؤه أن العبارة لم تتحدث عن (جوهر) الجاهلية الذى جاء الإسلام لمحوه وتغييره وإنما تحدثت عن (مظاهر) الجاهلية العربية خاصة التى قد لا توجد فى الجاهليات الأخرى بينما الإسلام لم يتنزل لمحو مظاهر الجاهلية العربية وإنما لالغاء جوهر الجاهلية كله وابدال الإسلام به .

بعبارة أخرى حين نحصر مهمة الإسلام فى محو هذه المظاهر وحدها فماذا يكون قد بقى من مهام الإسلام فى الوقت الحاضر ؟ حين ينظر التلاميذ حولهم فلا يجدون أصناما معبودة فقد سقط إذن هذا (البند) من مهام الإسلام .

وحين لا يجدون البنات تؤد بل يجدون على العكس من ذلك بنات مدللات أشد التدليل فقد سقط هذا البند كذلك من مهام الإسلام . وحين يجدون بعض الناس يشربون الخمر ويلعبون الميسر فقد دعا الإسلام دعوته (الأخلاقية) فاستجاب لها من استجاب ووقع غيرهم فى (المعاصى) ولا حيلة . وأما غارات السلب والنهب فتوجد اليوم حكومات نظامية ذات قوات مخصصة للأمن تحول دون وقوع مثل هذه الغارات وتعاقب من تسول له نفسه اقترافها فماذا بقى إذن من مهام يمكن للإسلام أن يؤديها فى العالم الحديث ؟ إن الإسلام بهذه الصورة يكون قد استنفد أغراضه وهذا هو الايحاء المطلوب منذ أول درس من دروس التاريخ الإسلامى إنه جاء لزمن معين كان يتسع له ويحتاج إليه ولكن لم تعد هناك حاجة إليه فى الوقت الحاضر فهو جزء من التاريخ الغابر ولا زيادة .

وكان الأمر يختلف اختلافا واسعا بطبيعة الحال لو ذكرت الحقيقة الجوهرية التى جاء من أجلها (الدين) الدين كله من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ وهى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده بلا شريك ، العبادة المتمثلة فى الاعتقاد بوحدانية الله وتقديم الشعائر التعبدية إليه وحده وتحكيم شريعته فى كل شأن من شئون الحياة مع الخصيصة التى اختصت بها الرسالة الأخيرة المنزلة على محمد ﷺ وهى أنها رسالة للبشرية كافة منذ مبعثه عليه السلام إلى قيام الساعة . كم تتغير الصورة فى حس التلاميذ حيث تدرس لهم تلك الحقيقة الجوهرية التى جاء من أجلها (الدين) وتلك الخصيصة التى اختصت بها الرسالة الأخيرة . إنه تغير يبلغ ما بين السماء والأرض . فلا هذا الدين استنفد أغراضه فى الماضى ولا استنفدها بالنسبة

للحاضر ولا استنفدها بالنسبة للمستقبل ولا يستنفدها أبدا طالما هناك مشرك واحد فى الأرض يعتقد بوجود آلهة غير الله أو يقدم الشعائر التعبدية لأحد غير الله (أو مع الله) أو يحكم شريعة غير شريعة الله . بل حتى لو تصورنا جدلا أن أهل الأرض آمنوا كلهم بالله (وهو فرض لا يتحقق أبدا لأنه يخالف ما قدر الله) فلن يستنفد هذا الدين أغراضه لأن مهمته عندئذ تكون المحافظة على إيمان الناس بالتذكير بما أنزل الله تحقيقا للتوجيه الربانى : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ فكيف والأرض مليئة بكل أنواع الشرك سواء شرك الوثنية أو شرك الرسالات السماوية المحرفة لدى اليهود والنصارى أو شرك الاتباع المتمثل فى تحكيم الشرائع الجاهلية بدلا من شريعة الله ؟ بل كيف والعالم الإسلامى ذاته ومصر من بينه قد نحيت فيه الشريعة الربانية ووضعت بدلا منها قوانين الجاهلية أى مهمة للإسلام يؤديها اليوم أعظم من مهمة رد الناس عن هذا الشرك كله ودعوتهم إلى التوحيد ؟

ولكن هذا بالذات هو الذى يراد أن يبعد عن أذهان التلاميذ ، يراد منهم ألا يتذكروا أبداً أن مصر قد نحيت فيها الشريعة الإسلامية منذ دخلها الاحتلال الصليبى وصارت تحكمها القوانين الجاهلية لأن تذكر ذلك يترتب عليه أن يجاهد المسلمون فى مصر هذا الاحتلال جهادا دينيا لاخراج الصليبيين من بلاد الإسلام ، من أجل ذلك يشوه الدرس الأول ذلك التشويه حتى تنسى الأجيال المتخرجة فى (مدارس الكفر) أن الإسلام له مهمة يمكن أن يؤديها فى الوقت الحاضر ثم يدرس للتلاميذ عصر البعثة وصدر الإسلام بطريقة قد تكون وافية وإن كان لا يركز فيها على جوهر الجاهلية الذى جاء الإسلام لازالته وجوهر الإسلام الذى بعث الرسول ﷺ لبيانه للناس ودعوتهم إليه وتمكينه فى الأرض بالجهاد . ولكن الصورة المشرقة المتمثلة فى عصر البعثة وصدر الإسلام تطمس فجأة وتخبو لأن الذى يدرس للتلاميذ بعد ذلك هو (التاريخ السياسى) للإسلام أو بالأحرى هو التاريخ الذى يغلب عليه الانحراف . حقيقة أن خط الانحراف واقع تاريخى وخاصة فى الجانب السياسى من حياة المسلمين وأن هذا الانحراف بدأ مبكرا منذ العهد الأموى وأنه ارتكبت فيه فظائع من أجل الاستيلاء على الحكم أو استبقائه لا يرضى عنها الله ولا رسوله ولا تليق بالمسلمين ولكن التركيز على خط الانحراف وحده وإسقاط بقية الصورة هو تشويه متعمد للتاريخ الإسلامى لأمر يراد فلو أن الصورة أعطيت كاملة كما هى فى الحقيقة لأعطت إيحاء آخر مختلفا كل الاختلاف ، وقع الانحراف نعم فى الجانب السياسى خاصة ولكن لم ينته الإسلام من الوجود وبقى فى الواقع التاريخى للإسلام جوانب كثيرة من الإسلام مطبقة فى عالم الواقع وبقيت فيه أمجاد كثيرة جديرة بالتسجيل وجديرة باعتزاز المسلمين . ولكن الذى يراد من دراسة التاريخ الإسلامى فى المنهج الدنلوبى ليس هو إثارة اعتزاز المسلمين بتاريخهم بل هو على وجه التأكيد قتل هذا الاعتزاز . ومن أجل هذا الهدف تخفى الصفحة البيضاء كلها أو بالأحرى يخفى ما فى صفحة التاريخ الإسلامى من

بياض ويبرز الخط الأسود وحده على أنه هو التاريخ يخفى نشر العقيدة الصحيحة فى مساحة واسعة من الأرض تمتد من المحيط إلى المحيط وإخراج الناس فيها من الظلمات إلى النور وإجراء العدل الربانى المتمثل فى تطبيق الشريعة الربانية وتحقيق العدل خاصة بالنسبة لمن بقى على دينه فى تلك الرقعة الواسعة من الأرض مما لا مثيل له فى التاريخ البشرى كله ويقدم هذا كله فى عبارة موجزة مبهمة موهمة وهى امتداد الفتوح الإسلامية كأنما هى حركة توسع حربى لا هدف له إلا فسح الرقعة وبسط النفوذ .

ويخفى بقاء المجتمع الإسلامى فى عمومه فترة طويلة من الزمن نظيفا من الفاحشة آمنا على أعراضه ، آمنا على أنسابه وحيثما كانت الدولة قوية مبسوطة السلطان فهو آمن أيضا على دمائه وأمواله فى ظل شريعة الله . وتخفى الحركة الحضارية الإسلامية الضخمة بشقيها المعنوى المتعلق بالقيم الإنسانية العليا والمادى المتعلق بالعمارة المادية للأرض والأشكال التنظيمية للحياة كما يخفى بطبيعة الحال تفرد كلتا الحركتين بميزتها الإسلامية الخاصة المستمدة من المنهج الإسلامى وهى فسح المجال للنشاط البشرى فى جميع مجالاته الحيوية مع الالتزام بالمنهج الربانى الذى يجمع الروح والمادة ويجمع الدنيا والآخرة كلها فى نظام . وحين يخفى هذا كله فماذا يبقى ؟ يبقى إيحاءان خبيثان مقصودان :

أولهما : أن الإسلام لم يحكم إلا فترة قصيرة جدا فى عهد الخلفاء الراشدين ثم انتهى إلى غير رجعة .

والثانى : أن التاريخ الإسلامى بعد صدر الإسلام خال من كل القيم التى تقيم الحياة الإنسانية الصحيحة وأنه عبارة عن عمليات دموية من أجل السلطان . وبعد أن يفرغ التاريخ الإسلامى من محتواه الحقيقى على هذا النحو يوجه التلاميذ إلى أوربا . أوربا هى العلم – أوربا هى الحضارة – أوربا هى القيم – أوربا هى الديمقراطية – أوربا هى حقوق الإنسان– أوربا هى التقدم الصناعى – أوربا هى الصورة الصحيحة للوجود البشرى فى جميع المجالات . ويخفى عمداً فظائع الاستعمار الوحشية فى كل مكان دنسته أقدام المستعمرين وخاصة فى العالم الإسلامى وتخفى عمداً البواعث الصليبية للتحرك الأوربى نحو العالم الإسلامى ويخفى عمداً الفساد الخلقى الآخذ فى الانتشار يومئذ فى أوربا ويخفى عمداً غلبة الروح المادية على تلك الحضارة وانطماس الروح وهكذا يقدم التاريخ الإسلامى والأوربى كاذبا من شقيه كليهما وإن احتوى جانبا من الحق . ففى التاريخ الإسلامى يقدم الخط الأسود من الصفحة بتركيز فائق ويخفى ما فى بقية الصفحة من البياض وفى التاريخ الأوربى يقدم الخط الأبيض من الصفحة بتركيز فائق ويخفى ما فى بقية الصفحة من السواد ، وحين يقدم التاريخ بصورته الكاذبة هذه من شقيها فماذا تكون النتيجة؟ تكون تخريج أجيال متعاقبة من (المتعلمين) يجنحون تدريجيا إلى

الانسلاخ من الإسلام على أنه شيء قد استنفد أغراضه ولم تعد له مهمة يؤديها فى الوقت الحاضر بل على أنه شيء قد عاش أكثر مما ينبغى وكان ينبغى أن يندثر من زمان بعيد ويتجهون إلى أوربا على أنها مهبط الوحى ومنبع النور ومنتجع الصحة لمن يريد الاستشفاء من التخلف والرجعية .

وإذا كان هذا كله فى المدرسة الدنلوبية الابتدائية فالمدرسة الثانوية تحتوى هذه السموم كلها ولكن بجرعة أكبر فالطلاب فى المدارس الثانوية انضج بلا شك وأقدر على الاستيعاب وأجدر حين يتناولون جرعة السم أن يكون تأثرهم بها أشد من أجل ذلك يزاد فى تحقير مدرس اللغة العربية إلى جانب الدروس الأخرى عامة ودرس اللغة الانجليزية خاصة ويزاد من تحقير درس الدين ووضعه فى أقصى الزاوية الهامشية ويزاد فى إعطاء التفصيلات فى خط الانحراف التاريخى للمسلمين مع الاخفاء الكامل لكل بياض الصفحة ويزاد أخيرا وليس آخرا فى الجرعة الأوربية التى تصور أوربا على أنها القمة السامقة الفريدة فى تاريخ البشرية وتلوى أعناق الطلاب ليا إليها مع الاعجاب المبهور الذى لا يدع للإنسان الفرصة لالتقاط أنفاسه فإذا تم هذا كله جاءت (مدرسة المعلمين العليا) لتكمل التخطيط الدنلوبى الخبيث .

كانت هذه هى المكان الذى يتخرج فيه معلمو المواد كلها ما عدا اللغة العربية التى يتخرج معلموها فى الأزهر وحده أولا ثم فيه وفى (دار العلوم العليا) فيما بعد وكانت فى الوقت ذاته هى (معمل التفريخ) للمخطط كله الذى يضمن دوام التأثير وعمق التأثير على أسلوب المخطط كله البطىء الخطى الأكيد المفعول .

كان طلابها يختارون بادىء ذى بدء من بين خريجى المدارس الثانوية الذين حقنوا بالسم الخبيث على جرعتين متواليتين طويلتين أحداها فى أثناء التعليم الابتدائى والثانية فى أثناء التعليم الثانوى أى خلال تسع سنوات متواليات . وكانوا يختارون ثانيا على أسس معينة وضعها وينفذها مدير المدرسة ومعلموها وكلهم من الانجليز . ولك أن تتوقع نوع (العينة) المطلوبة ونوع (المؤهلات) المطلوبة وبطبيعة الحال لن تكون الاستقامة على الإسلام **ولا التقوى والصلاح بين تلك المؤهلات وأيا كانت نوعية الداخل وقت دخوله فالخارج (مضمون) مضمون النوعية ومضمون المؤهلات . هنا فى (معمل التفريخ) يتم كل شيء بعناية** فائقة لأنه مستقبل أمة كاملة يصاغ . كانت المدرسة تقع فى حى (المنيرة) على بعد دقائق معدودة من ثكنات جيش الاحتلال فى قصر النيل وكان الأساتذة الانجليز لا يدخلون على طلابهم فى الحقيقة بوصفهم أساتذة فحسب بل بوصفهم قوة الاحتلال القاهرة التى جاءت لتقهر نفوس هؤلاء الطلاب وتشعرهم بالضآلة والدونية إزاء (الرجل الأبيض) العظيم الذى وضعته (العناية الإلهية) على رأس هذه البلاد هذا هو المعنى الظاهر الذى كان يتعمد أولئك (الأساتذة) إظهاره ، أما المعنى الخفى وهو القهر الصليبى للمسلمين فهذا لم يكونوا

يصرحون به ولكنه ينبث واضحا فى كل مناسبة وفى كل توجيه وأيا كان الأمر فقد كان أولئك (الأساتذة) يمثلون فى نفوس الطلاب شيئا مرهوبا لا يقاوم بل حسب الطالب منهم أن يتحاشى فتكاته المتوقعة فى أية لحظة ولكنه لا يحس بالأمن الحقيقى لحظة واحدة حتى ينتهى من دراسته ويتخرج فإذا تخرج فالرهبة من (الخواجة) لا تغادر قلبه وإن أخذت صورا متعددة متجددة فى حياته العملية وفى جو الرهبة العام يتلقى الطلاب جرعات السموم هل يملك أحد أن يمتنع عن تناولها بل هل يملك أحد أن يمتنع عن التأثر بها حتى لو أراد ؟

جرعات السم هنا واضحة – والتلقين مباشر –.

إن ما بكم من تخلف سببه الإسلام الدين كله يسبب التخلف ولكن الإسلام بصفة خاصة يعمل على التخلف أكثر من أى دين ستظلون متأخرين طالما بقيتم متمسكين بالإسلام لن تتقدموا إلا إذا تخلصتم من عقلية القرون الوسطى التى كانت تعتبر الدين أساس الحياة . أساس الحياة اليوم هو العلم وليس الدين .

وهذا إلى جانب التلقين غير المباشر . لقد كانت أوربا فى العصور الوسطى المظلمة خاضعة لسلطان الدين فكانت جاهلة متأخرة جامدة وحين نبذت الدين تقدمت وتحضرت وتعلمت وأوتيت كل وسائل القوة والتمكن كان الدين حاجزا عن العلم لأنه مجموعة من الخرافات وحاجزا عن العمل والنشاط والانتاج لأنه ينظر إلى الآخرة ويهمل الدنيا .

كان لابد من تخطيه للقضاء على الخرافة والاستمتاع بالحياة على الأرض الفكر الإنسانى الحر هو الذى تصدى بجرأة لتحطيم الخرافة ووصل إلى التقدم الرائع الذى تمارسه أوربا اليوم هو الذى قرر الديمقراطية وقرر حقوق الإنسان ورفع من قيمة الكرامة الإنسانية بتقرير مبدأ الحرية الشخصية التى كانت مهدرة فى ظل السيطرة الدينية وما كان الطلاب يومئذ يملكون الرد على التحدى وما كانوا يملكون فى هزيمتهم الداخلية المبهورة بما عند الغرب ورهبتهم من الاحتلال العسكرى الجاثم على أرضهم ورهبتهم من (الخواجة) الذى يجرعهم ذلك السم ما كانوا يملكون المعرفة التى يردون بها على التحدى حتى لو بقيت لهم نفوس ترغب فى الرد هل فى إمكانهم يومئذ أن يدركوا أن التخلف الذى أصابهم والذى يعيرهم به (الخواجة) وينفذ منه لمهاجمة عقيدتهم ودينهم وتقاليدهم لم يكن سببه الإسلام إنما كان سببه التخلف العقيدى الذى أبعد الأمة عن حقيقة الإسلام . وهل كان فى إمكانهم يومئذ أن ينفذوا إلى حقيقة (الحضارة الغربية) فيعرفوا جوانب قوتها وجوانب ضعفها ويدركوا أن الدين الذى حطمته أوربا لتتقدم وتتحضر كان دينا زائفا من صنع الكنيسة وكان جديرا بالتحطيم بالفعل لأنه عائق عن الحياة وعن التقدم وعن عمارة الأرض ولكن الحياة بلا دين من جانب آخر مفسدة لا تقل عن مفسدة الدين الزائف إن لم تكن أشد وأنها تعرض الحضارة فى النهاية إلى

الانهيار؟ كلا ما كان فى طوقهم يومئذ أن يدركوا شيئا من ذلك كله حتى لو أوجعهم تبكيت الخواجة لهم وتعييره إياهم ونسبته كل ما فى حياتهم من سوء إلى الإسلام .

وإذا لم يكن فى طوقهم أن يدركوا شيئا من ذلك فقد كان من المتوقع لهم وهو ما حدث بالفعل أن يتأثروا بالسموم التى تقدم لهم وينصبوا فى القالب الذى وضع لهم بلا مقاومة تذكر أو بلا مقاطعة على الاطلاق . وهل كان (الخواجات) من مدير وأساتذة سيسكتون على واحد من الطلاب لو وجدوا فيه شيئا من المقاومة لأهدافهم ؟ كلا ولا شك ولكنا لم نسمع على أى حال أن واحداً من الطلاب قد قاوم وفصل لأنه قاوم فإذا انتهت سنوات الدراسة الأربع فى مثل هذا الجو وهذا التوجيه فقد ضمن الخواجات أن (فراخهم) التى انتجوها فى (معمل التفريخ) والتى ستخرج لتتولى تربية جيل جديد من النشء ستقوم بالدور المطلوب تلقائيا بغير حاجة إلى توجيه جديد فقد انطبعت نفوسها بما يراد طبعها به وصارت (تتقيأ) تلقائيا ما سكب فى كيانها من السم ولكن لا لتتخلص منه وتفىء إلى صحتها كما يفعل الإنسان السوى حين يتناول السم بل لتطعمه فراخا جديدة صغيرة السن لا تدرك شيئا مما حولها بل تلتقط كل ما يوضع أمامها بلا تمييز ولا قدرة على التمييز . بهذا التخطيط الخبيث أحكم دنلوب قبضته الصليبية على الأجيال فلم تكن المسألة إفساد جيل بعينه يذهب ويذهب معه فساده . إنما كان الهدف ضمان سريان السم فى الأجيال المتعاقبة لكيلا يخرج جيل يفكر فى العودة إلى الإسلام . وعن طريق معمل التفريخ الضخم الذى أقامه ضمن الدورة الكاملة للسم ضمن الأستاذ والتلميذ .. الأستاذ الذى سيصب التلاميذ فى القالب المطلوب والتلاميذ الذين سينشأون فى داخل القالب لا يقاومون نشأتهم فيه .

ولكن التخطيط مع ذلك لم يكتف بتلك الدورة المتكاملة التى تدور دورة كاملة مع كل جيل جديد بل كان أشد خبثا وأشد إحكاما فمد الخيوط إلى مدى أبعد فإذا كان المدرس العادى قد صُب فى القالب فانصب وسلط على النشء ليصبه من جديد فى نفس القالب فإن المدرس (الممتاز) وناهيك (بامتيازه) يكافأ على امتيازه هذا مكافأة إضافية ليستفاد منه على نطاق أخطر فيبتعث إلى انجلترا ليصاغ من جديد صياغة أدق .

صحيح أن (الخواجات) هنا قد قاموا (بالواجب) على النحو المطلوب ولكن فرق بين أن تظل فى بلدك وإن صاغك الخواجات متأثرا ببعض تقاليدها وأفكارها وعقائدها وبين أن (تستنبت) من جديد فى أرض الخواجات أنفسهم فتصبح كأنك خواجة بالفعل بدلا من أن تكون مصريا متأثرا بالخواجات فحسب بل إنك قد تعود ملكيا أكثر من الملك فتقوم بالدور المطلوب بأعنف مما كان الخواجات أنفسهم يفعلون فإذا عاد أولئك المبتعثون وقد صاروا خلقا آخر ممسوخا كل المسخ لا يعرف دينه ولا لغته ولا قومه وينظر إلى ذلك كله

بازدراء شامل فهناك يوضعون فى مراكز التوجيه ليكون أثرهم فى الافساد أشمل وأوسع حتى إذا صار أحدهم فى نهاية المطاف وزيرا للمعارف أو وكيلا للوزارة حطم من مقدسات قومه ما لم يكن يجرؤ دنلوب نفسه أن يفعل .. فدنلوب كما خطط لنفسه أو خطط له سيده الذى استخدمه ليقوم بدوره يحافظ على المظاهر الزائفة (منعا لاثارة الشكوك) أما هذا الثور الهائج فلا يتقى شيئا ولا يحفل بشيء .

وفى وسط هذه الدورة الخبيثة يظل مدرس اللغة العربية (ومدرس الدين) يُبْعَد عن الطريق ويداس بالأقدام يسبقه غيره على الدوام ولا يتولى وظيفة واحدة من وظائف التوجيه فيظل صوته يخفت ويخفت حتى لا يسمعه أحد من الناس ويظل الآخرون يبرزون ويبرزون حتى تصبح فى أيديهم صدارة (المجتمع الجديد) وتمضى دورة الزمن فتفتح الجامعة الأهلية ثم الجامعة الرسمية ثم تتلوها الجامعات ذوات العدد فتسير نفس السيرة على نفس المخطط وقد غاب صاحبه من الوجود كله ولكن مخططه يظل سارى المفعول وأكيد المفعول .

(ب) وسائل الاعلام

إذا كان هذا نصيب مناهج التعليم فى عملية الغزو الفكرى الصليبى ضد الإسلام فهناك أداة أخرى لا تقل خطرا إن لم تكن أخطر تلك هى وسائل الاعلام : الكتاب والصحيفة والمسرح والسينما ثم الاذاعة (ولم يكن التليفزيون قد اخترع بعد فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها ولكنه منذ جاء سار على نفس التخطيط) فأما الكتاب فقد بدأ مترجما فى أول (عهد النهضة) ثم أصبح مؤلفا فيما بعد وإن كان خطر الترجمة ظل موجودا على الدوام . ومن الأمور الطبيعية فى مثل الحال التى كان المسلمون قد وصلوا إليها أن يبدأ الأمر بالترجمة لغياب عنصر التأليف وفراغ الجو الإسلامى كله من الفكر الحى المتدفق المتألق المواكب لخط الحياة . ولكن ما الذى ينبغى أن يترجم .

كان المفروض كما حدث فى حركة الترجمة الأولى أن يبدأ الأمر بترجمة الكتب العلمية فقد كان الفقر العلمى شديدا وكان التخلف فى الميدان العلمى من أبرز ما أحس به المسلمون حيث صحوا على الهزيمة أمام جحافل الصليبيين . ولا شك أن بعض الكتب العلمية قد ترجم فى تلك الفترة ولكن الجانب الأعظم من حركة الترجمة سار فى قنوات أخرى بعيدة كل البعد عن المطلوب أو عن الأمر الواجب فى ذلك الحين . فإلى جانب الكتب العلمية القليلة التى ترجمت ترجمت مئات من القصص والمسرحيات والكتب التى تحمل الفكر الغربى (العلمانى) الجاحد للدين المناوىء له مع عناية خاصة بنشر أفكار عن نظرية التطور الداروينية . فأما القصص والمسرحيات فقد كان الهدف من نشرها على نطاق واسع هو تحطيم التقاليد الإسلامية التى تمنع

الاختلاط وتنفر من الفاحشة والتحلل الخلقى فقد كانت هذه التقاليد مع كونها تقاليد خاوية من الروح عقبة ضخمة فى سبيل الافساد الخلقى الهائل الذى تهدف الصليبية إلى إحداثه فى المجتمع الإسلامى .. وإذا تذكرنا أن نابليون كان قد جاء معه ببعض (الساقطات) كما سماهن الجبرتى وهو يروى أحداث الحملة وأن هذا كان هدفا مقصودا من أهداف الحملة أو من مآثرها لإشاعة السفور فى المجتمع المصرى المسلم ومن ثم إشاعة الفاحشة سهل علينا أن نفهم الهدف من القصص الغرامية والمسرحيات التى تعرض جوا مختلفا تماما عن الجو الإسلامى المحافظ الذى لا يجهر فيه بالفاحشة ولا يتعالن بالمنكر والذى تسعى الصليبية إلى تحطيمه بوصفه ركنا من الحياة الإسلامية التى يراد هدمها أولا عن آخر . فالذى تعرضه تلك القصص والمسرحيات لا يزيد على أن يكون علاقات غير مشروعة بين رجل وامرأة أو بين شاب وفتاة تعطى فى القصة أو المسرحية شرعية وواقعية ليست لها فى الميدان الإسلامى ويتم هذا فى جو (الفن) الذى يسبغ على كل شىء جمالا وجاذبية مهما يكن فيه من الشر تلك مزية الفن وتلك خطورته فى ذات الوقت . فهو يحمل القدرة على التأثير ويعرض ما يعرض فى جو من المشاعر والوجدانات تجعل القارىء أو السامع يشارك بخياله مع المشهد المعروض وينفعل بما ينفعل به الأشخاص المعروضون فى المشهد . ومن هنا يحمل الفنان مسئوليته فحيث يكون خيرا حيث يكون ملتزماً بالقيم الإنسانية العليا فإنه يتجه إلى تزيين الخير والتنفير من الشر وليس من الضرورى أن يكون ذلك عن طريق التوجيه المباشر . بل كلما لجأ الفنان إلى الطريق غير المباشر أى عرض ما يريد عرضه من خلال مواقف ومشاهد ومشاعر ووجدانات دون أن يتدخل بشخصه تدخلا مباشرا كان ذلك أبلغ فى التأثير فى نفس القارىء أو السامع وأفعل فى جذبه إلى صف المعنى المطلوب وأما حين لا يكون ملتزماً بالقيم العليا أو حيث يكون أسوأ من ذلك معاديا لها راغبا فى تحطيمها فإنه يحمل القدرة الفنية التى تمكنه كذلك من جذب القارىء أو السامع إلى صف التوجيه الذى يريده وقد كان الفن الذى يترجم هو الفن الذى تخلص تماما من القيم الدينية وراح يدعو إلى إقامة مجتمع (طليق) من تلك القيم مجتمع يهبط تدريجيا حتى يصبح مجتمعا حيوانيا فى النهاية وسواء كان الذين ينقلون هذه القصص والمسرحيات إلى العربية واعين تماما للدور الذى يلعبونه أو غير واعين فقد كان هناك تشجيع خفى لنشر هذا (الفن) وترويجه بين الشباب خاصة . والهدف واضح . فحين يقرأ الشاب قصة غرامية أو عاطفية كما كانوا يسمونها يلتقى فيها الفتى والفتاة بعيدا عن أعين الناس ويجرى بينهما من الكلام والمواقف ما يجرى مصورا بجاذبية الفن وإغرائه فسيتمنى فى دخيلة نفسه أن لو كان هو صاحب الموقف أو أن يقع له مثل ما يقرأ فى القصة أو المسرحية .. ويعلم الشاب جيدا أن مجتمعه المحافظ لا يسمح بمثل هذه المواقف التى يقرأ عنها ولكنه عندئذ يتمنى أن يجىء يوم تتحطم فيه تقاليد مجتمعه التى تحول بينه وبين (الاستمتاع) على النحو الذى يتم فى المجتمعات الأخرى التى (تحررت) من مثل تلك التقاليد .

فإذا جاء اليوم الذى تتحطم فيه هذه التقاليد بالفعل وقد جاء فلن يكون مثل هذا الفن من المعارضين بل سيكون أول المرحبين أما الكتب التى تحمل الفكر (العلمانى) فالهدف من ترجمتها واضح كذلك يقول (أ . شاتيليه) فى مقدمة كتاب (الغارة على العالم الإسلامى) : (ولا شك فى أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية فى قلوب منتحليها ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية فنشرها اللغات الانجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية تحيك الإسلام بصحف أوربا وتمهد السبيل لتقدم إسلامى مادى وتقض إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها .

وهذا يوضح لنا الهدف من ترجمة هذه الأفكار ونشرها باللغة العربية ذلك أنه مهما انتشر تعلم اللغات الأجنبية فستظل الجمهرة الكبرى من الشعب عاجزة عن قراءة هذه الأفكار فى لغاتها الأصيلة ومن ثم يبقى الحاجز الذى يشكو منه ذلك المبشر قائما يحمى العالم الإسلامى من عوامل التدمير الخارجية فإذا انساح الحاجز عن طريق الترجمة قضت الصليبية لبانتها على حد تعبير المبشر وأمكن إحداث الدمار المطلوب . وأما العناية الخاصة بالداروينية ونظرة التطور فقد يكفينا فيها قول البروتوكولات : (لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه وأن تأثير أفكارهم على عقائد الأميين واضح لنا بكل تأكيد) . وقد استطاعت اليهودية العالمية عن طريق ترويج أفكار داروين وتوسيع نطاقها أن تحطم ما كان قد بقى من عقائد (الأميين) الأوربيين وتنشىء هناك مجتمعا (جديدا) بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد وكان فى تخطيط الصليبية استخدام تلك القذائف المدمرة لذات الهدف فى المجتمع الإسلامى لانشاء مجتمع (جديد) بدلا منه لا دين له ولا أخلاق ولا تقاليد . لذلك كانت العناية بنشر تلك النظرية بالحاح فى العالم الإسلامى لعلها تصنع هنا ما صنعته هناك .. أما الصحافة فشأنها أخطر .. فلئن كان الكتاب بصفة عامة هو زاد (المثقفين) فالصحافة زاد شامل يشمل المثقفين وأنصاف المثقفين كما يشمل العامة حتى الذين لا يقرأون منهم إذ هناك من يتحلقون حوله ليقرأ لهم الصحيفة حتى فى أعماق الريف .

وفى مصر بالذات قامت الصحافة بدور خطير لعله أخطر الأدوار إذ كانت مصر فى نظر المخططين كما أسلفنا هى مركز التوجيه الروحى والثقافى بسبب موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية وبسبب وجود الأزهر فيها فإذا أمكن إفسادها من الناحية الإسلامية كان ذلك عونا كبيرا للذين يخططون لإفساد العالم الإسلامى كله لأن الفساد سيصدر يومئذ وعليه خاتم القاهرة فيكون أفعل فى الإفساد مما لو جاء وعليه خاتم لندن أو باريس لذلك لا نعجب كثيرا من وجود ثلاث دور صحفية كبيرة لبنانية مسيحية مارونية فى القاهرة وإن كان السؤال يظل باقيا : لماذا اختار أولئك المسيحيون المارونيون اللبنانيون القاهرة لتكون موضع نشاطهم ؟

أبتوجيه وتخطيط من الصليبية العامة أم بدافع من صليبيتهم الذاتية وبطبيعة الحال لا يوجد فرق فى النهاية بين هذا الوضع وذاك فالقنوات الصليبية تلتقى كلها فى النهاية فى مجرى واحد ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أن هناك اتفاقا صليبيا عالميا على جعل القاهرة مكان الأفكار الناشزة عن الإسلام والحركات المناوئة للإسلام وللدولة العثمانية كتشجيع نازلى فاضل على بث أفكارها (التحررية) فى صالونها بالقاهرة بحضور اللورد كرومر ، وكصدور بعض النشرات السرية للقومية العربية المطاردة من قبل الدولة العثمانية من القاهرة وكإقامة جمال الدين الأفغانى فى مصر فترة من الوقت فإذا لاحظنا هذه الدلائل كلها كان الأقرب إلى الحسبان أن يكون وجود هذه الدور الصحفية الثلاث : دار الأهرام لآل تقلا – ودار الهلال لآل زيدان – ودار المقطم لآل صروف نتيجة توجيه صليبى عالمى لا مجرد انبعاث صليبى ذاتى ولا توافق خواطر بين أصحاب هذه الدور الثلاث .

وأيا يكن المنبع فالمصب واحد والتخطيط واحد والأهداف واحدة .. الهدف هو تحويل هذه الأمة عن الإسلام والمنهج هو منهج الدولة الصليبية الحاكمة (بطىء ولكنه أكيد المفعول) (منعا من إثارة الشكوك) وهل كان يتصور فى ذلك الزمان أن تكون الخطى أسرع مما كانت؟ كلا! فتجربة نابليون الحمقاء كانت ما تزال ماثلة للعيان والفشل الذى منيت به نتيجة حماقتها وسرعة خطوها وعنف حركتها كان ما يزال ماثلا فى الأذهان .. وكانت بقايا الإسلام فى نفوس المسلمين المصريين كفيلة بإفساد الخطة كلها لو انكشفت وسرعة الخطو من العوامل التى يمكن أن تكشف الخطة وتفسد المفعول . ولذلك كان كرومر ودنلوب حريصين على العمل البطىء الذى لا يثير الشكوك ، نعم .

لم يكن يتصور أن تبدأ الصحافة اللبنانية المسيحية المارونية عملها بمهاجمة الإسلام فقد كانت غضبة الجماهير كفيلة بتحطيم تلك الدور على رؤوس أصحابها من أول الطريق . ولكن على مهل ممكن بل لقد يخدع الغافل إذا اطلع على بعض أعداد هذه الصحف فيحسبها لأول وهلة صحافة إسلامية فهى تمتدح الإسلام وتمتدح رسوله العظيم ﷺ وتخصص مكانا يوميا لأخبار (الباب العالى) ومقابلات السلطان وتنقلاته ولا تقصر فى توفية أخبار ما يدور بين السلطان والدول الأوربية من مفاوضات أو مناوشات أو منازعات فأى شىء يريد المسلم من صحيفته أكثر من ذلك؟ نعم ولكن الذى يدقق فى الأمر يجد من خلال ذلك وإلى جانب ذلك أشياء أخرى تنم عن مقاصد مختلفة .

فالإسلام يمتدح بما يرضى (عواطف) المسلمين نعم ، ولكن لا يتحدث عنه كنظام حياة وشريعة حكم وحينما تناقش المشاكل القائمة فى مصر أو فى العالم الإسلامى فلا يقدم لها الحل من شريعة الإسلام ولا حتى من روحه إنما تقدم الحلول كما سنرى من التجربة الأوربية ومن

(الحضارة الأوربية) بل أكثر من ذلك أن هذا الإسلام الذى يتحدث عنه بما يرضى عواطف الجماهير دون أن يقدم للناس على أنه نظام حياة أو شريعة تحتوى على حلول مشاكلهم هذا الإسلام ليس حديثا يوميا يطالع القارىء لهذه الصحف فيظل على ذكر دائم من دينه ولو حتى على مستوى العواطف والوجدانات إنما هو حديث (مناسبات) معينة يطلق عليها (المناسبات الدينية) فلا ينحسر الدين عن مفهومه الحيوى الشامل فحسب بل ينحسر مرة أخرى إلى مناسبات عارضة فى حياة المسلم يتمتع فيها وجدانه بمدح الرسول ﷺ ومدح الإسلام ثم يبقى وجدانه خاويا حتى من ذكر الإسلام بقية الشهور وبقية الأيام .

وكاملىء الفراغ الناجم من تفريغ التاريخ الإسلامى من محتواه فى المنهج الدنلوبى بذكر أوربا وقوتها ونهضتها وحضارتها وأصالتها وعظمتها فكذلك تملأ الصحف الفراغ الناجم من تفريغ الإسلام من محتواه الحقيقى والفراغ الناجم من عدم ذكر الإسلام إلا فى (المناسبات الدينية) فحسب تملأ الصحف هذا الفراغ وذاك بذكر أوربا فهناك ذكر يومى دائم لأوربا فى باب الأخبار وحديث دائم عن أوربا فى كل مناسبة من المناسبات فأما الأخبار فقد يبدو ذكر أوربا فيها أمرا طبيعيا وبديهيا ليس فقط لأن مهمة الصحف أن تطلع قارئها على أخبار العالم الذى يعيش فيه وليس فقط لأن أوربا فى تلك الفترة كانت مركز نشاط دائب لا يفتر فى جميع الاتجاهات بل لأن الحقيقة الواقعة رضينا أم أبينا أن أوربا كانت تمسك بيدها يومئذ أزمة الأمور وتقرر للعالم ما يقوله وما يفعله بحكم غلبتها العسكرية والسياسية والعلمية والحضارية ومع ذلك فإن الصحيفة الإسلامية فى الوطن المسلم يكون لها طريقة فى تقديم الأخبار تشعر قارئها أنه مسلم ولو كان مغلوبا على أمره وتشعره أن له نظرة إلى الأمور فتميزه عن نظرة غيره إلى الأمور ذاتها فهو قد يغضب لأمور قد يرضى بها غيره وقد يفرح بأمور يأسف لها غيره وقد يأسى لأمور يرضى بها غيره وقد يشارك غيره ولكن من موقفه الخاص المتميز ومع ذلك فإذا تغاضينا عن الأخبار وطريقة تقديمها فلا نستطيع أن نتغاضى عن الذكر الدائم لأوربا فى تلك الصحافة فإن فيها بيت القصيد أن أوربا لا تذكر فى هذه الصحافة بحجمها الحقيقى وهو يومئذ فى ذاته كبير ولكن يزاد عليها ويضاف إليها حتى يلقى فى روع القارىء أن أوربا هى العالم وألا وجود لشيء غير أوربا فى هذا الوجود .

وحقيقة أن أوربا كانت يومئذ غالبة ومسيطرة ولكنها كانت مسيطرة على عوج عظيم فى منهج حياتها كله فهل كانت تلك الصحافة تكتب عن بشاعة الاستعمار وبشاعة الجرائم التى يرتكبها ضد البلاد المحتلة ومعظمها بلاد إسلامية . وهل كانت تكتب عن الدوافع الصليبية للاستعمار فى البلاد الإسلامية من وراء (المصالح الاقتصادية) و(المصالح السياسية) وما شابهها من المصالح وهل كانت تكتب من الفساد الخلقى فى أوربا وما يجره على الناس من آثار سيئة فى حياتهم وهل كانت تكتب عن الربا وهل كانت تكتب عن المؤامرة

الأوربية – الصليبية اليهودية– للقضاء على الخلافة العثمانية؟ أن الصحيفة الإسلامية فى الوطن المسلملم تكن لتغفل الحقيقة الواقعة أو تتجاهلها لم تكن لتغفل أن أوربا هى المتحكمة فى شئون العالم وأنها هى القوة المتمكنة فى كل اتجاه سواء فى المجال السياسى أو الاقتصادى أو الحربى أو العلمى أو التكنولوجى ولكنها حيث تكون إسلامية لابد أولا أن تقف موقف الناقد من انحرافات أوربا حيث توجد انحرافات وهى موجودة بوفرة فى الحياة الأوربية ولابد ثانيا أن تنهض همم المسلمين ليتداركوا تخلفهم ليستردوا ما فقدوه من التمكن فى الأرض مرشدة لهم إلى الطريق السوى لتدارك التخلف وهو أن يأخذوا من أوربا ما هم فى حاجة إليه من تقدم علمى ومادى مع المحافظة على دينهم وأخلاقهم وتقاليدهم وعدم الذوبان فى أوربا وعدم تقليدها فيما يخالف عقيدة الإسلام وشريعته وروحه وهذا هو مفرق الطريق بين الصحافة الإسلامية والصحافة غير الإسلامية وقد يقول قائل : وأين كان المسلمون ؟ ولماذا لم يصدروا صحافتهم التى تعبر عن موقفهم وتخدم وجودهم ومصالحهم؟ ونقول أن المسلمين كانوا غائبين عن وعيهم ولا شك فى غمرة الانبهار التى نشأت عن التخلف العقيدى الذى كانوا واقعين فيه والذى أدى فى حياتهم إلى كل ألوان التخلف الأخرى : العلمى والمادى والحضارى والفكرى والحربى والاقتصادى والسياسى ولكنا نريد أن نبرز فقط حقيقة تلك الصحافة التى أقامها المسيحيون اللبنانيون المارونيون فى مصر وحقيقة الدور الذى قامت به ففضلا عن علامة الاستفهام التى تحيط بهم : لماذا جاءوا إلى مصر بالذات ليعملوا فيها وينشئوا بها دورهم الصحفية دون أى بلد آخر فهناك موقفها الخاص من كل هذه القضايا التى أشرنا إليها فإنه إذا استحال عليها أن تقف الموقف الإسلامى وهى مسيحية فهى لم تقف كذلك الموقف (المحايد) الذى يعرض الحسنات والسيئات إنما وقفت موقف المدافع المستميت عما يسمى (الحضارة الأوربية) بكل سقطاتها وانحرافاتها كما وقفت موقف المحرض للمسلمين فى مصر أن يقتفوا أثر أوربا فى كل شيء وأن يحلوا مشاكلهم على النسق الأوربى وأن ينظروا إلى الأمور كلها لا بعينهم هم ولكن بعين أوربا وإليك مثلا واحدا يبرز المعنى الذى نقصد إليه . لقد أدت الثورة الصناعية فى أوربا إلى تحطيم الأسرة وافساد الأخلاق وانتشار البغاء وبصرف النظر عن كل شيء فتلك مشكلة أوربية بحتة نشأت من ظروف محلية هناك ما شأن المسلمين بها ؟ لماذا يشغلون بها ؟ وإن انشغلوا بها فمن أى زاوية ينظرون إليها ؟ أمن زاوية أنه فساد أخلاق أصاب أوربا حين تنكرت للدين والأخلاق والتقاليد أم من زاوية أنه (ضرورة) ضرورة اجتماعية فى الحياة الحضارية الصناعية ؟ هذا هو مفرق الطريق .

لقد ظلت الصحافة المصرية اللبنانية المسيحية المارونية تتحدث عن البغاء وعن كونه (ضرورة اجتماعية فى العالم المتحضر) عشرات السنين قبل أن تكون فى العالم الإسلامى كله مشكلة تدعو إلى وجوده ولا إلى الحديث عنه ... لماذا ؟

ألمجرد (تسلية) القارىء المصرى ؟

وهل هذه القذارة النفسية والأخلاقية والاجتماعية تصلح مادة للتسلية كلا لم يكن القصد هو التسلية إنما كان القصد تهيئة الأذهان لليوم الذى يراد فيه نشر البغاء فى المجتمع الإسلامى المصرى وجعله جزءا من كيان المجتمع تحرسه (الدولة) بقوانينها وتسهر عليه .

كان المراد هو تنويب (الحس) الإسلامى الذى ينفر من الفاحشة ومن التعالن بها بعد أن نحيت الشريعة التى تمنع البغاء وتعاقب عليه حتى إذا جاء اليوم المنشود وقد جاء لم تكن النفوس نافرة ولا القلوب منكرة إنما كان هناك تقبل مسبق (للضرورة الاجتماعية) التى تنشأ عن الحضارة وكان المعارضون لممارسة هذه الضرورة هم (المتزمتين) (الجامدين) (المتحجرين) الذين لا يريدون أن يسايروا (ركب الحضارة) ولا روح التطور الساريةفى العالم كله وذلك مجرد نموذج يمكن أن تقاس عليه كل (القضايا التقدمية) الأخرى كالاختلاط والعلاقات الحرة و(قضية المرأة) ودور الدين فى الحياة العصرية و(العلمانية) .. الخ .. الخ .. وكيف كانت الصحافة (المصرية) تتناولها وكيف كانت بكل خطتها جزءا من الغزو الفكرى الصليبى المقصود . لقد أدت هذه الصحافة دورا خطيرا فى حياة المسلمين فى مصر .. على خطين رئيسيين : تقليص دور الإسلام ولى الأعناق ليا إلى أوربا بحيث تصبح تدريجيا هى الوجهة التى يتجه المسلمون إليها بدلا من الإسلام والتى يتوسمون فيها طريق الخلاص من حاضرهم السيء الذى يعيشونه ويتطلعون من خلالها إلى مستقبل سعيد باسم يلحقهم بركب الحضارة ويدفع عنهم وصمة التأخر والانحطاط يذكرنا هذابما قلناه عن رفاعة رافع الطهطاوى ولقد رُفضت دعاوى رفاعة الطهطاوى يومئذ لأنه فاجأ بها قوما غير مستعدين لتقبلها ولكنها هى بحذافيرها وأكثر منها ستصبح منذ اليوم مقبولة لأن الصحافة على الخط البطىء الأكيد المفعول قد مهدت لها الأذهان والقلوب فإذا جاءت الآن وقد جاءت بالفعل وجدت الناس أكثر استعدادا لتقبلها بل وجدت بعضهم متلهفين إليها يستبطئون قدومها ويستعجلون خطاها . ولقد يقول قائل : أو لم تكن الأمور صائرة إلى هذا المصير بحكم جميع الظروف المحيطة بالمسلمين ؟ فليس دور تلك الصحافة إذن إلا مواكبة ما كان حادثا بالفعل من (تطور) فى أفكار الناس ومشاعرهم مما كان لابد أن يحدث فى جميع الأحوال ؟ ونتوقف فى الاجابة عند نقطتين ... أما أن الأمور كانت صائرة من تلقاء نفسها إلى هذا المصير فأمر قد نرجحه بحكم الظروف التى كانت تحيط بالمسلمين يومئذ ولكنا لا نقطع به .. فالذى حدث فى الجزيرة العربية من انطلاق محمد بن عبد الوهاب بحركته القومية لتصحيح العقيدة وإزالة ما شابها من الغش يدلنا على أن الطريق الذى سارت فيه الأمور فى مصر لم يكن حتميا إنما كان يمكن أن يحدث فى مصر ما حدث فى الجزيرة العربية من محاولة لتصحيح أحوال الأمة بإزالة (التخلف العقيدى) الذى نشأت عنه كل ألوان التخلف

الأخرى من علمية ومادية وحضارية وعسكرية .. الخ . ولكن الجو الذى أحدثته تلك الصحافة (مع وسائل الاعلام الأخرى بلا شك) قد جعل قيام مثل هذه الحركة فى مصر فى ذلك الوقت احتمالا ضئيلا جدا وجعل الاحتمال الأقوى هو السير فى الطريق الذى سارت فيه بالفعل . وأما النقطة الأخرى فهى أن هذه الصحافة لم تكن مواكبة ولكنها كانت رائدة .. لم تكن تتحدث عن أشياء قائمة بالفعل فى نفوس الناس بل عن أشياء يراد أن تقوم فى نفوسهم والمثال الذى ضربناه بقضية البغاء واضح فقد كانت هذه الصحافة تدأب على ادخال الأفكار الغربية اللادينية إلى المجتمع الإسلامى ولو لم يكن متقبلا لها أو مشغولا بها من قبل . ولو فرضنا جدلا أن وضع الغالب والمغلوب هو الذى سيحسم القضية سواء أقامت تلك الصحافة بدورها أم لم تقم فما لا شك فيه أن دور الصحافة كان هو الاسراع فى تعبيد المغلوب للغالب الصليبى ومده فى الغى وابعاد صحوته إلى ما ينبغى أن يكون عليه ومنعه من الرجوع إلى الإسلام لو أراد أن يرجع إليه .. وتدريجيا على مهل شديد بدأت تلك الصحافة تهاجم الإسلام هل كان يتصور أن تهاجم الإسلام يومئذ باسمه الصريح ؟ كلا فالبقية من الدين فى قلب هذه الأمة فى ذلك الحين كانت تمنع حدوث ذلك ولو حدث لثارت الجماهير على هذه الصحف وهدمتها على رؤوس أصحابها .. إنها تهاجم التقاليد .. التقاليد البالية .

وإذا سألنا أنفسنا : ما تلك التقاليد البالية التى تهاجم لوجدنا أن معظمها كان هو الإسلام . حقيقة كان من بين تلك التقاليد التى تهاجم تقاليد جاهلية ارتدت إليها الأمة الإسلامية فى فترة التخلف العقيدى كالتقاليد التى منعت تعليم المرأة والتى قضت بإساءة معاملتها وتحقيرها على أساس أن مهمتها أن تحمل وتلد ولكن ليس لها كيان إنسانى يوجب الاحترام وهى ردة جاهلية فى هذا المجال كانت الأمة قد هبطت إليها نتيجة البعد عن المنهج الربانى القويم الذى ساوى فى الإنسانية بين كيان المرأة وكيان الرجل وإن فرق بينهما فى بعض التكاليف وبعض الحقوق وبعض الواجبات حيث قال سبحانه : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾ .

وقال : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ وقال : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ . وقال ﷺ : « **خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى** » ولقد كانت تلك التقاليد غير الإسلامية هى المدخل الخبيث الذى دخلته الصحافة المهاجمة (التقاليد البالية) بحجة أنها ليست من الإسلام إنما هى من صنع المتزمتين من الرجال الذين أضفوا عليها قدسية الدين ليحموا من ورائها أنانيتهم وتزمتهم وقد كان هذا حقا يراد به باطل فلم يكن القصد من مهاجمتها هو ردها إلى

أصلها الإسلامى الصحيح إنما كان القصد هو النفاذ من هذا المدخل الخبيث لمهاجمة التقاليد الإسلامية الصحيحة الأصيلة بحجة أنها كلها (تقاليد بالية) ليست من الإسلام .

فاحتقار المرأة وتعييرها بأنها تحمل وتلد وليست مساوية فى الكيان الإنسانى للرجل وعدم تعليمها وتركها فى جهالة ومهانة كل هذا ليس من الإسلام ولكن منع الاختلاط بغير موجب ومنع التبرج والفتنة ومنع إقامة علاقة (حرة) بين الرجل والمرأة إلا العلاقات الشرعية التى أذن الله بها وحدها .. هذا كله من صميم الإسلام قرره الله ورسوله ولم يقرره المتزمتون من (رجال الدين) ولا قرره الرجل وأضفى عليه قداسة الدين ليحمى أنانيته وتزمته ولكن الذين كانوا يهاجمون (التقاليد البالية فى الصحافة المصرية) اللبنانية المسيحية لم يقفوا عند التقاليد غير الإسلامية ولم يسعوا إلى تصحيحها بردها إلى أصلها الإسلامى الصحيح ذلك أن هدفهم لم يكن تصحيح عقيدة هذه الأمة وتصحيح مسلكها بإرجاعه إلى صورته الإسلامية إنما كان هدفهم الحقيقى هو محو الإسلام محوا وإزالته من الوجود .

وهذا هو مفرق الطريق .. لقد كان من شأن الداعية المسلم والمصلح المسلم أن يهاجم تلك التقاليد الجاهلية التى ارتدت إليها الأمة فى فترة التخلف العقيدى ويندد بها ويدعو إلى إبطالها وإزالتها ولكن لحساب الإسلام . لحساب المنهج الربانى الصحيح وكان من شأن الداعية المسلم والمصلح المسلم فى ذات الوقت أن يرسخ التقاليد الإسلامية الصحيحة فيدعو إلى المحافظة على الحجاب الإسلامى ومنع التبرج ومنع الاختلاط ومنع التفسخ الخلقى ولكن الذى صنعته تلك الصحافة وكتابها كان هو المهاجمة الشاملة لكل التقاليد صحيحها وفاسدها التقاليد التى تمنع تعليم المرأة والتقاليد التى تمنعها من (مشاركة الرجل فى كل أمور المجتمع) ولقد كانت (قضية المرأة) من أكبر الموضوعات التى خاضتها تلك الصحافة وكتابها ومن أبعدها أثرا فى تحويل المجتمع إلى الوجهة التى يريدها المخططون الصليبيون ومن كان فى شك من التخطيط الصليبى وراء إثارة (قضية المرأة) فليقرأ قرارات المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى لكنو سنة ١٩٠٦ م والذى كان كغيره من مؤتمرات المبشرين يخطط علانية لهدم الإسلام ومحاولة محوه من الوجود حيث جاء فى قرارات تلك المؤتمر :

سابعا : الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات :

وذلك عن طريق (تعليمها) و(تحريرها) والهدف من تعليمها واضح ... فكما كانت تجربة اليهود الأولى فى أوربا كذلك تجربة الصليبيين فى مصر (وغيرها من بلاد العالم الإسلامى) أنه مهما حاولوا إفساد المجتمع عن طريق إفساد الرجل وحده فإنه فى النهاية

لا يفسد أو لا يفسد بالدرجة التى يرغبونها ولا بالسرعة التى يرغبونها ذلك أنه طالما كانت هناك أم متدينة ولو كانت جاهلة بالقراءة والكتابة والعلوم فإنها تبذر فى أبنائها بذور العقيدة وهم بعد أطفال فمهما فسدوا فى شبابهم فإنهم يعودون إلى ما لقنتهم إياه فى طفولتهم فلا يحدث الفساد المطلوب وأنه لابد من إفساد الأم لضمان إفساد المجتمع ولابد من إفسادها وهى فتاة قبل أن تصبح أما حتى إذا أصبحت أما فى يوم من الأيام لم تكن لديها العقيدة التى تبذرها فى قلوب أبنائها ولا الأخلاق الدينية التى تطبع بها سلوكهم وهم فى سن التكوين .

فكيف يفسدون الأم المسلمة والفتاة المسلمة ؟

إذا كانت قابعة فى بيتها فمن أين يصلون إليها ؟ وإذا كانت جاهلة فمن أين يوصلون إليها الأفكار التى يلوثون بها عقلها ويفسدون عقيدتها وأخلاقها؟ لابد إذن من (تحريرها) و(تعليمها) لكى يصل إليها كيد الشياطين ولقد كان تعليمها واجبا إسلاميا بل فريضة إسلامية نكلت عنها الأمة المسلمة ولكن أى نوع من التعليم ؟

أما (تحريرها) على الطريقة التى تم بها ذلك التحرير بمعنى إخراجها من دينها وأخلاقها وتقاليدها فقد كان هذا هو بيت القصيد .

الفصل الثانى
عرض ومقارنة

ونعرض الآن فى هذه الصفحات ما جاء فى كتاب (أولاد حارتنا) للكاتب نجيب محفوظ حتى يكون القارىء على بينة مما جاء فى هذا الكتاب إذا لم يكن قد قرأه من قبل ثم بعد ذلك نبين فى ردنا عليه القول الحق المطابق لما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولا تأخذك الدهشة عندما تقرأ ما جاء فى هذا الكتاب فقد قالوا قد يزول العجب إذا عرف السبب والشيء من معدنه لا يستغرب ولكى نعرف النهاية لأى قول لابد أن نبحث بدايته أولا . إذ رأس جبل الجليد تابع لقاعدته .

لقد سئل الكاتب نجيب محفوظ : (هل كان لسلامة موسى أثر قوى فى تكوينك الفكرى كما يذهب بعض الباحثين !) .

– نعم كان لسلامة موسى أثر قوى فى تفكيرى فقد وجهنى إلى شيئين مهمين هما العلم والاشتراكية ومنذ دخلا مخى لم يخرجا منه إلى الآن وكان الأديب الوحيد الذى قبل أن يقرأ رواياتى الأولى وهى مخطوطة قرأ ثلاث روايات وقال لى ان عندى استعدادا ولكن الروايات غير صالحة للنشر ثم قرأ الرواية الرابعة وكانت (عبث الأقدار) وأعجبته ونشرها كاملة فى (المجلة الجديدة) كما قرأ أول أقاصيص كتبتها ونشر بعضها فى (الرواية) و(مجلتى) .

إذن فقد تأثر نجيب منذ بداياته الأولى كأديب بسلامة موسى المفكر ومنذ دخل عقله (الاشتراكية والعلمية) أو بعبارة أخرى (الاشتراكية العلمية) أو (الماركسية العلمانية) لم يخرجا منه حتى الآن .

إذا تقرر هذا فاعلم أن النهاية معروفة من مطلع البداية (فالاشتراكية العلمية) و (الماركسية المادية) التى عششت فى مخ الكاتب وباضت وأفرخت وصادفت عنده مكانا خاليا فتمكنت. هذه الاشتراكية العلمية تناقض الإسلام كل التناقض ولا تلتقى به فى أى موضع

من المواقع ، نعم تناقضه فى أصول العقائد وشعائر العبادات وشرائع المعاملات ومناهج السلوك ومبادىء الأحكام وقواعد النظام :

إياك تجنى سكرا من حنظــل　　فالشــىء يرجع فى المذاق لأصلــه

نعم لقد كانت النهاية معروفة من مطلع البداية فإن الأثر يدل على المسير وإياك أن يستولى عليك العجب عندما تقرأ ما جاء فى هذا الكتاب مما يناقض الحقيقة الإيمانية فأى شىء تتوقع من الاشتراكية العلمية إذا ما تحدثت عن الدين وأصول عقيدته : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم** ﴾ .

وما أجل قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد** ﴾ .

وما أعظم قوله تبارك اسمه : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير** ﴾ .

لقد كان سلامة موسى ملحداً وعلمانيا لا تلين له قناة وكان من أوائل ما نشره كتاب بعنوان (نشوء فكرة الله) سنة ١٩١٢ وليس إذن من قبيل المصادفة أن يكون من بين أوائل ما كتب التلميذ النجيب المخلص لفكر سلامة موسى والمتأثر به بحث من عدة مقالات عن

فكرة (الله) وتطورها . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا فإذا كانت هذه حال الأستاذ فقد بطل العجب .

وإذا المعلم ساء لحظة بصيرة   جاءت لنظرته المعارف حولا

والأستاذ سلامة موسى هو الذى وضع فى فكر نجيب محفوظ قيمة العلم وقد تعجب عندما أغفل الكاتب نجيب محفوظ ذكر سلامة موسى وهو صاحب الأثر العميق فى فكره فقد ذكر العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم لحظة إعلان فوزه بالجائزة وألفاظ (العلم) و(الاشتراكية العلمية) وهى أسماء فخمة تخفى الدلالة الالحادية الوثيقة بها .

ألفاظ مملكة فى غير موضعها   كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وليس هذا ببعيد أو غريب عنا فإنه لا يعزب عن فكرنا بما جاء فى الميثاق الوطنى الذى أحاطه الكثير من مرضى القلوب بمواكب النفاق الرخيص حتى قال بعضهم هذا البيت الردىء الذى يطفح نفاقا وكفرا والحادا قال :

لو جوز التنزيل بعد محمد   لاستبدل الميثاق بالقرآن

وليس لدينا تعليق على هذا البيت إلا أن نقول : ليس بعد الكفر ذنب والحمد لله الذى تعهد بحفظ كتابه وقال : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ لولا ذلك الحفظ لاستبدلوا الميثاق بالقرآن كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

سبحانك هذا بهتان عظيم .. لقد جاء فى الميثاق : (حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة ولكن علينا أن نكشف حقيقة الدين وتجلية جوهر رسالته . وإن رسالة السماء كلها كانت ثورات وإن من واجب المفكرين الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته على أساس الاقتناع الحر) .

إن عبارة (الاقتناع الحر) عبارة براقة لينة الملمس كالثعبان الذى يلدغ وهو ناعم الملمس وذلك أننا إذا عرفنا أن الدين الرسمى للدولة السوفيتية والحزب الشيوعى السوفيتى هو (الالحاد العلمى) وأن الالحاد العلمى يعنى فى دائرة المعارف السوفيتية (الاقتناع الحر) لتبينا بوضوح وجلاء مدى الصلة الوثيقة بين (الاشتراكية العلمية) وميثاق (الاشتراكية العربية) . وليعلم القارىء أن الاشتراكية العلمية هى الماركسية الملحدة ويصبح هذا الكلام مفهوما عندما نعلم أن مؤلفات كبار الماركسيين السوفييت اختاروا لها عناوين مثل (محمد خرافة رجل لم يكن) و(رجعية الإسلام) وأنه استنادا إلى هذه المصادر السوفيتية جاء أول تفسير مادى للتاريخ الإسلامى فوصفت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة بأنها تمت نتيجة التجانس العقائدى مع جموع البروليتاريا من يهود يثرب. وغير سلامة موسى نذكر ما جاء فى

ص حيثيات منح جائزة نوبل لنجيب محفوظ من أنه تأثر بالمفكرين الغربيين مثل ماركس وفرويد وداروين . وسوف يرى القارىء فى كتابنا هذا كيف يسير فكر كاتب أولاد حارتنا فى نفس ذلك الاتجاه (التفسير المادى) لا لتاريخ الإسلام فحسب بل لتاريخ الرسالات السماوية كلها .

والآن نأتى إلى أهم وقائع تلك الرواية (أولاد حارتنا) وما اشتملت عليه من صور متنوعة اصطدمت بعقيدة الألوهية والرسالات السماوية التى أنزلها الله على أنبيائه المصطفين الأخيار ومن هؤلاء الأولاد ومن تلك الحارة؟ لقد ظهرت تحولات نجيب محفوظ الفكرية وتجدده العقلى على أعماله فى كل مرحلة ومن هذه المراحل المرحلة الفلسفية التى عنى فيها بمناقشة قضايا كونية شاملة مثل قضية الوجود أو المصير الإنسانى والبحث عن اليقين المفقود .. الخ . ومرت هذه المرحلة برواية شديدة الضخامة نشرت بجريدة الأهرام مسلسلة فى نهاية عام ١٩٥٩ ولم يشأ لها القدر أن تصدر فى مصر بعد ذلك وكانت بعنوان (أولاد حارتنا) وقد أراد الكاتب إعادة تشييد العالم ببناء يوتوبيا خاصة على أرض الحارة التى ابتكرها وهى حارة مصرية تعيش على حافة المدينة – القاهرة – تحفها الصحراء . حارة عمها الظلم والعسف نتيجة ممارسات الفتوات على أبناء الحارة من الكادحين والغلابة . يتتبع الكاتب تاريخ الحارة وكأنه يتتبع تاريخ البشرية منذ خلقها الله فالجبلاوى هو سيد الحارة وصاحبها وسكانها هم ذريته التى تسلسلت منذ أنشأ قصره الكبير فى نهاية الحارة . والجبلاوى قابع فى القصر يتابع ما يجرى من ظلم وعذاب لأبنائه دون أن يفعل شيئا حتى يخرج من ذريته من يحاول إقامة العدل والاصلاح أمثال (جبل) ثم يليه (رفاعة) ثم يليه (قاسم) وهم الذين يمثلون الرسالات الثلاث الكبرى ويستمر ما أقاموه من قيم العدل لفترة معينة بعدها سرعان ما يعود الظلم . و(أولاد حارتنا) تبشر فى جزئها الأخير بعنوان (عرفة) بالعلم حيث أن عصر العلم والاختراعات الجديدة يمكن أن يحل مشكلة أولاد الجبلاوى ، وكأن عرفة الذى يرمز للمعرفة هو المخلص للحارة من كل ما لم تنجح المبادىء السابقة فى تحقيقه ، فالعلم لابد أن يشمل كل شيء وهو ما دعا إليه نجيب محفوظ عندما حاول بناء الكون على أرض الحارة أو حاكى بناء الكون وتتبع تطوره منذ عصر الاسطورة حتى عصر العلم . وقد أحل المؤلف فى (أولاد حارتنا) رؤيته العلمية فى الجزء المسمى (عرفة) الذى استقدمه الكاتب ليكون خليفة للأنبياء العظام مما يصبح على حد قول د . جورج طرابيش : (العلم هو دين العصور الحديثة) . وهى المقولة التى تبناها نجيب محفوظ من خلال العلاقات الدرامية والأبنية الفنية التى قدمها فى أولاد حارتنا . ويرى جورج طرابيش أن الامتداد الموضوعى لأولاد حارتنا كانت القصة الرائعة (حكاية بلا بداية ولا نهاية) . فالأنبياء فيها ثلاثة كما فى أولاد حارتنا ولكنهم ليسوا أنبياء الكتب المقدسة بل أنبياء عصر العلم خلفاء عرفة وقد أتوا فى قصة نجيب

محفوظ بعد أن ارتدوا ملابس الصوفية بينما هم يمثلون فكر كل من كوبرنيكس – وداروين – وفرويد .

ما الذى أهل ذلك الكاتب لتلك الجائزة (جائزة نوبل) ؟

إن عملين من أعمال نجيب محفوظ كانا مستندا للجنة نوبل عند اختيارها للأديب عند منحه جائزتها عن عام ١٩٨٨ وهما (أولاد حارتنا) و(ثرثرة فوق النيل) وما تكاد تمضى سنتان على انتهاء نشر الثلاثية فى عام ١٩٥٧ حتى تبتدىء جريدة (الأهرام) سنة ١٩٥٩ نشر رواية جديدة لكاتبنا هى (أولاد حارتنا) المكتوبة بطريقة تختلف تماما أو تكاد عن أسلوبه السابق ، اتسعت فيها حدود الزمن إلى ما لا نهاية من الماضى الاسطورى إلى المستقبل البعيد كل البعد . ومع أن المكان الذى تتطور فيه الأحداث ضيق جدا وهو (حارتنا) وبعض الحارات المجاورة وأن جبل المقطم كان هو المنفى البعيد لأبطال الرواية فرغم ذلك تتسع المسافات الروائية لتشمل أراضى الشرق الأوسط برمته ، هذا الشرق الذى هو مهد أديان التوحيد الثلاثة .

أبطال الرواية :

أما أبطال الرواية فهم ليسوا بالأناس العاديين بل إنهم أصحاب الرسالة الموحى بها ولعل مصدر الوحى جدهم الجبلاوى أو هو نفوسهم المملوءة بعذاب البشر وهم مناضلون فى سبيل إقامة العدل بين أهل الحارة ومن أجل الرخاء والسعادة .

ملحوظة :

إذا كانت الجائزة للكاتب كعمل تقديرى على عطائه الابداعى طيلة حياته فإنه فى الغالب يتم التركيز على عمل واحد من بين أعماله وذلك من خلال صياغة الديباجة السنوية التى يتلوها ممثل الأكاديمية أمام رجال الاعلام وهى ديباجة متكررة المعانى تكشف عن مدى الهدف الإنسانى والأخلاق الذى تلعبه الأكاديمية إلا أنه عادة ما يتم منح الجائزةللكاتب فيما يتعلق بعمل ابداعى بمعين مع التركيز على أهمية ما يمثله هذا العمل وسط عطائه الآخر مثلما فعلت الأكاديمية حيث أشارت إلى أن نجيب محفوظ قد منح الجائزة على روايته (أولاد حارتنا) مع الاشارة إلى الثلاثية و(ثرثرة فوق النيل)

مرحلة صمت :

وقد انقطع صمت نجيب محفوظ فقط سنة ١٩٥٩ بنشر (أولاد حارتنا) وهى رواية رمزية تقدم أساسا رؤية متشائمة لكفاح الإنسان من أجل وجوده . وقد برهنت معالجته

للموضوع على أنها لا تروق للمؤسسة الدينية فى مصر وشعر أن أفضل نصيحة له هى أن يمتنع عن نشرها فى كتاب داخل مصر بالرغم من أنها منذ ذلك الحين أصبحت متاحة لدى ناشر لبنانى وبسبب ما لاقاه هذا العمل من ردود فعل متباينة فقد ثبطت همته ولم ينشر أى أعمال أخرى لمدة عدة سنوات ، وقصته المنشورة سنة ١٩٦٢ (اللص والكلاب) تتناول بطريق حذر موضوعا أقل تعقيدا وأقل إثارة للنزاع .. وكان محفوظ قد سبق له فى سنة ١٩٥٩ أن جلب على نفسه غضب علماء الأزهر معقل الإسلام وذلك بروايته الرمزية الاجتماعية والدينية (أولاد حارتنا) التى يمثل فيها أحد الشخصيات (الله) بينما يظهر فيها أيضا (موسى) و(عيسى) و(محمد) . وقد اضطر أن ينشر العمل فى لبنان .

لقد كانت قصة (أولاد حارتنا) المنشورة فى ترجمة انجليزية تحت عنوان (أبناء الجبلاوى) قصة رمزية متفردة عن تاريخ البشرية منذ الخلق أو التكوين وحتى عصرنا الحاضر . وقد نزعت القداسة عن الأنبياء موسى وعيسى ومحمد وقد تم تمثيلهم تحت ستار رقيق باعتبارهم لا يزيدون عن كونهم مصلحين اجتماعيين ناضلوا بأقصى جهدهم لتحرير شعوبهم من الطغيان والاستغلال .

(موت الله) (المرجع كتاب الطريق إلى نوبل ص ١٨) للدكتور محمد يحيى – معتز شكرى . وفى القصة شخصية أخرى تمثل العلم الذى يتم اظهاره على أنه حل محل الدين وعلى يديه تحقق فى النهاية موت الله وتنتهى هذه القصة بنغمة تشاؤم حزين وإن كان ثمة بصيص من الأمل ، فالتشاؤم الحزين فى هذه الحالة هو إفساد (أو إساءة استغلال) [عرفة] العلم وتحالفه مع القوى الغاشمة التى تقضى عليه فى النهاية . بينما يكمن الأمل فى كراسته الأخيرة التى تحتوى على الوصفات أو التراكيب الخاصة بالتقدم والسعادة . والمشهد الأخير يصور البشرية وهى تنقب فى حماس واستثارة وسط أكوام القمامة عن شىء يبشر بخلاصها .

العقيدة الإيمانية الصحيحة

الله حى لا يمـــوت

﴿ ولا تدع مع الله إلهاآخرلا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ . ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾ . ﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾ .

﴿ **كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾ . أخطر ما جاء فى هذه الرواية ما تحدثت فيه عن الذات الأعظم عن الله جل جلاله وأنه قد انتهى دوره عندما ظهر العلم الذى رمز له بعرفة وأن الإله قد مات ونحن نبادر هنا بالرد على تلك الفرية فنبين العقيدة الإيمانية الصحيحة التى تبين أن الله جل جلاله حى لا يموت أبداً فهو أزلى لا أول لوجوده وأبدى لا آخر لوجوده ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم** ﴾ .

الله واجب الوجود لذاتــه

الحمد لله رب العالمين ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير** ﴾ .

وأشهد أن لا إله إلا الله من أرضى الله باسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ومن أسخط الله بارضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته :

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ... ويجود للعاصــين بالغفــران
وإذا أتاه الطالبـون لعفــوه ... ستر القبيح وجاد بالاحســان

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله صلوات ربى وسلامه عليه . هو الإنسان الكامل والمثل الأعلى والقدوة الطيبة أخلص قلبه لله فى السر والعلن وبين ثمرة ذلك فقال فى الحديث الشريف : « **من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم** » .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

البدر دونك فى حسن وفى شرف ... والبحر دونك فى خير وفى كرم
أخوك عيسى دعا ميت فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من العدم

صلى عليك لله يا علم الهدى ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

إن الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى . فاعلم يا أخا الإسلام أنه لابد لك من قرين يدخل معك قبرك وهو حى وتدخل معه وأنت ميت فإن كان صالحاً أكرمك وإن كان لئيما خذلك فاجعله صالحاً فإنه عملك :

القبر باب وكل الناس داخلـه ... يا ليت شعـرى بعد الموت ما الــدار
الدار دار نعـيم إن عملـت بما ... يرضى الإلـه وإن خالفت فالنــار

هما محلان ما للعبد غيرهما فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا وإن هفوا هفوة فالرب غفار

عندما قرأت وقائع هذه الرواية (أولاد حارتنا) سالت النفس مرارة وانفطر الفؤاد أسفاً وتذكرت قول الله تعالى : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾ ومما تنشق له قلوب الأسود لوعة وتنفطر منه مرائر النمور حزنا ما جاء فى هذه الرواية من موت الله عندما ظهر العلم وتذكرت قول الله تعالى: ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ . وقول الله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم** ﴾ .

وقال جل شأنه: ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر** ﴾ ووقفت أفكر وأطيل التأمل فى هذه الانذارات الإلهية المتلاحقة التى تنخلع لها القلوب وتنفطر من هولها الأكباد من ذلك قوله جل شأنه : ﴿ **أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون** ﴾ .

وقوله جلت حكمته : ﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير** ﴾ كل أولئك وغيره دعانى والرغبة شديدة والغرض ملح فى الكتابة فى هذا الموضوع الذى يدفع النفوس إلى الاسراع فى تحصيل الخير والبعد عن مسالك الشر فإن الدنيا ليست هى دار الجزاء إنما الآخرة هى التى يقوم الناس فيها لرب العالمين ليلقى كل ما قدمت يداه .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

قال الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه للعالم الزاهد الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا يا تقى الدين ؟ فقال الحسن : (يا أمير المؤمنين صم عن الدنيا وافطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة) . هذا جلال الموعظة وتلك روعة التقوى صدرت من قلب سليم وحلت فى قلب سليم . كلمة قالها عالم زاهد وطلبها خليفة زاهد ، ومن عجب أن نخرب الآخرة ونعمر الدنيا مع أن التى نخربها باقية لا تفنى والتى نجرى وراءها ونلهث من متاعبها فانية لا تبقى : **﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾** .

وقال تعالى : **﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾** .

الله حـــق

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ .. ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .. ﴿ يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات ﴾ .

الإسلام يدعو إلى العلم ويرفع قدر أهله ويشيد بالمعرفة ويجل من قدر أصحابها . ومن حقائق الإسلام الثابتة التى تركزت حولها دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعا الإيمان بالله واليوم الآخر ولذلك جاء الإيمان بهما فى آيات كثيرة من القرآن الكريم وفى أحاديث نبوية صحيحة .

فمن ذلك قوله تعالى : **﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾** وقوله عليه الصلاة والسلام: **« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره »** إلا أن هناك نفوسا أبت إلا أن تحجب نفسها عن الرؤية الصافية وآلت على نفسها أن تظل ملففة فى حجب الكبرياء الداكنة فتراهم مرة يجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وتراهم مرة أخرى ينكرون ما بعد الموت من بعث وحساب وجنة ونار يدفعهم إلى ذلك دوافع عديدة أولها : الجهل بالإسلام وكتابه ونبيه كذلك يدفعهم ما يسيطر على عقولهم من قضايا باطلة ورثوها عن آبائهم الأولين .. كذلك يدفعهم على إنكار تلك الحقائق إدعاء الظهور بالمعرفة وحب الجدال بالباطل وغالبا ما يكون الدافع لهؤلاء : العناد والاصرار على ما يدور فى رؤوسهم

وهما منهم أن ذلك يزيدهم فى نظر الناس رفعة عندما يتشدقون بالمعرفة ويدعون العلم .. ومن شك فى قضية الألوهية فإنه بالتالى سيشك فى قضية البعث وقد يغتر الإنسان بقوته وجبروته فينسى قوة الله وعظمته . من ذلك قال الله تعالى فى شأن عاد قوم هود عليه السلام : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ .

وقد تدفع العصبية العمياء صاحبها إلى الاصرار على الضلال : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾ .

أما الذين ينشدون الحق لذاته ويلهثون وراء المعرفة بقصد الوصول إلى الغاية الشريفة فهؤلاء هم المنصفون الفائزون الذين رفع القرآن من قدرهم حيث قال فيهم مولانا : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ .

وقال فيهم جل شأنه : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ وقال فيهم رسول الله ﷺ : « **العلماء ورثة الأنبياء** » .

وإن تعجب فعجب قول هؤلاء المتشدقين باسم العلم وهم أبعد ما يكونون عن العلم الصحيح تراهم يخبطون فى الإسلام خبط عشواء وهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم ، إذا جالستهم ودار الحديث فى أى علم من العلوم الوضعية الحديثة أشرأبت أعناقهم وارتفعت هاماتهم يدعون أنهم قد أحاطوا بها علما وبمعرفة دقائقها بحثا وتمحيصا فإذا ذكر أمثال (فرويد) و(سارتر) و(وليم مكدوجل) و(دير ملجم) و(مونتييه) امتلأوا عزا وفخارا فإذا ذكر الله انتفخت الأوداج منهم غضبا ونفرت العروق بالدماء رهقاً .

هؤلاء هم الذين يصدق عليهم قول القرآن العظيم : ﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾ . وأما المؤمنون الصادقون فإن حالهم مع الله دائما معرفة بحقوقه وخوف من آياته وتفكير فى عظمته : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ ولو تفكر المتشدقون باسم العلم من أدعياء المعرفة فيما يقوله العلماء المحدثون فى شتى علوم الحياة لعلموا أنهم فى حاجة ملحة إلى أن يدرسوا ويحصلوا ويسعوا وراء الحقائق لا وراء الخيالات .

ماذا يقول علماء الكون عن حقيقة الوجود والوحدانية لله العلى العظيم . إليك أيها القارىء الكريم هذه النماذج من تلك الحقائق :

يقول د . وولتر أوسكار لندبرج (عالم الفسيولوجيا والكيمياء : (إن العلم يؤدى إلى الإيمان بالله لولا شيوع الالحاد والتعصب الأعمى) وقال : (إن فى الكون دلائل على قدرة الله ويجب على العالم أن يعرفها) .

ويقول د . ايرفنج وليام فوبلوتس (أستاذ العلوم الطبيعية) : (إن بعض الناس ينظرون إلى الحياة نظرة مادية ويفسرونها تفسيرا ماديا يعتمد على المصادفة ولكن العلوم لا تستطيع خلق السعادة والجمال والحق وان تحللها ولكن فى الوقت نفسه تستطيع أن تثبت وجود الله) .

ويقول د . جون وليام كلوتس (عالم فى الوراثة) : (إن النبات وتكوينه والحيوانات البرية ومعيشتها تحت ظروف خاصة لابد لها من منظم) .

ويقول د . جورج أيرل دانِز (عالم الطبيعة) : (إن المشتغل بالعلوم يستطيع أن يتأكد من أن هذا الكون له نظام وخالق إذا نظر إلى كل ما حوله من ذرات وكواكب وأحياء وأن هذا الإله ليس ماديا وليس له مثيل) .

ويقول د . بول كلارنس ايرسولد (أستاذ الطبيعة الحيوية) : (إن كل إنسان يستطيع أن يثبت أن لهذا الكون إلها وأن هذا الكون لا يقوم على المصادفة إذا مزج بين الناحية المادية والروحية بدون تحيز) .

ويقول د . توماس دافيد باركسن (أستاذ الكيمياء) : (إن الناظر للوزن الجزئى للماء وهو [١٨] يتوقع أن يكون غازيا تحت درجة الحرارة المعتادة والضغط فالنوشادر مثلا تكون غازية عند درجة حرارة ناقص [٧٣] وتحت الضغط الجوى المعتاد ووزنها الجزئى [١٧] ووجود الماء على الحالة السائلة فى درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر ولصفات الماء الأخرى تأثير على درجة حرارة سطح الأرض وكذلك تلك الصفة التى تساعد على حياة الكائنات الحية فى الماء عندما يتجمد وتلك الصفة هى أنه تقل كثافة الماء عندما يتجمد وللماء فوائد أخرى فى حياة الإنسان وهذا درس واحد من الماء علمنا منه أن لهذا الكون إلها ونظاما) .

ويقول د . ميريت ستانلى كونجرن (عالم طبيعى وفيلسوف) : (إن الاستدلال المنطقى فى كثير من الأحيان هو الذى يوصلنا إلى بعض الحقائق الطبيعية وقد استخدم كثيرا فى علم الفلك . فالأجرام والكواكب لا تخضع للتجربة ولكننا وصلنا إلى نتائج مفيدة فى هذا العلم استفاد منها الإنسان وكذلك فى علم الذرة عرفت آثارها وخواصها ولذلك يمكن أن نستخدم الاستدلال المنطقى فى إدراك معرفة الله ومعرفة صفاته فمن الثابت المنطقى أن له

صفات كالحكمة والقدرة والارادة ولا يمكن أن يصف الإنسان شيئا ماديا بشىء غير مادى وكذلك لا يمكن للعلم أن يفسر ظواهر غير مادية مثل التمثيل الضوئى ودورة الماء فى الطبيعة ودورة ثانى أكسيد الكربون وما لا يحصى من العجائب التى لا يمكن أن تقوم على المصادفة العمياء العشواء ولابد أن يكون هنالك إله قادر عالم عظيم) .

ويقول د . روبرت موريس بيج (عالم الطبيعة وأول من اكتشف الرادار سنة ١٩٣٤) : (لإدراك وجود الله: يجب أن نضع أمام أعيننا أننا لانستطيع أن نفسر جميع الظواهر الموجودة أمامنا بعلمنا لأن حواسنا قدراتها محدودة ضئيلة وأن الإله ليس ماديا يحدد بعوامل الزمان والمكان ويجب أن يكون شرط الإيمان هو أن تكون هناك علاقة بين الإنسان وخالقه فعندئذ تغمر المحبة قلبه ويصبح مؤمنا بالله) .

ويقول د . جون كليفلاند كوثران (عالم الكيمياء والرياضة) : (أنه يوجد عوالم ثلاثة :

١ - عالم المادة .

٢ - عالم الفكر (العقل) .

٣ - عالم الروح .

وأن ما يمكن أن تقدمه الكيمياء فى هذا المجال سيكون محدودا لأنه قليل من كثير فيه والكيمياء : علم مادى ليس له صلة بالروح فكيف تثبت لنا أن لهذا الكون إلها ؟

وسلوك المادة لابد أن يخضع لقوانين ثابتة فكيف تصنع المصادفة هذه القوانين وترتيب العناصر فى جدول دورى (جدول مانديليف) ترتيبا دوريا أدى لاستنباط عناصر مجهولة لا يمكن أن تتحكم فى ذلك الصدفة العشوائية ؟ فهل يمكن التنبؤ بذلك إذا كانت تتحكم فيه الصدفة والعناصر رغم عدم اتحادها فى اللون والكثافة وسرعة التفاعل والميل المغناطيسى والحالة الموجودة عليها فإنها تتكون من بروتونات ونيوترونات داخل النواة ومن الكترونات خارج النواة فى مدارات مختلفة وهذه البروتونات والنيوترونات والالكترونات تختلف فى إعدادها من مادة لأخرى فهل ذلك يترك للمصادفة العمياء أو أن المصادفة هى التى أوجدت هذا النظام (لابد من وجود إله قادر حكيم منظم) .

ويقول د . إدوارد كوثر كيسيل (إخصائى علم الحيوان والحشرات) : (القانون الثانى للديناميكا الحرارية يثبت أن لهذا الكون بداية ولا يمكن أن يكون أزليا فهنالك انتقال للحرارة من الأجسام الساخنة إلى الباردة ولا يمكن أن يحدث ذلك بالعكس إلا بتأثير قوة ذاتية

ومعنى ذلك أنه سيأتى اليوم الذى تتساوى فيه درجات الحرارة وتقف العمليات الحيوية ولما كانت الحياة مستمرة وقائمة إذن لابد أن يكون لهذا الكون بداية ولابد له من مبدىء محرك أول وهو الله والذى يقوم بالخلق والايجاد هو الله وليست الطبيعة الصماء ولا الصدفة العمياء) .

ويقول د . أ . كريس موريسون (رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك : (إذا أردنا أن نثبت وجود الله وتنظيمه وحكمته وقدرته فلنتخذ من الأكسوجين مثلا على التنظيم المحرك إلى غير حد إن الهواء الذى فوق الأرض مكون من الأكسوجين والنتروجين وبخار الماء وثانى أكسيد الكربون بنسبة ٣/١٠٠ من ١٪ والغازات النادرة ومن أهمها الأرجون الذى يوجد بنسبة ٩/١٠ فى ١٪ فإنه يعطينا النور الساطع الباهر الذى تتقدم به المدينة حيث يستخدم فيما سبق ويوجد النتروجين بنسبة ٧٨٪ تقريبا فى الهواء والأكسوجين بنسبة ٢١٪ فى الهوا. وللهواء ضغط يعادل ١٥ رطلا على البوصة المربعة من السطح بمستوى البحر والأكسوجين الذى ف الهواء جزء من هذا الضغط وهو بمعدل نحو ثلاثة أرطال على البوصة المربعة وكل الباقى من الأوكسيجين محبوس فى شكل مركبات فى قشرة الأرض وهو يكون ٨/١٠ من جميع المياه فى العالم والأوكسيجين وهو نسمة الحياة لكل الأحياء التى فوق الأرض هو ما لا يمكن الحصول عليه لهذا الغرض إلا من الهواء .

ولنا أن نسأل : كيف أن هذا العنصر ذا النشاط البالغ من الوجهة الكيميائية قد أفلت من الاتحاد مع غيره وترك فى الجو بنفس النسبة تقريبا اللازمة لجميع الكائنات الحية .

لو كان الأوكسيجين بنسبة ٥٠٪ مثلا أو أكثر فى الهواء بدلا من ٢١٪ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق فى العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر .

ولو أن نسبة الأوكسيجين فى الهواء قد هبطت إلى ١٠٪ أو أقل فإن الحياة تكون مهددة بالخطر إذ أن ذلك يؤدى إلى اختناق الأحياء على وجه الأرض .

ثم يستطرد ذلك العالم قائلا : (حينما يتنفس الإنسان الأوكسيجين يتلقاه الدم ويوزعه فى خلايا جسمه وهذا الأوكسيجين يحرق طعامه فى كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة منخفضة نسبيا ولكن النتيجة هى ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء ولذا فإنه إذا وصف الإنسان بأنه يتنهد كالأتون ففى ذلك شيء من الحقيقة وثانى أكسيد الكربون يتسلل إلى رئتيه ويكون غير قابل للتنفس إلا بمقادير صغيرة وهو يحرك رئتيه وعندئذ يتنفس الأوكسيجين ويخرج ثانى أكسيد الكربون وهكذا كل كائن حيوانى حى يلفظ ثانى أكسيد الكربون ويمتص الأوكسيجين . وما من شك فى أن الأوكسيجين ضرورى للحياة لتأثيره فى عناصر أخرى فى

الدم وفى أجزاء أخرى فى الجسم وبدونه تتوقف عمليات الحياة) . ثم يتكلم بعد ذلك عن المملكة النباتية من حيث الأوكسيجين وثانى أكسيد الكربون وعلاقة ذلك بالإنسان فيقول :

(تعتمد حياة كل نبات كما هو معروف على المقادير التى تكون متناهية الصغر من ثانى أكسيد الكربون الموجودة فى الهواء والتى يمكن القول بأن النبات يتنسمها ولكى نوضح هذا التفاعل الكيماوى المركب الخاص بالتركيب الضوئى بأبسط طريقة ممكنة نقول أن أوراق النبات هى رئات وأن لها القدرة فى ضوء الشمس على تجزئة ثانى أكسيد الكربون إلى كربون وأكسوجين . وبتعبير آخر يلفظ النبات الأوكسيجين ويحتفظ بالكربون متحدا مع أيدروجين الماء الذى يستمد النبات بواسطة جذوره من الأرض ويصنع الله من هذه العناصر سكرا أو سيلولوزا ومواد كيميائية أخرى عديدة وفواكه وأزهارا ويغذى النبات نفسه وينتج فائضاً يكفى لتغذية كل حيوان على وجه الأرض وفى الوقت نفسه يلفظ النبات الأوكسيجين الذى نتنسمه وبدونه تنتهى الحياة بعد خمس دقائق) .

وهكذا نجد أن جميع النباتات والغابات وكل ما يتعلق بحياة الزرع تبنى تكوينها من الكربون والماء ونلاحظ أن الحيوانات تلفظ ثانى أكسيد الكربون بينما تلفظ النباتات الأوكسيجين . ولو لم تتم هذه المقايضة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفد فى النهاية كل الأوكسيجين أو كل ثانى أكسيد الكربون تقريبا ومتى انقلب التوازن ذبل النبات أو مات الحيوان . هذا وقد اكتشف أخيراً أن وجود ثانى أكسيد الكربون بمقادير صغيرة هو أيضا ضرورى لمعظم الحيوانات كما اكتشف أن النباتات تستخدم بعض الأوكسيجين .

ثم يحدثنا عن الأيدروجين فيقول :

(يجب أن يضاف الأيدروجين أيضا وإن كنا لا نتنسمه فبدون الأيدروجين ما وجد الماء ونسبة الماء فى المادة الحيوانية أو النباتية كبيرة جداً) . ثم يستطرد قائلا : (إن الأوكسيجين والأيدروجين وثانى أكسيد الكربون والكربون كل تلك العناصر سواء أكانت منعزلة أو على علاقاتها المختلفة مع بعضها هى العناصر البيولوجية الرئيسية وهى الأساس الذى تقوم عليه الحياة) .

ويخلص بنا ذلك البروفيسور العالم إلى نتيجة محتومة وصحيحة لأنها جاءت بعد مقدمات صحيحة هذه النتيجة يقول فيها : (أنه لا يمكن أن تكون هناك مصادفة بين عدة بلايين من آحاد المخلوقات تقضى بأن تكون كلها فى وقت واحد وفى كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة) . ويرد بقوة وصرامة على الذين يلحدون فى آيات الله ويتشدقون بكلمة المصادفة والطبيعة فيقول : (إن القول بأن ذلك نتيجة المصادفة إنما هو قول يتحدى العلوم الرياضية) .

غـــزو الفضـــاء

وأخيرا وليس آخرا ننتقل من هذه النماذج العلمية الثابتة مع أساطين الفكر وأساتذة العلوم الذين حدثونا فى شتى القوانين العلمية ومختلف العلوم الحديثة إلى رائد الفضاء حيث قد عبر الجاذبية الأرضية ليصل إلى القمر فى عصر غزو الفضاء . ماذا يقول ذلك الرائد وهو فى سفينته (أبوللو) يقول القائد فرانك بورمان : (الله خلق السماوات والأرض) ثم يستطرد قائلا : (يا إلهى امنحنا الرؤية حتى نستطيع أن نرى الحب الإلهى الذى يسود العالم بالرغم من الاخفاق الإنسانى وامنحنا الإيمان حتى نثق فى الخير بالرغم من جهلنا وضعفنا وامنحنا المعرفة حتى نستطيع مواصلة الصلاة بقلوب واعية واجعلنا نرى ما يستطيع كل منا أن يفعله حتى يقترب هذا اليوم الذى يسود فيه العالم السلام العالمى) .

مؤمنـــون حقـــا

طالعتنا جريدة (المساء) فى عددها رقم ٤٩٦٣ الصادر بتاريخ الأربعاء الموافق الرابع من جمادى الأولى سنة ١٣٩٠ هـ – الثامن من يوليو ١٩٧٠ م طالعتنا بهذا العنوان :

(خمسة آلاف من الدانمارك يعتنقون الإسلام) جاء فى هذا المقال حوار دار بين المحرر وبين أحد المسلمين الدانماركيين . قال الدانمركى للمحرر : أعتقد أنك عربى ؟ فقلت : طبعا . قال : وما هى ديانتك ؟ قلت : مسلم . ويقول المحرر : بدأت أشرح له مفهوم الديانة الإسلامية ومدى انتشارها فى العالم . وبعد أن استمع لحديثى قال لى : أنا أعرف الإسلام جيدا وإننى أدرسه لأننى أعتقد أن يوما ما سأكون مسلما وقد أسلمت. ويقول المحرر: ثم أحضر ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم وأخذ يشرح لى ما درسه وما فهمه حتى أصبح ملما بشروط الإسلام وأركانه وتعاليمه . وراح يسألنى السؤال تلو السؤال وأنا أجيبه بقدر ما أعلم إلا أنى فى الحقيقة شعرت بالخجل فقد اكتشفت أنه يعرف عن الإسلام أكثر منى إنه قارىء واع يحفظ بعضا من الآيات القرآنية كما يعرف تفسيرها تماما ثم أخبرنى هذا المسلم الدانمركى أنه قد بنى مسجد فى كوبنهاجن (عاصمة الدانمرك) على أحدث طريقة عصرية وأن الدانمركيون يذهبون إليه لأداء الصلاة فيه وكثيرا ما أذهب إليه أقضى بعض الوقت ، إننى أحس فيه براحة نفسية غريبة .

ويمضى المحرر فى حديثه فيقول : لقد حدثنى هذا المسلم قائلا : غدا سأصحبك إلى هذا المسجد إنه فى أطراف المدينة ولكنك يجب أن تشاهده وتزوره . وبعد ذهابى معه إلى

المسجد لاحظت أن الرجال يصلون فى مقدمته بينما النساء يصلين فى مؤخرته وقد راعنى أن رأيت على باب المسجد سيدة شابة ترتدى الملابس الإسلامية الطويلة التى لا تظهر من جسدها شيئا وقد لفت رأسها بغطاء أبيض .. أخطأت عندما مددت يدى لتحيتها فرفضت أن تصافحنى واكتفت بإيماءة من رأسها .

هذه السيدة من الدانمارك ومتزوجة رجل أمريكى مسلم .. قالت لى : (إننى لم أسلم ، لأننى تزوجت برجل مسلم فكلانا - أنا وزوجى - اعتنقنا الإسلام عن عقيدة واقتناع كاملين) .

ولقد علمت أنهما مواظبان على حضور دروس العلم فى مسجد (كوبنهاجن) كما علمت أنهما محافظان على صيام رمضان .

قلت لها : ما هى أنواع الطعام التى تأكلونها فى رمضان ؟

قالت : أقل الطعام .. ففى هذا الشهر لا يهمنا الطعام كثيرا .. بل إننا لم نحسب له حسابا .. ويكفينا كوب من اللبن وقطعة من لحم البقر .. إننا نخرج بعد هذا الشهر بصحة ممتازة ..

ثم قالت : (إن ابنتى الصغيرة لا تقوى على الصوم ، ولكن عندما تبلغ ثمانى سنوات سأنصحها بمزاولة هذه الرياضة الدينية الرائعة) .

ثم يستطرد المحرر قائلا : لقد علمت أن هذا المسجد أنشىء سنة ١٩٦٧ على نفقة رجل من مسلمى باكستان الأثرياء وقامت الهيئات الإنشائية فى الدانمارك بتصميمه وبنائه ، وقد تكلف بناء هذا المسجد خمسين ألف جنيه ويضم مكتبة تحتوى على نفائس الكتب الإسلامية ، كما تحتوى على مجموعة من النشرات عن فضائل الإسلام وفضائل الصلاة ، وكل هذه الكتب قام بإعدادها المسلمون الباكستانيون فى (كوبنهاجن) .

اللهم إنا نرفع أكف الضراعة إليك أن تجعلنا كذلك ، لنترسم خطا نبيك الكريم ، ونعمل بكتابك المستبين .

وبعد : فهذه جولة مع الإسلام أثبتنا فيها أن الإسلام حقائق ثابتة ، وأنه يحمل من عوامل القوة ما يمكنه أن ينشر نفسه بنفسه ، وأن فيه من الخصائص الذاتية ما لو عرض على العقول السليمة لتمكن فيها أفضل تمكين .

قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فأجاب إجابة موجزة المبنى لكنها عظيمة المعنى ، قال : لأنه لم يأمر بشىء ، وقال : العقل ليته ما أمر ولم ينهه عن شىء ، وقال : العقل ليته ما نهى .

رجـــاء ، ورجـــاء ....

ليت الذين يضعون العصابة السوداء على عيونهم ويجادلون فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .. ليتهم يمعنون النظر الصحيح والفكر السديد فى قضايا الإسلام بقصد الوصول إلى الحق ، فقديما قيل : (قال أرسطو : أفلاطون صديق ، والحق صديق ، ولكن : الحق أصدق منه) .

وقد قرر القرآن الكريم هذه القاعدة الإسلامية ، وهى قاعدة العدل والإنصاف ، حيث قال جل شأنه : **﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون ﴾** .

وقفـــة تأمـــل

عندما يلقى القارىء الكريم نظرة فاحصة على ما قدمناه من النماذج العلمية وحقائق البحث المجرد : لا يسعه – إذا كان هدفه الوصول إلى الحق – إلا أن يردد معنا هذه الآيات الكريمة :

﴿ الله خالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ .

﴿ قل : أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد ، وكن من الشاكرين . وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

أخى القارىء :

كل الكائنات العليا فى هذا الكون الكبير تدفعها قوة الله إلى استشراق عظمته وكبريائه ، وكل الكائنات تبحث بحثاً حثيثاً للوصول إلى صراط الله الذى خلق عالمنا الفذ ، وألهمه سننه وقوانينه ، ونظامه المحكم الوثيق . وكل إنسان تناديه هذه الأسرار .

وقد اختلفت مسالك الناس فى طريق معرفة الله . فمنا من اهتدى إلى الله بطريق الرسائل الدينية ومناهج الأنبياء ، ومنا من سلك طريق العلوم التى أوصلته إلى معرفة الله ووجوده ، ومنا من سلك هذا الطريق متتبعاً خطى العلماء .

وهذه المسالك - وإن تنوعت - إلا أن الغاية المنشودة منها هى معرفة أن الله واحد ، وأنه أنزل كتابا معجزاً وهادياً ، وعلى نبى جعل دعوته دعوة عالمية ، ﷺ .

قضيـــة الألوهيـــة

أعلم بأن العقل السليم لا يمكن بأى حال أن يصطدم بقضية الألوهية أو يختلف معها أدنى اختلاف ، فإن الله تعالى - عندما دعا الناس إلى الإيمان به - لم يكلفهم بما يشق فهمه على عقولهم ، فليست قضية الألوهية ألغازاً أو طلاسم ، فقد نصبت الآيات فى الآفاق والأنفس ناطقة وشاهدة على وجود خالقها ، وسبيل العباد إلى معرفة هذا النظر والتأمل وشحذ قوى العقل جميعاً .

تأمل معى فى هذه الآيات الكريمة : ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ ..، وقوله جل شأنه : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم : أفلا تبصرون ؟** ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ؟ ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟** ﴾ . وفى قوله جل شأنه : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾ .

إن فى هذه الآيات لدعوة صريحة إلى البحث عن الحقيقة العليا من خلال ملاحظة الآيات الكونية ملاحظة عقلية وعلمية .

وتأمل معى يا أخا الإسلام هذا المشهد القرآنى الرائع الذى وقفه أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاج به قومه الذين عبدوا الأجرام وخضعوا للأفلاك وكيف أن الخليل عليه السلام ساق أمامهم الحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة على أن هذه كلها مخلوقات يطرأ عليها الأفول ، ويلازمها التغير فلابد لها من مؤثر يؤثر فيها تلك الخصائص ، ولابد لها من خالق يصرفها بحكمة عالية ، وإرادة نافذة ، وسلطان قاهر ..

يقول المشهد القرآنى العظيم : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل ، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل ، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة ، قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون** ﴾ .

وبعد إرخاء العنان للخصم ثم تلقينه الحقيقة أعلنها إبراهيم الخليل عليه السلام صريحة مجلجله ، وقوية مدوية ، فى قلعة الأصنام ، وعاصمة الشرك : ﴿ **إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين** ﴾ هذا هو المنطق السديد ، وهذه هى أحكام العقل الرشيد ، يعلنها الخليل عليه السلام الذى رفع لواء التوحيد بعدما أثبت لكل مخالف معارض أن الفطرة السليمة تهتف بوحدانية الله تعالى ، وأن كوناً عجيباً يسير بهذه الدقة المتناهية فى الحكمة والاتساق ، لا يمكن أن يكون وراءه الصدفة أو الطبيعة الصماء .. بل لابد له من إله حكيم قادر .

فلا نسأل بعد ذلك عن الله بمتى كان : لأنه خالق الزمان ، ولا بأين هو : لأنه خالق المكان ، ولا نسأل عن الكيفية أو المائية فإنه سبحانه ليس بمتلون ولا متكيف ، والعارفون بالله علموا قدره باشراق البصيرة . وما أجمل ما قالته العارفة بالله (رابعة) رضى الله عنها حين سئلت : ما الدليل على وجود الله ؟ فقالت بأسلوب التعجب : ومتى غاب سبحانة حتى يسأل عن وجوده ؟

وما أروع ما قاله الإمام على رضى الله عنه حين سئل فقيل له : متى كان الله ؟ فأجاب بمنطقه الرائع وأسلوبه الحكيم قائلا : ومتى لم يكن ؟

آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاهد ووجوده - أى الجاحد - فى ملك الله دليل على وجود الله : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون ؟** ﴾ .

فإذا سألت عن الله بهذا الأسلوب الساذج فاعلم بأن هذه الأسئلة من وحى الطفولة المادية الساذجة ، وأن العقل لا يزال محجوباً بحجب الغفلة عن الحقيقة العليا .

نسأل الله السلامة

معرفـــة الله تعـــالى

لقد سئل رسول الله ﷺ : كيف رأيت ربك ؟ فأجاب قائلا : « **نور أنى أراه ؟** » .

لقد وضع السلف الصالح معياراً دقيقاً لذلك فقالوا : كل ما خطر ببالك فإنه هالك ، والله بخلاف ذلك .

فاعرف الله يا أخى معرفة تليق بذاته : لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار .

أعرف الله تعالى معرفة تليق بكرمه عليك ، ومنته الكبرى بك ، فإنه – جل شأنه – رفع من شأن الإنسان وقال للملائكة : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ ، كما قال لهم : ﴿ **إنى خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ .

ويرحم الله بلال بن رباح وقد قيل له : يا بلال : من أبوك ؟ فأجاب على الفور : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة .

إن الإيمان بالله فى حقيقته يمثل اسمى آفاق التفكير الإنسانى وأسمى منازع التقدم والانطلاق والإيمان . يقول للإنسان : ﴿ **وأن إلى ربك المنتهى** ﴾ .

ولكى نسلك الطريق إلى الله فلابد أن نسير على منهاجه المستقيم الذى حدد القرآن معالمه فقال : ﴿ **وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً** ﴾ . وقال أيضاً : ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾ .

بقى هنا سؤال : هل نفى العقل وجود الله ؟

وللإجابة على هذا السؤال ، فلابد أن تعلم أن العقل لا يمكن أن يصطدم بقضية الألوهية إذا فهم العقل بمفهومه الصحيح ، إذ أن أحكام العلم والعقل تستمد صدقها من حواسنا ومن التجربة التى نجربها فى معاملنا والأحكام التى تجيئنا عن هذا الطريق تكون موضع يقيننا ونسميها فى إجلال (المعرفة) وأهم مميزات هذه المعرفة : أنها ضد الأحكام النهائية تذكر هذا جيدا .

فإذا جاءنا من يصدر فى قضية الإيمان حكماً نهائياً فيقول : ليس هناك إله ؟ فإن العلم نفسه يقول له : هذا غرور .. لأن إصدار مثل هذا الحكم يتطلب أن تكون قد عرفت الحقيقة كلها .. وعرفت جميع المجهولات التى سيظل سكان هذا الكوكب بلايين السنين يكشفونها جزءا فجزءا وسيقول له العلم أيضا إننا نستمد صدق أحكامنا من التجربة ، والمعامل لم تشهد حتى اليوم تجربة مادية تنفى وجود الله . فالمعرفة بمفهومها العلمى تتورع عن نفى وجود الله ، لأنه إذا كان العقل لا يؤمن إلا بما يثبت وجوده . فواجبه ألا يجحد إلا ما يثبت نفيه .

فمتى أثبت العقل نفى الله ؛

إنه لم يثبت ذلك ، بل ولن يستطيع أن يثبته .. إننا نحتكم إلى العقل بتفكيره التجريبى الواقعى ، والطريقة التى أثبت بها حركة الأرض وتحول المادة .. عليه أن يثبت نفى الله وإذا لم يفعل – ولن يفعل فلا أقل من أن نحترم دوما ذلك الهاتف الأبدى الذى لا يفتأ منذ وجد

الإنسان على وجه الأرض يصيح به قائلا : إن هناك إلهاً ، وهذا الهاتف نفسه : حقيقة آتية من العقل ومن المعرفة بأصدق ما للعقل والمعرفة من دلالة .

فالعقل الإنسانى ليس هو هذا الجزء الذى نفكر به ونبحث والذى يطل على الكون من نوافذ حواسنا الخمسة : السمع ، والبصر ، والذوق ، والشم ، واللمس . بل هذا جزء من عقلنا الإنسانى لا غير . لقد ثبت أن لهذا العقل الإنسانى مناطق أخرى تكشفت لبعض الناس الأفذاذ ، وأبصروا بها ما لا تبصر الكافة .

أجل ؟؟ إن هناك عيوناً أخرى للعقل تتفتح فى بعض العقول المهيأة لترى ما لا يراه غيرها . وهناك إذن مستويات أخرى للتجربة الإنسانية لا تتاح لكل الناس ... بيد أنها تعطى أحكاماً صادقة صدق التجربة العلمية ذاتها وعند هذه المستويات العالية من التجربة استطاع أناس منا أن يعاينوا حقيقة الإيمان ويهتفوا بوجود الله ، فلماذا لا نصدقهم ؟ ولماذا نحاول أن نقيس الله تعالى بنفس المقاييس التى نقيس بها أنفسنا .

يرحم الله الإمام علياً رضى الله عنه وقد قيل له : يا إمام حدثنا عن الله ؟ فقال : سبحان ربى لا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس فوق كل شىء ، وليس تحته شىء ، وهو فى كل شىء ، لا كشىء فى شىء ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

ويرحم الله أبا بكر الصديق رضى الله عنه إذ قيل له : يا أبا بكر : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى . قيل : فكيف عرفته ؟ فقال : العجز عن الادراك إدراك ، والبحث فى ذات الله إشراك !!

الله يدرى كل ما تضمر   يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع   خداع من يطوى ومن ينشر

فلماذا نحاول أن نقيس الله بنفس المقاييس التى نقيس بها أنفسنا ؟ ولماذا نحاول قياس حرارة الشمس بترمومتر عادى ؟

ولله المثل الأعلى ؟؟

إن فى حياة كل فرد إنسانى تجارب كثيرة يحس من خلالها وجود الله حتى لكأنه يراه . ولكن هذه التجارب العابرة والأحاسيس الخافتة تدور فى المستوى العادى لشعورنا وتفكيرنا . إن هناك رعيلا عظيماً من البشر عانوا التجربة فى مستواها الأعلى وتحدث الله إليهم من خلالها أولئك هم المرسلون والأنبياء والهداة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

فهل من حقنا أن نرفض تصديقهم وننتظر حتى نرى ما رأوا ، وحتى يكلمنا الله كما كلمهم ؟؟

وإن أمورنا لا يمكن أن تسير على هذا النحو أبدا ، فإنه لا يلزم من عدم الرؤية عدم الوجود ، فنحن لم نر الأشعة تحت الحمراء ومع هذا نؤمن بوجودها ، لأن أفراداً منا اكتشفوها وأخبرونا بوجودها . وأنت لم تفجر الذرة ، ولكنك تؤمن بكل أخبارها لأن أفراداً من العلماء فجروها وأطلقوا طاقتها .

وأنت لا تحس أدنى احساس أن الأرض تدور ، ومع ذلك نؤمن إيماناً مطلقا بدورانها ، لأن العلم قرر دورانها .

وأنت لم تر الزهرة ، وعطارد والمريخ والمشترى ولا المجموعات الشمسية الأخرى التى لم يصل العلم إلا إلى جانب يسير منها ، وهذا الجانب اليسير قدر بمائة ألف مليون مجموعة شمسية ، وكل مجموعة اشتملت على مائة ألف مليون شمس كشمسنا هذه ، فما بالنا بما خفى؟

إن ما خفى كان أعظم .

ومع ذلك فأنت تؤمن بوجودها ، لأن غيرك ممن تثق بهم رآها من وراء عدسات المناظر بأنه يسير بسرعة ١٨٦٣٠٠ ميل فى الثانية الواحدة فلماذا تصدق كل ذلك وأنت لم تكتشف صدقه بنفسك ، إنما اكتشفه لك آخرون ؟

قد تقول إن الأمر مختلف ، لأنك تستطيع التأكد من صحة هذه الأشيا إذا أخذت مكانك فى أى معمل أو مرصد وهذا حق لكن ليس فى الأمر خلاف ..

فأنت أيضاً تستطيع أن تتأكد من صدق الذين حدثوك عن الله إذا أخذت مكانك فى معاملهم ومراصدهم .. ومعاملهم ومراصدهم من نوع آخر .. نوع يستطيع كل إنسان أن يمتلكه إذا جلا روحه وأيقظ كل قوى نفسه الفاضلة ، واكتشف المناطق المخبوءة من عقله وبصيرته .

إن الإيمان الدينى ، كالإيمان العلمى ، كل منهما نوعان : إيمان رؤية وإيمان تصديق :

فإيمان الرؤية فى العلم ، هو إيمان العلماء الذين اكتشفوا بأنفسهم .

وإيمان التصديق فى العلم ، هو إيمان ملايين البشر الذين لم يمارسوا التجربة بأنفسهم ، لكنهم صدقوها ...

وإيمان الرؤية فى الدين : هو إيمان المرسلين والهداة الذين عاينوا وشاهدوا وذاقوا .

وإيمان التصديق فى الدين : هو إيمان الكافة فإذا رضيت أن تؤمن بحقائق العلم إيمان مصدق لا غير ، فلم لا تؤمن بالله إيمان مصدق أيضاً ؟

هل أنت مصمم على أن يكون إيمانك بالله إيمان رؤية ويقين مباشر ؟ حسن هذا ..

فاصنع إذاً ما يجب صنعه حين تريد أن يكون إيمانك بحقائق العلم إيماناً مباشراً ؟

أخى فى الله : دع عنك حجب الغفلة ، وأذل عن عينيك عصابة الجحود ، واقرأ هذه الآيات الكريمة التى سجلها الله للمخلصين الأصفياء .

قال جل شأنه : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ .

وتمعن قول رسول الله ﷺ فى شأن الآية الأولى : « **ويل لمن لاكها بلسانه ولم يتدبرها قلبه** » .

الألوهيـة فى الإسـلام

رسالة السماء : التعريف بالله ، وكشف معالم الطريق إليه هو الدرس الأول لكل نبى من أنبياء الله ولكل رسول من رسله .. يلقى به على أسماع قومه ، ويؤذن به فيهم .

إن ذلك هو أول الطريق الذى يلتقى فيه النبى بقومه ، وهو مجال الدعوة ، ومركز الثقل فيها .. وفى هذا المجال يشتد الصراع ، وتحتدم الخصومة ، وتجتمع قوى الشر ، وأجناد الباطل لتخفت صوت الحق ، ولتطفىء نور الله : ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

وفى سبيل الدعوة إلى الله ، والتعريف به احتمل أنبياء الله ورسله الكرام أشد ما عرف الناس من ألوان الأذى والضر دون أن يهنوا ، أو يضعفوا ، أو يستسلموا : إنها رسالة لا يقوم لها ، ولا يستقل بحملها إلا أولو العزم ، الموصلون بأسباب السماء ، الآمنون برعاية الله وتأييده ولهذا لم يكن رسل الله إلا الصفوة المختارة من عباده ، قد اصطفاهم لهذه الرسالة ، وأعدهم لهذا الأمر العظيم : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ .

ومع هذا فإن الرسل بشر ، تظهر عليهم أعراض البشرية وتتجلى فيهم خصائصها : الجسدية والنفسية والروحية فهم يألمون كما يألم الناس ويضيقون ، ويحزنون ، ويفرحون ، ويغضبون ، ويحلمون . ولكنهم فى جميع الأحوال التى تتقلب بالناس كانوا على أكمل الكمال

الذى تتسع له البشرية ، وتحتمله . نقول هذا لنفهم منه : أن لكل رسول - كما لكل إنسان - سعيه وجهده ، فى محاسبة نفسه وفى مغالبة ضعفه البشرى . وأنه بقدر ما يعمل ، وبقدر ما يحتمل تكون منزلته عند الله ودرجته بين رسله وأنبيائه : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله . ورفع بعضهم درجات** ﴾ .

ونفهم من هذا أيضا أن الرسل مطالبون بأن يجاهدوا ، وأن يعملوا ، وأن يستقلوا بحمل العبء الملقى عليهم ، وألا يدخل (التواكل) على مهمتهم ، بحسبان أن الله هو صاحب الدعوة ، وهو الذى يتولى أمرها !؟ وكلا .. فإنهم مكلفون بأن يواجهوا بأنفسهم هذه المهمة التى ندبتهم لها السماء ، وأن يقوموا عليها قيام الراعى القوى الحذر ، الذى يسوق قطيعه إلى مواطن العشب ، وموارد الرعى ، والذى لا يغمض عينه عن الذئاب المتربصة بالقطيع ، الراصدة غفلة الراعى أو غفوته ؟

ولو شاء الله سبحانه أن يحمل عن الرسل والأنبياء عبء ما حملوا وأن يطوع لهم كل شىء لكانوا مجرد أدوات ، ولم يكن لهم فضل مجاهدة ، ولا ثمرة جهاد ولكن هكذا اقتضت حكمة الله أن يحمل الرسل تبعة مهمتهم النبيلة العظيمة ، وأن يبذلوا لها من الجهد ، وأن يحتملوا فى سبيلها من الأذى على قدر نبلها ، وشرف غايتها : (فإن العظائم كفؤها العظماء) .

ونفهم من هذا كذلك أن أصحاب الرسالات من القادة والزعماء مطالبون بما لم يطالب به غيرهم من الناس ، من حمل الأعباء ، وتلقى الصدمات بالقدر الذى تضم رسالاتهم من معانى الخير والحق !

الرسالة الإسلامية :

وإذا كان نبى الإسلام محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وهو الذى اختصه الله بأن يكون خاتم أنبيائه ، وأن تكون رسالته مختتم الرسالات .. فإن أعباء الرسالة التى حملها كانت أضعاف ما حمل الرسل من قبله لأنها رسالة تقف موقف التجميع ، والشرح ، والضبط ، والتحديد للرسالات كلها ولأنها تواجه الحياة كلها ، وتشرع للإنسانية كلها ، وتتسع لحاضر الزمان ومستقبله جميعا .

مهمة نبيلة ، ورسالة كريمة ولكنها محملة بأعباء ثقال تنوء الجبال بحملها إنها تمس الصميم من حياة كل إنسان .. تمس عقيدته ، وتنال ضميره ووجدانه ، وتحمل قوى الهدم لأربابه وآلهته .. وليس أعز على الإنسان من معتقده أيا كان مكانه من الضلال أو الهدى حتى لقد يتخلى المرء عن حياته ، ولا يتخلى عن عقيدته !

وحين قام محمد صلوات الله وسلامه عليه بأداء الرسالة ، واحتمل فيها ما احتمل من أذى ، كان أول ما افتتح به رسالته هو الدعوة إلى الله ووصل الناس به حتى إذا آمن الناس بالله وأقروا بوحدانيته جاء دور التشريع الذى ينظم حياة الإنسان الروحية والمادية ، ويحدد صلته بخالقه ، وصلته بالمجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه ..

وقد اتخذت شريعة الإسلام أعدل الطرق ، وأوضحها وأكثرها فعالية فى الوصول إلى الغاية التى قصدت إليها من الدعوة إلى الله والتعرف إليه .

فلم تشأ هذه الشريعة أن تغرق الناس فى اللجج من الجدل الفلسفى ، وفى تصورات من المنطق العقيم الذى لا يلد إلا خيالات وأوهاما ولا ينتهى إلا إلى ظنون بضرب بعضها وجه بعض .

لقد سلك الفلاسفة طريق البحث عن الله ، فأضنوا عقولهم ، وأمرضوا قلوبهم ولم يصلوا إلى غاية يستريح إليها عقل أو يطمئن لها قلب .

وفى تاريخ الفلسفة مواقف مثيرة لهذا الصراع الذهنى الذى أنفق فيه الفلاسفة حياتهم باحثين عن الحقيقة فى (الله) .. ما هو ؟ وكيف هو ؟ وما هذا الوجود ؟ ومن أين جاء وإلى أين ينتهى ؟ وما صلة الوجود بالله ؟ وهل هو الله ذاته أم هو من صنع الله ؟ وهل هو قديم قدم الصانع ؟ وهل هو محتاج إلى الصانع أم مستغن عنه ؟ وهكذا دارات عقول الفلاسفة مع هذه الأسئلة ومع كثير غيرها .. وكانت خاتمة المطاف عجزا وحيرة ، وقلقا وتخبطا وضلالا .. ذلك أنهم حملوا أنفسهم ما لا تطيق ، وساقوا عقولهم إلى ما وراء حدودها التى يجب أن تربض عندها .

ولكن شريعة الإسلام غير هذا .. إنها تجىء إلى الناس كى تعرفهم ، انهم بشر لهم حدود لا يتجاوزونها ، ولعقولهم مدى لا تتعداه ... ثم هم مع هذا عامة الناس .. وليسوا فلاسفة ؟ من أجل هذا لم تفتح شريعة الإسلام باباً للجدل فى الله ولم تستمع إلى الذين يدعونها إلى الخصومة فيه .. بل قطعت عليهم الطريق وفوتت عليهم ما يقصدون من صرف الدعوة عن غايتها الجادة فى كشف الضلالة عن العقول ، والعماية عن القلوب إلى محاكات سقيمة وجدل مريض .

وليس هذا شأن الإسلام وحده ، وإنما هو سبيل الشرائع السماوية كلها منهج واحد وطريق واحد .. لأنه أعدل منهج وأقوم طريق : لا جدل فى الله ، ولا بحث فى ذاته !! ولكن استدلال على الله ، ونظر إلى هذا الوجود الذى يصافح حواسنا ، ويأخذ بمجامع عقولنا وقلوبنا .. نظرة تمتلىء بها القلوب خشية واخباتاً لمن خلق فسوى ، وقدر فهدى .

ذلك هو منهج الدعوات السماوية فى كل أمة وعلى لسان كل نبى : ﴿ **سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا** ﴾ .

المنهج السماوى فى الدعوة إلى الله :

والذى ينظر فى سير المنهج السماوى فى الدعوة إلى الله يجد بين يديه دلائل الإعجاز التى تعنو لها الوجود وتخضع لها أعناق المعاندين والمكابرين فإن تدبيره وتدرجه مع التطور العقلى للإنسان ومسايرته لملكات التفكير الإنسانى عصراً بعد عصر ، ينطق بشهادتين : الشهادة الأولى : أن هذا التدبير لا يكون إلا من حكيم خبير ، يعلم من الناس ما لا يعلمون .. ذلك هو الله رب العالمين .

الشهادة الثانية : صدق هذا القرآن .. الذى نأخذ عنه ذلك المنهج الصادق المعجز ، **ذلك أننا إذا أضفنا المنهج إلى ذات الله وأن القرآن هو المنبىء عن هذا المنهج لزم أن يكون هذا** القرآن مضافاً إلى الله ، وأن يكون النبى نبياً صادقاً موصولا بأسباب السماء : يتلقى رسالته عن الله ويحمل إلى الناس شريعته .

ونعود إلى منهج الدعوة إلى الله فى رسالات الأنبياء كما جاء بها القرآن الكريم .

ونود أن نلاحظ هنا أن التوقيت الزمنى لدعوات الأنبياء الذين ذكروا فى القرآن لم يكن من شأن القرآن الالتفات إليه والاهتمام به لأن هذا التحديد ليس له أثر فى الواقعة التى يذكرها القرآن ولهذا المعنى ذاته لم تشر آيات الكتاب إلى أماكن الدعوات ، وإن جاء شىء من هذا فإنما ليخدم غرضا آخر وراء هذا الغرض الأصيل للواقعة (كمدين) ألتى ذكرت فى دعوة شعيب : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا** ﴾ فإن ذكرها هنا ينبىء عن أنها هى (مدين) التى توجه إليها موسى عقب فراره من مصر والتى ذكرها الله فى قوله تعالى : ﴿ **ولما توجه تلقاء مدين** ﴾ وبهذا تكتمل قصة موسى وشعيب ، ويتحدد مكان **التقائهما**. فالزمان والمكان ليس لهما شأن فى (وقائع) الدعوات السماوية التى ذكرها القرآن الكريم ، إذ أن مرمى (الواقعة) الايرادية هو عرض مشهد من مشاهد الصراع بين الإيمان والكفر وبين الحق والباطل . وليكن الزمان أى زمان أو كل الأزمنة وتقع فى كل مكان . فلا أثر للزمان أو المكان فيها .

وهنا يبدو وجه الحكمة فى إطلاق وقائع الدعوة من ظروف الزمان والمكان فى هذا الصراع بين الحق والباطل ، حيث تظل هذه الوقائع ملء الأزمنة وملء الأمكنة وبهذا لن تكون غريبة فى أى زمان أو مكان ، إنها للناس جميعا ولأجيال الناس جميعا ..

فحين كان صراع بين حق وباطل كانت وقائع القصص القرآنى دستورا محكما يحتكم إليها ، ويتأسى به .

ونلاحظ أيضا أنه مع إطلاق وقائع الدعوات السماوية من قيو الزمان والمكان فإن الترتيب الزمنى بين هذه الدعوات قد نال شيئا من اهتمام القرآن به .. فهناك أكثر من وجه يمكن أن يستدل منه على مكان كل دعوة من سابقتها أو لاحقتها فى الزمن . ومن هذا مثلا .. فى دعوة (هود) يجىء على لسانه وهو يخاطب قومه : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ .. كما يجىء على لسان (صالح) مخاطباً قومه : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد** ﴾ .. وكذلك يذكر القرآن (مدين) فى قوله تعالى : ﴿ **ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود** ﴾ فيفهم من هذا أن دعوة شعيب كانت بعد دعوة صالح لأن صالحا كان رسولا إلى (ثمود) وأن شعيبا كان رسول (مدين) .

فهل كان ذكر هذا الترتيب مقصودا أم غير مقصود ؟ وإذا كان مقصودا فما غايته وما مرماه ؟

ولا أريد أن أعطى جوابا عن هذا .. ولكننى سأجعل لهذا الترتيب شأنه فى تقييم المنهج الذى وضعته السماء لدعوة الحق ، وفتح عقول الناس وقلوبهم بها .

وننظر فى هذا فنجد أن الإنسانية وهى تدرج أولى مدارج الحياة كانت أشبه بحياة الطفولة أو الصبا فى حياة الإنسان . وإذا كان هذا شأنها فقد كان من تدبير الحكيم العليم أن تكون دعوات السماء فى تلك المرحلة من حياة الإنسانية دعوة (تلقائية) تدعو إلى الله مباشرة دون أن تلفت العقول إلى الاستدلال عليه من النظر فى ملكوت السموات والأرض لأن عقول المخاطبين أضعف من أن تنفذ إلى ما وراء الغريب الواضح من ظاهر المحسوسات وتكاد الدعوات التى سبقت إبراهيم عليه السلام تدخل فى هذا (الاطار) وأن تكون جميعها هتافا واحدا بهاتين الكلمتين : (اعبدوا الله) هكذا من غير أن يدعى العقل إلى البحث عن الله والاستدلال عليه بالنظر فى ظاهر الوجود وباطنه !.. هذا شأن التربية مع الصغار ! يدعو إلى الخير وينهى عن الشر دون أن يترك إليهم التعرف على الخير أو الشر والاستدلال عليهما من طريق البحث والنظر . ولهذا فقد كان موقف الرسل فى تلك الفترة موقفا يحتاج إلى قوة ظاهرة بين يدى الرسول ، قوة لا تخاطب العقل وإنما تجابه الحس ، فتبهر الأبصار ، وتصم الآذان وترعد الفرائص .. إنها المهلكات التى يخيف بها الرسل أقوامهم إن هم أبوا الاستجابة لدعوة الرسول ، والإيمان بالله الذى يهتف باسمه .. إنها حجارة من سجيل ، وريح صرصر عاتية تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر وطوفان يغرق السهل والجبل ، وصواعق تهلك الحرث والنسل !!

تلك هى القوى المخيفة التى كان يتهدد بها الرسل – فى تلك الفترة – أقوامهم الذين هم رجال فى أحلام أطفال أو صبيان ؟

ونستعرض الآن أصول أربع دعوات سماوية من بين الدعوات التى جاءت فى تلك الفترة من حياة الإنسانية التى سبقت دعوة (إبراهيم) وهى دعوات : نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب .

دعوة نوح :

وقد ذكرت فى القرآن مرات كثيرة ، ولها فى كل مرة لون جديد .. إلا أنها جميعا تكمل صورة الدعوة ، وتحدد معالمها :

١ – يقول الله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين .. أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ .

٢ – ويقول سبحانه : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾ .

٣ – ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا .. إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقوا ربهم ، ولكنى أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين** ﴾ .

فى هذا الإطار كانت دعوة نوح إلى قومه : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ . ولكنهم كانوا فى مستوى إنسانى بحيث لا تستجيب عقولهم لغير العقاب المادى المباشر .. فكان لابد أن يقع العذاب الذى أوعدهم به واستعجلوه :

﴿ قالوا : يا نوح قد جادلتنا ، فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ !

وجاء العذاب .. فكان الطوفان الذى أغرقهم الله به ونجا نوحا ومن آمن معه : **﴿ فأخذهم الطوفان ، وهم ظالمون ﴾** .

دعوة هود :

وهود .. دعوته إلى قومه قريبة من دعوة نوح ولكن فيها إشعارا بأن الإنسان الذى يخاطبه هود قد كبر شيئاً ما عن ذلك الإنسان الذى كان يخاطبه نوح ، وأنه قادر نسبياً على أن يستبصر ويدرك ، فكان فى دعوة هود إلى قومه إلفات قريب إلى بعض المظاهر المادية الملابسة لهم والملتصقة بحياتهم ، وأن ما هم فيه من نعمة إنما هو من عند الله الذى يدعوهم إليه :

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ، قال : يا قوم ، اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ، قال : يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ؟ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ .

فهود إذ يدعو قومه إلى الله يذكرهم بفضل الله عليهم ، وأنهم خلفوا قوم نوح الذين أهلكم الله بظلمهم ، كما أن الله قد مَن عليهم ببسطة الأجسام وقوة الأبدان وتلك نعم جديرة بأن يذكروها ، ويذكروا المنعم بها ، وفى هذا رشدهم وفلاحهم . وفى موقف آخر يهتف هود بقومه : **﴿ إنى لكم رسول أمين .. فأتقوا الله وأطيعون ، واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون .. أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون .. إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾** فهذه أنعام ، وبنين ، وجنات ، وعيون يعيشون فيها وينعمون بها ، وهى ليست من صنع أيديهم وإنما هى من عند الله الذى يدعوهم إلى الإيمان به .

دعوة صالح :

وفى دعوة صالح آفاق للنظر والتأمل أوسع من تلك الآفاق المحدودة التى جاءت بها دعوة هود ..

وللزمن أثره فى تلك الفوارق العقلية بين قوم صالح وقوم هود ، إذ كان قوم صالح قد خلفوا قوم (هود) وخلفوا الأحداث التى وقعت لهم والبلاء الذى صب عليهم بعد أن عصوا

رسول ربهم ، واستخفوا به وبدعوته !.. وذلك لا شك تارك آثاره فى هؤلاء القوم – قوم صالح – بما فتح عليهم من أبواب البحث والتفكير :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً .. قال : يا قوم .. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾ .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم .. هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم .. واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ . ﴿ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ، أتتركون فيما ها هنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ .

إن صالحا يذكر قومه بقدرة الله الذى يدعوهم إليه .. أنشأهم من الأرض واستعمرهم فيها ..

والعقل الذى يستطيع أن يتصور خلق الإنسان من تراب ويرتب مراحل عملية الخلق هذه ترتيبا منطقيا واقعيا بحيث يرى أن النطفة التى هى بذرة خلق الإنسان إنما هى من الغذاء الذى يتحول فى الجسم إلى دم ، ثم إلى نطفة وأن هذا الغذاء من النبات وأن النبات هو أجنة الأرض حملته فى بطنها ، وغذته بعصارتها . العقل الذى يستطيع أن يدرك هذا أو بعض هذا هو غير العقل الذى كان عليه قوم هود أو قوم نوح !

ولهذا لم تحمل دعوة هود معجزة استدلالية تنبىء عن قدرة الله ، وإنما حملت هلاكا وتدميرا ، بعد أن انتهى دور النصح ، والوعد ، ومن قبلها كانت كذلك دعوة نوح ! لم تصحبها معجزة استدلالية ، بينما حملت دعوة صالح معجزة استدلالية ، يرى فيها أولوا الرشد إشارة إلى الله ، وطريقا إليه .. وتلك المعجزة هى (الناقة) التى اقترحوا على صالح أن يخرجها لهم من صخرة معروفة عندهم وأن تكون عشراء تمخض .. وأعطوا العهد لصالح أنهم يؤمنون بالإله الذى يدعوهم إليه إذا جاءهم بما طلبوا .

وقد استجاب الله دعوة صالح ، فخرجت الناقة من الصخرة التى أشاروا إليها وجنينها يتحرك فى أحشائها .. وقد آمن بعضهم لهذه المعجزة ، ولم يؤمن أكثرهم وتآمروا على الناقة فقتلوها .. وهنا حل بهم العذاب الذى أوعدهم به : **﴿ فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾** .

دعوة شعيب :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .. بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

ونلاحظ هنا أن دعوة شعيب لم تقف عند حدود الدعوات الثلاث السابقة وهى الدعوة إلى الله ، بل إنها شملت هذا الأمر ثم تجاوزته إلى التشريع ، وذلك بمخاطبة الضمير الإنسانى ، ودعوته إلى رعاية حقوق الناس ومعاملتهم بالعدل ..

(والضمير) إنما يأخذ مكانه فى كيان الإنسان حين يرشد ، ويكتمل وعيه ، أما فى مرحلة الطفولة والصبا فلا مكان للضمير !!

إن مع قوم شعيب أجزاء إنسانية كادت تستكمل حظها من العقل والادراك فهم لهذا أهل بأن تخاطب ضمائرهم وأن يطلب إليهم إقامة حياة اجتماعية يؤدى فيها الفرد حقوق الآخرين لكى يؤدوا له حقه .

ولعل سؤالا يدور فى خاطر من ينظر فى تلك الدعوات فيرى أنها تحمل فى يمينها هداية ونورا حين تدعو إلى الله وتصل الناس به ، بينما تحمل فى اليد الأخرى عذابا أليما وبلاء محيطا شاملا ، معجلا .. حين تبعث الطوفان وترسل الصواعق ، وتسوق العواصف فتأتى على كل شىء : **﴿ ما تزر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾** .. وليسأل سائل : لم هذه الابادة الجماعية للمجتمع ؟ وأى شىء يسلم للناس وللحياة بعد أن يذهب كل شىء ويفنى كل شىء ؟

فهذا شعب يفنى كله ، وجماعة تبيد جميعاً .. فماذا أفادت الإنسانية من تلك الرسالة الكريمة التى جاءت لخلاصها ، وإسعادها ؟ وقد يكون الأمر محتملا ومقبولا لو سلم بعض فكان الذاهب فداء لمن بقى ؛ وكان الهالك وقاية لمن سلم : أما أن تفنى الجماعة كلها ، وتذهب معالمها جميعا فذلك هو موضع السؤال ، والتساؤل معا ؟

النظرة المحدودة هى التى تسير بنا إلى هذا الموقف ، فنسأل ونتساءل حين نجد أننا إزاء عملية إصلاح دار فنهدمه هدما ونحيله كومة تراب !

ولكن إذا وسعنا دائرة النظرة فرأينا الحياة كلها لا فى هذا المجتمع وحده الذى حملت إليه الرسالة ، ووجهت له الدعوة ، ولا فى هذه الفترة وحدها من الحياة التى جاءت فيها الرسالة .. إننا لو فعلنا ذلك لرأينا أن أولئك الذين ذهبوا جملة وهلكوا جميعا لم يذهبوا هباءا ، وإنما خلفوا وراءهم عبرة ماثلة وعظة بالغة لمن كان – من غيرهم – فى أيامهم ولمن أتى بعدهم من الجماعات .

إن طوفان نوح ، وعواصف هود ، ورجفة صالح ، وقد هلك بها من هلك ، قد كانت عبرة وعظة ، انتفع بها كثير ، واهتدى بها كثير ، ولا تزال إلى اليوم درسا نافعا ، وعظة ماثلة لكل من أراد العبرة والعظة ولا نذهب بعيدا .. فقد كانت كل زاجرة من تلك الزواجر مثلا يسوقه الرسول لقومه ، ويشرف منه بهم على مصارع الذين عصوا رسل ربهم ، وأنكروا مكانهم فيهم .

فهذا هود يذكر قومه بما حل بقوم نوح : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح** ﴾ وهذا صالح يذكر قومه بما وقع لقوم هود : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ؟** ﴾ .

وهذا نبى الله شعيب يجمع المثل لقومه ، ويستعرض مشاهد الدمار والبلاء الذى نزل بمن سبقوهم فى تحدى الرسل وإعناتهم : ﴿ **ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد** ﴾ .

فهذه المهلكات التى رمى بها أولئك الأغبياء المعاندون لم تكن إلا مثلا تخيف من حولهم ، ومن بعدهم وتدعوهم إلى الانصياع والتسليم للهداة الراشدين الذين يدعونهم إلى الطريق المستقيم .. وهذا ما تنطق به الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿ **وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها .. وما نرسل بالآيات إلا تخويفا** ﴾ .

مرحلة أخرى :

ومنذ إبراهيم عليه السلام تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الدعوات السماوية فتتخلى الدعوات عن الجانب التأديبى العاجل منها ، وتصير بالناس إلى جزاء مؤجل يلقونه فى الحياة الآخرة .. إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . والإنسان الرشيد ينظر إلى أبعد من يومه الذى يعيش ينظر إلى الغد ، وإلى ما بعد الغد ، بل إنه لينظر إلى ما بعد الحياة الدنيا ، بل وإنه ليركز نظره كله إلى ما بعد هذه الحياة الدنيا .

وإذ كانت دعوات إبراهيمُ ، وموسى ، وعيسى قد استرخى بها الزمن حتى رشدت الإنسانية – أو كادت – فقد حملت إلى الناس دعوة إلى الله قائمة على النظر فى ملكوته ، وعلى الإيمان به عن طريق هذا النظر الذى يرسله الإنسان فى هذا الوجود ، فيعود إليه محملا بالآيات الدالة على قدرة الله الناطقة بحكمة الخالق وعظمته .

دعوة إبراهيم :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ، وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال مبين .. قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ قال : بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن ، وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ .

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له .. إليه ترجعون ﴾ !!

إن إبراهيم يضع قومه أمام موقف يحتاج إلى عقل ونظر ، وإلى حساب وتقدير ليميزوا الخبيث من الطيب ويفرقوا بين الحق والباطل : **﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾** .

﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا .. إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون ﴾ .

إن العقل الرشيد المكتمل هو الذى يدعى إلى هذا النظر ويحمل على المراجعة والموازنة بين الأشياء .

دعوة موسى :

وموسى رسول إلى جهتين : إلى قومه – بنى إسرائيل – وإلى فرعون ، الذى طغى ، وامتد طغيانه إلى بنى إسرائيل : **﴿ يذبح أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ﴾** وهو مع فرعون – إذ يدعوه إلى الله – يحمل إليه معجزات لا تقبل التحدى ولكن فرعون يتحداها ، وينتهى التحدى بانتصار المعجزة السماوية فيؤمن سحرة فرعون بموسى ويجن جنون فرعون ، وتأخذه العزة بالإثم ، فيضاعف البلاء الذى يصبه على بنى إسرائيل ولا يجد موسى إلا الهرب بقومه فيتبعهم فرعون وهناك على مشارف (سيناء) عند البحر الأحمر يقف موسى وقومه ، ومن ورائه فرعون وجنوده يكادون يلحقون بهم .. ويضرب موسى بعصاه البحر فيفلق وينفتح له ولقومه طريق منه وينسحب بقومه إلى الشاطىء الشرقى من البحر وفرعون وجنوده جادون فى

أثرهم يركبون نفس الطريق فى قلب البحر . وهنا تنتهى المعجزة بعد أن أدت دورها وينطبق البحر على فرعون وجنوده فيغرقون .

وهذه المعجزات قد شهدها بنو إسرائيل وكان من شأنها أن تقع من القوم موقع الإيمان وأن تقوم شاهد صدق على رسالة موسى ولكن القوم قد التوت نفوسهم فلم تستقم فيها تلك المعجزات ، ولم تقع فى مغارس طيبة ، وظل القوم فى حاجة إلى معجزات أخرى يتلو بعضها بعضا . وجاءهم موسى بالبينات .. ضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، لكل قبيلة منهم عين تستقى منها .. وأنزل عليهم المن والسلوى وجاءهم بالتوراة فيها هدى ونور .. وفيها تذكير لهم بما فضل الله عليهم من نعمة إذ نجاهم من آل فرعون : **﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ نجاكم من آل فرعون .. يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم .. وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾** .

ومع هذا فقد لجوا فى الضلال والعناد وأبوا أن يقنعوا بكل هذه الآيات وطلبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة : **﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾** .

وقد كان من المتوقع – فى ظاهر الأمر – أن ينزل العذاب الشامل بهم جميعا وأن يقع البلاء الساحق الذى لا يبقى ولا يذر ، ولكن يجىء الأمر على غير هذا ، فيقع البلاء ، ويحل العذاب فى حدود معينة تنال المعتدين وتأخذ الظالمين .

فالذين اعتدوا فى (السبت) وخرجوا على الشريعة، هؤلاء مسخوا مسخا خرج بهم عن الإنسانية ، فكانوا قردة .. يسخر منهم ، ويستهزأ بهم ، وتكون فيهم العبرة لمن اعتبر : **﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾** .

والذين صغر فى نفوسهم شأن الله حتى طلبوا أن يروه عيانا كما يرون الأشياء هؤلاء أخذتهم الصاعقة بظلمهم : **﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾** .

وأما الذين عبدوا العجل وجعلوه إلها فقد نالهم من الله غضب وذلة فى الحياة الدنيا وإن يكونوا قد تابوا ورجعوا عن ضلالهم بعد أن راجعهم موسى ونسف العجل الذى عبدوه وهم ينظرون : **﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾** . وأما رأس الفتنة وهو (السامرى) الذى دعا إلى اتخاذ العجل من الحلى التى جمعها من القوم وصوره منها فقد مثل به فى الدنيا فكان لا يمسك بشىء إلا أصابه منه

الضر والأذى : ﴿ **قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه** ﴾ .

لم يقع العذاب شاملا ولم يأخذ القوم جميعا وإنما وقع على من استحقوه بما ظلموا لأن فى البقية رجاء وفيهم مكان لمغارس الهداية والإيمان .. إن الجسم الذى يصلح ببتر عضو من أعضائه تقتضى الحكمة أن يبتر هذا العضو وحده دون أن يمتد البتر إلى غيره من الأعضاء وقد كان فى بنى إسرائيل مفسدون لم تستقم مع الحق والخير نفوسهم وكانوا نبتا سيئا فتولت السماء اقتلاعه ... أرأيت إذن كيف كان المنهج الذى قامت عليه دعوة الرسل رسولا بعد رسول وعصرا بعد عصر ... لقد ساير هذا المنهج عقلية الإنسان وتقابل معها على المستوى الذى كان لها من الوعى والادراك ، كان المنهج فى الرسالات الأولى منهجا تلقائيا يلقن الإنسانية فى طفولتها مبادىء العقيدة : ﴿ **أعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ كما يلقن الطفل أسماء المسميات : هذا مصباح ، وهذا مذياع ، وذاك كرسى ، وتلك سيارة وهكذا . ثم دخل المنهج مدخلا آخر حيث تطورت الإنسانية واتسعت مداركها بعض الشىء فكان إلى جانب الدعوة إلى (الله) إلفات إلى الوجود المادى ليستدل من النظام الممسك به على عظمة الخالق وقدرته .. كذلك صحب هذه المرحلة من دعوات الرسل معجزات غير انتقامية يراد بها تأييد الرسول وتزكية دعوته بأنه رسول رب العالمين وذلك حين يراها الناس فيرون معها ما لا يمكن لبشر أن يأتى به وذلك عمل يحتاج إلى وعى وإدراك لا يبلغه المرء إلا بعد أن يجاوز مرحلة الصبا ويشرف على مرحلة الرجولة أو يبلغها .

ونعود لنقرر مرة أخرى أن فى هذا المنهج الذى حوته دعوات الرسل والذى نقله إلينا القرآن الكريم دليلا قائما على أن القرآن منزل من عند الله وذلك لما اشتمل عليه هذا المنهج من مسايرة لتطور الإنسانية ومواءمة لوعيها وإدراكها ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لما كان فيه هذا الضبط الدقيق واليقظة الواعية لسير الحياة ورصد حركات العقول فيها ولوقع على أقل تقدير فى هذا المنهج بعض الخلل فى ترابطه وتماسكه ولكننا إزاء منهج متماسك أقوى ما يكون التماسك سواء فى وحداته وعناصرها أم فى تدرج هذه الوحدات واحدة بعد أخرى من تدرج الكائن الحى نحو النضج والكمال فإلى جانب الأدلة الكثيرة على إعجاز القرآن وصدق الرسول يمكن أن يضاف هذا الدليل إليها ويحسب فى حسابها .

أسلوب القرآن فى الدعوة إلى الله :

والرسالة المحمدية كما أشرنا من قبل هى خاتمة الرسالات السماوية ومعنى هذا أنها التقت بالإنسانية وقد بلغت رشدها وأن السماءتقول فى هذه الرسالة كلمتها الأخيرة للناس وأنها بعد هذا ستنهى وصايتها على الناس وتدعهم لأنفسهم وما بين أيديهم من وصايا السماء .

لقد انتهى الدور (التلقائى) أو (التلقينى) الذى يقول فيه الرسول لقومه : (اعبدوا الله) هكذا أمراً ملزما من غير أن يكون للناس مشاركة عقلية أو قلبية فى البحث عن الله والاستدلال عليه . انتهى هذا الدور بعد أن استشعر العقل بنفسه دلائل كثيرة تشير إلى وجود (الله) الذى ينبغى أن يضاف إليه هذا الوجود وأن يرد إلى علمه وقدرته وحكمته كل ما يستند إليه هذا الوجود من علم وقدرة وحكمة ..

(فالله) فى واقع الحياة فى هذه المرحلة الأخيرة من رسالات السماء ليس (ذاتا) مجهولة أو منكرة فى عقول الكثرة الغالبة من الناس فقد كان لدعوات الرسل المتتابعة ولمواقف الراشدين والعالمين من أتباعهم آثار كثيرة فى كشف الطريق إلى الله والتعريف به كما كان للزمن وتطور العقل الإنسانى نحو الكمال أثره القوى كذلك فى هذا الأمر .

لقد جاء الإسلام والعرب يعرفون كلمة (الله) ويتعاملون بها فى حياتهم على أنها قوة ممسكة بالوجود وقائمة على كل شىء وأنها تعلم ما يخفى الناس وما يعلنون .

يقول زهير بن أبى سلمى – الشاعر الجاهلى – وأحد أصحاب المعلقات :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم

فلقد كان العرب فى جاهليتهم يعتقدون فى الحياة بعد الموت وفى الجزاء والجنة والنار . يقول جوستاف جرونيبادم : (وعندما ولد [محمد] كان [الله] معروفا من قبل بأنه إله الناس وكان الناس قد أدركوا أن شريعته – أى شريعة الله – أبعد أثرا وأرحب مجالا من شريعة الأوثان ولكن لم تقم لله أية عبادة . أجل إن بعض المكيين ربما كانوا يعتقدون أن الكعبة بيت الله المقدس ويلوح أن المكيين وقد كانوا فوق المستوى العام لمواطنيهم كما كانوا على أتم الاستعداد للاعتراف بسيادة الله) ...

ويقول الشهرستانى عن عرب الجاهلية :

(ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ومن هؤلاء زيد بن عمرو ابن نفيل كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : أيها الناس هلموا إلى فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيرى . ومنهم قيس بن ساعدة الأيادى وكان يقول : هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد أعاد وأبدى وإليه المآب غدا . ومنهم عامر بن الظرب العدوانى وكان يقول: إنى ما رأيت شيئا قط خلق نفسه ولا رأيت موضوعا إلا مصنوعا ولا جائيا إلا ذاهبا ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء) . فالرسالة المحمدية تواجه إنسانية فيها وعى ولها إدراك وعندها استعداد للبحث عن الله والتشوق إليه من خلال هذا الوجود الذى يعيش فيه الناس .

وإذن فلن تكون الدعوة إلى الله دعوة تلقائية لأن مواجهة العقل المدرك المستعد للبحث للنظر أولا مواجهته بالأمر الواقع والحكم الملزم فيه تعسف وإعنات لا تلقاه مثل هذه العقول إلا بالتمرد والعناد .

مقتضى التربية الحكيمة أن تشارك العقول المستعدة للنظر والقادرة على الفهم فى البحث عن الحقيقة التى تدعوا إليها وأن تثير فيها دواعى التطلع إلى الكشف عن المجهول الذى تبحث عنه . وهذا الضرب من التربية يحقق أمرين :

أولها : استرضاء العقل وكسبه إلى جانب القضية التى يراد بحثها حيث يصبح فيرى نفسه أحد المشتركين فيها والمدافعين عنها وأنت ترى الفرق واضحا بين إنسان تدعوه إلى مشاركتك فى البحث عن حقيقة شىء ما وبين إنسان آخر تلقى إليه هذه الحقيقة وتطلب منه التسليم بها والاذعان لما تقول ، إنك مع الإنسان الأول فى صحبة صديق ينزل معك إلى ميدان البحث ويقف إلى جوارك يعينك وتعينه وإنك مع الإنسان الآخر فى مواجهة شخص ينظر إليك نظر المستريب الحذر الذى يخاف أن يقع تحت سلطانك ويتلقى أوامرك ونواهيك وإنه **إن لم يقف منك موقف العدو الذى يريد أن يبطل قولك وينقض رأيك فلا أقل من أن يتخذ موقفا سلبيا لا عليك ولا لك .. يصم أذنيه دونك ويحجب عقله عنك وقليل جداً** أن تجد هذا الإنسان الرشيد الذى لا ينظر إليك كإنسان فى مواجهة إنسان وإنما ينظر إلى ما معك من حق وما بين يديك من علم .

وتنظر فى دعوة الإسلام إلى (الله) كيف واجهت الناس وكيف كان الطريق الذى سلكته إلى عقولهم وكيف كان الأسلوب الذى أدارت به معركة الرأى فى هذه الدعوة .

ماذا كان موقفها من المعاندين الذين لج بهم العناد فانسحبوا من معركة الرأى ليدبروا معارك القوة المادية التى كانت كلها فى أول الدعوة مجتمعة بين أيديهم .

وحين ننظر فى هذا نجد أن الدعوة قد مرت فى مراحل وأنها انتقلت بالناس من حال إلى حال كما ينتقل طلاب العلم من طور إلى طور ومن علم إلى علم .

الطور الأول : وطبيعى أن يكون أول ما تفتتح به الدعوة درسها الأول فى التعريف بالله هو توجيه العقول وإلفاتها إلى هذا الوجود وإلى إطالة النظر فيما فى هذا الوجود من عظمة ونظام وحكمة فإذا عرف العقل هذا كله أو شيئا منه وعرف أن هذا الوجود لم يكن من صنع الإنسان ولم يكن من صنع أى موجود من تلك الموجودات مهما عظم شأنه أو كبر جرمه ، إذا عرف العقل هذا أسلمه ذلك إلى البحث عن (ذات) يضيف إليها هذا الوجود ويعلقه بها .

الطور الثانى : وهنا يأتى الطور الثانى من الدعوة فتكشف عن تلك (الذات) ما هى ؟ وما صفاتها ؟ وكيف تخلق ؟ وكيف تدبر ؟

الطور الثالث : ثم يأتى الطور الثالث وهو الكشف عن موقف الإنسان من (الذات) وصلته بها ، وهذا الطور يبرز أحكام الشريعة التى تحدد للإنسان مكانه فى الحياة وترسم له سلوكه فيها وتكشف له عن الحياة الآخرة وما يلقى فيها من نعيم أو عذاب فإذا ما انتهى الإنسان إلى نهاية الطور الثالث كان قد استكمل كل مقومات العقيدة فى عقله فعرف (الله) واستوثق من صدق النبى وآمن بشريعته وأعد نفسه للحياتين الدنيا والآخرة وسعى لهما سعيهما الذى رسمته الشريعة ودعت إليه ... ثم يجىء بعد هذا طور رابع وأخير وهو الطور الذى يشهد التطبيق العملى لأحكام الشريعة . وفى هذاالطور يشرح الرسول كثيرا من (مواد) الشريعة التى أساء بعض الناس فهمها فأساءوا تطبيقها .. يتولى شرحها بأقواله وأعماله أو تتولى السماء شرحها بما يتنزل من آيات الكتاب .

وفى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة نجد أن أول ما افتتح به الوحى رسالة الرسول هو قوله تعالى : **﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم﴾ فقد جمعت الآيات الأولى طورين من أطوار الدعوة هما الطور الأول والثانى معاً . وكأن هذا الجمع هو عنوان الموضوع الذى تدور حوله الدعوة فى مراحلها الأولى (الخالق وما الخالق) وذكر الخالق هنا هو تحديد للموضوع الذى من أجله كان توجيه النظر إلى المخلوقات والوقوف على ما فى صورها وألوانها وأشكالها من** عجائب وأسرار فإذا استبانت لعين الناظر المتأمل تنبه إلى الخالق الذى خلق .. ويكاد العهد المكى كله – من تاريخ الرسالة – يقوم على أداء هذا الدور والعمل على التعريف بالله عن طريق الاقناع بالنظر والتفكير فى آيات الله .

ولقد جاء القرآن الكريم فى هذا الباب بما لم يكن لدعوة من الدعوات السماوية أو غير السماوية أن تجىء بمثله وبما لم تنفذ إليه من قلوب الناس وعقولهم أجهزة الدعايات العصرية التى تبشر بالمذاهب السياسية أو الاقتصادية والتى تحتشد لها كل قوى الدعاية من ملايين الأنفس وملايين الأموال تعمل جميعها فى كل ميدان يصل إلى الناس : من الاذاعات والكتب والصحف وتقديم الخدمات الاجتماعية وتنشئة الصغار فى دور التبشير واغراء الناس بالأموال والنساء ، كل أولئك لم يكن شيئا إلى جانب المنهج الذى اتبعه الإسلام فى دعوته إلى الله إذ كان منهجا قائما على الحق وداعيا إليه عن طريق النظر والاستدلال والاقناع حيث يمسك الإنسان الخيط أو الخيوط التى تصل بينه وبين خالقه وماذا يشوق الإنسان ويوقظ عقله ووجدانه أكثر من الرحلة العقلية الممتعة فى عالم الوجود لا يبذل لها المرء مالا ولا يتكلف لها سعيا وانتقالا وإنما هى نظرة واعية يملأ بها عينيه من صامت الوجود وناطقه فإذا الوجود كله

فى مسرح نظره ومسبح خاطره ومُجلى تفكيره يقلبه كيف يشاء ويأخذ منه ما يريد .

استمع إلى قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾ . وإلى قوله سبحانه : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ .

واستمع إلى قوله جلّ شأنه : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ فتلك دعوات يستحضر بها العقل هذه الظواهر التى تتبدل بها الطبيعة حالا بعد حال وتلبس فيها أثوابا بعد أثواب وهى تجىء وتذهب بين يدى الإنسان دون أن يلتفت إليها كثير من الناس أو يقفوا عندها فإذا جاءهم من يدعوهم إليها ويلفتهم نحوها أحسوا بها وعجبوا منها كأنما يرونها لأول مرة . وقد ذهب القرآن الكريم فى هذا كل مذهب وجاء إلى العقل من كل أفق يثيره ويجدد صور الوجود فى نظره .

ومن تدبير القرآن فى هذا استعراض مظاهر قدرة الله وعظمته وحكمته وتدبيره فيما يبدو عليه النظام الكونى من روعة ودقة وإحكام : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾ .

﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة** ﴾ . ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

ومن الأساليب التى نهجها القرآن فى الالفات إلى عظمة الله وقدرته أسلوب الاستفهام التقريرى الذى يتحدث عن خلق من خلق الله أو عن آية من آياته ونعمة من نعمه وفى هذا الأسلوب يجد السامع نفسه أمام سؤال ليس له إلا جواب واحد هو الاقرار بالله فإن استجاب للحق أقر به وإلا فحم ودهم وخرس :

﴿ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ . ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون ﴾ .

﴿ أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ .

﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو فى عتو ونفور ﴾ . فهذه قضايا يطالب الخصم فيها بإقامة الدليل على بطلانها وذلك غير الأسلوب الذى يتخذ القرآن فيه موقف المدعى فيدلى بالحجج والبينات ويقيم البراهين بين يدى دعواه فلا يجد الخصم منفذا ينفذ منه إلا أن يركب رأسه وتأخذه العزة بالإثم فيكابر فى غير حياء ولا خجل كما كان بين إبراهيم و(النمرود) فيما يقص القرآن الكريم: ﴿ إذ قال إبراهيم: ربى الذى يحيى ويميت قال : أنا أحيى وأميت . قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ . وهذا أسلوب قد جاء فيه القرآن بألوان من ضروب الإعجاز خرست له الألسنة وتضاءلت أمامه العقول وتصاغرت الأفهام .

أما الأسلوب الذى أشرنا إليه وهو وضع الخصم موضع المدعى وجود قدرة غير قدرة الله فهو من تمام الحكمة فى سد منافذ الهرب والإفلات فى وجهه فإنه حيث يكون مدعى عليه يمكن أن يكابر فيرد كل حجة إلى غير سبيلها كأن يقول مثلا (بالطبيعة الخالقة) المدبرة حيث يقال له : الله يحيى ويميت . وأما هنا فهو مطالب أن يقيم الدليل على دعواه الباطلة : كيف تخلق الطبيعة ؟ هل من خالق غير الله؟ أءله مع الله ؟ فهو حيث يطالب بالدليل على ما يدعيه يسقط فى يده فلا يجد قولا ولا يجد جوابا . وهذا أسلوب من الجدل المنتج يهتدى إليه العقل ويتجه نحوه . سأل أحد الملحدين تلميذا فقال : أقم لى دليلا واحدا على وجود الله وأنا أؤمن لك به ؟ فأجاب التلميذ : وأنت أقم لى دليلا واحدا على عدم وجوده وأنا أكفر به .

الفصل الثالث

مقارنة بين الجبلاوى والزعبلاوى

بعدما عرضنا فيما مضى جزءاً من رواية الكاتب نجيب محفوظ (أولاد حارتنا) أو (أبناء الجبلاوى) ثم عقبنا بعد ذلك بالرد على ما جاء متناقضا كل التناقض مع الحقيقة الإيمانية نقرر هنا أن نجيب محفوظ فى الأعمال التى نشرها سنة ١٩٥٩ عاد مرة بعد مرة إلى موضوعات الوهم والحقيقة والهلوسة وتجلى ذلك بوضوح فى قصة (زعبلاوى) التى هى بمثابة مذكرة الكاتب التفسيرية لشخصية الجبلاوى . وهنا نعقد مقارنة بين ما سماه الكاتب بالجبلاوى والزعبلاوى . لقد وصف المترجم شخصية (زعبلاوى) بأنها التفسير الذى قدمه المؤلف لشخصية (جبلاوى) فى (أولاد حارتنا) .

ولخطورة هذا الرأى الذى كاد يكون محل إجماع النقاد ولأهميته وصلته الوثيقة بالدراسة الحالية لأولاد حارتنا وعلى رأسهم (الجبلاوى) نلخص للقارىء قصة (زعبلاوى) ونشير هنا إلى شدة اعتزاز الكاتب بشخصية زعبلاوى من بين عدد كبير من القصص القصيرة التى كتبها فقد اختارها على رأس اثنتى عشرة قصة قصيرة لكى تنشرها سلسلة روايات الهلال بمناسبة فوزه بجائزة نوبل للآداب سنة ١٩٨٨ .

جاء فى كتاب (الطريق إلى نوبل) لكاتبيه : د . محمد يحيى ومعتز شكرى . جاء ما نصه : إنها واحدة من أشهر قصص نجيب محفوظ القصيرة . ولعل سبب ما حظيت به من اهتمام أنها تكاد أن تكون تلخيصا وتكثيفا لرحلتين سيقوم بهما بطلا روايتيه التاليتين (الطريق) ١٩٦٤ ثم (الشحاذ) ١٩٦٥ فما أشبه الباحث زعبلاوى بصابر بطل (الطريق) فى بحثه عن الحرية والكرامة والسلام ، وبعمر الحمزاوى المتسائل عن معنى الحياة . الأبطال الثلاثة يجمع بينهم أنهم فى رحلة بحث عن شخص كل القدرة أو شىء يهب المعنى لحياة بلا معنى وتتعدد سبل البحث من الدين إلى العلم ومن الخمر إلى التصوف ومن الحب إلى الجنس . وقد يجد الباحث فى آخر الطريق الموت أو الجريمة لكن هذه ليست النهاية فالأمل يبقى موجودا ... الخ .

يقول راوى القصة وهو ليس بطلها الحقيقى فبطلها كما سنرى هو الغائب الحاضر زعبلاوى : إنه كان يسمع عن الشيخ زعبلاوى منذ طفولته وخطر له أن يسأل أباه عنه كعادة الأطفال فى السؤال عن كل شىء فسأله : من هو زعبلاوى يا أبى ؟ فرمقنى بنظرة مترددة كأنما شك فى استعدادى لفهم الجواب لكنه قال : فلتحل بك بركته إنه ولى صادق من أولياء الله وشيال الهموم والمتاعب ولولاه لمت غما . ثم تمر السنوات حتى أصابنى الداء الذى لا دواء له عند أحد وسدت فى وجهى السبل وطوقنى اليأس .

وهكذا نحس من بدايات القصة أن هذه الشخصية رمزية وأنها بالتحديد ترمز لله تعالى وإذن فالراوى فى رحلة بحث عن الله .. هو يسمع عنه منذ طفولته ولكنه يريد أن يعثر عليه أو يجده . على أن أجد الشيخ زعبلاوى بمعنى أن يقتنع بوجوده أو يراه بعقله ومن الطبيعى أن يخلص فى البحث عنه عندما (تسد فى وجهه السبل ويطوقه اليأس لأن الإنسان يكون أقرب ما يكون من الله وقت الأزمات والضيق) . ويبدأ البحث - الذى هو أشبه بالمطاردة البوليسية - فيذهب الراوى إلى كل من يسمع أن له صلة أو كانت له صلة بهذا الشيخ وهنا لا يمكن أن تفوتنا دلالات ما يقوله هؤلاء عنه واحداً بعد الآخر ويصل فهمنا للدلالات إلى ذروته إذا وضعنا فى أذهاننا الدلالات الموازية التى سبق أن بثها الكاتب فى تناوله للجبلاوى فى (أولاد حارتنا) .

يقول الشيخ قمر المحامى الشرعى : (كان ذلك فى الزمان الأول وما أكاد أذكره اليوم) فإذا كان (زعبلاوى) يرمز لله تعالى فالمعنى هو نفسه الذى جاء فى (أولاد حارتنا) وهو أن الله وجد فقط أو وجد الإيمان به فقط فى العصور القديمة .. عصور الأسطورة والخرافة قبل أن يضع العلم الإله الجديد حدا لذكره بين الناس .

ويقول بائع الكتب القديمة :

(زعبلاوى يا سلام والله زمان كان يقيم فى هذا الربع حقا عندما كان صالحا للاقامة ولكن أين زعبلاوى اليوم) وهذا الربع يرمز للعالم القديم فالله تعالى كان يقيم فيه لأن ذلك العالم بتفكيره الخرافى أو الاسطورى قبل النضوج وقبل عصر العلم كان يصلح لاقامة الإله فيه أما الآن فأين هو إذن ما زلنا أمام التفسير المادى الالحادى .

ثم يقول عنه شيخ الحارة :

(ربما صادفته وأنت خارج من هنا على غير ميعاد وربما قضيت الأيام والشهور بحثا عنه دون جدوى إنه رجل يحير العقول) . وهذا ينقل معنى التخبط فى رحلة البحث عنه فليس هناك بهذه المنطقة خيط يمكن تتبعه حتى نصل إليه بل ان الأمر من قبيل المصادفة البحتة

بعض الناس يجلونه وبعضهم لا يجلونه .. الذى لا يبحث عنه قد يصادفه فجأة والذى يبحث عنه الأيام والشهور قد لا يجده واللوم عليه هو – يعنى زعبلاوى – لأنه (يحير العقول) وهذا المنطق غريب جدا لأن المنتظر ممن يبحث عن خالق للكون بعقلانية أن يعمل عقله فى نفسه وفيما حوله ويتتبع خيطا أو أكثر من تلك الخيوط الكثيرة التى تصل به إليه – كنظام الكون البديع وبدائع الخلق واستحالة الوجود بالصدفة إلى آخر ذلك – فلابد له أن يصل إليه بعقله إذا كان مخلصا . أما المستهتر الذى لا يبذل هذا الجهد فأحرى به ألا يهتم بالأمر أو يفكر فيه وبالتالى قد لا يصل إليه مع كونه أمرا فطريا . أما هنا فالكاتب يقلب هذا المنطق العقلانى الذى يدعيه رأساً على عقب ويجعل من رحلة البحث عن الخالق أمرا عبثيا يخضع للمصادفة البحتة فيصادر على المطلوب لأنه لو كان يفترض وجود خالق افتراضا جدليا لتصور هذا الخالق مهتماً بأن يهدى خلقه إليه على الأقل وينير لهم سبل الهداية ولا يتفرج عليهم وهم فى هذه الحيرة القاتلة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ويقول شيخ الحارة عبارة دالة : كان الله فى عونك لكن لم لا تستعين بالعقل ؟ وإن كان ما ذكرناه الآن يتنافى مع ذلك لكن (العقل) هنا يوحى بشىء آخرَ فيه رائحة العلم المادى .

ويقول عم حسنين الخطاط (وأمامه لوحة مكتوب عليها [الله]) :

(كان ياما كان الرجل اللغز يقبل عليك حتى يظنوه قريبك ويختفى فكأنه ما كان) .

فنجد هنا عبارة كان ياما كان تعطى دلالة الخرافة أو الاسطورة لأنها العبارة الموروثة التى تبدأ بها الحكايات الشعبية الخرافية ثم تأتى عبارة (الرجل اللغز) فتكشف المعنى .

ويقول المطرب عن زعبلاوى :

(هذا الرجل يتعب كل من يريده كان أمره سهلا فى الزمان القديم عندما كان يقيم فى مكان معروف اليوم الدنيا تغيرت وبعد أن كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل) فهو أولا يتعب كل من يريده (البحث عن الله أمر شاق لا ييسره الخالق نفسه) وهو ما يتناقض مع الحقيقة القرآنية : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب** ﴾ ثم ان أمره كان سهلا فى الزمان القديم عندما كان يقيم فى مكان معروف وهو بعد أن كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام (أى أن تأثير القوة الروحية كان قديماً أكبر من تأثير السلطة الزمنية) أصبح الآن مطاردا من الشرطة (لعلها ترمز للعلمانية وقواها) بتهمة الدجل (أى الخرافة) ثم تصل القصة إلى ذروتها عندما يذهب الراوى إلى حانة النجمة ليقابل الحاج ونس الدمنهورى الذى سمع أن (زعبلاوى) يتردد عليه .

القــول الحــق

﴿ **فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾ نعم إن ما كتبه نجيب محفوظ فى القصة السابقة يطفح بالسموم الناقعات . وهنا لابد أن نرد عما جاء فى كلامه مناقضا كل التناقض عقيدة الألوهية من الصدفة والعبث واللغز إلى آخر ما قاله ، وقبل أن نشرع فى الرد نقول ان العالم كله من شرقه إلى غربه لو اجتمع لينال من الإسلام مغمزاً أو طعنة فإن مثله مع الإسلام كمثل بعوضة وهنانة سقطت على نخلة شماء تنخلع الرقاب عند ذراها فلما أرادت أن ترحل قالت أيتها النخلة استمسكى فإننى راحلة عنك فقالت النخلة فى شموخ ورسوخ وبزوخ : أيتها البعوضة ما شعرت بك حين سقطتى على فكيف أشعر بك وأنت راحلة عنى .

أرأيـت عصفــورا ينـازل باشقـا إلا لخفتــه وقلـة عقلـــــه

لا مجال فى هذا الكون للعبث أو الصدفــة

﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ . لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سماءه إلى أرضه وقلت له : من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال قائلا : أنا مخلوق للواحد الديان .

سل الواحــة الخضــراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبـال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى سل الليل والأصباح والطير شاديـا
وسل هذه الأنســام والأرض والسمــا وسل كل شيء تسمــع الحمد ساريـا
فلو جن هذا الليــل وامتد سرمــدا فمن غير ربـى يرجع الصبح ثانيـــا
ولو غـاص هذا الماء فى القاع هــل لكم سوى الله يجريــه كما شاء راويــا
ولو أن هذى الريــح ثارت واعــترت أفى كونكــم من يمسك الريــح ناهيــا

تأمل فى نبـات الأرض وانظــر إلى آثــار ما صنــع المليـــك
عيــون من لجــين شاخصـــات بأبصـــار هى الذهــب السميـــك
على قضـــب الزبرجــد شاهــدات بـأن الله ليـــس لـــه شريـــك

ليس فى عقيدة الألوهية وقضية التوحيد مغمز لطاعن أو مطعن لغامز إن مثل المعاندين المكابرين المجادلين فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير كمثل ذبابة واهية تحاول أن تحجب بجناحيها ضوء الشمس أو نور القمر فهل تستطيع إلى ذلك سبيلا . إن القرآن يقول لهؤلاء وأولئك : ﴿ **قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾ وفى ريبهم يترددون وفى غيهم يعمهون .

إن العلم بوجود الله تعالى مركوز فى فطر الصبيان وطباع البهائم لا يجادل فى ذلك إلا كل أفاك أثيم ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم** ﴾ وقبل أن نفصل القول فى الرد على ما جاء من أفكار لهذا الكاتب نسوق هذا الحوار الذى دار بين عالمين .. ويسعدنى أن استشهد فى هذا المقام بهذا المشهد الذى سجله العالم الهندى المغفور له الدكتور عناية الله المشرقى وهو من أعظم علماء الهند فى الطبيعة والرياضيات ويتمتع بشهرة كبيرة فى الغرب لاكتشافاته العديدة وأفكاره الجديدة وهو أول من عرض فكرة القنبلة الذرية قال : (خرجت فى أحد الأيام من عام ١٩٠٩ وكانت السماء يومها تمطر بغزارة فإذا بى أرى الفلكى الشهير السير جيمس جينز الأستاذ بجامعة كمبردج فذهبت إليه ودار بينى وبينه حوار فى بعض الشئون أدى ذلك الحديث إلى أنه دعانى لزيارته فى بيته . وعندما وصلت إلى داره فى المساء أخبرت بأنه ينتظرنى وعندما دخلت عليه فى غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعا عليها أدوات الشاى وكان البروفيسور منهمكا فى أفكاره . وعندما شعر بوجودى سألنى : ماذا كان سؤالك ؟ ودون أن ينتظر ردى بدأ يلقى محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية ونظامها المدهش وأبعادها وفواصلها اللامتناهية وطرقها ومداراتها وجاذبيتها وطوفان أنوارها المذهلة حتى أننى شعرت بقلبى يهتز بهيبة الله وجلاله أما السير جيمس جينز فوجدت شعر رأسه قائماً والدموع تنهمر من عينيه ويداه ترتعدان من خشية الله وتوقف فجأة ثم بدأ يقول :

(ياعناية الله عندما ألقى نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودى يرتعش من الجلال الإلهى وعندما أركع أمام الله وأقول له : إنك لعظيم أجد أن كل جزء من كيانى يؤيدنى فى هذا الدعاء وأشعر بسكون وسعادة عظيمين وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين الغامرة) .

ويقول عناية الله مستطردا : (ان هذه المحاضرة أحدثت طوفانا فى عقلى وقلت له : يا سيدى لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التى رويتموها لى وتذكرت بهذه المناسبة آية من كتاب الله المقدس فلو سمحتم لى لقرأتها عليكم .. فهز رأسه قائلا : بكل سرور .. فقرأت عليه الآيتين التاليتين : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾ فصرخ السير جيمس جينز قائلا : ماذا قلت ؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء مدهش وغريب وعجيب جداً أن الأمر الذى كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة . من أنبأ محمداً به ؟ هل هذه الآية موجودة فى القرآن حقيقة لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة منى أن القرآن كتاب الله موحى به من عند الله) .

ويستطرد السير جيمس جينز قائلا : (لقد كان محمد أميا ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه ولكن الله هو الذى أخبره بهذا السر مدهش وغريب وعجيب جدا) .

هذه شهادة عالم من مشاهير العلماء تخصص فى علوم الفلك التى نطق بها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ . وهكذا تبين لنا من شهادته أن الإسلام يصالح العلم ويصافحه ولا يخاصمه أو ينفر منه . لقد قال مولانا جل ذكره : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ . إن هذا العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه لا مجال للصدفة فيه فلو سألته وقلت له : من خالقك ؟ لقال لك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان . واسألوا العلم وحقائقه وقولوا له : مم تتركب الأجسام الحية ؟ إنه سيجيبكم بلسان اليقين قائلا : أن الأجسام الحية تتركب من خلايا حية وهذه الخلية مركب صغير جدًا ومعقد غاية التعقيد وهى تدرس تحت علم خاص يسمى (علم الخلايا) ومن الأجزاء التى تحتوى عليها هذه الخلايا : البروتين .. والبروتين هذا مركب كيماوى من خمسة عناصر هى : الكربون والهيدروجين والنتروجين والأوكسيجين والكبريت ويشتمل الجزىء البروتينى الواحد على أربعين ألفا من ذرات هذه العناصر . وفى الكون أكثر من مائة عنصر كيماوى كلها منتشرة فى أرجائه فأية نسبة فى تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون فى صالح قانون (الصدفة) . أيمكن أن تتركب خمسة عناصر من هذا العدد الكبير لايجاد (الجزىء البروتينى) بصدفة واتقان محض إننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضى ذلك القدر الهائل من المادة الذى سنحتاجه لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام كما نستطيع أن نتصور شيئا عن المدة التى سوف تستغرقها هذه العملية . لقد حاول الرياضى السويسرى الشهير وهو الأستاذ تشارلز يورجين أن يستخرج هذه المادة عن طريق الرياضة فانتهى فى أبحاثه إلى أن (الامكان المحض) فى وقوع الحادث الاتفاق الذى من شأنه أنه يؤدى إلى خلق كون إذا ما توفرت المادة هو واحد على ١٠/١٦٠ (أى : ١٠ × ١٠ مائة وستين مرة) وبعبارة أخرى نضيف مائة وستين صفرا إلى جانب عشرة وهو عدد هائل لا يمكن وصفه فى اللغة .

إن إمكان حدوث الجزىء البروتينى عن صدفة يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة فى سائر الكون حتى يمكن تحريكها وضخها وأما المدة التى يمكن فيها ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهى أكثر من ١٠/٢٤٣ سنة أى (مائتان وثلاثة وأربعون صفرا أمام عشر سنين) . إن جزىء البروتين يتكون من سلاسل طويلة من حوامض الأمينو وأخطر ما فى هذه العملية هو الطريقة التى تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض فإنها لو اجتمعت فى صورة غير صحيحة لأصبحت سماً قاتلا بدلا من أن تصبح موجدة للحياة .

إن هذا الجزىء البروتينى ذو وجود (كيماوى) لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءا من الخلية فهنا تبرأ الحياة وهذا الواقع يطرح أهم سؤال فى بحثنا : من أين تأتى الحرارة عندما يندمج الجزىء بالخلية ؟ ولا جواب عن هذا السؤال فى أسفار المعارضين الملحدين . إن من الواضح الجلى أن التفسير الذى يزعمه هؤلاء المعارضون متسترين وراء قانون (الصدفة الرياضى لا ينطبق على الخلية نفسها وإنما على جزء صغير منها هو الجزىء البروتينى وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش وفى جسد كل فرد منا ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا .

لا مجال للصدفة فى هذا الكــون

يقول زعيم الملحدين جوليان هكسلى : (لو أجلست ستة من القردة على آلات كاتبة وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير ! فكذلك كان الكون الموجود الآن .. نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور فى المادة لبلايين السنين) .

ويقول أهل الحق :

(إن أى كلام من هذا القبيل [لغير مثير] بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان ، فإن جميع علومنا تجهل – إلى يوم الناس هذا – أية صدفة أنتجت واقعا عظيما ذا روح عجيبة فى روعة الكون) .

إن هذا الكون لا تطرف فيه عين ، ولا تهب فيه نسمة هواء ، ولا يحدث فيه حدث كبير أو صغير إلا بإذن الله وعنايته : **﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾** .

وقد صدق الله جل شأنه إذ يقول :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ .

وصدق جل شأنه إذ يقول :

﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

ويقول البروفيسور ابروين كونكلين : إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاق) شبيه فى مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفى يقع فى مطبعة

وما أبرع قول أمير الشعراء شوقى :

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى	حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا	لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه	تمحو أثيم الشك والإنكار

الكون يتحدث عن وحدانية الله

يقول تبارك وتعالى :

﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءاً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرهاأءله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاًأءله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله ؟ قليلاً ما تذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أءله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

إنها آيات تنطق بالحق ، وتسطر على وجه الكون دلائل التوحيد ، وتسجل فى صفحات الوجود الآيات القاطعة التى تدل على أن كل أثر لابد له من مؤثر .

وهذه الآثار تحدثنا بلسان الصدق ، وتنطق أمامنا بقوانين الحق .

جاء فى كتاب (الطبيعة والعلم يتحدثان عن الله) :

(إن وجود الكون والنظام العجيب الذى اشتمل عليه وأسراره الدقيقة لا يمكن تفسير ذلك كله إلا بأنه قد خلقه إله عالم مريد قادر حى سميع بصير حكيم مدبر ، وأن هذا الإله القادر منزه عن العبث) .

آيات ناطقة بالحكمة والقدرة

إن هذا النظام الذى يلف الكون كله نجده فى صورته الكاملة فى أصغر عالم عرفناه - فنحن نعرف - طبقا لأحدث معلوماتنا أن الذرة أصغر عالم وأنها قد تناهت فى صغرها حتى

لا يمكن مشاهدتها بالمنظار الذى يكبر الأشياء ملايين المرات فهى - بناء على هذا - ليست شيئا بل أنها (لا شىء بالنسبة إلى أدنى ما يستطيع البصر الإنسانى أن يراه .

ولكن هذه الذرة مع ما وصفناها به تحتوى بصورة رائعة على نظام الدورات العجيب الموجود فى النظام الشمسى . فالذرة اسم لمجموعة من الالكترونات وهذه الالكترونات لا يتصل بعضها ببعض وإنما يوجد بينها فراغ كبير الحجم نسبيا ولنأخذ مثلا قطعة من الحديد التى توجد فيها الذرات متصلا بعضها ببعض اتصالا شديدا . سنجد أن هذه الالكترونات

لا تشغل أكثر من $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ من مسافة الذرة ، وبقية المجال يكون خاليا . ولو أننا

أخذنا صورة مكبرة لجزئين من الالكترونات والنيترون فسوف يكون الفاصل بينهما ما يقرب من ثلثمائة وخمسين ياردة .

والالكترون الذى هو الجزء السلبى فى الذرة يدور حول النيترون الذى هو الجزىء الإيجابى منهما .

هذا النظام الذرى يستحيل قيامه بنفسه ، ولا طريق إلى مشاهدته ولا يمكن تفسير عمله داخل الذرة بغير العلم . أما وقد تبناه العلم فعلا فإنه دليل قاطع على وجود منظم قائم على هذا التنظيم ، لأنه يستحيل أن يقوم هذا النظام بنفسه .

هذه بديهة عقلية لا يجادل فيها إلا كل أفاك أثيم . .

آيــــة أخـــــرى

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (صدق الله العظيم) .

إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التليفون ، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من لندن إلى أستراليا تتم فى بضع ثوان ، فإذا كان نظام أسلاك التليفون يوقعنا فى هذه الحيرة ، فما بالنا بنظام الجهاز العصبى وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيداً .

إن ملايين الأخبار تجرى على أسلاك نظامنا العصبى ، الذى أوجده الله تعالى - من جانب إلى آخر - ليل نهار .

وهذه الأخبار هى التى توجه القلب فى تدفقه وحركته ، وتتحكم فى حركات الأعضاء المختلفة ، وتتحكم فى الحركات الرئوية ، ولو لم يكن هذا النظام موجودا فى أجسامنا

لصارت الأجسام تلفيفا لأشياء مبعثرة تسلك كل منها مسلكها الخاص .

ومركز هذا النظام للمواصلات مخ الإنسان ، وفى هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية ، ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر فى سائر الجسم وتسمى هذه الأسلاك (الأنسجة العصبية) . وفى هذه الأنسجة يجرى نظام استقبال وإرسال للأخبار بسرعة سبعين ميلا فى الساعة وبواسطة هذه الأنسجة نتذوق ونسمع ونرى ونباشر سائر أعمالنا . وتؤدى الحواس الخمسة وظائفها على الوجه الذى أراده الخالق البارىء المصور . قال : ﴿ **فمن ربكما يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ .

بل إن هناك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة ، ولكل منها سلك خاص متصل بالمخ وبواسطة هذه الشعيرات نحس بالمذاقات المختلفة .

وتوجد فى الأذن عشرة آلاف خلية سمعية ومن خلال نظام معقد يسرى من هذه الخلايا يحدث السمع . وفى كل عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء وتقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ وهناك شبكة من الأنسجة الحية على امتداد جلدنا فإذا قربنا إلى الجلد شيئاً حاراً فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فورا إلى المخ . وإذا قربنا إلى الجلد شيئا بارداً فإن ربع مليون من الخلايا التى تلتقط الأشياء الباردة تحس به ، عندئذ يمتلىء المخ بأثرها ويرتعد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع مزيد من الدم إليها ويزودها بالحرارة . وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة فإن مخابرات الحرارة توصلها إلى الدفاع وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية – تلقائيا – عرقاً بارداً إلى خارج الجسم . والنظام العصبى يشتمل على عدة فروع منها الفرع المتحرك (ذاتيا) ويقوم بأعمال تحدث ذاتياً فى الجسم كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب ويتدرج تحت هذا النوع نظامان : أحدهما (النظام المسبب للحركة) والآخر هو المانع لها . وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع ، ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه . ولو سيطر النظام الثانى لتوقفت حركة القلب توقفا تاما . وأقسام هذين النظامين تباشر أعمالها فى دقة فائقة وفى توازن تام ، ولكن هناك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين . فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة . وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرئة . والنظام الثانى يتغلب عند النوم فيسود السكون جميع الحركات الجسمية .

تباركت ربنا وتعاليت ، إنه صنع الله الذى أتقن كل شىء : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ .

انظـــر إلى المـــرء وقـــل من شق فيه بصـــره   من ذا الذى جهـــزه بقـــوة مفتكـــره
ذاك هـــو الله الذى أنعمـــه منهمـــرة   ذو حكمـــة بالغة وقـــدرة مقتـــدره

آيـــة الله فى المـــاء

﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون ﴾   (صدق الله العظيم)

يقول علماء الكون :

(إن العلم لا يملك أى تفسير لبعض الحقائق ، والقول بأنها حدثت [اتفاقا] إنما يعتبر تحديا وتصادما مع الرياضيات) .

وإن هناك وقائع كثيرة جدا لا طريق لنا إلى فهمها أو تفسيرها إلا إذا سلمنا بأن لله اليد العليا فى إحداثها .

فمن الخصائص المهمة التى توجد فى الماء : أن كثافة الثلج تقل بنسبة كبيرة عن كثافة الماء . فالماء إذن مادة تقل كثافتها بعد التجمد ، ولهذا الأمر قيمة عظيمة بالنسبة إلى الحياة ، إذ يترتب على هذه الخاصية أن الثلج يطفو على سطح الماء ولا ينزل إلى قاع البحار والأنهار ، ولولا ذلك لتجمد الماء كله فى البحار والأنهار والخزانات المائية .

إن الثلج يقوم بدور الحاجب للماء الذى تحته كما تبقى حرارته دون درجة التجمد فتبقى الأسماك والحيوانات المائية على قيد الحياة ، فإذا ما جاء موسم الربيع ذاب الثلج ، ولولا خاصية الثلج هذه لعانى سكان الأقطار الباردة الكثير من المتاعب والمصائب الناجمة عن عدم ذوبان الثلج .

وهكذا تختلف القوانين العلمية وتتناقض الحقائق المرئية وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدبير أمورها ، وتيسير سبلها ، أليس فى ذلك الرد .. أبلغ الرد على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت : **﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾** .

آيــة الله فى نظــام الفلــك

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾ .

(صدق الله العظيم)

إن الفضاء الكونى فسيح جدا تتحرك فيه كواكب لا حصر لها بسرعة خارقة بعضها يواصل رحلته وحده ، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى ، ومنها ما يتحرك فى شكل مجموعات .

ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذى يدخل غرفتك من النافذة فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير فى الهواء فلو استطعت أن تتخيل هذا فى شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشىء عن السيارات والكواكب فى الكون ، مع الفرق الهائل المتمثل فى أن ذرات الغبار تتحرك ويتصادم بعضها مع بعض . ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى ، ومثلها كمثل بواخر عديدة تمشى فى أعالى البحار متباعدة حتى إن إحداها لا تعرف شيئا عن الأخرى .

إن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم تسمى (مجاميع النجوم) وكلها تتحرك دائما .

الشمــس والأرض والقمــر والنجــوم

ولكم نتحير عندما نرفع أعيننا إلى السماء ونشاهد الكواكب والنجوم التى لا حصر لها . إن هذه الكرات السماوية التى لا تزال معلقة فى الفضاء منذ قرون لا نعرف عدتها تدور فى الفضاء الفسيح السحيق على نظام معين وهو بلا شك نظام لا مثيل له من الذرة إلى قطرة الماء إلى الكواكب السحيقة فى أجواز الفضاء . نظام تستنبط على أساسه قوانين علمية .

يقول علماء الفلك : إن أقرب حركة منا هى حركة القمر التى تبعد عنا (٢٤٠,٠٠٠ ميل) وهو يدور حول الأرض .. ويكمل دورته فى مدة تسعة وعشرين يوما ونصف يوم .. وكذلك تبعد أرضنا هذه عن الشمس (٩٣ مليون ميل) وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة فى سنة كاملة .

وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض تسمى (العائلة الشمسية) وهى عطارد ، والمريخ ، والمشترى ، والزهرة ، والأرض ، وزحل ، وأورانس ، ونبتون ، وبلوتو . وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة . وأبعد هذه الكواكب السيارة (بلوتو) الذى يدور فى دائرة ٧٥٠٠ مليون ميل حول الشمس وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمراً أخرى .

وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفاً من النجميات وآلاف من النجوم ذوات الأذناب وشهب لا حصر لها وكلها تدور وفى وسطها ذلك السيار العملاق الذى نسميه (الشمس) ويبلغ قطرها ٨٦٥ ألف ميل ، وهى أكبر من الأرض بمليون ومائتى ألف مرة .

ثم إن هذه الشمس ليست بثابتة أو واقفة فى مكان ما .. وإنما هى بدورها مع كل هذه السيارات والنجميات تدور فى هذا النظام الرائع بسرعة ٦٠ ألف ميل فى الساعة .

وهناك آلاف من الأنظمة غير هذا النظام الشمسى ، يتكون منها ذلكم النظام الذى نسميه (مجاميع النجوم أو المجرات) .. ولم يكتشف العلم إلا جانبا يسيرا يقدر بمائة ألف مليون مجموعة شمسية كل مجموعة تتكون من مائة ألف مليون شمس ، أصغرها شمسنا هذه .

ويقول علماء الفلك :

(إن حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير فى سرعة دورانها حتى بعد مرور قرن من الزمان .

وهذا القمر الذى يتبع فى حركته الأرض يدور فى فلك مقرر ومنضبط مع تفاوت يسير جدا ، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاما ونصف عام بدقة فائقة ، وتلك هى حال جميع الأجرام السماوية) .

ويرى علماء الفلك أيضا :

(أن مجرات النجوم يتداخل بعضها فى بعض فتدخل مجرة تشتمل على بلايين من السيارات المتحركة فى مجرة أخرى مثلها وتتحرك سياراتها هى الأخرى ، ثم تخرج منها بسياراتها جميعا دون أن يحدث أى تصادم بين سيارات المجرتين .

فتأمل يا أخا الإسلام أبعد هذا النظام والعناية والاتقان ؟

يقول أى جاحد : إن هذا الكون وذلك النظام جاء وليد الصدفة العمياء أو الطبيعة الصماء : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة**

ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير . ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ .

عناية الله بالكوكب الأرضى

صدقت يا ذا الجلال والإكرام إذ تقول :

﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ .

وإذ تقول : **﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ .**

يقول علماء الفلك :

(إن هذه الأرض أهم عالم عرفناه ، إذ توجد فيها أحوال لا توجد فى شىء من هذا الكون الواسع ، وهى فى ضخامتها كما تبدو لنا لا تساوى ذرة من هذا الكون العظيم) .

يقول حجة الفلك العالمى السير جيمس جينز فى كتابه (الكون الغامض) : (ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريبا من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله) .

ويقول كذلك فى كتابه (النجوم فى مسالكها) :

(يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعاف أو خمسة أمثاله ثم يضرب مثلا لعدد النجوم فيقول :

(يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التى فى جميع صحف كل كتب هذه المكتبة عددها مساو تقريبا لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمان ساعات فى كل يوم فلابد لنا من ٧٠٠ سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ١٥٠٠ نجم فى الدقيقة لاستغرق عدنا النجوم كلها ٧٠٠ سنة) .

أما الأرض التى نعيش عليها فهى أقل – أقل بكثير جدا – من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين – أى صفحتين – فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة .

ومن ثم تتجلى لنا الحكمة الإلهية فى خلق الأرض على هذا النحو إذ لو كان حجمها أقل أو أكثر مما هى عليه الآن لاستحالت الحياة فوقها ، فلو أنها كانت فى حجم القمر مثلا بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلا لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية ، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها كما هى الحال فى القمر الذى لا يوجد فيه ماء ولا يحوطه غلاف هوائى لضعف قوة الجاذبية فيه .

وانخفاض الجاذبية فى الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليه اشتداد البرودة ليلا حتى يتجمد كل ما فيها ، واشتداد الحرارة نهارا حتى يحترق كل ما عليها .

وكذلك يترتب على نقص حجم الأرض إلى مستوى حجم القمر أنها لن تمسك مقدارا كبيرا من الماء ، وكثرة الماء أمر ضرورى لاستمرار الاعتدال الموسمى على الأرض، ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب (عجلة التوازن العظيمة) وكذلك سيرتفع الغلاف الهوائى للأرض فى الفضاء ثم يتلاشى ويتبع ذلك أن تبلغ درجة حرارة الأرض أقصى معدلها ثم تنخفض إلى أدنى درجاتها .

وعلى العكس من ذلك إذا كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى إذا لتضاعفت جاذبيتها الحالية ، وحينئذ ينكمش غلافها الجوى الذى هو على بعد خمسمائة ميل إلى ما دون ذلك وسيترتب على هذا أن يزيد تحمل كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلا إلى ثلاثين من الضغط الجوى ، وهو ضغط يؤثر أسوأ الأثر فى الحياة .

ولو أن الأرض تضاعفت حجمها فصارت مثل حجم الشمس مثلا لبلغت قوة الجاذبية فيها مثل جاذبيتها الحالية مائة وخمسين مرة ، ولاقترب غلافها الهوائى حتى يصير منها على بعد أربعة أميال فقط بدلا من خمسمائة ميل ، ولارتفع الضغط الجوى إلى معدل طن واحد على كل بوصة مربعة ، وذلك يؤدى إلى استحالة نشأة الأجسام الحية ، وهو من الناحية النظرية يعنى أن يصير وزن الحيوان الذى يزيد رطلا واحدا تحت الكثافة الهوائية الحالية خمسمائة رطل ، كما يهبط حجم الإنسان حتى يصير فى حجم فأر كبير ولاستحال وجود العقل فى الإنسان لأنه لابد للعقل الإنسانى من أنسجة عصبية كثيرة فى الجسم ، ولا يوجد هذا النظام إلا إذا كان حجم الجسم بقدر معين .

فتبارك الله أحسن الخالقين ..

أبعد هذا النظام والعناية والاتقان يقول قائل : إن هذا الكون وليد الصدفة العمياء ، أو الطبيعة الصماء ؟

﴿ آلم ۝ تلك آيات الكتاب الحكيم . هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ .

يا أخا الإسلام :

انظر إلى الشمس التى جذوتها مستعرة — فيها ضياء وبها حرارة منتشرة
من ذاالذى أوجدها فى الجو مثل الشرره — ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة — وانظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدر المنتشرة — ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره

حقيقة علمية

صدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ .

يقول الدكتور دالكسيس كيرل :

(إن الكون الرياضى شبكة عجيبة من القياسات والفروض لاتشتمل على شىء غير [معادلة الرموز] . الرموز التى تحتوى على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها . والعلم الحديث لا يدعى ولا يستطيع أن يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة ، فالحقيقة أن [الماء سائل] ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة ، ولكن الواقع أن كل [جزىء] من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسيجين وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب فى العالم ، غير أنها ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقى) .

ويقول البروفيسور أ . ى . ماندير :

(إن الحقائق التى نتعرفها مباشرة تسمى [الحقائق المحسوسة] غير أن الحقائق التى توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر فى الحقائق المحسوسة ، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا فى هذا السبيل هى الاستنباط فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه [بالحقائق المستنبطة] . والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ، وإنما الفرق هو فى التسمية من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة وعلى الثانية بالواسطة ، والحقيقة دائما هى الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط) .

ويضيف ماندير قائلا :

(إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر ؟

فالكون كله مرتبط بعضه بالآخر ، حقائقه متطابقة ، ونظامه عجيب ولهذا فإن أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها هى دراسة باطلة) .

ويقول ماندير فى هذا الصدد :

(إن الوقائع المحسوسة هى أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق التى ندركها بالحواس قد تكون جزئية وغير مرتبطة بالأخرى فلو طالعناها منفردة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا ، أما إذا درسناها فى ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سندرك حقيقتها) .

ثم يأتى بمثال سليم يفسر ذاك فيقول :

(إننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ويتطلب جهدا . ونلاحظ أن القمر يدور فى الفلك . ونعلم أن الصعود فى الجبل أشق من النزول منه . ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهرا ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية هى [قانون الجاذبية] وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل نظام . وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة فلن نجد بينها أى ترتيب فهى متفرقة وغير مترابطة ، ولكن حين ترتبط الوقائع المحسوسة بالحقائق المستنبطة فستخرج صورة منظمة للحقائق) .

إن قانون (الجاذبية) و(الأثير) و(المغناطيسية) و(الكهربية) لا يمكن ملاحظتها قطعا بطريق الحس ، وإنما لاحظ العلماء أشياء أخرى اضطروا لأجلها - منطقيا - أن يؤمنوا بوجود هذه الحقائق والقوانين .

وهذه الحقائق والقوانين تلقى قبولا علميا عظيما .

إن نظرية معقدة غير مفهومة ولا طريق إلى مشاهدتها تعتبر اليوم بلا جدال حقيقة علمية !!

لماذا ؟ لأنها تفسر بعض ملاحظاتنا . فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة . ومن ثم نمضى إلى القول بأن العقيدة الإلهية التى تربط بعض ما نلاحظه وتفسر لنا مضمونه العام تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة .

وقد صدق الله تبارك وتعالى إذ يقول :

﴿ آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

أبعد هذا البيان الذى نطقت به الحقائق العلمية ، وصاحت بأعلى صوتها تقول : إن للكون إلهاً حكيما عليما مريداً قادراً .

أبعد هذا يسأل سائل فيقول : أين الله ؟

إن قال ذلك فإن الله تبارك وتعالى يقول : **﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا . إن الله على كل شىء قدير ﴾** .

ويقول : **﴿ يسبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾** .

إن قالوا : أين الله ؟ فإن الله يقول لهم : **﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾** .

وقد صدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾ .

﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ .

﴿ إن معى ربى سيهدين ﴾ .

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

فإن قالوا فلم لا نراه .

فإن الله يقول لهم : **﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾** .

وإن العلم يقول لهم : وهل كل ما فى الكون من حقائق أدركته الأبصار ؟

هل رأينا بأبصارنا الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء ؟

هل رأت أبصارنا قانون الجاذبية ؟ ما شكل الأثير ؟ ما وزنه ؟ ما حجمه ؟ وهو يملأ الدنيا طولا وعرضا ؟ ما حقيقة الضوء والكهرباء ؟

عرفت كل هذه بآثارها ولم نقف على حقيقتها بأبصارنا .

فإذا كانت هذه المخلوقات التى سبق ذكرها لا تدركها أبصارنا فإن خالقها وهو الله أكبر وأعظم وأجل من أن تدركه أبصار لها طاقة محدودة .

ويرحم الله الإمام على بن أبى طالب وقد قيل له : يا إمام هل رأيت ربك ؟

قال : وكيف أعبد ما لا أرى ؟ قيل له : فكيف رأيته ؟ قال رضى الله عنه : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

سبحانك ربى يا من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون . لو كان كيف كان يكون .

قيل للإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : ما معنى قوله تعالى : **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، لأنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان .

أبعد كل هذه الحقائق يقول قائل : إن هذا النظام وتلك العناية وذلك الاتقان وهذا الكون أتى وليد الصدفة العمياء أو الطبيعة الصماء ؟

سبحانك ربى يا من قلت : ﴿ **حم ٭ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون . ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ، من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم . هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ .

الفصل الرابع

دلالات الرموز فى القصة

فيما يلى الرموز التى استعملها الكاتب فى الرواية ، وما تشير إليه من شخوص وأحداث . وقد رأينا تقديم دلالات الرموز وهى :

١ – **الجبلاوى** : الله سبحانه وتعالى .

٢ – **البيت الكبير** : السماء أو العرش .

٣ – **الحارة** : العالم أو الكون .

٤ – **أدهم** : آدم عليه السلام (والاسمان متقاربان) .

٥ – **عباس** : فى الرواية : أبناء الجبلاوى ويرمزون للملائكة فقد يكون عباس هو عزرائيل .

٦ – **رضوان** : رضوان هو حارس الجنة .

٧ – **جليل** : هو جبريل عليه السلام وإن كان الذى يرمز لجبريل سيأتى فى قصة قاسم تحت اسم (قنديل) فيجب أن نلاحظ أن بعض الشخصيات تحمل أكثر من رمز .

٨ – **إدريس** : إبليس (والاسمان متقاربان) .

٩ – **أميمة** : حواء عليها السلام (واشتقاق الاسم من [أم] يشير إلى أنها أم البشر) .

١٠ – **قدرى** : قابيل .

١١ – **همام** : هابيل .. أبناء آدم عليه السلام والقاف فى (قدرى) والهاء فى (همام) للرمز إلى اسميهما الحقيقى .

١٢ - **جبل** : موسى عليه السلام (والاشارة فى الاسم إلى تكليم الله تعالى له فى جبل سيناء) .

١٣ - **الأفندى** : فرعون (والاسم يشير إلى تميزه وسيادته على قومه) .

١٤ - **السيدة هدى** : امرأة فرعون (واسم هدى يشير إلى هدايتها وأنها امرأة مؤمنة على عكس زوجها) .

١٥ - **زقلط** : هامان .

١٦ - **عم حمدان** : كبير بنى إسرائيل .

١٧ - **أهل حمدان** : بنو إسرائيل .

١٨ - **قدرة** : الذى وكزه موسى فقضى عليه .

١٩ - **دعبس** : الذى استغاث موس واستصرخه مرتين .

٢٠ - **ضُلمة** : الذى جاء من أقصى المدينة يسعى : ﴿ **قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج** ﴾ .

٢١ - **البلقيطى** : الرجل الصالح - أو شعيب - فى قصة سيدنا موسى عندما ورد ماء مدين وسقى لبنتيه .

٢٢ - **شفيقة** : بنت الرجل الصالح التى تزوجها موسى .

٢٣ - **سيدة** : أختها .

٢٤ - **عَبَدَه** : مريم عليها السلام (والاسم يشير إلى نذرها للعبادة منذ ولادتها) .

٢٥ - **شافعى** : يوسف النجار .

٢٦ - **رفاعة** : عيسى المسيح عليه السلام (لأن الله تعالى رفعه إليه) .

٢٧ - **زنفل** : هيرودس الذى كان يقتل أطفال بيت لحم عندما ولد المسيح (الفتوة الذى يقتل الأطفال الرضع) .

٢٨ - **خنفس** : الحاكم المعاصر للسيد المسيح ولعله بيلاطس .

٢٩ - **تمرد إدريس وطرده من بيت الجبلاوى** : تمرد إبليس وطرده من رحمة الله .

٣٠ - **طرد أدهم وأميمة من بيت الجبلاوى حيث النعيم إلى الشقاء فى الصحراء** : إخراج آدم وحواء من الجنة بعد المعصية إلى الأرض حيث الكد والتعب .

٣١ - **عصيان أوامر الجبلاوى بعدم الاقتراب من الكتاب السرى** : عصيان آدم لنهى الله تعالى عن الاقتراب من الشجرة .

٣٢ - **الكتاب السرى** : اللوح المحفوظ .

٣٣ - **الشروط العشرة فى الكتاب السرى** : الوصايا العشر فى التوراة - الكتب المنزلة المقدسة .

٣٤ - **قتل قدرى لهمام** : قتل قابيل لهابيل .

٣٥ - **لقاء جبل بالجبلاوى فى الظلام فى صحراء المقطم** : تكليم الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام فى طور سيناء .

٣٦ - **ياسمين البغى التى دافع عنها رفاعة ثم خانته وأسلمته لأعدائه** : ١ - مريم المجدلية التى قال فيها المسيح : « **من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر** » . ٢ - يهوذا الذى خان السيد المسيح .

٣٧ - **العشاء الذى تناوله رفاعة مع ياسمين وزكى وكريم وعلى وحسين** : العشاء الأخير للسيد المسيح مع حوارييه .

٣٨ - **حارة الجرابيع** : مكة حيث نشأ رسول الله ﷺ (وفى الاسم إشارة إلى حالة أهل الرسول من حيث الفقر وإن كان هذا حتى مع كونه رمزا مرفوضا لا يبرر سوء الأدب فى اختيار الاسم) .

٣٩ - **الجرابيع** : أهل الرسول ﷺ وأتباعه وأنصاره .

٤٠ - **قاسم** : سيدنا محمد ﷺ (وفى الاسم إشارة واضحة إلى كنيته ﷺ [أبى القاسم]) .

٤١ - **زكريا (بائع البطاطا)** : أبو طالب عم النبى ﷺ الذى كفله (وفى الاسم تشبيه بالنبى زكريا الذى كفل مريم) .

٤٢ - **حسن** : سيدنا على رضى الله عنه (وفى الاسم إشارة إلى كنيته أبى الحسن) .

٤٣ - **يحيى** : ورقة بن نوفل .

٤٤ – **السيدة قمر** : السيدة خديجة رضى الله عنها (ولعل فى الاسم إشارة إلى جمالها) .

٤٥ – **صادق** : أبو بكر الصديق رضى الله عنه (والتشابه بين الاسمين واضح) .

٤٦ – **سكينة (خادمة قمر)** : نفيسة صديقة خديجة .

٤٧ – **قنديل (خادم الجبلاوى ورسوله إلى قاسم)** : ناموس الوحى (جبريل) عليه السلام الذى جاء لسيدنا محمد ﷺ فى الغار . ولعل للاسم دلالة لأن القنديل يعنى النور والملائكة من نور بالإضافة إلى اشتراك الاسمين فى المقطع الأخير (الياء واللام) .

٤٨ – **بدرية (أخت صادق)** : السيدة عائشة رضى الله عنها ابنة سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه (ولعل فى الاسم إشارة إلى جمالها ونضجها كالبدر) .

٤٩ – **عرفة (الساحر الذى تسبب فى موت الجبلاوى)** : الشيوعى الملحد الذى ينكر وجود الله تعالى وكل ما لا يراه بعينيه والذى كان وجوده (أى وجود فكره وعلمه المادى ايذانا بانتهاء عصر الدين فى زعم المؤلف أو أن عرفة هو نفسه العلم المادى العلمانى) .

٥٠ – **كراسة عرفة (المدون فيها علوم السحر)** : أسرار العلم الحديث الذى يمثل الانقاذ والخلاص الوحيد للبشرية حسب منطق الكتاب .

الفصل الخامس

عرض لأحداث (أولاد حارتنا)

مما يصادم عقيدة الألوهيـــة والنبـــوات

تبدأ الرواية الضخمة بمقدمة يقول فيها الكاتب : هذه حكاية حارتنا أو حكايات حارتنا لم أشهد أنا من واقعها إلا طوره الأخير ولكنى سجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم وكما نقلتها الأجيال . وهذه حكايات تروى فى ألف مناسبة ومناسبة فكلما ضاق بأحد حاله أو ناء بظلم سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال فى حسرة : (هذا بيت جدنا جميعنا من صلبه ونحن مستحقو أوقافه فلماذا نجوع وكيف نضام ؟) . ثم تقص هذه الحكايات قصص أبطال حارتنا العظام : أدهم وجبل ورفاعة وقاسم . جدنا هذا لغز من الألغاز عمر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد وكان يدعى الجبلاوى وباسمه سميت حارتنا وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأقطار المحيطة بها فى الخلاء . ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه دون جدوى أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا .. إن أحداً لم يره منذ اعتزاله ولم يكن ذلك بذى بال عند أكثر الناس فلم يهتموا إلا بأوقافه وبشروطه العشرة . ومن هنا نشب النزاع فى حارتنا منذ ولدت ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد .

أدهـــم

كان مكان حارتنا خلاء فهو امتداد لصحراء المقطم الذى يربض فى الأفق ولم يكن فى الخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى كأنما ليحتوى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق .

وذات يوم استدعى سيد البيت أبناءه إلى حجرة الجلوس بالطابق السفلى وجاء أبناؤه جميعا : إدريس وعباس ورضوان وجليل وأدهم مرتدين حللهم الحريرية . ويخبرهم أنه رأى من الأفضل أن يعهد بإدارة الأوقاف إلى شخص آخر غيره . وظن الجميع أنه سيعهد بها إلى إدريس ابنه الأكبر ولم يشك أحد فى ذلك . ولكن المفاجأة أن الجبلاوى يختار أدهم بدلا من إدريس ويثور إدريس ويحتج بأنه أكبرهم ولكن الأب يؤكد له أن اختياره لصالح الجميع . ويقول إدريس : إننى وإخوتى أبناء هانم خيرة النساء أما هذا فابن جارية سوداء . ويرد الجبلاوى بعد أن يأمر إدريس بالتزام الأدب بأن أدهم يعرف المستأجرين ومعظم أسمائهم وعلى علم بالكتابة والحساب . وتثور ثائرة إدريس وينفجر قائلا : أى نوع من الآباء أنت ؟ خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا ونحن أبناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين .. والحق أنه لم يبد من الأب قبل هذا اليوم ما ينم عن التحيز فى معاملته لأبنائه .. حتى إدريس على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى اللهو لم يسء قبل ذلك اليوم إلى أحد من إخوته كان شابا كريما حلو المعشر .

وينتهى الموقف بطرد إبليس من البيت بينما يتولى أدهم إدارة الموقف . فكان أدهم يذهب كل صباح إلى مكتب الوقف فى الحديقة المجاورة للبيت الكبير يعمل بجد واجتهاد يجمع الايجار من المساكن ويوزع الأسهم على المنتفعين ثم يعرض الحسابات على أبيه .

ويتعلق قلبُ أدهم بفتاة فى البيت الكبير هى أميمة ويتم زواجهما . أما إدريس فيدخل فى حالة شبه دائمة من السكر والعربدة على مقربة من البيت الكبير ويرسل لعناته فى الهواء . ويفاجأ إدريس أدهم بزيارة أثناء عمله ويطلب منه أن يسدى إليه معروفا هو أن يطلع على ما دون الأب (الجبلاوى) فى الكتاب السرى ثم يخبر إدريس إن كان له نصيب فى الوصية أم لا حتى يعرف مستقبله . ويظل إدريس يغرى أدهم مظهرا له الود وصدق النية والاخلاص ويستعطفه ولكن أدهم يستنكر أن يقوم بعمل مثل ذلك لأن الجبلاوى حرم على الجميع أن يقتربوا من الحجرة الصغيرة التى تحتوى على الكتاب السرى والملحقة بغرفة نومه .

ولكن أميمة تعلم بالأمر وتظل تحرض زوجها على أن يفعل ذلك وتزينه له باعتباره لن يضر أحدا بينما سينتفع به إدريس فيعلم ماذا ينتظره وسيعلم كذلك أدهم وأميمة ماذا سيكون نصيبهما . ويظل أدهم فريسة للتردد .. إلى أن يقدم على هذا الأمر وينتهز فرصة عدم وجود أبيه ويتسلل إلى الحجرة الصغيرة الداخلية بينما تنتظره أميمة بالمصباح فى الخارج وقبل أن يتمكن أدهم من قراءة محتوى الكتاب السرى يفاجئه أبوه ويمسك به متلبسا ويعرف منه أن إدريس هو الذى أغراه بارتكاب هذا الخطأ وينفتح باب البيت الكبير ولكن هذه المرة لكى يكون الطرد من النعيم إلى الشقاء الخارجى من نصيب أدهم وأميمة . ويقيم أدهم وأميمة فى

كوخ صغير خارج البيت الكبير وإلى جواره كوخ مماثل شيده إدريس لنفسه عند طرده وعاش فيه مع زوجته . ويفطن أدهم إلى أن إغراء إدريس له كان مكيدة لكى يطرد هو الآخر من البيت ويكونا سواء بعد أن فضله الجبلاوى عليه ويسعى أدهم لكسب قوته وقوت أسرته على عربة يد يبيع فيها الخيار وأصبح له ابنان : قدرى وهمام . وكأن قدرى ورث عن عمه إدريس صفاته الذميمة بينما يتصف همام بالصفات الطيبة وتتكرر المأساة حينما يرسل الجبلاوى أحد خدمه إلى بيت أدهم يخبرهم فيه أنه قرر أن يعيش همام مع جده وينعم بالسعادة فى قصره وتدب الفتنة حينما يرفض قدرى تمييز جده لأخيه همام واختياره وحده لهذا النعيم ويحرض إدريس قدرى على هذا التمرد .

وتصل الغيرة والنزاع بين قدرى الشرير وهمام الطيب ذروتها عندما يقتل قدرى أخاه ويدفنه فى الصحراء ويفر قدرى بعد ذلك مع هند ابنة إدريس ثم يعودان بعد زمان إلى الحارة ومعهما أولاد كثيرون من نسلهم جاءت الأجيال التالية .

جبـــــل

مات أبناء الجبلاوى صغارا والوحيد الذى بقى من نسلهم وعاش طيلة حياته فى البيت الكبير كان (الأفندى) وهو ناظر الوقف .

أما أهل الحارة فكانوا بين باعة جائلين وأصحاب دكاكين أو مقاه وعدد كبير من الشحاذين . وقد استقر النظام على أن يسيطر ناظر الوقف على الحارة ومن فيها مستعينا بالفتوات فلكل حى فى الحارة فتوة يحمى أهله ويقهر من يعارضه ويدفع له الناس الأتاوات ثم للحارة كلها فتوة رئيس يساعد ناظر الوقف وكان فتوة الأفندى هو (زقلط) الذى كان يعيش فى بيت مواجه لبيت الأفندى .

وكان أفقر الناس وأكثرهم تعرضا للذل والهوان مع كونهم أيضا ينحدرون من نسل الجبلاوى هم آل حمدان . وفى بيت الأفندى وتحت كنفه وكنف زوجته السيدة هدى نشأ جبل وهو أصلا من آل حمدان ولكن أهله ماتوا فتبنته السيدة هدى والأفندى لأنهما لا ينجبان وينشأ جبل موزع النفس والضمير بين ولائه للبيت الذى تربى فيه وانتمائه لآل حمدان المستضعفين . ويثور آل حمدان ويذهبون – يتقدمهم حمدان – إلى بيت الأفندى طالبين العدل والانصاف لكنه يردهم خائبين ويعمل فيهم فتوته البطش والتنكيل .

ويحاول جبل أن يتدخل لوقف – أو على الأقل – تخفيف العقاب على آل حمدان ولكن موقفه يواجه رد فعل عنيفا من الأفندى وزقلط الفتوة . ويتساءل جبل : (أيعجبك هذا

الطغيان يا جبلاوى) . ويستمر (قدرة) فتوة آل حمدان فى اضطهادهم وسومهم صنوف العذاب .

ويطارد ذات ليلة (دعبس) أحد أبناء الحى متوعدا إياه إلى أن يمسك به وينال عليه بنبوته الغليظ بلا رحمة ويرى جبل هذا المشهد فيحاول أثناء الفتوة عن بغيه بلا طائل فلا يملك إلا أن يبطش به ليوقفه عن قتل دعبس المسكين وينطرح (قدرة) أرضا بلا حراك ويعلم جبل أنه مات مع أنه لم يكن يقصد قتله ويهرب جبل من الحارة بأكملها قاصدا الصحراء بينما تثور ثائرة الفتوات وينزلون بالأهالى أشد ألوان الاضطهاد والعذاب . ويسير جبل مبتعدا إلى أن يرى على البعد فى سوق المقطم منزلا منعزلا ينبعث منه نور فيقصده ويرحب به صاحبه (البلقيطى) مروض الحيات الذى يقيم فى الدار مع ابنتيه (شفيقة) و(سيدة) وكان جبل قد أسدى إلى الفتاتين معروفا عندما سقى لهما الماء وكانتا غير قادرتين على ذلك وسط الجموع الكثيرة وأخبرتا جبل أن أباهما رجل كبير متفرغ لعمله لا يستطيع أن يذهب معهما لحمل الماء .

ويقيم جبل مع البلقيطى الذى يعرف منه قصته ويتفق معه على أن يعلمه مهنة السحر وترويض الثعابين . ويتبادل جبل وشفيقة الاعجاب ويتم زواجهما . ويتقن جبل المهنة ويقضى زمنا مع البلقيطى يكتسب عيشه معه ثم يعود خفية إلى الحارة ومعه زوجته ويقصد بيت حمدان كبير قومه فيرحب به ويدرس الجميع كيف يمكن أن ينتقموا من الفتوات وينهوا حياة الذل والاضطهاد . ويقص عليهم جبل حادثة غريبة وقعت له وهى أن شخصا هائلا كالجبل استوقفه فى الظلام الحالك وهو يتجول فى الصحراء وقال له بصوت غريب : (لا تخف أنا جدك الجبلاوى) . وقال له : (أنا هنا) فحدق جبل بصره فى الظلام لكى يرى وجهه ولكنه لم ير شيئا فقال له الجبلاوى : (لن تستطيع أن ترى وجهى فى الظلام) ، وبينما استمع آل حمدان إلى جبل وهو يقص عليهم القصة وهم مشدوهون متشككون أكمل جبل قائلا : إن الجبلاوى قال له إنك رجل يعتمد عليك يا جبل ولكنك نبذت حياتك المريحة حزنا على ما أصاب قومك من اضطهاد ولكن قومك هم قومى ولهم حقوق فى وقفى لا بد أن يحصلوا عليها ولما سأله جبل : وكيف السبيل إلى ذلك ؟ قال : بالقوة سوف تحطمون الظلم وتنالون حقوقكم وتحيون حياة كريمة . فصاح جبل : سنكون أقوياء وباركه الجبلاوى وانصرف . ويعلم الأفندى وفتواته بعودة جبل وينتشر سر مقابلة الجبلاوى وتثور ثائرة الأفندى لأنه يحس فى ذلك تهديدا لسلطته ونظارته للوقف إذ وقف الجميع خلف جبل مطالبين بحقوقهم .

وفجأة تنتشر فى بيوت الناس وبالذات الأفندى والفتوات ثعابين مخيفة ويسود الذعر بين الناس لدرجة أنهم يغادرون بيوتهم ويبقون فى الخلاء من الذعر ثم يرجون جبل أن يتدخل لانقاذهم من الحيات مستخدما مهنته التى تعلمها ويقبل جبل بشرط أن يكون الثمن هو كلمة شرف من الأفندى أن يحترم آل حمدان ويحفظ لهم كرامتهم وحقهم فى الوقف ويوافق الأفندى تحت ضغط الموقف وسرعان ما يخلصهم جبل من كل الثعابين السامة والخطرة التى تملأ بيوتهم . ويقرر الأفندى وزقلط التخلص من كل آل حمدان حتى لا يطالبوا بحقهم فى الوقف بينما يكون جبل وأهله قد دبروا خطة مضادة للقضاء على الفتوات قضاءا مبرما فقد صنعوا لهم كمينا فى دار حمدان حيث تركوا الباب مفتوحا وحفروا حفرة عميقة فى المدخل غطوها من الخارج بحيث ينخدع الفتوات ويسقطون فيها وهذا ما حدث فعلا فقد سقطوا جميعا وعندئذ ألقوا عليهم المياه ليغرقوهم والتراب ليخنقوهم وأنهالوا كذلك عليهم بالهراوات ضربا عنيفا حتى يستأصلوا شأفتهم تماما ويستعطف الأفندى جبل حتى لا يلحقه أذى هو الآخر ويتفق الجميع على أن يحصل آل حمدان على حقهم فى الوقف بالانصاف ويقضى جبل على دعبس بخلع إحدى عينيه قصاصا منه لأنه فقأ عين شخص آخر .. وهكذا يسود العدل والمساواة بين الناس زمن جبل وتنتهى قصته عند هذا الحد .

رفاعـــــة

ذهب جبل وأيامه السعيدة وعاد عصر الفتوات والقهر من جديد متمثلا فى (زنفل) هكذا تحدث شافعى النجار إلى زوجته عَبَده وهما يفران من الحارة إلى مكان بعيد لكى تضع طفلها حيث إن زنفل الطاغية يقتل كل رضيع من قوم جبل . ويعود شافعى وعَبَده إلى الحارة بعد سنوات قد هدأت الحال فيها ومعهما ابنهما رفاعة شابا يافعا ويشغف رفاعة بالقصص التى تروى على الربابة فى المقاهى عن الجبلاوى وأبنائه ويتحسس شاعر ضرير ملامح وجهه وكتفيه ذات يوم ويقول : (مدهش أن له جمالا مثل جمال الجبلاوى نفسه) ويحاول شافعى أن يجعل ابنه يعمل معه فى دكان النجارة الذى افتتحه فى الحارة ولكن رفاعة لا يركز فى هذا العمل فهو مشغول بقصة الجبلاوى وما يرويه شاعر الربابة . وعلى مقربة من مسكن شافعى وعَبَده تسكن بغى اسمها ياسمين تشرع فى مغازلة وإغراء رفاعة الذى لا يستجيب لها وفى زيارة للراوى فى منزله يلفت نظر رفاعة رسم بالزيت على الحائط . وتمثل الصورة شخصا هائلا تبدو بجانبه بيوت الحارة مثل لعب الأطفال ويسأل رفاعة : صورة من هذه ؟ فيأتيه الجواب : الجبلاوى . فيسأل : وهل رآه أحد ؟ فيجيبه (جواد) الراوى أو الشاعر : لا .. لم يره أحد من جيلنا وحتى جبل نفسه لم يستطع أن يتبين ملامحه فى الظلام عندما قابله فى الصحراء . ولكن الفنان رسمه حسب أوصافه فى الحكايات . ويتساءل رفاعة فى أسى : لماذا أوصد بابه فى

وجه أبنائه ؟ وينصحه الشاعر بقوله : إنه ما دام الجبلاوى لا يفكر فينا فيجب ألا نفكر نحن فيه أيضا . ويعلم رفاعة أن زوجة الراوى (أم بخاطرها) تعمل فى السحر وطرد الأرواح الشريرة ، وتقول له أن كل إنسان له روح خاصة تحركه وإن كل روح تتطلب معاملة خاصة وأن الإنسان يشبه روحه المسيطرة فالأرواح الشريرة تتطلب بخورا خاصا ونغمات خاصة لطردها فيهتم رفاعة بذلك اهتماما شديدا ويطلب منها أن تعلمه كل ما تعرفه من ذلك وتوافق على أن يوافيها كلما استطاع لكى تلقنه مهنتها على شرط ألا يغضب أبوه من ذلك .

ويطلب رفاعة من أبيه أن يحضر من يرسم لهم صورة زيتية للجبلاوى على الحائط فى منزلهم كتلك التى شاهدها عند (جواد) فيقول له أبوه إنهم أحوج إلى المال الذى سينفقه على هذه الصورة ثم إنها أوهام وخيالات . وكم شهد رفاعة ليالى مع أم بخاطرها يتابع ويراقب دق الطبول واخضاع الأرواح الشريرة ، وكان المرضى يساقون إلى بيتها ضعافا وفى حالة فقدان وعى وبعضهم كان يحمل حملا أو يقيد ويوضع فى الاصفاد نظرا لتوحشه وكان لكل حالة ما يناسبها من البخور حيث يطهره البخور وتضرب الايقاعات المطلوبة .

ويحس رفاعة أن هذا هو العلم الذى يريده لكى يخلص الحارة من ناظر الوقف والفتوات وأمثالهم ولا سيما بعد أن اكتشف أنه يمكن اخضاع وتطهير النفوس الشريرة عن طريق أشياء طاهرة ونقية وطيبة مثل الروائح المعطرة والنغمات الجميلة . وصعد رفاعة إلى أعلى السطح وتأمل البيت الكبير قرب الفجر وراودته الخواطر : أين أنت يا جبلاوى لماذا لا تظهر ولو للحظة واحدة ألا تعلم أن كلمة واحدة منك تغير حال الحارة كلها ؟

وأبوه يعنفه كلما سمع منه هذه الخواطر ويحثه على أن يعمل عملا جادا بدلا من أن يضيع وقته هكذا . وتزور الست زكية زوجة (خنفس) الفتوة عبده أم رفاعة وتقدم لها ابنتها عائشة وتفاتح عبده وشافعى ابنهما بشأن هذا الشرف الكبير – ويحاولان اقناعه بأن هذه فرصة عظيمة للوصول بعد ذلك إلى منزل الناظر – الوصى على تركة بنى جبل ومن يدرى لعله يرث هذا المنصب يوما ما .. ويحتج رفاعة كيف أصاهر هذا الشيطان فى الوقت الذى ينصب فيه كل اهتمامى على طرد الشياطين .. ويجن جنون أبيه ويتهمه بأنه يريد أن يتحول إلى ساحر وبأنه كالبنات ، وبأن الحارة كلها لاحظت نعومته وطراوته .

ويعجب شافعى من رفض ابنه لفكرة الزواج ويحاول إثناءه عن أفكاره باللين وبالشدة بينما يقرر رفاعة فى نفسه أن هذا البيت ليس هو المكان الذى يبحث عنه .. إنه أصبح كالسجن ولابد له من كان آخر .. ويفتقد شافعى ابنه فى دكان النجارة بعد ذلك فلا يجده ويسأل عنه جواد فى قهوة شلضم فيخبره بأنه لم يره .. ويستبد القلق بعبده عندما يعود شافعى وليس معه رفاعة وتنصحه أن يبحث عنه عند ياسمين البغى – وتفاجأ ياسمين بشافعى

ويسألها عن رفاعة فتندهش وتقول له : لماذا يأتى هنا ؟ وينصرف ويسمع عند انصرافه حديثا من داخل المسكن تقول فيه ياسمين لرفيقها : إنهم يقلقون عليه كما لو كان بنتا ويذهب شافعى وعبده إلى سوق المقطم حيث كانوا يعيشون لمدة ٢٠ سنة عندما هربوا من الحارة قبيل ولادة رفاعة ويسألون جيرانهم القدامى ومعارفهم عنه ولكن بلا طائل .

ويظهر رفاعة فجأة بعد فترة وقد أصابه الضعف والهزال ويخبر الجميع أنه كان فى الصحراء لأنه أحس أنه يريد أن يخلوا إلى نفسه وانه لم يخرجه من الصحراء إلا البحث عن طعام .

وتخبرهم أم بخاطرها أن رفاعة نمط مختلف عن باقى الناس وليس هناك من يماثله فى الحارة كلها ، وأنه لم يكن من الحكمة محاولة إجباره على شيء لا يريده . وعاد رفاعة للعمل فى دكان والده شافعى النجار وكان يهاجم العنف فى كل مناقشاته مع زبائن المحل ويقول لهم إن (العنف) لا يحل أى مشكلة وأن جبل لم يلجأ للعنف إلا للدفاع عن النفس . وذات يوم يقول رفاعة لوالده أن هناك شيئا حدث ولا يستطيع كتمانه أكثر من ذلك ويخبره أنه كان فى الصحراء بالقرب من البيت الكبير . وسمع فى الظلام صوت الجبلاوى يقول له أن جبل أدى رسالته وفعل ما عليه ولكن الأمور عادت لتصبح أسوأ مما كانت فنادى رفاعة : (جدى لقد مات جبل وحل آخرون محله فامدد يدك إلينا وساعدنا فجاءه الرد من الجبلاوى : كيف يطلب الحفيد من الجد أن يعمل إنما يعمل الابن المحبوب .

ويقلق شافعى وعبده مما قاله ابنهما رفاعة ويخشيان أن يبلغ الأمر لسكان الحارة وتحدث ضجة ذات يوم عندما يتجمع الأهالى ويطالبون بطرد ياسمين البغى من الحارة فيدافع رفاعة عنها ويقول أن المسئول هو (بيومى) - الفتوة - الذى أغواها ويطلب منهم أن يرحموا ضعفها ثم يعرض أن يتزوجها إنقاذا لها من بين أيديهم ويصرح رفاعة ليلة زفافه بأنه شرب بعض الخمر وأنه جرب الحشيش ولكنه لم يجد لديه ميلا إلى شربه .

ويدور حوار بينهما ليلة العرس يتضح منه أن رفاعة زاهد فى متاع الدنيا وأنه لم يقرب عروسه مما أثار غيظها وحنقها وكان كل حديثه معها عن وجوب تطهير نفس الإنسان من الأرواح الشريرة حتى يحصل على السعادة الحقيقية .. ويتخذ رفاعة له بيتا فى حى آخر ويأتيه الناس ولا سيما الفقراء طلبا للعلاج والهداية ويتوب الكثيرون على يديه من غواياتهم وضلالاتهم ويصبح البعض هادىء الطباع وهكذا ... ويتخذ من مرضاه أربعة يعتبرهم أصدقاءه بعد أن تحولوا إلى أناس أسوياء ذوى خلق حسن وطبيعة طيبة وكانوا من قبل ذلك أشرار فقد كان (زكى) متشردا صعلوكا و(حسين) حشاشا مدمنا و(على) بلطجى قاسى القلب و(كريم) قوادا .

وتخون ياسمين زوجها رفاعة مع (بيومى) الفتوة بينما ينهمك رفاعة فى علاج الناس وتخليصهم من أرواحهم الشريرة ويطلب من تلاميذه الأربعة أن يمارسوا نفس العمل ويبلغوا هذه الرسالة لكل الناس لأنه لا يستطيع ذلك وحده .

وفى لقائهما سراً فى بيته يتحدث بيومى مع ياسمين عن دعوة رفاعة ويخشى بيومى أن يكون هدف رفاعة استعادة الوقف وتسليمه من جديد إلى قوم جبل ويسخر من احتمال ادعاء رفاعة أنه سمع ذلك من الجبلاوى نفسه ويعلن فى نهاية الحوار - مؤكدا - أن الجبلاوى مات أو هو كالميت . وتحدث مواجهة بين رفاعة وكل من خنفس وبيومى بعد أن يستبد القلق بإيهاب ناظر الوقف وينذرانه بالكف عما يفعله من استقبال الناس وعلاجهم وإلا فالويل له وينصح الجميع (عبده وشافعى وياسمين والأصدقاء الأربعة) رفاعة بأن يهرب من الحارة كلها لأن الفتوات يتربصون به ليقتلوه وتخونه ياسمين وتبلغ بيومى بخطة الهرب . وفى اللحظة المقدرة يهجم عليهم الفتوات فيهرب أصدقاء رفاعة ثم يسوقه الفتوات عبر الحارة ويمرون على البيت الكبير ويفكر رفاعة : هل يحس الجبلاوى بمعاناته الآن وينادى جبلاوى ولا يرد عليه أحد ثم يقتلونه بهراواتهم ويستخرج أصدقاءه جثته من المكان الذى دفنها فيه الفتوات ليدفنوها فى إحدى المقابر ثم يقتلون ياسمين لخيانتها ويشرعون فى مواصلة رسالة رفاعة بتعليم الناس أسرار مهنته . وتناقل الناس قصة رفاعة وزعم بعضهم أن الجبلاوى نفسه هو الذى استخرجه وحمله بعيداً إلى حيث قصره ووضعه تحت ثرى حديقته الغناء .

ويرى بعض تلاميذ رفاعة ضرورة الانتقام من الفتوات الجبابرة ويرى آخرون أن فى ذلك مخالفة لتعاليم رفاعة التى تنبذ العنف ثم تبدأ موجة من الانتقام ضد كل الفتوات حيث يجد الناس جثثهم واحدا وراء الآخر أمام منازلهم ، وتحدث مواجهة بين الفتوات وأنصار رفاعة وتنتهى بانتصار (الرفاعيين) ويتم اتفاق بين (على) زعيمهم وناظر الوقف بمقتضاه يتم الاعتراف بهم وبأن لهم نصيبا من التركة مثل قوم جبل . ويعود كل الذين فروا من الحارة فى فترة الارهاب والاضطهاد ومنهم شافعى وعبده بينما يختلف أتباع رفاعة فمنهم من يرى أن رسالته مداواة المرضى والرحمة ومنهم من يرى غير ذلك ويتطرف بعضهم فيمتنع عن الزواج اقتداءا برفاعة .

قاســــم

وتمر أجيال يسيطر فيها نظار الوقف واحدا وراء الآخر على الوقف ويأخذون خيراته لأنفسهم ويسومون الناس الظلم والاضطهاد مستعينين بالفتوات وبينما يعيش قوم جبل فى الحى الخاص بهم وكذلك أتباع رفاعة فى حيهم ينشأ قاسم فى أفقر الأحياء وأكثرها بؤساً

(حى الجرابيع) . وقاسم غلام يتيم يكفله عمه (زكريا) بائع البطاطا الفقير الذى لم يرزق بابنه (حسن) إلا بعد أن كفل ابن أخيه ولذلك اعتبر وجوده معه فألا حسنا وبركة .

ويشب قاسم على حكايات الجبلاوى وأدهم وجبل ورفاعة وتنطبع هذه الأحداث فى ذاكرته ويذهب به عمه مرة إلى العجوز يحيى بائع الأحجبة والمسابح والبخور الذى يتوسم فيه خيرا ، ويحيى هذا من أتباع رفاعة ولكنه هجر حى رفاعة بسبب بطش وظلم الفتوات .

ويكبر حسن فيرى قاسم أنه - أى حسن - أحق منه بمصاحبة والده فى جولاته على عربة البطاطا ويتفرغ قاسم لرعى الأغنام وهى المهنة التى أحبها حبا جما وجعلته يقضى أوقاته كلها تقريبا فى الصحراء يتأمل الطبيعة ويراقب الخراف فى حياتها الفطرية وكذلك جعلته هذه المهنة يكثر من زيارة العجوز يحيى .. وتقع حادثة تعلى من شأن قاسم وتجلب له احترام الفتوات والناس وذلك عندما صاح أحد الناس فنجرى وهو منجد كان خارجا لتوه من بيت أحد السادة الكبار بعد أن قبض مبلغا ضخما من المال نظير عمل طويل وشاق .. صاح بأن نقوده سرقت منه والتف الناس حوله وخرج الفتوات كل من منطقته واتهم كل منهم الآخر بأن اللص من حيه ثم رأوا تفتيش كل الأحياء ولكن فتوة كل حى وقف متنمرا يدافع عن كرامة حيه وكادوا يقتتلون وتحدث مجزرة إلى أن اقترح عليهم قاسم أن يطفئوا الأنوار فى كل الأحياء وعلى من سرق النقود أن يضعها فى الظلام دون أن يفتضح أمره أو أمر الحى الذى هو منه ونفذوا اقتراحه وأضاءوا الأنوار فإذا بالمحفظة ملقاة فأخذها صاحبها مسرعا وانتهت المشكلة .

ويحدث تقارب بين قاسم والسيدة (قمر) التى يرعى لها غنمها وتفاتحه (سكينة) خادمتها فى أمر زواجه منها ويستبعد عمه زكريا وزوجته أن يتم هذا الزواج نظرا للفارق الاجتماعى ، ويستنكر (عويس) عم قمر أيضا هذه الزيجة لما فيها من تنازل كبير من جانب ابنة أخيه إلا أن قمر تصر على ذلك ويتم الزواج بالفعل . وفى ليلة العرس يشرب الجميع الخمر بما فيهم قاسم الذى يتعاطى الحشيش أيضا .. المهم يعيش الزوجان قاسم وقمر فى هناءة وسرور وبعد فترة يكتسب قاسم ثقة عم زوجته فيعمل فى مكتبه ويدير أموال زوجته وتكتمل الفرحة عندما يرزق قاسم وقمر بمولودتها الأولى (إحسان) ويصيب القلق قمر بسبب خروج قاسم إلى الصحراء فى الليل والهموم التى بدأت تساوره . ويتأخر ذات ليلة إلى قرب الفجر فيستبد بها القلق وترسل فى طلب عمه (زكريا) وابنه (حسن) وصديقه (صادق) ليبحثوا عنه فيجدونه بعد بحث وتعب مغشيا عليه فى كوخ العجوز يحيى ويعلمون الأمر منه بعد أن أفاق فى بيته بعد ذلك . وقد أخبر زوجته أولا بالسر لأنها أول شخص يثق فيه فأخبرها أن شخصا غريبا ناداه وهو فى خلوته بالصحراء وأبلغه أنه أحد خدم

الجبلاوى واسمه (قنديل) وقال له أن الجبلاوى يعرف كل شىء وأنه اختاره هو - أى قاسم - بسبب حكمته يوم السرقة وبسبب ولائه لأسرته وأنه يبلغه أن كل أهل الحارة أولاده سواء بسواء وأن الوقف هو تركتهم جميعا بالتساوى وأن الفتوات هم شر يجب أن يزول وينتهى وأن الحارة يجب أن تكون امتدادا للبيت الكبير . ولما سأله قاسم : ولماذا يبلغنى أنا بالذات بكل هذا ؟ أجابه قائلا : لأنك أنت الذى ستفعل كل هذا .. وبالرغم من حب قمر لقاسم وثقتها فيه ويقينها من أنه رجل صادق وأمين إلا أنها تحاول التأكيد من أن الذى رآه وسمعه حقيقة وليس حلما فتعيد عليه السؤال تلو السؤال : ألم يكن حلما لقد وجدوك مغشيا عليك ؟ هل أنت على يقين أنك لم تشرب الحشيش ولم تختلط عليك الأمور؟ ولكنه يؤكد لها أن الذى حدث كان حقيقة . وتتفاوت مواقف من حوله حينما يعلمون بالأمر ويقدرون عواقبه فيؤيده ويصدقه تماما صديقه (صادق) وابن عمه (حسن) على حين يحاول إثناءه عن ذلك بكل ترغيب وترهيب ممكن كل من عم زوجته (عويس) وعمه (زكريا) ويحذران من أنه لن يقف معه أحد إذا تصدى له الكبار الأقوياء والفتوات بهراواتهم ونبابيتهم بينما لا يشغل بال زوجته قمر سوى الخوف عليه من مغبة هذا الأمر . ويصر قاسم على تنفيذ وصية جده الأكبر الجبلاوى وفى زيارة إلى العجوز يحيى ومعه (صادق) و(حسن) يسأله يحيى : ما الذى ستتركه للذين يتبعونك ؟ فيجيب قاسم : (إذا نصرنى الله فإن الحارة لن تحتاج إلى أى شخص آخر بعدى) .

ثم يتعاطون جميعا الحشيش (قاسم وصادق وحسن والعجوز يحيى) فى هذه الجلسة وتدور رءوسهم ويعود كل منهم إلى منزله تحت تأثير هذا المخدر .

وتأتى قاسم فكرة أن ينشئوا ناديا رياضيا خلف منزله وينضم إليه فقراءالحى بحيث يبنى الجميع أجسامهم بممارسة الرياضة من رفع أثقال وخلافه ومعهم قاسم نفسه وصادق وحسن ويتفقون على أن يظل سرهم طى الكتمان : أى تنفيذ رغبة الجبلاوى إلا أن أحد الأتباع (عجرمة) يبوح بالسر فى الحارة ذات يوم وهو تحت تأثير الخمر فيلعن قاسم الخمر وما تفعله بالإنسان ولكنهم يتفقون على الذهاب إلى محام من باب الاحتياط بحيث إذا حدثت مواجهة بينهم وبين ناظر الوقف والفتوات يمكنهم رفع قضية للمطالبة بالتنفيذ العادل للوصية وتوزيع ربع الوقف بالمساواة ويذهبون بالفعل إلى (الشنافرى) المحامى الشرعى الذى يقبل القضية لفرط دهشتهم ويتناول مقدم الأتعاب ويظهر بعد ذلك سر موافقته السريعة والسهلة عندما يعلمون أنه وشى بهم إلى ناظر الوقف وفتواته .. وتحدث مواجهة عنيفة بين قاسم والناظر وبعض الفتوات حيث يضربونه ويهينونه وينذرونه بالقتل إن استمر فيما هو فيه من العزم على تنفيذ رغبة الجبلاوى لكى يسود العدل والمساواة . وتبدأ فترة من الاضطهاد لأتباعه بينما لا يستطيع هو أن يغادر منزله وتأتيه الأخبار أن حى جبل وحى رفاعة يتداولون خبره

مكذبين له ويقول فى حسرة : (لماذا يقولون أننى كاذب مع أن منهم جبل الذى كلم الجبلاوى ورفاعة الذى سمع صوته ؟ لماذا يتهموننى بالكذب فى حين كان الأولى بهم - من دون الناس جميعا - أن يكونوا أول من يؤمنوا بى ويؤيدونى ؟) .

ويتصاعد الاضطهاد ويصل إلى درجة قتل بعض أتباع قاسم مثل (شعبان) وسط خوف الناس وذعرهم ويصل قاسم مع أصحابه إلى قرار البعد عن الحارة والهجرة إلى الصحراء حتى يستكملوا بناء قوتهم كما فعل جبل من قبل ثم يعودوا بعد ذلك . ثم تموت قمر بعد مرض ومعاناة ويسيطر على قاسم حزن عظيم ويأتيه أصحابه المهاجرون فيقابلونه سرا فى المقابر لكى يقدموا له واجب العزاء وبوفاة زوجته الغنية ذات النسب والشرف يفقد قاسم جزءا كبيرا من الموانع الأدبية التى كانت تحول بين أعدائه وقتله أو التخلص منه وهكذا تصله الأخبار بأنهم يدبرون لقتله فى ليلة معينة فيضع خطة لانقاذ ابنته فيتفق مع سكينة الخادمة على أن تذهب بها إلى حيث يوافيهم حسن ابن عمه لتهريبهم أما هو فسيبقى إلى أن يخيم الليل ويسود السكون فينتقل عبر الأسطح المجاورة إلى بيت عمه تاركا مصباحا مشتعلا فى شقته لتضليل المتربصين به .. ومع أنه اضطر لتغيير خطته إلا أنه نجح آخر الأمر فى الفرار وركض بأقصى سرعة حتى بلغ المكان الذى كان أصحابه ينتظرونه فيه . وانطلق الجميع فى عربة إلى الجبل حيث قابلوا العجوز يحيى ثم ذهبوا إلى المكان الذى استوطن فيه المهاجرون من قبلهم فى جبل المقطم حيث استقبلوه بالترحاب والغناء والهتاف ونشيد (يا محنى ديل العصفورة) وعندما تناوله سكينة الخادمة كوب ماء وتقول له أنهم أحضروه من الصنبور العمومى كما سقى جبل المرأتين من قبل يسر قاسم كثيرا لأن أى إشارة تقرنه بجبل ورفاعة أو تشبه بهما تجعله سعيدا .. ويشعر قاسم بالوحدة بعد وفاة قمر ويفاتحه أصحابه فى ضرورة الزواج وأخيرا يتزوج من بدرية - الفتاة الصغيرة الناضجة - أخت صادق أخلص أصحابه . ويتذكر قاسم قمر ذات يوم وتفلت منه عبارة ثناء عليها فتتجهم بدرية - غيرة - وتقول له : إنها كانت عجوزا ولم تكن جميلة فينهاها عن أن تتحدث عنها هكذا ويقول لها أن امرأة مثل قمر ينبغى أن تذكر بالترحم عليها . وبعد أن يزداد عدد المهاجرين وتزداد قوتهم فى الجبل يهجمون على زفة (سوارس) فتوة الحارة وتحدث معركة رهيبة بالشوم والنبابيت تنتهى بمصرع سوارس وانتصار قاسم وأصحابه وما يلبث الفتوات وأنصارهم أن يزحفوا على الجبل حيث قاسم وأصحابه للانتقام منهم . وبينما يخالف بعض أنصار قاسم أوامره ويتركوا مواقعهم الجنوبية يتسلل (لهيطة) (الفتوة الكبير) من الثغرة ويهاجم قاسم وأصحابه ولكن ينتصر قاسم وأتباعه (الجرابيع) بعد معركة رهيبة تسيل فيها الدماء أنهارا ويقتل فيها لهيطة .

ويستدعى رفعت (ناظر الوقف) (جلطة) و(حجاج) الفتوتين الباقيين ويأخذ عليهما عهدا بالاتحاد من أجل الانتقام وذلك بحصار قاسم وأصحابه فى الجبل ولكن جلطة

وحجاج يضمران لبعضهما البعض شرا حتى يفوز أحدهما بمنصب لهيطة (كبير الفتوات) وبالفعل يُقتل حجاج غدرا وهو مخمور بالليل ويتهم أنصاره جلطة بتدبير مقتله وما تلبث أن تنشب معركة بين الفريقين يحاول ناظر الوقف منعها وإقناعهم بأنها مكيدة من قاسم لبث الفرقة بينهم ومهاجمتهم على حين غرة ولكن نصح الناظر يذهب سدى .

ويحدث بالفعل هجوم مفاجىء من قاسم وأتباعه من أكثر من اتجاه وتحدث مواجهة عنيفة ينتصر قاسم وأصحابه فى نهايتها نصراً مؤزراً ويقود قاسم الناس بعد انتصاره ويقف الجميع أمام البيت الكبير حيث يقف فيهم خطيبا قائلا : (هنا يعيش الجبلاوى جدنا جميعا وليس هناك حى من الأحياء أقرب صلة به من الآخر ولا أى شخص رجلا أو امرأة حولكم أوقافه وهى تخصكم جميعا على قدم المساواة كما وعد أدهم عندما قال له أن الوقف لك ولذريتك فيجب علينا أن نستخدمه كما ينبغى حتى يحصل كل منا على نصيبه ويعيش كما أراد أدهم فى بحبوحة وسلام وسعادة . لقد ذهب ناظر الوقف بغير عودة وانتهى الفتوات ولا يجب أن يحل محلهم فتوة آخر . لن تكون هناك إتاوة تدفع إلى طاغية أو تكون هناك استكانة وذل لفتوة مخمور يمكن أن تقضوا حياتكم فى حب ورحمة وسلام وفى مقدوركم ألا تعود الأمور كما كانت عليه من قبل) .

وقضى قاسم حياته فى البناء والتعمير والسلام يوزع بالعدل ريع الوقف على الجميع ولم تشهد الحارة من قبل مثل هذه الوحدة والانسجام والسعادة لقد رأى فيه الجرابيع رجلا نموذجيا لم يروا مثله . وقال أناس فى زواج قاسم من أكثر من واحدة أنه يبحث عن شىء فقد منذ افتقد زوجته الأولى قمر . وقال ابن عمه زكريا أنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث بل الحق أنه إذا كانت الحارة قد أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته وحبه النسوان مرات أن حب النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزهون ومنزلة تعدل فى درجتها درجة الفتوات فى زمانها أو تزيد .

الفصل السادس

القول الحق

وهنا نتحدث عن القول الحق فى بيان العقيدة الإسلامية الصحيحة فى قضية الألوهية والنبوة وانصحك يا أخى القارىء أن تقرأ مرة ومرة ما سبق عرضه من أحداث هذا الكتاب (أولاد حارتنا) ولا يكفيك أن تقرأه قراءة سطحية أو تمر به مرورا سريعا بل إنى أكرر النصح أن تقرأ ما بين سطوره لترى ماذا تخفى الألفاظ وراءها من حقد دفين على الإسلام عقيدة وشريعة ، وقد سرى هذا الحقد بين السطور سريان النار فى الحلفاء والسم الزعاف فى الأحشاء . ولا يمكن أن نبدأ بالرد التفصيلى قبل أن نعرض العقيدة الإسلامية النقية فى ثوب عام وشامل ثم بعد ذلك نرد ردا تفصيليا على كل ما جاء فى العرض السابق فليس الرد على هذا الكتاب قصة تروى ولا رواية تقص إنما سنحاول جهد الاستطاعة فى ردنا التفصيلى أن نمركز العناصر الأساسية ونعنصر المراكز الأصلية بما تيسر من التقدير وبقدر من التيسير ولنبدأ ببيان عقيدة الألوهية وكيف نعرف لله ما يليق به من كمالات لا تتناهى فهو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق وخير طريق توصلك إلى معرفة الله كلمات ربى سبحانه وتعالى ففيها تتجلى العقيدة الصحيحة من توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وخير من يحدثك عن الله هو الله جل جلاله فإنه سبحانه وتعالى أرسل رسلا وأنزل كتبا وقال فى محكم آياته : ﴿ **وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش . الرحمن فاسأل به خبيرا** ﴾ فالله جل جلاله ليس بصورة ولا جسم ، ولا محدود ، ولا معدود ، ولا متبعض ، ولا متجزىء ، ولا متناه ، ولا متلون ، ولا متكيف ولا يسأل عنه بما هو لأنه لا يعرف حقيقة الله إلا الله ، ولا يسأل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ، ولا يسأل عنه سؤال إحاطة بأين هو لأنه خالق المكان ، فهو سبحانه وتعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان ، علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . والقول الفصل قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ . وإليك مزيد بيان فى هذه القضية من كتاب الله تعالى .

كلمـــات ربـــى

قال الشيخ لتلميذه : إننى أنصحك وأنصح نفسى بل كل إنسان بما نصح به ابن رشد وهو أن نلجأ فى إثبات وجود الله إلى البراهين البديهية السهلة البسيطة الواضحة التى يدركها العقل بدون أن يحتاج إلى الغوص فى لجج الاستدلال والجدل . ومن غير أن يعتريه ارتباك أو اعلال أو عجز أو وهم وهى البراهين التى أكثر من ذكرها القرآن واعتمد عليها أكثر مما اعتمد على البراهين العقلية المركبة الأخرى لأنه يستوى فى إدراكها الجاهل الساذج ، والعالم الفيلسوف . أما الساذج فيدركها إجمالا لبساطتها ووضوحها وبداهتها . وأما العالم فيدركها تفصيلا ، ويعلم أن هذه البداهة فى أدلة القرآن تعتمد على شواهد كثيرة ، تؤلف ، بمجموعها ، حكما عقليا يكون إنكاره بمثابة الانكار لقضية رياضية صحيحة .

حيران : هذا والله عجيب وعظيم فقد سبق لمولاى الشيخ أن نوه بما فى القرآن من إعجاز ، فى باب التدليل على وجود الله وخلق العالم ، وسبق لى أن لاحظت عند التلاوة بعض هذه الأدلة ، ولكنى لم أكن أظن أنها تؤلف بمجموعها حكما عقليا ، يعد انكاره بمثابة الانكار لقضية رياضية صحيحة .

الشيخ : كم مرة قرأت ؟

التليمذ : أظن أننى قرأته أكثر من عشر مرات .

الشيخ : ألا تذكر قول أبيك لك فى الرؤيا : (ألا تقرأ القرآن) ؟

التلميذ : أذكره ولا أنساه .

الشيخ : هل خطر على بالك أن تمعن النظر فى قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ ، لتدرك أنه ، سبحانه ، حصر الخشية فى العلماء ، وأنه أراد بهم العالمين بأسرار الوجود وأسرار الخلق ، كما قال ابن رشد والجسر ؟

التلميذ : لقد سألت عن هذا فقيل لى أن المقصود بالآية (علماء الدين) .

الشيخ : وهل المفروض فى علماء الدين أن يكون علمهم قاصراً على المعنى الاصطلاحى (للفقه) ، الذى يراد به استنباط أحكام العبادات والمعاملات ، وأن لا يكونوا مطلعين على أسرار الوجود والخلق ، من طريق العلم والفلسفة ؟ كلا يا تلميذ ، فالفقه هو (الفهم) لكل شيء ، ولكل ما فى الدين من أسرار وحكم وأحكام ، وأول ما يجب أن

نفهمه هو كلام الله ، وأول شيء يجب أن نفهمه من كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله وعلى أنه الخالق العليم القادر المريد البارىء المصور الحكيم . وهذه الآيات لا تفسر ، على الوجه الأكمل ، إلاإذا أطلعنا على ما فى الكون من أسرار الخلق ، والنظام والأحكام ، والاتقان فعلماء الدين هم أولى الناس بالاطلاع على أسرار العلم ، ولا يصدق عليهم (الحصر) الوارد فى قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ . والمراد به الخشية الكاملة إلا إذا كانوا عارفين ، من العلوم الكونية ، كل ما يتعلق بأسرار الوجود والخلق ، التى دلنا عليها القرآن وذكر لنا بعضها ، لأن هذه الآية لم ترد فى سباق الكلام عن أمر يتعلق بالعبادات ،أوالمعاملات أو الأخلاق ، بل وردت فى سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته فى إنزال المطر ، وخلق النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها ، حيث يقول الله تعالت قدرته : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ .

التلميذ : لا ريب فى أن المراد بالآية هم العلماء المطلعون على أسرار الخلق ونواميسه .

الشيخ : فالفهم الكامل ، لما جاء فى القرآن من البراهين الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، يفتقر إلى ثلاثة أمور جمع هذه الآيات كلها فى صعيد واحد ، حتى تكون فى متناول البصر والبصيرة عند المقارنة ، فلا يتشتت الفكر للبحث عنها فى خضم القرآن . ورغبة صادقة فى درس هذه الآيات على ضوء العلم والفلسفة ، لاستنباط ما فيها من البراهين وما فيها من الردود على المنكرين . وانطلاق من قيود التعصب الأعمى لأى رأى دينى أو فلسفى .

التلميذ : إننى سمعت من بعض العلماء ، أن القرآن لم يترك شيئاً من العلوم إلا وأشار إليه ؟

الشيخ : كلا يا تلميذ كلا . وهؤلاء الذين يقولون ذلك ليسوا بعلماء ولا عقلاء ولا أذكياء ، فالقرآن ليس بدائرة معارف علمية . ولا من مقاصده إرشاد الناس ، إلى العلوم الكونية ، ومن باب التعليم . ولكن ما ورد فيه من الآيات ، التى تشير إلى حقائق كونية كشفها العلم إنما ورد بقصد التنبيه إلى ما فى خلق العالم من آثار الارادة ، والقدرة ، والعلم ، والحكمة ، والاتقان ، والاتزان ، الدالة على وجود الله ، النافية للتكوين بالمصادفة ، ولم يقصد به تقرير العلوم الكونية ، لأن القرآن خطاب للبشر بلغة البشر ، والله أحكم من أن يخاطب الناس بأمور لا يعرفون أسمائها ، فضلا عن أسرارها ، ولكنه أشار إلى دلائل وجوده وقدرته ، وإرادته ، وعلمه ، وحكمته ، ببيان عجيب يفهمه على ظاهره ، البدوى الساذج فى

القرن السابع ، ويفهم أسراره رجل العلم فى القرن العشرين . وفى هذا يتجلى إعجاز القرآن ، لا فى بلاغته وحدها ، كما سبق القول . فإعجاز البلاغة والفصاحة إنما يدركه العرب ، والقرآن خطاب للناس كافة . وإلى هذا الضرب من الاعجاز أشار العليم الحكيم بقوله : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ وقد أراهم ، سبحانه ، بعد عصور وعصور ، آياته فى آفاق السموات والأرض ، وفى أنفسهم ، كما وعدهم ، فتبين لهم أنه الحق ، وألقوا فى ذلك المقولات ، فى بلاد الغرب . ولكننا نحن المسلمين ، الذين كان لنا السبق والفضل فى كشف كثير من تلك الآيات ، من طريق العلم ، قصرنا فى آراء أولئك العلماء ، إن هذا القرآن قدم هذا الوعد ، وأشار إلى الكثير من دلائل وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، وحكمته منذ ألف وأربعمائة سنة ..

وخلاصة القول ، يا تلميذ ، أن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين دعوة إلى الله . وارشاد إلى دلائل وجوده ، ووحدانيته وعلمه ، وقدرته ، وإرادته ، وعنايته ، ورحمته ، وجميع صفات كماله ، ووعد ووعيد للترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته ، وتوكيد ليوم البعث والدين ، وأحكام فى العبادات والمعاملات ، وحكمة عملية فى الحياة ، وحض على مكارم الأخلاق ، وقصص تمت بسبب إلى هذه الأقسام الستة ولكن أهم هذه الأقسام،وأعظمها عند الله ، هو القسم الأول ، لأن الإيمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عداه . ولذلك ترى ، وأنت تتصفح القرآن ، أن الآيات الدالة على الله ، لا تكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها ، أحيانا ، فى السورة الواحدة .

يقول التلميذ بن الأضغن : وهنا ناولنى الشيخ الدفتر الذى كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ : هذا هو الدفتر الذى جمعت لك به ، على ترتيب النزول ، أكثر آيات القرآن التى أراد بها الله تعالى إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارىء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم . وأكثر فيها سبحانه من الاشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والأحكام والاتقان والتقدير والاتزان ، فى خلق السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، والليل ، والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال ، والأنهار ، والبحار ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، والأسماع ، والأبصار ، والأفئدة وما ينطوى عليه هذا الخلق من قوانين ، ونواميس . فتعال يا تلميذ نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملة واحدة ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

التلميذ : لماذا اختار مولاى إيراد الآيات على ترتيب النزول ولم يوردها على ترتيب السور ؟

الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذى نزل به القرآن ، لترى كيف توالى الوحى ، وتتابع الهدى ، فى خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثراً فى نفسك وأيسر فى تفهم أسلوب الهدى الكريم ، الذى اتبعه القرآن .

يقول التلميذ : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ واسمعنى فقرات الآيات الآتية :

– ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

– ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى ﴾ .

– ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

– ﴿ قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ﴾ .

– ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبا ﴾ .

– ﴿ والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها ﴾ .

– ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

– ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ .

– ﴿ والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا ﴾ .

– ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون. ويل يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياءا وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات . وأسقيناكم ماء فراتا . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

- ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

- ﴿ ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين ﴾ .

- ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ .

- ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش . يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾.. .

- ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات . كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ .

- ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾ .

- ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ .

- ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ .

- ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون ﴾ .

- ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ .

- ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال : من يحيى العظام وهى رميم . قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم . بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

- ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ .

- ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته . وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيرا . ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ .

﴿ وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج . وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ .

- ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .

- ﴿ يا أيها الناس أذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض . لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ .

- ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ .

- ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا . وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب . إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه . وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها . وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه لا يملكون من قطمير ﴾ .

- ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها . ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها . وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ .

- ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾ .

- ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ .

- ﴿ قال : فمن ربكما يا موسى . قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ .

- ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ ﴾ .

- ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

- ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم. وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ .

- ﴿ أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله . بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله . بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

- ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

- ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب . صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

- ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ .

- ﴿ قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

- ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ .

- ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ﴾ .

- ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ .

- ﴿ ويسألونك عن الروح . قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ .

- ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ .

- ﴿ قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمن يملك السمع والأبصار . ومن يخرج الحى من الميت . ويخرج الميت من الحى . ومن يدبر الأمر . فسيقولون : اللهُ . فقل : أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ .

- ﴿ قل : هل من شركائكم من يبدأوا الخلق ثم يعيده . قل : الله يبدؤا الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴾ .

- ﴿ قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق . قل : الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع . أمن لا يهدى إلا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظنا . إن الظن لا يغنى من الحق شيئا . إن الله عليم بما تفعلون ﴾ .

- ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

- ﴿ قل : انظروا ماذا فى السماوات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .

- ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ﴾ .

- ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ .

- ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين . وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ .

- ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ .

- ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ .

- ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ .

- ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ .

- ﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا . قال : هذا ربى . فلما أفل قال لا أُحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ .

- ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا . ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

- ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ .

- ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه . كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم

حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا . كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

- ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ .

- ﴿ خلق السماوات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة . وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ .

- ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

- ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله . إن الله عزيز حكيم ﴾ .

- ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى . وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته . إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

- ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

- ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار . ويكور النهار على الليل . وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج . يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ .

- ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ .

- ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السماوات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ .

- ﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ .

- ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون . كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات . ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ .

- ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

- ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون . ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ .

- ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن . إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

- ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ .

- ﴿ فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾ .

- ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة ﴾ .

- ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

- ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض . ليقولن : خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ .

- ﴿ إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ .

- ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره . ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

- ﴿ ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون . قل : أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ .

- ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

- ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ .

- ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر ﴾ .

- ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ .

- ﴿ قل : لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ .

- ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ .

- ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم

يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾ .

- ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ .

- ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

- ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم . ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا . وجعل لكم من الجبال أكناناً وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ .

- ﴿ وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ .

- ﴿ أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ﴾ .

- ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها . ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ .

- ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين . وسخر لكم الليل والنهار ﴾ .

- ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم . وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ .

- ﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون. وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ .

- ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ .

- ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ .

- ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ﴾ .

- ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى

خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ .

- ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ﴾ .

- ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ .

- ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ .

- ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ .

- ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ .

- ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا ﴾ .

- ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ﴾ .

- ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ .

- ﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ .

- ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

- ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

- ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها . إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾ .

- ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ .

- ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

- ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

- ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ .

- ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن : الله . قل : الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

- ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ .

- ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شىء عليم ﴾ .

- ﴿ بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

- ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس . وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها . وبث فيها من كل دابة . وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

- ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ .

- ﴿ يسألونك عن الأهلة . قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ .

- ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات . فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا . وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .

- ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

- ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء . وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء . وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار . وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت . وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ .

- ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾ .

- ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ .

- ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ .

- ﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

- ﴿ الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل والنهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

- ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ﴾ .

- ﴿ قل من رب السماوات والأرض . قل الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . قل : هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى

الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل : الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ .

– ﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان ﴾ .

– ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ .

– ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ .

– ﴿ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء . يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين . ومنهم من يمشى على أربع . يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

– ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم . ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾ .

– ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ .

– ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

– ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . وأن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق . وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة . إن الله لهو الغنى الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾ .

- ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾ .

- ﴿ خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾ .

يقول التلميذ بن الأضعف : ولما انتهيت من قراءه هذه الآيات قلت للشيخ الموذون : جزاك الله عنى خيرا يا مولاى فقد ، والله قرأت الساعة آيات لا أتذكر أنها مرت على فى كل ما اتيح لى ، فى عمرى من التلاوات ، وأظن ذلك إلا من ترك التأمل والتدبر ، فى التلاوة المعتادة للتبرك .

الشيخ : لا يكفى أن تقرأ هذه الآيات مرة أو مرتين - ولكن يجب أن تصنفها أصنافا ليجتمع أمام عينيك فى كل شى من خلق الله الآيات المشيرة إليه وقد يكون بعضها شاملا لعدة أشياء ، فلا بأس من تكرار ذكرها .

الآن فانقلها إلى دفتر الأمالى ، وعد إلى غدا ، لأتم لك الكلام .

(المرجع : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن للشيخ نديم الجسر)

الفصل السابع

بيان الحق فى عقيدة النبوة

وهنا نتحدث عن عقيدة المسلم الصحيحة فيما يتعلق بالأنبياء والمرسلين حتى تتضح الصورة وتتجلى العقيدة فى ضوء كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

الرسل

أوجب الله على المسلم أن يؤمن بجميع رسل الله دون تفريق بينهم فقال سبحانه :

﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط . وما أوتى موسى وعيسى . وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ .

وبين أن هذا هو إيمان المؤمنين فقال سبحانه : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ . وأخبر أن البر فى هذا الإيمان فقال : ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ . وإذا آمن الإنسان ببعض الرسل ولم يؤمن بالبعض الآخر وفرق بينهم فى الإيمان فهو كافر . قال سبحانه : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا** ﴾ .

وهؤلاء الرسل منهم من قصه الله علينا فذكرهم بأسمائهم ومنهم من لم يقصصه علينا .
قال سبحانه : ﴿ **ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك** ﴾
أما الذين قصهم الله علينا فعددهم خمسة وعشرون وهم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل . ومن ذريته داود وسليمان وأيوب**

ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ .

وقد جمعت هذه الآيات ثمانية عشر رسولا ويجب الإيمان بسبعة آخرين مذكورين فى عدة آيات :

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ .

﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ .

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ .

﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كلّ من الصابرين . وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ .

﴿ ما كان محمدًا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ .

وقد ورد أن عدد الأنبياء (١٢٤) .

وهؤلاء الرسل أرسلهم الله إلى الأمم فى جميع العصور المتطاولة فلم تخل أمة من رسول يدعوها إلى الله ويرشدها إلى الحق . يقول الله سبحانه : **﴿ تا لله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾** . **﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾** . **﴿ ولكل أمة رسول ﴾** . **﴿ ولكل قوم هاد ﴾** .

والرسول بشر من نفس الأمة وإن كان من معدن كريم خصه الله بمواهب عقلية وروحية ليستعد لتلقى الوحى عن الله : **﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾** . **﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس . إن الله سميع بصير ﴾** وإنما خص الله الرسول بمزايا وفضائل ليقوى على الاضطلاع بأعباء الرسالة وليكون مثالا يقتدى به فى أمور الدين والدنيا ولو لم يتميز رسول الله بهذه الخصائص العقلية والروحية بأن انحطت فطرهم أو ضعفت عقولهم لما كانوا أهلا لحمل هداية الله إلى الناس .

والرسول رجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . يقول الله سبحانه : **﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾** .

والرسول يتزوج ويولد له كغيره من البشر : **﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾** .

والرسول يتعرض لما يتعرض له غيره من الصحة والمرض والقوة والضعف واللذة والألم والحياة والموت إلا أن ما ينزل به لا يعرضه لتنفير الناس منه : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾ . ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا** ﴾ والرسول – أى رسول – لا يتصرف فى الكون ولا يملك النفع أو الضر ولا يؤثر فى إرادة الله ولا يعلم من الغيب إلا القدر الذى أراده الله له :

﴿ **قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾ .

﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا** ﴾ . ولا يكون الرسول إلا رجلا فلم يرسل الله ملكا ولا أنثى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجال نوحى إليهم** ﴾ ﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾ .

الغرض من بعثة الرسل :

والغرض من بعثة الرسل هو الدعوة إلى عبادة الله وإقامة دينه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ . ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ . ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ .

وإقامة الدين وعبادة الله تنتظم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما تنتظم الأعمال الصالحة التى تزكى النفس الإنسانية وتطهرها وتغرس فيها الخير لتبلغ الكمال المادى والأدبى فى هذه الحياة ولتستعد لكمال أرقى وأبقى . وهذه التعاليم العالية لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها بعقولهم وإنما يتعلمونها بوحى الله :

﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ وبهذا لا تنهض حجة من أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا . قال تعالى : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى**

وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك . وكلم الله موسى تكليما رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيماً ﴾ . ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم ﴾ .

قال ابن كثير: يقول الله تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة وحكمه العادل : إنه لا يضل قوما إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة كما قال تعالى : **﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾** والله سبحانه لا يعذب أحدا حتى يقيم عليهم الحجة ويقطع عذره : **﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾** .

عصمة الأنبياء :

الرسل اصطفاهم الله واختارهم : **﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾** . ونزههم عن السيئات وعصمهم من المعاصي صغيرها وكبيرها : **﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾** . وحلاهم بالأخلاق العظيمة من الصدق والأمانة والتفاني في الحق وأداء الواجب فمنهم الصديق : **﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا ﴾ .**

ومنهم من اصطنعه الله لنفسه : **﴿ وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾** . **﴿ فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي ﴾** .

ومنهم من هو بعين الله : **﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾** .

ومنهم من اجتباه الله وعلمه : **﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك حكيم عليم ﴾** .

وبعد أن ذكر الله جملة من الأنبياء في سورة مريم قال :

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل . وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ .

وهم وإن تفاوتوا في الفضل إلا أنهم بلغوا العناية من السمو الروحي والصلة بالله :

﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ . وهكذا نجد النصوص الكثيرة

الواردة فى القرآن بشأن الأنبياء والرسل تضفى عليهم من الطهر والنزاهة والقداسة ما يجعل منهم النموذج الحى والصورة المثلى للكمال الإنسانى ومثل هؤلاء لا يمكن إلا أن يكونوا معصومين من التورط فى الإثم ومنزهين عن الوقوع فى المعاصى فلا يتركون واجبا ولا يفعلون محرما ولا يتصفون إلا بالأخلاق العظيمة التى تجعل منهم القدوة الحسنة والمثل الأعلى الذى يتجه إليه الناس وهم يحاولون الوصول إلى كمالهم المقدر لهم . والله سبحانه هو الذى تولى تأديبهم وتهذيبهم وتربيتهم وتعليمهم حتى كانوا قمما شامخة وأهلا للاصطفاء والاجتباء :

﴿ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ .

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ .

﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ فهذه الآيات أدلة بينة على مدى الكمال الإنسانى الذى أفاضه الله على أنبيائه ورسله ولو لم يكونوا كذلك لسقطت هيبتهم فى القلوب ولصغر شأنهم فى أعين الناس وبذلك تضيع الثقة فيهم فلا ينقاد لهم أحد وتذهب الحكمة من إرسالهم ليكونوا قادة الخلق إلى الحق بل لو فعلوا شيئا مما يتنافى مع الكمال الإنسانى بأن يتركوا واجبا أو يفعلوا محرما أو يرتكبوا ما يتنافى مع الخلق الكريم لكانوا قدوة سيئة ولم يكونوا مثلا عليا ومنارات هدى .

إن رسل الله يدركون بحسهم الذى تميزوا به على غيرهم من البشر أنهم دائما فى حضرة القدس وأنهم يبصرون الله فى كل شيء فيرون مظاهر جماله وجلاله ودلائل قدرته وعظمته وأثار حكمته ورحمته يرون ذلك فى أنفسهم وفيمن حولهم : فى الأرض وفى السماء وفى الليل والنهار وفى الحياة والموت فتمتلىء قلوبهم إجلالا لله ووقارا له فلا يبقى فيها مكان لشيطان ولا موضع لهوى ولا جنوح لشهوة ولا إرادة لشيء سوى إرادة الحق والتفانى فيه والاستشهاد من أجله . وما ورد فى القرآن الكريم مما يوهم ظاهره بأنهم ارتكبوا ما يتنافى مع عصمتهم فهو ليس على ظاهره ويتجلى ذلك فيما نذكره بالنسبة لما نسب لكل نبى فيما يلى :

آدم عليه السلام :

يقول الله سبحانه : **﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾** .

فظاهر هذه الآية أن آدم عصى ربه وغوى بمخالفة أمر الله واستجابته لدعوة الشيطان وأن ذلك كان زلة وقع فيها : **﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾** ولكن إذا أمعنا النظر رأينا أن هذه المعصية إنما وقعت من آدم نسيانا منه لعهد الله ولم يصدر عنه هذا

الفعل عن إرادة وقصد والله سبحانه لا يؤاخذ على الخطأ ولا على النسيان لأن ذلك تكليف بما لا يطاق ، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها والأصل فى هذه القاعدة قول الله سبحانه : **﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ .**

وقوله : **﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾** والدليل على أن ما وقع من آدم كان نسيانا وعن غير عمد قول الله سبحانه : **﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾** أى أن آدم نسى عهد الله الذى وصاه به حيث ارتكب ما نهاه عنه من الأكل من الشجرة ، ولم يوجد له عزم على فعل ما نهى عنه .. وحيث لم يوجد العزم على المعصية فلا توجد المؤاخذة وإنما اعتبر القرآن ذلك النسيان عصيانا نظرا لمقام آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته وأسكنه جنته وعلمه الأسماء كلها والذى شأنه هكذا يجب أن يكون يقظا كأقوى ما تكون اليقظة بحيث لا ينسى وصاية الله له وعهده إليه فهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

نوح عليه السلام :

أما نوح عليه السلام فما وقع منه فهو أنه سأل الله عن هلاك ابنه مع من هلكوا فى الطوفان مع وعد الله بنجاته ونجاة أهله فقال :

﴿ رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال : يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ .

فلم يكن لنوح عليه السلام علم بأن نسب ابنه إليه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله فسأل الله كيف هلك مع الوعد بنجاة أهله وابنه من أهله فعلمه الله أن الصلة الدينية والنسب الروحى أقوى من صلة الدم فإذا انقطعت هذه الصلة ذهبت بصلة النسب والدم فقال له معلما إياه : **﴿ إنه ليس من أهلك ﴾** معللا ذلك بأن عمله عمل غير صالح وما دام ذلك كذلك فليس هناك صلة تشبيه وبذلك ينتفى نسبه من أبيه فلا يكون من أهله الذين وعدوا بالنجاة .

وكان على نوح عليه السلام وهو الأب الثانى للبشر الذى بذل حياته لله ولبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو الله ويجاهد فى سبيله كان عليه أن يفطن لهذا المعنى وأن يدركه فلما لم ينتبه إليه وغلبت عليه عاطفة الأبوة اعتبر ذلك نقصاً بالنسبة لمقامه الرفيع ومنزلته الكبرى التى حباه الله بها ومن ثم فقد لجأ إلى الله أن يغفر له هذه العثرة التى لم يقصد إليها . ولم

يكن له علم بها فقال : ﴿ **رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين** ﴾ .

إبراهيم عليه السلام :

وجاء فى دعاء إبراهيم عليه السلام قوله : ﴿ **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ ونحن لا نعرف لإبراهيم خطيئة والذى نعلمه أن الله قد اتخذه خليلا واضفى عليه من صفات الكمال ما هو خليق به : ﴿ **ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ .

﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ وطلبه من الله أن يغفر خطيئته ليست خطيئة بالمعنى الذى يتبادر إلى الذهن وإنما هى ما يستشعره فى نفسه من قصور فى تفانيه فى الله وأداء رسالته نظرا لمكانته السامية ومنزلته الرفيعة .

يوسف عليه السلام :

والله يقول فى يوسف عليه السلام : ﴿ **ولقد همت به وهم بها** ﴾ وليس فى هذا ما يدل أدنى دلالة على أن يوسف هم بالفاحشة لأن المقصود بالهم هنا الهم بالضرب والأذى وذلك أن امرأة العزيز راودته عن نفسه فغلقت الأبواب ودعته إلى نفسها فاستعصم وأبى وقال : ﴿ **معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ .

وإزاء هذا الاستعصام والتأبى والترفع من التسفل همت امرأة العزيز تضربه وإلحاق الأذى به بعد أن عجزت عن إغرائه بكل وسيلة ، فهم هو بأن يعاملها بالمثل دفاعا عن نفسه لولا أن رأى أن ذلك لا يليق بأمثاله من أصحاب النفوس الكبيرة ولا سيما أن هذا البيت أواه وأكرمه فضلا عن أنها سيدته التى تبنته وأنها زوجة رجل عظيم فى أمة عظيمة .

فلولا أن رأى ذلك كله وهو صاحب شعور نبيل وعاطفة جياشة لقابلها بالمثل ولأذاها بالضرب المبرح . ولكنه كذلك لا يرضى بالاستكانة ويقف ذليلا يتلقى الضربات من امرأة أصابها جنون الشهوة الحيوانية وهو من هو فآثر أن يفر منها تفاديا من الحرج الذى تعرض له ولكنها أبت إلا أن تتابعه لتثأر لنفسها منه : ﴿ **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾ فكان فى ذلك خلاصه والذى يدل على هذا أبلغ دلالة :

أولا : أن الله أتاه العلم والحكمة : ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ .

ثانيا : أنه أجاب امرأة العزيز بعد المراودة بما يدل دلالة قاطعة على أن السوء لا يخطر على باله : ﴿ **قال : معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ فالذى يقول هذا لا يتصور منه الهم بالفحش .

ثالثا : أن الله صرف عنه السوء والفحشاء وأخلصه لنفسه : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ ومن كان كذلك لا يمكن أن تتوجه نفسه مجرد توجه إلى سوء أو إلى فحش لا فى القول ولا فى العمل .

رابعا : أن كل هم فى القرآن إنما يقصد به الهم بالأذى كالضرب والقتل : ﴿ **وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه** ﴾ . ﴿ **وهموا بما لم ينالوا** ﴾ وهكذا لو تتبعنا جميع أسباب براءة يوسف عليه السلام من الهم بالفاحشة لوجدناها من الكثرة بحيث لا يتسع لها هذا المختصر .

موسى عليه السلام :

والله سبحانه يقول فى موسى عليه السلام : ﴿ **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ . فموسى عليه السلام دخل المدينة فوجد فيها مصريا وإسرائيليا من قومه وهما يتضاربان إلا أن الإسرائيلى الذى هو من شيعته وقومه ضعيف غير قادر على مقاومة المصرى فاستغاث بموسى لينقذه منه فحدث كما يحدث غالبا فى مثل هذه المواقف أن ضرب موسى المصرى بيده ضربة أصابت منه مقتلا ولم يقصد إلى قتله قط وإنما قصد أن يمنع عدوانه عن أخيه فحدث القتل الخطأ الذى لا مؤاخذة عليه إلا من حيث عدم التحرى والوعى الكامل ولا سيما لمن هم فى أعلى المستوى البشرى كموسى ونحوه من أولى العزم ولذلك رجع إلى ربه ذاكرا خطأه طالبا من الله العفو والغفران .

داود عليه السلام :

يقول الله سبحانه فى داود عليه السلام :

﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فأحكم بيننا بالحق ولا تشطط وأهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى**

بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ . وهذه القصة ليس فيها ما يدل على أن داود عليه السلام قد عصى ربه بارتكاب ما ينافى العصمة . وكل ما يمكن أن يقال فى هذا أنه قضى بين الخصمين بعد أن سمع من أحدهما وقبل أن يسمع من الآخر والتعجيل بالحكم قبل الاستماع إلى الطرفين يعتبر فى نظر القضاء مخالفة ولا سيما إذا كان القاضى نبيا كداود عليه السلام ممن أوتوا الحكمة وفصل الخطاب . ويمكن أن يقال أيضا أنه خاف من تسور الخصمين المحراب ودخولهما عليه بغتة وهو بين يدى الله خاف أن يقتلاه كما كانت عادة بنى إسرائيل من قتلهم الأنبياء فكان هذا الخوف وهو فى المحراب وماثل بين يدى الله مما لا يليق بمكانته وعظيم قدره وحسن صلته بالله مالك ناصية كل شيء .

وسواء أكان ما ينسب إلى داود عليه السلام من العجلة فى الحكم أو من الخوف من القتل فقد ظن أنه مختبر بما وقع فاستغفر ربه وخر راكعا منيبا إلى الله راجعا إليه . ولا يمكن أن تتضمن القصة التى ذكرت فى القرآن معنى اخر وراء ذلك مما ينتقص من قدر نبى عظيم . وما ذكر من أن المقصود بالنعجة هى المرأة وأن داود اغتصب زوجة أحد قواده بحيلة احتالها عليه فهو من الإسرائيليات المكذوبة ومن الدخيل الذى يتنافى مع عظمة الرسالة وكمال النبوة وشرف الدعوة التى انتدب الله لها خيار خلقه وصفوة عباده .

سليمان عليه السلام :

﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال : رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ﴾ والابتلاء الذى تعرض له سليمان وهو المرض الشديد الذى جعل منه جسدا ملقى على الكرسى لا يستطيع معه الحركة كان سببا فى ضعف نفسه وضعف مقاومته فتاب إلى الله من هذا الضعف الذى يعترى البشر عادة وكان الأجمل به أن يتجمل بالصبر الجميل .

ويقال أن سليمان كان له ولد فاجر انتزع ملكه من أبيه فكان ذهاب ملك سليمان على يد ابنه الفاجر ابتلاء له ثم رد الله ملكه إليه بعد أن سلب منه فسأل الله عقب ذلك أن يغفر له ما يمكن أن يكون حدث من تقصير فى شكر الله وسأله أن يهبه ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فاستجاب الله له .

محمد صلوات الله وسلامه عليه :

وجاء فى القرآن الكريم : **﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾** .

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته

عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾ . فظاهر الآية الأولى يوهم بأن للرسول ذنبا وأن عليه أن يستغفر الله . وظاهر الآية الثانية يفيد بأن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

والمعروف من سيرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه معصوم قبل البعثة وبعدها فقد عصمه الله من عبث الطفولة ولهو الشباب فلم يله كما كان يلهو غيره لأنه أعد لحمل رسالة الهدى والنور . وقد أشار إلى هذا فيما حدث به عن نفسه فقال : « **ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين . كل ذلك يحول الله بينى وبينه ثم ما هممت به حتى أكرمن الله برسالته قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب ؟ فقال : افعل . فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس فلان بفلانة فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة .. ثم ما هممت بسوء** » .

وكذلك كان صلوات الله وسلامه عليه مدة حياته لا يخطر السوء على قلبه وإذا كان ذلك كذلك فما معنى الذنب الذى أمر أن يستغفرمنه والذى قد غفر له ما تقدم منه وما تأخر ؟ مما لا جدال فيه أن الرسول كانت تصدر عنه بعض التصرفات التى لم يوح إليه شيء بخصوصها بل كان أمرها متروكا إلى اجتهاده الخاص فكان فى بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن متجاوزا ما هو أحسن منه فاعتبر وقوفه عند الرأى الحسن وعدم إصابته ما هو أحسن منه ذنبا بالنسبة إليه وبالإضافة إلى مكانته من العلم والعقل والفقه . وقد ذكر القرآن أمثلة لذلك :

فمنها اجتهاده فى أسرى بدر وقبوله الفداء وقد عتب الله عليه عتبا أبكاه : **﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾** أى لولا أن كتاب الله وحكمه سبق بعدم مؤاخذة المجتهد على اجتهاده لعاقبكم بالعذاب العظيم على قبول الفداء وعدم الاثخان فى الأرض .

ولما نزلت هذه الآية بكى رسول الله وبكى معه أبو بكر بكاء شديدا وقال : « **لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر** » ففى هذه الحادثة لم يكن من الرسول إلا الاجتهاد فى قضية لم يوح إليه فيها بشيء ولم يخطىء فى حكمه فيها لأن الرسول لا يقر على خطأ وإنما عدل

عما هو أحسن إلى ما هو حسن . ومنها أنه قبل أعذار المتخلفين عن الغزو دون تمحيص هذه الأعذار ليتبين له من هو صادق ممن هو كاذب : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ .

ومن ذلك عتاب الله له فى إخفائه أمر زواجه زينب بنت جحش بعد طلاق متبناه زيد ابن حارثة لها وكان الله قد أمره بذلك ليبطل تقليدا من تقاليد الجاهلية إذ كانت هذه التقاليد تقضى بتحريم زواج زوجة المتبنى مثل تحريم الزواج بزوجة الابن من النسب فكان الرسول يجد حرجا مثل أى إنسان عندما يتحرج من مخالفة التقاليد والخروج على العادات .

وقد رفع الله عنه الحرج بعد العتب اليسير : ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا . ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا** ﴾ .

وما قيل غير ذلك فهو محض اختلاق ومما يدخل فى هذا النطاق قول الله سبحانه :

﴿ **عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى** ﴾ فهذا عتب من الله لرسوله حين طمع فى إسلام بعض صناديد قريش فأقبل عليهم يدعوهم إلى الله وهم ينصتون له ويقبلون عليه .

وفى هذه الاثناء حضر عبد الله بن أم مكتوم وأخذ يقاطع الرسول ويقول له : علمنى مما علمك الله ويكرر ذلك فكان الرسول يضيق بهذه المقاطعة ويعبس من الضيق مع أن الرجل أعمى لا يبصر هذا العبوس ومع ذلك عاتبه الله فيه فكان كلما لقيه بعد يقول له : « **أهلا بمن عاتبنى فيه ربى** » .

ومن هذا ما روى أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه قرأ قول الله سبحانه : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ « **تلك الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجى** » فهذا كذب محض وافتراء أحقر من أن يناقش وليس فيه صلة بين هذه الأكذوبة وقول الله سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم** ﴾ فإن الآية تقرر أن ما من نبى ولا رسول تمنى هداية قومه واستجابتهم دعوته إلا جاء الشيطان واضعا أمامه العقبات وميئسا له من الوصول إلى الهدف الذى يستهدفه إلا أن الله سبحانه يعجل بإزالة

ما يلقى الشيطان من وسوسة ويأس ويحيى فى نفسه الأمل والرجاء .

هذا هو ما نسب إلى رسل الله وأنبيائه وهو لم يخرج عن كونه هنات هنيات لا تصل إلى درجة المعصية ولا تتنافى مع العصمة ولا تنقص من أقدارهم السامية أو تنال من مكانتهم الرفيعة ويأبى اليهود والنصارى إلا أن يخرجوا كثيرا من الأنبياء والرسل وينسبوا إليهم ما نزههم الله عنه وصانهم منه بل إن كتبهم ترمى بعض الأنبياء بكبائر الإثم والفواحش .

والنصارى تغالوا فى هذا وبالغوا فيه ليجعلوا العصمة للمسيح وحده وهم يقصدون بهذا إقامة الأدلة على أن عيسى إله منزه عن الخطايا من جهة وأنه جاء ليخلص الإنسان من خطيئة أبيه آدم والتى ورثها عنه أبناؤه ويفدى البشر بنفسه من جهة أخرى . وعقيدة الفداء هذه هى أساس ديانة النصارى ولكن كتبهم مع اعتقادنا بتحريفها تكفى فى الرد عليهم .

ففيها نصوصا قاطعة أن يوحنا أفضل من المسيح وأعظم منه وأنه هو الذى تولى تعميده وأنه معصوم من كل خطيئة وأنه لم يشرب خمرا قط بينما نسب إلى المسيح أنه شريب خمر كما نسب إليه عدم استجابته لدعوة أمه حينما دعى إليها .

ففى إنجيل لوقا (١ - ٦٥) أنه يكون عظيما أمام الرب وخمرا ومسكرا لا يشرب ومن بطن أمه يمتلىء بروح القدس . وفيه (٦٦) : كانت يد الرب معه . وقال المسيح فيه (متى ١١ : ١١) : الحق أقول لكم إنه لم يضم بين المولدين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان . وقال فيه (١٨): جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون : فيه شيطان وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر فمحب للعشارين والخطأة . أما عيسى عليه السلام فقد شهدت الأناجيل بأنه أهان أمه وهى التى فضلها الله على نساء العالمين .

فقد جاء فى إنجيل لوقا (٨ : ٢) : فأخبروه قائلين : أمك وأخوتك واقفون خارجا يريدون أن يروك فأجاب وقال : أمى وأخوتى هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها .

أولو العزم من الرسل :

يقول الله سبحانه : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾

قيل : إن أولى العزم هم كل الرسل وتكون من لبيان الجنس والمشهور من الأقوال أنهم : محمد ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم صلوات الله وسلامه وقد نص الله على أسمائهم من بين الرسل فى آيتين الأولى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ .

الثانية : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ .

أفضل الرسل :

أفضل الرسل على الاطلاق هو سيدنا محمد خاتم النبيين : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾ .

والذى رفعه الله درجات هو سيدنا محمد وأدل دليل على ذلك ما جاء فى سورة آل عمران من تبشير الأنبياء به وأخذ العهد والميثاق عليهم بالإيمان به ونصرته أن هم أدركوا بعثته : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ .

وروى عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « **والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعن** » . وأما منعه صلوات الله وسلامه عليه من التفضيل بين أنبياء الله وقوله : « **لا تفضلوا بين أنبياء الله** » فالقصد منه منع الغلو فى تعظيمهم من جهة وكف المسلمين عن تنقيص أحد من إخوانه الأنبياء من جهة أخرى .

ختم النبوة والرسالة :

الأنبياء جميعا صلوات الله وسلامه عليهم كانت مهمتهم أن ينقذوا الناس ويخرجوهم من الظلمات إلى النور فكانوا دائما دعاة الخير وأئمة الاصلاح وحملة المشاعل فى الدنيا المظلمة وكان كل واحد منهم يأتى عقب الآخر ليتم ما بناه من قبله فيزيد فى الاصلاح لبنة حتى استكمل البناء بخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه فكان دينه خلاصة الأديان السابقة وكانت دعوته هى الدعوة الجديرة بالبقاء ففيها عناصر الحياة ودعائم الاصلاح :

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾
وبإكمال دين الله الحق تمت نعمة الله على الناس بما أنزله إليهم من هداية فلا حاجة إلى هداية بعدها ولهذا انقطعت النبوة وختمت الرسالة : ﴿ **ما كان محمدا أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ .

وإذا كانت النبوة قد انقطعت فقد انقطعت بالتالى الرسالة فلا نبوة ولا رسالة بعد نبوة محمد خاتم رسل الله . وفى ذلك يقول صلوات الله وسلامه عليه : « **مثلى ومثل الأنبياء كمثل**

رجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة فأنا موضع اللبنة ختم بى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » .

الأعمال الكبرى التى تمثل نجاح سيدنا محمد ﷺ :

إن لرسولنا صلوات الله وسلامه عليه أعمالا كبرى يتمثل فيها نجاحه فى دعوته وهذه الأعمال يمكن تلخيصها فيما يلى :

العمل الأول : أنه قضى على الوثنية وأحل محلها الإيمان بالله واليوم الآخر .

العمل الثانى : أنه قضى على رذائل الجاهلية ونقائصها وأقام مقامها الفضائل والمكارم والآداب .

العمل الثالث : أنه أقام الدين الحق الذى يصل بالإنسان إلى أقصى ما قدر له من كمال .

العمل الرابع : أنه أحدث ثورة كبرى غيرت الأوضاع والعقول والقلوب ونظام الحياة التى درج عليه أهل الجاهلية .

العمل الخامس : أنه ﷺ وحد الأمة العربية وأقام دولة كبرى تحت راية القرآن .

هذه هى الأعمال التى تمثل نجاح الرسول ﷺ فى مهمته وهى كما تبدو كلها أمور كبيرة واقامتها بل إقامة واحد منها من الخطورة بمكان . وإنه لا يمكن أن يتأتى النجاح لفرد فى بعض هذه الأعمال فضلا عن توفر النجاح فى كل ناحية من هذه النواحى .

إن القيام بهذه الأعمال والنجاح فيها على هذا النحو لهو المعجزة الكبرى لحضرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه . فإذا كان عيسى له معجزة إحياء الموتى ، وموسى له معجزة العصا ، فإن هاتين المعجزتين فى جانب هذه الانتصارات وإلى جانب هذه المعجزات لا تساوى شيئا .

دلائل صدقه :

ومن دلائل الصدق على أن الرسول إنما هو مرسل من عند الله ما يأتى :

أولا : أنه كان زاهدا فى الدنيا فلم يطلب على عمله أجرا فقد كان زاهدا فى المال وفى كل ما هو مادى كما كان زاهدا فى الجاه والمنصب .

أما زهده فى المال فإن طبيعة حياته تدل على ذلك أبلغ دلالة فهوَ لم يفرش الحرير ولم يلبس الديباج ولم يتزين بالذهب . كان بيته كأبسط بيوت الناس وكان يمر عليه الشهران ولا يوقد فى بيته نار .

قال عروة – وهو يسمع خالته عائشة تتحدث بهذا إليه –: يا خالتى ما كان يعيشكم ؟ قالت : إنما هما الأسودان : التمر والماء .. وذات مرة رأى عمر بن الخطاب الرسول نائماً على حصير بالية وقد أثر فى جسمه فبكى فقال له الرسول : « **ما يبكيك ؟** » فقال : ما بال كسرى وقيصر ينامان على الديباج والحرير وأنت رسول الله يؤثر فى جنبك الحصير؟ فقال ﷺ : « **يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟** ». ولقد جاءت الغنائم إلى الرسول بعد انتصار المسلمين فرأى نساؤه أن يستمتعن بشيء من هذه الغنائم وطلبن منه أن يكون لهن نصيب فيها فإذا بالآية الكريمة ترد على سؤال هؤلاء النسوة : ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما** ﴾. فجمع الرسول نساءه وقال لهن : « **هل تردن الله ورسوله والدار الآخرة أم تردن الدنيا وشهواتها ؟** » فاختارت كل واحدة منهن الله ورسوله والدار الآخرة فمدحهن الله وأنزل فى حقهن : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا** ﴾ .

ولقد توفى رسول الله ودرعه مرهونة عند يهودى وقد عاش طول حياته وما شبع من خبز الشعير قط .

أما زهده فى الجاه فهو يتمثل فى كل حال من أحواله .

أراد الصحابة أن يمتدحوه ويثنوا عليه فقال لهم ﷺ : « **لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم** » وجاءه الوليد بن المغيرة مندوبا من المشركين ليفاوضه وعرض عليه من كل متع الحياة فكان جوابه أن قرأ عليه افتتاحية سورة : (حمٓ . فصلت) .

هذا هو الزهد الذى كان طبيعة من طبائع الرسول ﷺ .

ومن دلائل نبوته عليه السلام أنه كان أميا وأقام هذه الأعمال الكبار وهو أمى لم يقرأ ولم يكتب ولم يدخل معهدا ولم يتتلمذ على أستاذ ولكنه نجح وبلغ هذه المرتبة التى لم يبلغها أحد قبله ولا أحد بعده .

والقرآن يسجل هذه الحقيقة ليجعلها امارة صدقه ودليل أمانته يقول الله سبحانه : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن**

جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ . وما كان الرسول يعلم شيئا من النبوة ولا ما يتصل بالذات العلية فجريان هذه الأعمال على يديه إنما هو دليل الإعجاز لأن المتعلمين الذين ينقطعون للعلم والبحث ليعجزون أن يصنعوا شيئا مما فعله الرسول ﷺ .

ولا ريب أن هذا تأييد وتوفيق من الله تبارك وتعالى والقرآن يقول :

﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾ .

ولقد كان ذلك معروفا لدى خصومه وكان يواجههم به ولم يستطع أحد منهم أن يشكك فى هذه الحقيقة السافرة فيقول الله تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن اتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ .

أما الناحية الثالثة فهى الصدق .

فلم يعلم عن الرسول ﷺ أنه كذب قط قبل البعثة ولا بعدها ولقد جاءه الوحى فذهب إلى خديجة وقال لها : لقد خشيت على نفسى . فقالت له : كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصدق الحديث وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر .

ولقد عرض الرسول ﷺ لأول عهده بالنبوة الإسلام على أبى بكر رضى الله عنه فصدقه لأول وهلة وما توقف عن المسارعة إلى الإيمان به لأنه كان يعلم صدقه وأمانته . ودخل أعرابى عليه فنظر إليه فوجد الصدق يحوطه فقال : والله ما هذا الوجه بوجه كذاب .

التبشير بظهور خاتم الرسل :

لم تخل الكتب الإلهية المتقدمة من التبشير بظهور محمد ﷺ ونبوته . ففى سفر تثنية الاشتراع (التوراة) بشارة تقول : (أتى الرب من طور سيناء وارتفع من حبر إليهم وشع من فاران وتقدم إلى الأمام ومعه عشرة آلاف من الأبرار ومن يمينه خرج كتاب التقوى) فالاتيان من طور سيناء يشير إلى ظهور الرب لموسى الكليم ، والارتفاع من حبر يشير إلى استيلاء داود على حبر ، وأما فاران فهو اسم أرض الحجاز القديم حيث ظهر محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من سلالة إسماعيل عليه السلام .

وأما التقديم إلى الأمام ومعه عشرة آلاف من الأبرار فهو إشارة إلى النبى محمد ﷺ فقد دخل مكة يصحبه عشرة آلاف من أنصاره يوم فتح مكة . ومن يمينه خرج كتاب التقوى يشير إلى الشريعة التى خرج بها محمد ﷺ على العالم والتى لا زال نورها يضىء كل ما له شأن بالدين والدنيا من حياة عامة وخلق اجتماعى .

وفى إنجيل يوحنا : الاصحاح الرابع عشر ١٣ ، ١٥٥ : (إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم) . [الآب: روح الحق] .

وهذا مثل ما جاء فى القرآن الكريم : من أن رسول الله ﷺ خاتم النبيين .

وفى إنجيل يوحنا : اصحاح ١٤ - ٢٦ : (أما المعزى : الروح القدس الذى سيرسله الأب بأسمى فهو يعلمكم كل شىء) . وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء** ﴾ .

وفى يوحنا أيضا : اصحاح ١٦ - ١٢ :

(إن لى أمورا كثيرة أيضا لا أقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ولكن متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدهم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما يأتى) . وهذا يتفق مع قول الله سبحانه : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ .

محمد ﷺ ، دعوة إبراهيم وبشرى عيسى :

ولقد سجل القرآن الكريم أن محمدا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان استجابة لدعوة إبراهيم ، كما كان بشرى بشر بها عيسى عليه السلام .

ففى سورة البقرة يحكى القرآن الكريم أن إبراهيم وإسماعيل كانا يدعوان الله وهما يرفعان القواعد من البيت فيقولان :

﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ .

وفى سورة الصف يقول الله سبحانه :

﴿ **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾ .

وروى الإمام **أحمد** بإسناد حسن عن أبى أمامة قال : قلت : يا نبى الله : ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : **« دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى »** .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن هذه الآية التى فى القرآن : ﴿ **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا** ﴾ قال فى التوراة : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عمياء وآذانا صماء وقلوبا غلفا) .

آيـــات الرســـل

لم يرسل الله رسولا ليبلغ الناس الدين ، ويعلمهم الشريعة ، إلا وأيده بالآيات التى تقطع بأنه مرسل من عنده ، وأنه موصول بالملأ الأعلى يتلقى عنه ، ويأخذ تعاليمه منه .

وهذه الآيات التى يؤيد الله بها رسله لابد وأن تكون فوق مقدور البشر وخارج نطاق طاقاتهم وعلومهم ومعارفهم ، كما يجب أن تكون مخالفة للسنن الخاصة بالمادة ، وخارقة للعادات المعروفة والقوانين الطبيعية المألوفة .

ولذلك سمى العلماء هذه الآيات بالمعجزات ، لأنها تعجز العقل عن تفسيرها كما تعجز القدر الإنسانية عن الاتيان بمثلها . وعرفوا المعجزة بأنها الأمر الخارق للعادة ، الذى يجريه الله على يدى نبى مرسل ، ليقيم به الدليل القاطع على صدق نبوته .

ومن ثم كانت المعجزة ضرورية ، وإظهارها واجبا ليتم بها المقصود من تبليغ الرسالة ، وتقام بها حجة الله على الناس .

وهذه الآيات ممكنة فى ذاتها ، والعقل لا يمنعها ، والعلم لا ينفيها ، والواقع يؤيدها .

فقد قام رجال وادعوا أنهم رسل الله ، وتحدوا أممهم بما أظهروه من هذه الخوارق ، ورآها بنواميس أخرى أرقى منها ، كما أثبت العلم أيضا أن معجزات الأنبياء كلها صحيحة .

والناظر فيما كتبه العلماء المحدثون عن عالم الأرواح ، وعجائب استحضارها وغرائب التنويم المغناطيسى ، وما إلى ذلك يدرك لا محالة أن هذه الخوارق أمور ممكنة ، وليس شىء منها بمحال أصلا .

والمؤمنون بالله لا يتوقفون فى تصديق شيء ، متى ثبت بالدليل القاطع الذى لا يتطرق إليه الشك ، لأنهم يعلمون أنه سبحانه ، لا يتقيد بالسنن التى وضعها فهم يعلمون بأن الذى قدر على جعل النار محرقة قادر على سلبها خاصة الاحراق كما فعل مع إبراهيم حين ألقى فى النار فلم يحترق : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا : يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم** ﴾ .

وهم يعلمون أن الذى قدر على خلق الإنسان من ذكر وأنثى وخلق آدم من تراب ، قادر على أن يخلق من السيدة مريم العذراء بدون لقاح طبيعى أو صناعى : ﴿ **قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال : كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا** ﴾ .

﴿ **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ .

وهم يؤمنون بأن الذى أعطى المرأة الولود القدرة على الاخصاب قادر على أن يعطى العقيم هذه القدرة ، كما فعل ذلك لأم يحيى بن زكريا عليهما السلام :

﴿ **هنالك دعا زكريا ربه . قال : رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال : رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر . قال : كذلك الله يفعل ما يشاء** ﴾ .

وهكذا يرى المؤمنون بالله أن الله خالق الكون ، ومدبر أمره ، وواضع سننه لا يتقيد بهذه السنن الظاهرة ، وأن وراء هذه السنن سننا أخرى فوق ما نعرف ، وأن الكون ليس كما يزعم السطحيون من الماديين ، ميكانيكيا يسير حسب ما يتصورون ، وأنه ليس له مدبر يدبر أمره ، وينظر شئونه . لا ، إن الكون أكبر مما يتصوره هؤلاء وأعظم ، وما عرفوا منه إلا الأسماء التى يسترون بها جهلهم وينفسون بها عن غرورهم .

إن الأمر كما قال القرآن الكريم : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ .

جاء فى كتاب (الإسلام مع الحياة) بعنوان : العلم الحديث ورد الشمس :

جاء فى قصص الأنبياء : أن يوشع بن نون كان فى معركة مع أعداء الله وكادت الشمس تغرب قبل أن ينتهى القتال فخشى أن يعجزوه إذا امتد القتال إلى اليوم التالى فقال للشمس : أنت فى طاعة الله ، وأنا فى طاعة الله ، فأسألك أن تقفى حتى ينتقم الله من أعدائه قبل الغروب ، فاستجاب الله الدعاء ، ووقفت الشمس وزيد فى النهار حتى تم النصر ليوشع

وقال الله تعالى :

﴿ فأوحينا إلى موسى أن أضرب بعصاك البحر فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ .

قال المفسرون : إن موسى عليه السلام ومن معه هربوا من فرعون خوف القتل. ولما انتهوا إلى البحر ، ولم يجدوا سبيلا إلى ركوبه أوحى الله إلى موسى أن يضرب البحر بعصاه . وحينما امتثل ما أمر الله به تجمع الماء على الطرفين بعضه فوق بعض ، حتى صار كالجبل ، وخرج موسى وأنصاره ، وتبعهم فرعون وقومه فى نفس الطريق ، فأغرقهم الله ، وكان البحر يبسا فى طريق موسى ، وماء فى طريق فرعون ، وكذب الكافرون كلا من المعجزتين أو الحادثتين .

أولا : لأنها خرق لقوانين الطبيعة .

ثانيا : لو صحت لجاء ذكرها فى غير الكتب الدينية ، لأنها من الأحداث العالمية العجيبة .

وقرأت فى جريدة الجمهورية عدد ١٩٥٧/١٢/١٣ أن كتابا فى علوم الطبيعة ظهر حديثا ، وقد أثار ضجة كبرى فى الأوساط العلمية ، ولدى المؤرخين ، حيث أثبت بالأرقام المحسوسة واقعة انشقاق البحر ، ووقوف الشمس فى كبد السماء. أما المؤلف فهو عالم روسى من علماء الطبيعة اسمه ايمانويل فليكوفسكى درس العلوم الطبيعية فى جامعة ادنبرج ، ودرس التاريخ والقانون والطب فى جامعة موسكو ، ودرس علم الأحياء فى برلين وفى زيورخ ، ودرس الطب النفسى فى فيينا، ولقد خرج المؤلف من أبحاثه التى استمرت أكثر من عشر سنوات إلى استنتاجات علمية تؤيد بدون قصد ما جاء فى القرآن الكريم وسيرة الأنبياء عليهم السلام .

وقد رأيت أن أنقل للقراء مقتطفات من الكتاب كما ترجمتها ، ونشرتها جريدة الجمهورية .

قالت الجريدة : يقول المؤلف : إن نيزكا هائلا مر إلى جوار الكرة الأرضية فى عهد يوشع خليفة موسى عليهما السلام ثم عادت الظاهرة إلى الوجود بعد ذلك بسبعمائة عام .. وهذه الظاهرة الكونية الهائلة التى تسيرها قوى خارقة غير مرئية تفسر المعجزات التى جاء ذكرها فى الكتب السماوية والتوراة والإنجيل والقرآن .

إن اقتراب كوكب أو نيزك كبير من الأرض يحدث ظواهر متعددة ، منها أن دوران الأرض حول نفسها يقل أو يقف حتى يخيل إلى الناس أن الشمس قد وقفت فى كبد السماء ، ومنها انشقاق البحر وانعقاد أعمدة من الغمام فى النهار والليل ، ولقد مر كوكب فى عهد الفراعنة فأمطر الأرض سيلا أحمر طبع الأرض والنيل والبحر بلون الدم . وهذا يؤيد ما جاء فى الآية الكريمة : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم** ﴾ وقد تساقط هذا التراب الأحمر فى جهات متفرقة من الأرض .

إن المعجزة التى تخرق كل قوانين الفلك والطبيعة لا تصنعها سوى قدرة الخالق وحده .

لقد تمت المعجزة حين هرب موسى من اضطهاد فرعون مصر فتابعه فرعون بجيوشه ولكن انشق البحر ، فمر موسى ومن معه بسلام حتى إذا أتبعهم فرعون وجنوده عاد البحر إلى سيرته الأولى ، فانطبق على المطاردين ، وابتلع الرجال والفرسان ولم ينج منهم أحد .

ويقول المؤلف : إنه فى العهد الذى يقابل عهد موسى ، يقول المؤرخون الصينيون : إن الشمس آنذاك لم تغرب حتى لقد حرقت الغابات ، وذاب الجليد . وهكذا لبثت الأرض ساكنة كأن قوة جبارة قد أمسكتها ، ولا يعرف على وجه التحديد كم استمر وقوفها قبل أن تتابع دورانها حول نفسها مرة أخرى .

ولكن هل تابعت الأرض دورانها فى نفس الاتجاه ؟

إن الأرض الآن تدور من الغرب إلى الشرق ، فهل كانت هكذا دائما ؟ إذا رجعنا فى الاجابة على هذا السؤال إلى الخرائط القديمة فإن الاجابة هى لا لأن الخرائط التى رسمها قدماء المصريين فى سقف أحد المعابد تدل على أن الأرض كانت تدور قبل وقوفها من الشرق إلى الغرب ، وهذا ما أكده أفلاطون فى حواره عن السياسة حيث قال :

(إن الشمس من قبل كانت تغيب حيث نراها تشرق) ، وهذا يفسر الآية الكريمة : ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ .

الفرق بين آيات الرسل وغيرها من الخوارق: ولا تلتبس معجزات الرسل وآيات الأنبياء بما يحدث على يد غيرها من خولرق العادات ، فإن المعجزات تأتى مصحوبة بالتحدى ، وتصدر عن رجال عرفوا بالتقوى والصلاح ، وأنهم بلغوا منها الذروة التى لا يتطاول إليها أى إنسان وتأتى المعجزات بدون كسب لأحد من البشر ، فالله هو الذى يمدهم بها آية من الله وحده ، ومعجزة لنبيه يتحدى بها معارضيه .

وأما ما يظهر على يد غير الرسل من خوارق العادات فهو كما قال الشيخ رشيد رضا : منقول عن جميع الأمم فى جميع العصور نقلا متواترا فى جنسه دون أنواعه وليست كلها حقيقية فإن منها ما له أسباب مجهولة للجمهور ، وإن منها لما هو صناعى يستفاد بتعليم خاص ، وإن منها لمن خصائص قوى النفس فى توجهها إلى مطالبها ، وفى تأثير أقوياء الارادة فى ضعفائها .

ويدخل فى هذين الأمرين المكاشفة فى بعض الأمور ، والتنويم المغناطيسى وشفاء بعض المرضى ، ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التى يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ثم يقول : ومنها انخداع البصر بالتخيل الذى يحترفه المشعوذون ومنه ما فعله سحرة فرعون المعنى بقوله تعالى : ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ ومنه انخداع السمع كالذى يفعله الذين يدعون استخراج الجن إذ يتكلمون ليلا بأصوات غريبة عن أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم ، أن ذلك صوت الجن ، وقد يتكلمون نهارا من بطونهم من غير أن يحركوا شفاههم فلا ينبغى أن يوثق بشىء من أخبارهم ... الخ .

فأين هذا من معجزات الأنبياء وآيات الرسل . أين هذا من انشقاق البحر لموسى ، وإحياء الموتى لعيسى ، وإخراج الناقة من الصخرة لصالح ، ونبع الماء من أصابع محمد صلوات الله وسلامه عليه .

الفرق بين المعجـــزة والكرامــــة

والكرامة هى ما يكرم الله به أولياءه بما يظهره على أيديهم وليس من شرطها أن تكون خارقة للعادة ، ولا خارجة عن مألوف الناس .

ومن الكرامة : الاستقامة ، والتوفيق إلى طاعة الله ، والزيادة فى العلم والعمل ، وهداية الخلق إلى الحق .

وقد يحدث بعض الخوارق للعادات على أيدى بعض الصالحين فى بعض الأحوال والمتفرغين لعبادته ، والذين سلمت فطرهم وزكت نفوسهم ، كما وقع للسيدة مريم ، وقد حكى القرآن الكريم عنها أنه :

﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ .

ولكن مع ذلك لا يتحدث بها ، بل الأصل فيها الاخفاء والكتمان .

قال الشيخ أحمد الرفاعى : إن الأولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض . وهذا يخالف المعجزة لأن إظهارها واجب ليتم بها تبليغ الرسالة .

معجزة خاتم الأنبياء ﷺ :

ما بعث الله رسولا إلا وقد أيده الله بالآيات الكونية والمعجزات المخالفة للسنن المعروفة للناس ، والخارجة عن مقدور البشر ، ليكون إظهارها على يديه مع بشريته دليلا على أنه مرسل من عند الله .

فعدم حرق النار لإبراهيم ، وناقة صالح ، وعصا موسى ، وما ظهر على يدى عيسى من العجائب كلها من هذا القبيل . وكانت الآيات حسية يوم أن كان العقل الإنسانى فى الطور الذى لم يبلغ فيه الرشد بعد ، ويوم أن كانت هذه العجائب تبلغ من نفسية الجماهير مبلغا لا تملك معه إلا الاذعان والتسليم .

فلما بدأ النوع الإنسانى يدخل فى سن الرشد ، وبدأت الحياة العقلية تأخذ طريقها إلى الظهور والنماء ، لم تعد تلك العجائب هى الأدلة الوحيدة على صدق الرسالة .

ولم يعد من السهل على العقل أن يذعن لمجرد شيء رآه خارجا عن عرف الحياة أنه يريد شيئا جديدا ليتناسب والطور الذى وصل إليه . يريد الإيمان الذى لا تخالفه الشكوك واليقين الذى يبدد ظلام الشبهات .

وما كان الله ليمد النوع الإنسانى فى طفولته بما يحفظ به حياته الروحية ، ثم يدعه بعد أن أخذ سبيله إلى النظر العقلى والاستقلال الفكرى دون أن يقيم له من الأدلة ما يتناسب والارتقاء الذى انتهى إليه ، فكان أن بعث محمدا ﷺ ، وأيده بالمعجزة العلمية والحجة العقلية وهو القرآن الكريم :

﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : **« ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »** .

وهذا القرآن ليس من تأليف أحد ، إنما هو وحى الله أنزله على أكمل صورة من صور الوحى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب . أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم ﴾ .

فالآية تقرر أنواع الوحى الثلاثة :

(أ) وحيا : أى إلقاء المعنى فى القلب المعبر عنه بالنفث فى الروح . وفى الحديث : **« إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »** .

(ب) الكلام من وراء حجاب : وهو أن يسمع الموحى إليه كلام الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه الصلاة والسلام النداء من وراء الشجرة :

﴿ قال لأهله : امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما آتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ .

(جـ) ما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله إلى رسوله فيراه متمثلا بصورة رجل أو غير متمثل .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : **« أحيانا يأتينى وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا ، فيكلمنى فأعى ما يقول »** .

قالت عائشة رضى الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا) .

وأكمل هذه الأنواع هو إرسال الرسول بالوحى . وهذه الصورة هى التى نزل بها القرآن الكريم ، فقد نزل بواسطة جبريل عليه السلام :

﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ .

﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ .

جاء هذا الوحى ثورة على الباطل فى كل صوره ، على الفساد فى جميع مظاهره فثار على الخرافات التى لوثت العقول ، وعلى الانحراف الذى شوه الفطرة ، كما ثار على العرف الفاسد الذى عطل حرية الفكر واستقلال الارادة .

ثار على هذا كله ثورة عاتية دمرت كل معالم النشر ، ومحت كل لون من ألوان الفساد واستبدل بها الحقائق التى تهدى العقل ، وتنير الضمير وتسمو بالنفس ، لتصل إلى أقصى ما قدر لها من الكمال الإنسانى .

واستهدف تهذيب الفرد ، وتعاون الجماعة ، وإيجاد حكم أساسه الشورى وغايته حراسة دين الله ، وسياسة دنيا الناس ، والدعوة إلى هداية هذا الدين لتعم الأخوة الإنسانية ، مما يعجل بسلام عام يعيش الناس فى ظله آمنين .

ولم تكن هذه الثورة تستهدف مصلحة ذاتية ولا منفعة وطنية ، ولا ترجيح كفة جماعة حاكمة على كفة جماعة أخرى، ولا إيثار مذهب على مذهب، وإنما كانت لخير العالم كله ومصلحة الناس جميعا .

جاء هذا الوحى ليحل المشكلات التى اعضلت الناس قديما وحديثا .

وليجيب على كل سؤال من هذه الأسئلة :

١ - ما هو الدين ومبادئه ؟

٢ - من هو الله ؟ وما صفاته ؟

٣ - ما هى الرسالة ؟ ومن هم الرسل ؟ وما وظائفهم ؟

٤ - ماهية الحياة بعد الموت ؟

٥ - ما هو الخير ؟ وما هو الشر ؟ وكيفية الجزاء عليهما ؟

٦ - لماذا خلق الإنسان ، وما مركزه فى الكون ؟

٧ - ما علاقة الإنسان بغيره ؟ وما علاقة الأمم والشعوب بعضها ببعض ؟

٨ - ما علاقة الرجل بالمرأة ؟

٩ - ما هى الثروة ؟ وما مصدرها ؟ وما هى كيفية توزيعها ؟

١٠ - ما هى الحياة الطيبة ؟ وما السبيل إليها ؟

وهكذا يمضى القرآن يضع أمام العقل الإنسانى مئات المسائل التى لا يستغنى عنها فى دور العلم والفلسفة ، والتى تعجز جميع العقول الإنسانية عن الاحاطة بعشر معشارها فضلا عن الاحاطة بها كلها ، والتى يحتاج إليها فى قطع مرحلة هذه الحياة لتكون أعلاما هادية ، تجنبه الضلال فى شئون الدين والانحراف فى تقلبات الدنيا :

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله ﴾ .

كل هذه المسائل جاءت فى أسلوب بلاغى رائع يملك على المرء حسه ويستولى على مشاعره ، ويوقظ حواس الخير فيه ، مع بعده عن الاختلاف ، وسلامته عن التناقض : **﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾** .

إنه لم يعرف لكتاب من الكتب مثل ما لهذا القرآن ، من سحر الموضوع ، وسحر البيان ، وقوة التأثير مما وجه عناية العلماء إلى الاهتمام بدراسته من حيث ألفاظه ، ومعانيه ، وعقائده ، وآدابه ، وأحكامه ، وتشريعاته . فخلقوا بهذه الدارسة ثروة ضخمة من العلم والأدب ، لا تزال ولن تزال المادة الصالحة لقيام حضارة إنسانية ينعم فيها البشر بحياة أفضل وعيش أرغد :

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ هذه هى المعجزة التى أيد الله بها نبيه الأمى ، والتى عبر بها نفوسا وأحيا قلوبا وأنار بصائر ، وربى أمة ، وكون دولة فى سنى تعدى على الأصابع .

إذا كان قلب العصا حية معجزة فإن تغيير العقول والقلوب أبلغ فى الاعجاز .

وإذا كان إحياء الميت من الخوارق التى أيد الله بها بعض أنبيائه فإن إحياء أمة أمية من الجهل والرزيلة ، وجعلها مصدر إشعاع وهداية ، هو الخارق الذى تتضاءل فى جوانبه جميع المعجزات :

الله أكبـــر إن ديــن محمـــد ... وكتابـــه أقــوى وأقــوم قيـــلا
لا تذكـر الكتـــب السـوالف عنده ... طلع الصبــاح فأطفــأ القنديـــلا

الفصل الثامن

الرد التفصيلى

وهنا نرد على ما جاء فى تلك الرواية من (أولاد حارتنا) ردا تفصيليا مع إحاطة القارىء علما بأن ردنا سيكون خاصا بما يخالف العقيدة الإسلامية .

قال الكاتب : (هذه حكاية حارتنا أو حكايات حارتنا لم أشهد أنا من واقعها إلا طوره الأخير ولكنى سجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم وكما نقلتها الأجيال وهذه حكايات تروى فى ألف مناسبة ومناسبة فكلما ضاق بأحد حاله أو ناء بظلم سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال فى حسرة : هذا بيت جدنا جميعنا من صلبه ونحن مستحقو أوقافه فلماذا نجوع وكيف نضام ؟

ثم تقص هذه الحكايات قصص أبطال حارتنا العظام : أدهم وجبل ورفاعة وقاسم جدنا هذا لغز من الألغاز وفوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد) .

تعليـــق

(الجبلاوى بداية تقديم الشخصية التى ترمز لله تعالى)

ثم يقول الكاتب عن الله سبحانه وتعالى .. (وباسمه سميت حارتنا وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأقطار المحيطة بها فى الخلاء ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه دون جدوى . أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا) [المنطق المادى هو الذى يتحدث وهو يصر على أن يرى الخالق العظيم بعينيه لكى يؤمن به] .

اعــرف الله قــــدره

أرأيت كيف عبر الكاتب فيما مضى كيف عبر عن الذات الإلهية بهذا الأسلوب فهو لغز وهو لا يرى وهو قد حرم الناس من خيراته ثم أرأيت إلى قوله : أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا . وهنا يذكرنا بقول بنى إسرائيل لموسى : أرنا الله جهرة وجهلوا أنه سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

قيل للإمام على رضى الله عنه : هل رأيت ربك يا إمام ؟ قال : وكيف اعبد ما لا أرى . قيل : وكيف رأيته ؟ قال : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قال أحد الماديين للإمام أبى حنيفة رضى الله عنه : يا إمام هل رأيت ربك ؟ قال الإمام : سبحان ربى لا تدركه الأبصار . قال : هل أحسسته بسمع أو لمس أو شم ؟ قال : سبحان ربى لا تدركه الحواس ولا يقاس بالناس . قال المادى الملحد : فإذا لم تكن رأيته ولا أحسسته فكيف تثبت أنه موجود ؟ قال الإمام للملحد : يا هذا هل رأيت عقلك ؟ قال : لا . قال : هل أحسسته ؟ قال : لا . قال الإمام له : هل أنت عاقل أم مجنون ؟ قال : عاقل . قال له الإمام : فأين عقلك ؟ قال : موجود . قال الإمام : كذلك الله جل جلاله موجود .. وإذا كان كثير من مخلوقات الله لا يقع تحت رؤية البصر فها هو ذا الأثير نرى آثاره ولا نعرف حقيقته ، وها هى ذى الروح وكذلك الأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء . بل إننا عاجزون عن معرفة حقيقة المادة فإذا كانت هذه حال بعض المخلوقات فكيف بمن خلقها ، أيخضع للحس إنه لمنطق عجيب وغريب . لقد عرفوا الأثير بقولهم : هو وسط غير مادى افترض وجوده تتخلله موجات كهرومغناطيسية فكيف ندرك حقيقة من خلق الأثير بعقولنا القاصرة وحواسنا المحدودة . سبحانك ربى يا من وسعت كل شىء علما وأحصيت كل شىء علما :

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم . لا تأخذه سنة ولا نوم . له ما فى السموات وما فى الأرض. من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾ .

إنه ليعز على نفسى أن أترك هذه السطور التى كتبها صاحب هذه الرواية دون أن أفصل القول فى الرد عليها تفصيلا يأخذ بيد العاثر ، ويرشد الحائر ، ويهدى إلى صراط الله المستقيم . وحسبى هنا أن أذكر له قضية الألوهية وما يليق بذات الله فى إحدى سور القرآن الكريم وهى سورة النحل .

إقرأ أيها الكاتب سـورة النحـل

إذا أيقن العبد بربه وعرف حقه من الوحدانية الخالصة استقرت نفسه وثبتت تجاه تيارات الحياة وعواصفها بكل بروقها ورعودها ورياحها ورمالها ومن ثم فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوجه إلى القلوب أضواء الوحدانية ودلائل القدرة حتى يبنى النفوس بناء سليما ويشيدها على تقوى من الله ورضوان . ولسوف نعرض الآن لبعض هذه المدارس فى سورة (النحل) لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحدانية الله وعظيم قدرته ... ففى سورة (النحل) نطقت الأدلة بوحدانية الله وقدرته فى شتى المجالات الكونية والآفاقية والأنفسية شوامخ راسيات ورواسى ثابتات لا تحركها العواصف ولا تؤثر فيها الرياح القواصف . اسمع إلى القرآن وهو يبدأ هذه السورة بهذا الأنذار الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله .. فلقاء الله حق واقع ... ولتوكيد وقوعه عبر عنه بلفظ الماضى كأنه قد وقع لأن الله لا يخلف وعده : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحى الذى تتنزل به الملائكة وأنه كالروح يحيى الموات وينزل غضا نديا يتقاطر نورا ورحمة ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى :

﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾ .

ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله حيث أعلنت قولك : ﴿ **أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله** ﴾ وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها فى ذكر حشد من الأدلة المتنوعة والناطقة بالوحدانية والقدرة فيقول سبحانه : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون** ﴾ .

ففى هذه الآية المباركة يذكر أن العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه مخلوق بالحق لا لهوا ولا باطلا ولا عبثا ولا لعبا وإنما بالحق قامت السموات والأرض : ﴿ **وما كنا عن الخلق غافلين** ﴾ وتعالى الله وجل جناب الحق أن يكون له شريك يناقشه الحساب فهو الواحد العادل الحكيم المريد وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ينتقل إلى خلق الإنسان فيقول سبحانه : ﴿ **خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ .

فالإنسان سر الله فى أرضه : ومعجزته التى حارت الأفكار فيها ولذا يقول أحد الحكماء عن الإنسان :

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق** ﴾ فماذا كان من الإنسان بعد ذلك ؟ قف يا أخى وقفة تدبر وإعمال فكر فى هذا النص المبين : ﴿ **فإذا هو خصيم مبين** ﴾.

يقول علماء اللغة : أن (إذا) حرف يفيد المفاجأة فهو بذلك يدل على أن خروج الإنسان عن أصله اللائق به نحو الله : يعتبر أمرا غير مألوف فما كان ينبغى من الذى خُلق من نطفة مهينة أن يفاجىء بالخصومة المبينة والخصومة لمن ؟ لخالقه ورازقه ومنشئه :

يا مدى الكبر اعجابا بصورته انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس ماذا ما بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا بن التراب ومأكول التراب غدا أقصر فإنك مأكول ومشروب

يقول تقى الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم يتكبر على الأرض وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم لا تتكبر على ظهرى لأننى غدا سأضمك فى بطنى . كيف يتكبر بن آدم وهو الذى أوله نطفه قذرة وآخره جيفة قذرة وهو ما بين هذا وذاك فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقة وتنتنه عرقة وتميته شرقة ؟ كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين مرة وأنت ماء مهين من أبيك وأخرى وأنت طفل من رحم أمك عليك أن تذكر هذا ولا تنسين أنك حفنة من التراب فى البداية والنهاية : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ .

ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر : هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر ؟

فأشارت : فإذا للدود عبث فى المهاجر ثم قالت : أيها السائل : إنى لست أدرى ؟

انظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان .. وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان والتقى العاشق والقال. فما يفترقان .. أبهذا ينتهى الأمر ؟

فقالت : لست أدرى .. أيها القبر : تكلم وأخبرينى يا رمام .. هل طوى أحلامك الموت ؟ وهل مات الغرام .. من هو الميت من عام ومن مليون عام .. أتمنى أننى أدرى .. ولكن لست أدرى .

عالـــم الحيـــوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله فيقول جل شأنه : ﴿ **والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حيث تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** ﴾ .

هذه أنواع من المخلوقات : اشتملت على فوائد عديدة لها جليل الأثر فى حياة الإنسان حتى أن القرآن الكريم لكثرة ما فيها من فوائد أشار إلى بعضها : ففيها دفء فى أصوافها وأوبارها وأشعارها وفيها اللحوم التى تؤكل وفيها الركوب على ظهورها وحمل الأثقال التى لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد المعنوية وهو ذلك الجمال فى رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها واستمعت الأذن إلى أصواتها من رغاء وثغاء .. وغير ذلك .

ولما كانت فوائدها لا تحصى ولا تستقصى فقد أجملها القرآن فى قوله : ﴿ **ومنافع** ﴾ ولك بعد ذلك أن تقول فى هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد مما يطول شرحه ويكثر ذكره .. سبحانه ربى :

عجز اللسان عن الثناء فإنه تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذى بهر العقول فحسبه وكفاه

عالـــم الفلـــك

وينتقل بنا النظم الكريم إلى عالم الفلك فيقول جل شأنه : ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ وفى لفظ (التسخير) ما يدل على منتهى التذليل والتطويع دون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله .. وفى قوله تعالى : ﴿ **والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ إشارة عجيبة فإنها جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر وأن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عِظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والابداع ..

فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الضخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟

أى حكمة تنطق بها كلماته وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟ إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ولم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود بل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العلم لن يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر مستحيل على العلماء أن يصلوا إلى حقيقته لأن ذلك فوق الادراك وأكثر ما يتخيله العقل . ففى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكثر دقة وأشد حساسية وأبعد رصدا إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . وما زال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد .

إن دراسة اشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العالم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوما وفى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفى الدقيقة ٦٠ ثانية لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ، وقد وجد أن السرعة التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة ! هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السرعة : وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية ، فمتى بدأ فى حركته ؟ ومتى يقف ؟ وإلى أين ينتهى ؟

وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوؤه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية فعلى أى بعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟ وتعتبر هذه الأرقام الوحدات فى بداية الكون ... فقد أظهرت بحوث العلماء من السرعة ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها ، وأمر هذاالوجود ليس عجبا فى عدد النجوم والكواكب والمسافات التى تفصل بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظل العلماء فى عجب وحيرة منه هو أمر إشراق النجوم .. إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم ، والتىيرجح العلماء أنها تصل إلى عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها ؟ ولكن كيف لا تخمد ، حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ، لكان يكفى ملايين السنين التى مرت منذ القدم أن تصبح

النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك ، فقيل إن السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيرا ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ، ثم بالانفجار الأيدروجينى فى تبريد حرارة الشمس . وعدم تغيرها ، وما زال العلماء فى أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه السؤال إل علماء الطبيعة ، وهو : كيف لا تفنى كتلة النجم ؟ إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة ..

سبحانك ربى ! يا من قلت :

﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوابها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

يا من يحار الفهم فى قدرتك ، وتطلب النفس حمى طاعتك تخفى عن الناس سنا طلعتك ، وكل ما فى الكون من صنعتك ! يا مبدع الكائنات : يا من كل فعلك حكمة بالغة يا من قلت وقولك الحق : **﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾** .

ويا من قلت :

﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

عالـــم النبـــات

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة بعد ذلك إلى الأرض وما بها من نبات وزروع ، وما احتوته فى بطنها من معادن مختلفات ، فيقول سبحانه : **﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾** .

ولقد جاء الأسلوب فى هذه الآية الكريمة بلفظ (ما) الذى يدل على العموم والشمول ، للاشارة إلى ما فى الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل .. وكل أولئك ملك لله تبارك وتعالى : **﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾** .

سبحانك ربى :

يا مــن تفــرد بالبهـاء وبالسنــا	فى عزه وله البقــاء السرمــد
يا من له وجب الكمــال لذاتــه	فلذاك ترفـع من تشاء وتسعـد

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

ما فى الوجــود ســواك رب يعبــد	كــلا ، ولا مولــى سواك فيقصــد
يا من له عنــت الوجـوه بأسرهــا	ذلا ، وكــل الكائنــات توحــد
أنت الإلــه الواحــد الفــرد الذى	كل القلــوب له تقــر وتشهــد

سبحانك يا من قلت :

﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم . إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ .

ويا من قلت :

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ .

الحث على العمل وزيادة الانتاج :

ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما تحث البشرية أن تضرب فى مناكب الأرض تطلب الرزق ، فقلت : « **التمسوا الرزق فى خبايا الأرض** » .

ولئن كان علماء الاقتصاد قد أفاضوا فى الكلام عن الانتاج والاستهلاك فإن القرآن العظيم أشار إليهما فى آية كريمة حيث قال :

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ .

فمصدر الانتاج قوله جل شأنه :

﴿ الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا ﴾ .

ومبدأ (الاستهلاك) تشير إليه الآية فى هذه العبارة : **﴿ فمنه يأكلون ﴾ .**

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وفى العالم أسرار عجيبة وحقائق علمية ، تجعل المتمعن فيها يخر لله ساجدا .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى عالم البحار .. ذلك الخلق العظيم الذى جاء فى وصفه قول القائل : (هو خلق عظيم : الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، والناس فيه دور على عود . إذا هاج هز القلوب وأفزع النفوس) .

ويبن القرآن الكريم حال الناس فى البحر فيقول سبحانه : **﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ .**

هذا الخلق العظيم مسخر ومذلل ومنقاد ومذعن لخالقه الذى سخره .. يقول جل شأنه : **﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .**

سبحانك ربى :

لما علمت بأن قلبى فارغ ... ممن سواك ملأته بهداك
وملأت كلى منك حتى لم ادع ... منى مكانا خاليا لسواك !!

فتأمل معى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان أن يعيش فى الماء ، وكيف تغذى على النباتات ، وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية : أن جميع المواد إذا ما تجمدت زادت كثافتها ، فيما عدا الماء فإنه المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافته عند التجمد .. لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو

على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى ، وقد لا يتصور الإنسان – لأول وهلة – إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى كيف يكون الأمر ؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدبير أمورها وتيسير سبلها : أليس فى ذلك الرد – أبلغ الرد – على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

فوا عجبا : كيف يعصى الإله ... بل كيف يجحده الجاحد ؟
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد ؟

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآيات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟

إنه الله القائل : ﴿ **وخلق كل شىء فقدره تقديرا** ﴾ .

والقائل : ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾ .

والقائل : ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟

﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ .

يا من قلت وقولك الحق :

﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا . الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا** ﴾ .

ويا من قلت : ﴿ **وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها** ﴾ .

ويا من قلت : ﴿ **وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾ .

إن الوجود كله صفحة متقنة الابداع ، وتقر وتشهد بالحق أن لها خالقا مبدعا حكيما مدبرا : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ .

وبعد أن أخبر القرآن الحكيم عن عالم البحار : انتقل بنا بعد ذلك إلى عالم الجبال ، وما فى الأرض من أنهار وسبل وعلامات للاهتداء فى متاهات الرحاب الواسعة .

قال جل جلاله : ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون** ﴾ .

إنها عمارة الكون .. تنطق بالقول السديد ، والبرهان الرشيد :

سبحـــان من أحيـــا قلـــوب عبـــاده   بلوائـــح من فيـــض نور هـــداه
فالعـــارفون مشاهـــدون لفضلـــه   مستأنســـون بذكرهـــم إيـــاه

من الذى أودع هذه العلامات للارشاد فى الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية ؟ إنه الله ، جل فى علاه !

وبعد سوق هذه الأدلة ، ووضوحها ونظمها فى هذا المسلك الرائع والاتقان البديع ، يسوق القرآ ن هذا السؤال لكل عاقل بصير وليس المقصود بالسؤال استفهاما .. فإن الاستفهام محال فى حق الله إذ هو طلب الفهم . وهو يفيد الجهل بالشيء المستفهم عنه ! وجل جلال الحق أن يعزب عنه شيء فى الوجود كله إنما المقصود بالإستمهام هنا فى قوله تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق . أفلا تذكرون** ﴾ .

هو الانكار الذى يفيد النفى : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق فهذا لمجرد التذكرة ، وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره فإن ذلك من الأمور البديهية ومن الشئون الواضحة الجليلة ، كالشمس فى ضحاها وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيم ، أنت الخالق المبدع المصور ، لا شريك لك فى ملكك :

يا حبيـــب القلـــوب : هب لى رضاك   وارحم اليـــوم مذنبـــا قد آتـــاك
ويا إلهـــى وخالقـــى ومـــرادى   قد أبى القلـــب أن يحـــب ســـواك

أخى القارىء الكريم :

وهكذا طفت بعقلك وفكرك ، ووجدانك وقلبك فى هذه الرياض الباسمة : .
الكتاب العزيز .

انتقلت من عالم السموات والأرض إلى عالم الإنسان . ومن عالم الإنسان إلى عالم الحيوان . ثم إلى عالم النبات ، ثم إلى عالم الفلك ، ومنه إلى ما فى الأرض من مكنون الخزائن ، ثم إلى عالم البحار ، ومنه إلى عالم الجبال والأنهار ووسائل الارشاد فى المتاهات ..

نعـــم الله على خلقـــه !!

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات .. قال القرآن الكريم بعد ذلك :

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ .

إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى ، لابد أن يكون متصفا بالعلم الشامل الكامل ، ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه : **﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ .**

ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض : من أراد أن يتكلم فى شأن محمد ﷺ فليكن ذلك سرا حتى لا يسمع إله محمد ما يقول فيخبره به !! فماذا كان الموقف لقد هبط سفير الأنبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وأسروا قولكم ، أو اجهروا به . إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

أخا الإسلام :

الله يـرى كـل ما تضمـر يعلـم ما تخفـى وما تظهـر
وإن خدعـت النـاس لم تستطـع خـداع من يطـوى ومن ينشـر

وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده ، العالم بكل شيء ، فإن غير الله لا يخلق ، لأنه لا يملك الايجاد من العدم ... ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله :

﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ .

الكـــون ، وقـــدرة الله

الكون قسمان :

كون زمانى وكون مكانى ..

فالكون الزمانى : هو الدنيا والآخرة .

والكون المكانى : هو السموات والأرض .

وإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم أن يأتى بسورة من مثل القرآن الكريم فقد تحداهم بالكون المكانى أن يخلقوا ذبابة حيث يقول سبحانه :

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ .

العلـم الحديث ووحدانية الله تعالى

يا من يرى مـد البعـوض جناحــه ... فى ظلمـة الليــل البهيم الأليــل
ويرى نيـاط عروقهـا فى نحرهـا ... والمخ فى تلك العظـام النحــل
ويرى ويسمـع ما يرى ما دونهـا ... فى قـاع بحـر ذاخر متجنــدل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الأبيات للإمام الزمخشرى وهو يناجى ربه فأقول : سبحان الله ! ما هى تلك البعوضة التى لها عروق ، ونحر ، ومخ ، وعظام إلى أن قرأت هذا البحث العلمى الذى قام به البروفيسور أردين ليا الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية .. فاسمع إليه يقول الخبر بالحرف الواحد :

يقوم الدكتور أردين ليا من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوضة تحت الميكروسكوب ، مستخدما أدوات دقيقة ، مثل التى يستعملها صانعو المجوهرات ، وذلك لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطار هذه الحشرات ، ولا تستغرق الجراحة التى يقوم بها الدكتور (ليا) أكثر من ٥ دقائق ، وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع (المرضى) من البعوض الطيران .

ويقوم الدكتور (ليا) أستاذ علم الحشرات وطبائعها بدراسة نظام الهورمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذى ينتشر فى المستنقعات .. وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملا هاما فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها . وأثناء العملية يقوم الدكتور (ليا) بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا (افرازات الأعصاب) من مخ البعوضة وكذلك بعض الغدد من الرقبة ، وقد وجد الدكتور (ليا) أن البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة .

فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلا فقال: **﴿إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾** . فما بالك بهذه الخليقة وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها - واجمة - عبقريات العباقرة والمفكرين ؟؟

وهكذا أخذت الأدلة تتجلى فى تؤدة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسى الشامخات ، إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار .. ألا وهى قضية التوحيد ، فقال سبحانه بعد ذلك : **﴿ إلهكم إله واحد ﴾** .

فهذه القضية مركز الدائرة الذى تسبح حوله الأدلة الباهرة والبراهين الباحرة .. إنها قضية لا إله إلا الله .. فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله : دخل الجنة .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى . لا إله إلا الله أفنى بها عمرى .

لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى . لا إله إلا الله أدخل بها قبرى .

لا إله إلا الله ألقى بها ربى .

خطـــوات فى الحـــب الإلهـى

الكـــل فى بحر حبـــه تاهـــوا	وقد تفانـــوا فى سر معنـــاه
وصححـــوا العقـــد مخلصين لـــه	بقولهـــم : لا إلـــه إلا هـــو
يا معشـــر الذاكريـــن كلكـــم	قولـــوا معى : لا إلـــه إلا هـــو
وراقبـــوا من يعمكـــم كرمـــا	بفضلـــه : لا إلـــه إلا هـــو
فالكـــون قد فـــاح بشـــره عبقـــا	بذكـــره : لا إلـــه إلا هـــو
والعـــرش تسبيحـــه له أبـــدا	سبحـــان من : لا إلـــه إلا هـــو
وكل ما فى السمـــاء من فلـــك	تسبيحـــه : لا إلـــه إلا هـــو
وكـــل ما فى الجبـــال من عظـــم	تسبيحـــه : لا إلـــه إلا هـــو
وكـــل ما فى الريـــاض من شجـــر	تسبيحـــه : لا إلـــه إلا هـــو

ـل ما فى البحار من خلق ... تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الزمان من عجب ... أعجبه : لا إله إلا هو
وكل شىء تراه من حسن ... أحسنه : لا إله إلا هو
وكل شىء يلوح من صور ... فزينته : لا إله إلا هو
وكل أهل العلوم قد علموا ... بأنه : لا إله إلا هو
وكل أهل العقول قد فهموا ... بأنه : لا إله إلا هو
والإنس والجن كلهم شهدوا ... بأنه : لا إله إلا هو
والرعد والبرق إذ يسبحه ... بقوله : لا إله إلا هو
وكل من ضل عن طريق هدى ... دليله : لا إله إلا هو
وكل من يشتكى أذى سقم ... شفاؤه : لا إله إلا هو
ومن أتاه بالذل مفتقرا ... غناؤه : لا إله إلا هو
ومن أتى بائساً ومفكرا ... فجبره : لا إله إلا هو
يا غارقا فى بحار غفلته ... انهض وقل : لا إله إلا هو
يا قوم لا تغفلوا عن ذكره ... بلا إله إلا هو
كيف تنام العيون عن ملك ... سبحانه : لا إله إلا هو
هو الإله العظيم قدرته ... سبحانه : لا إله إلا هو
يا فوز من مات وهو معتقد ... يشهد أن لا إله إلا هو
سبحانه ما أعم رحمته ... بمذنب تاب من خطاياه

وقفة تأمل

اقرأ يا أخى القضية مرة ومرة : ﴿ **إلهكم إله واحد** ﴾ .

ثم اقرأ تعقيب الكتاب العزيز عليها حيث يقول جل شأنه :

﴿ **فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين** ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك : ﴿ **أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وهم مستكبرون** ﴾ .

أى عن عبادة الله ، مع إنكار قلوبهم لتوحيده ، كما قال : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ .

ولهذا قال ههنا : ﴿ **لا جرم** ﴾ .

أى حقا ﴿ **أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أى سيجزيهم على ذلك أتم الجزاء : ﴿ **إنه لا يحب المستكبرين** ﴾

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لا غموض فيها ، جلية لا غبار عليها ، وأن الذين يقفون منها موقف الانكار أو التشكك إنما ذلك راجع لمرض فى قلوبهم . فقلوبهم منكرة جاحدة ، مظلمة عابسة :

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ألا يرى نورها من ليس ذا بصر

وقد قيل :

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وقيل أيضا :

ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر ؟

فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة ، وبصرها بأمر دينها ودنياها . وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة : أنها تجحد حقائق الأشياء دون أن تبحث وتفكر وتمحص وتتدبر .

قال سبحانه : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين** ﴾ بكل هذه السهولة ، وبمنتهى التبجح : تنكر الحقائق :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

حقا ...

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

ولا يظلم ربك أحـــدا

ما عاقبة هؤلاء فى الدنيا والآخرة ؟

أما فى الآخرة : فكما قال مولانا : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم . ألا ساء ما يزرون** ﴾ .

وأما عاقبتهم فى الدنيا ، فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير وخسف ، قال سبحانه :
﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ .

وهذه عاقبة التكذيب والخيانة ، والكفر والجحود :

﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** ﴾ .

﴿ **ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون . فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ .

ومو ن هؤلاء المنكرين فى الآخرة أيضا : خزى وتأنيب .

قال جل شأنه : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول : أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾ .

عندئذ لا يستطيعون جوابا ولا تفسيرا .

فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة ؟ إنهم أهل العلم .

قال جل شأنه : ﴿ **قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء . بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ .

وبعد كل هذا : فإلى أين ينتهى المطاف وأين المستقر ؟ قال سبحانه : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ .

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع : قارن بين أصحاب القلوب المنكرة ، وبين أهل التقوى .

فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين .
وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك .

قال تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا** ﴾ .

شتان ثم شتان ، وهيهات بين القولين : بين (أساطير الأولين وبين كلمة خيرا) إنه شتان بين العاقبتين .

فعاقبة المتكبرين : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ .

هذا فى الآخرة وفى الدنيا : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ .

وأما عاقبة المتقين فى الدنيا والآخرة ، فكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون . كذلك يجزى الله المتقين** ﴾ .

فضـــل الله على عبـــاده

ومن المواقف الطيبة التى يقف عندها العقل عاجبا فى هذه السورة (سورة النحل) أن الله سبحانه شاء بمنه وفضله أن يعطى الجزاء للمؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذكر ذلك فى هذه السورة فى أربعة مواضع : هذا الموضع السابق أولها ، الموضع الثانى : قوله جل شأنه : ﴿ **والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ .

والموضع الثالث : قوله جل جلاله : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

والموضع الرابع : قوله تعالى فى حق الخليل إبراهيم : ﴿ **وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ .

سبحانك اللهم : أنت ولى المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التى يصفها الكتاب العزيز .

فيقول فى حق المنكرين : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء** ﴾ .

ويقول فى حق المتقين : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ .

نظـــرات ... وعـــبر

وبعد هذه المقارنات بين المنكرين والمتقين ، نواصل هذه النظرات فى سورة (النحل) لنسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى موقفين من أعظم المواقف الشاهدة على الوحدانية والقدرة .

يقول سبحانه : ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين** ﴾ .

والمراد بالأنعام هنا : الإبل ، والبقر ، والغنم .

وقوله : ﴿ **من بين فرث ودم لبنا خالصا** ﴾ أى يتخلص اللبن : بياضه ، وطعمه ، وحلاوته ، من بين فرث ودم فى باطن الحيوان ، فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته فيصرف منه دم يجرى فى العروق ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا فى لونه ، ولا طعمه ولا ريحه :

فمن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، اللبن ، البول ، والروث . وجعل لكل منها مسلكا خاصا : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟؟ كلا !! إنها مصانع الألبان من طراز : ﴿ **كن فيكون** ﴾ .

﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **لبنا خالصا سائغا للشاربين** ﴾ .

أى لا يغص به أحد مع اشتماله على عناصر غذائية . ولذا كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاما يدعو فيقول : « **اللهم بارك فيما رزقتنا وزدنا خيرا منه** » . أما إذا شرب اللبن فكان يقول : « **اللهم بارك لنا فيما رزقنا وزدنا منه** » .

من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج هى اللبن وبعدما شربه قال له الأمين عليه السلام : « **لقد اخترت الفطرة** » أى الصفاء الذى لا تشوبه كدرة .

وينتقل بنا النظم الكريم من (مصانع الألبان) إلى (مصانع العسل) الذى يخرج من بطون النحل .

قال سبحانه وتعالى : **﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾** .

ونحن هنا نجمل القول فى هاتين الآيتين الكريمتين فى أربعة مباحث :

المبحث الأول :

كلام المفسرين عنهما .

المبحث الثانى :

ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته .

المبحث الثالث :

تقرير الطب الحديث فى الشفاء الذى أودعه الله فى شراب النحل .

المبحث الرابع :

الرد على أعداء الإسلام الذين وقفوا من آية الشفاء موقف المعاند المكابر .

فنقول ، وبالله التوفيق :

المبحـــث الأول

كلام المفسريــن عنهمـــا

قال علماء التفسير فى هاتين الآيتين كلاما له وزنه وقيمته العلمية .

قالوا : المراد بالوحى هنا : الإلهام والهداية والارشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون .

ثم إن هذه البيوت محكمة فى غاية الاتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بديعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل ، ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها ، أى مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة والأودية ، والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتخرج العسل من بطونها ، وتبيض الفراخ من أدبارها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها .

وقوله : ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾ أى من العسل شفاء للناس . أى من داءات يتعرضون لها .

قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال : فيه الشفاء للناس لكان دواء بارد لأنه حار ، والشيء يداوى بضده .

وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : (إن أخى استطلق بطنه فقال : « **اسقه العسل** » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله : سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا ، قال : « **اذهب فاسقه عسلا** » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله : ما زاده إلا استطلاقا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « **صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا !!** » فذهب فسقاه عسلا ، فبرىء .

قال بعض العلماء فى الطب تعليقا على هذا الحديث الشريف : كان هذا الرجل عنده فضلات ، فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت ، فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده اسهالا ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ، فازداد التحليل والدفع ، ثم سقاه ، كذلك ، فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، واندفعت الأسقام والآلام ببركة إشارته ﷺ .

وقد روى البخارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل ، وفى هذا إشارة إلى ما فى العسل من القيمة الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه ﷺ فيما رواه الإمام ابن ماجه فى سننه عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « **عليكم بالشفائين : العسل والقرآن** » .

وآية الشفاء فى العسل قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ .

وآيات الشفاء بالقرآن قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ .

وقوله جل شأنه : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء** ﴾ .

وروى ابن ماجه أيضا أن النبى ﷺ قال : « **من لعق العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء** » .

ثم يقول المفسرون فى ختام هذه الآية :

﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ أى أن فى الهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة إلى السلوك فى هذه الشواهق من الجبال ، والباسقات من الأشجار والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل وهو من أطيب الأشياء لآية لقوم يتفكرون فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

المبحـث الثـانى

ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوتـه

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الاتقان .. ولقد أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل التى تعتبر أحسن مثل لهندسة المبانى وتعاون أفراد النحل .. فيقول عز من قال فى سورة (النحل) :

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ .

وقد أثبت التاريخ أن النحل اتخذ بيوته فى الجبال أولا ، ثم فى الأشجار ثانيا ، ثم فى الأعراش والخلايا بعد ذلك .

ويقول العالم موريس متر لنك فى كتابه (حياة النحلة) : إنه سواء أذهب النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحال فى مكان جديد فإن العدد الأكبر منه يؤلف من نفسه – وهو متلاحق متماسك ستارا مثلثا كثيفا أشبه بمخروط مقلوب رأسه ، ويظل مده من الزمن تتراوح بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال تظهر بعدها طبقات بيضاء شفافة تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت كنس الأرض وإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق .. وفجأة نرى نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية وصعدت إلى أعلى موضع من البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها ، وبأرجلها تدحوها وتنشرها وتلصقها بأعلى نقطة فى البيت وبهذا تضع حجر الزاوية فى مدينة النحل ، ثم تغادر المكان حيث تحل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعا من الشمع ، ومتى بلغت سمك هذه القطع الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة تختلف عنها شكلا وتدل هيئتها على أنها مهندس قدير وهى لا تنتج شمعا ، فتأخذ فى الطيران والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد فى ذلك مواقع الغرف التى يقوم ببنائها العمال .

وينشىء النحل أربعة أنواع من الغرف : هى الغرف الملكية ، وغرف الذكور ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التى هى مهد للعمال والمخازن العادية وهى تشغل أربعة أخماس

الخلية وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ، وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسدسة الأضلاع على قاعدة هرمية .

ويقول الدكتور (ريد) أنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكلة دون أن تكون هناك مسافات بينها لا فائدة منها ، وهذه الأشكال هى : المثلث المتساوى الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم . والمسدس أصلحها ، وهو ما يعمله النحل .

وقد عين رماك لورين الزاوية التى تلتقى عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد فوجد أنها هى نفس الزاوية التى يلتقى عندها فعلا سطح أرض غرفة النحل .

ويقول مترلنك : ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية لا يسعنا إلا أن نظل على ذكر آية من آياتها ، هى الحجرة المسدسة التى تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقريات البشر مجتمعة أية تحسينات : (لو أن أحدا من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة ، لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع) !!

خبرنى بربك فى أى الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفى أى أقسام المعمار تخرج عباقرة المهندسين فى النحل ؟

وعلى أى الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ، ليخرجوا لنا أعظم إنتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذى ألهمهم إلهام الغريزة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة ! أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟

والله ما هذا ولا ذاك وإنما هو العزيز الحكيم : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ .

يقولون : أين الله ، أين عجائبه ؟ — وذا الكون سفر ناطق وهو كاتبه
يشكون والإيمان ملء قلوبهم — ويبدون ما كل العقول تكذبه
عجائب ربى فى الأنام كثيرة — ولكن جهل المرء لا شك غالبه

إن بيوت النحل إنما هى مصانع من طراز ﴿ **كن فيكون** ﴾ أبدعتها يد القدرة لتكون آية لقوم يتفكرون .

المبحـــث الثالـــث

ما يقرره الطب الحديث فى الشفاء بعسل النحـــل

يقول عز من قائل :

﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ .

أعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآنى الذى نحن بصدده من أول قوله تعالى : **﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة ﴾** إلى قوله تعالى : **﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾** قد أشتمل على ثلاثة أنواع من الأغذية :

أولها : غذاء حيوانى ، وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتى ، وهو المتمثل فى قوله تعالى : **﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾** .

وليس المراد (بالسكر) هنا المادة المحرمة ، كما ذهب البعض إلى ذلك لأن هناك فرق بين السكر (بضم السين وسكون الكاف) وبين السكر (بفتحتين على السين والكاف) والذين ذهبوا إلى أن المراد (بالسكر) فى الآية الكريمة هى المادة المسكرة ذهبوا إلى أن هذه الآية قد نسخت بتحريم الخمر ، ولكن النظرة الثاقبة تفيد أنها آية امتنان وتفضل من الله لا دخل لها بالسكر الذى يذهب بالعقول وبدليل أن الله جل شأنه عطف عليها بقوله : **﴿ ورزقا حسنا ﴾** . وبدليل أن ختام الآية جاءت : **﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾** فكيف يكون فى السكر آية للعقلاءِ ؟

وبدليل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم ، هما اللبن ، والعسل ، فلو لم تشمل على نعمة مماثلة فى الغذاء الحلال : ما توسطت هذا العقد الفريد .

وأخيرا : فهناك فرق بعيد بين السكر والسُّكر ، فلا داعى لأن نقول: إن الآية قد نسخت وأن المراد (بالسكر) هو (السُّكر) إذ أن الفرق بينهما بعيد ، حيث إن المراد بالسكر (بفتح السين والكاف) هو المادة السكرية العظيمة الموجودة فى ثمرات النخيل والأعناب .

ثالثها : أنواع من الأغذية : غذاء حشرى ، وهو عسل النحل ، فماذا يقول الطب فى هذا الأخير ؟

إن عسل النحل فوق كونه غذاء ، فإنه أيضا فيه شفاء .

وفى قوله تعالى : ﴿ **مختلف ألوانه** ﴾ فإن هناك عسلا أصفر ، وآخر أحمر ، وثالث غامق : كعسل مدغشقر . ثم إن العسل يحتوى على :

١ – نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز .

٢ – أصماغ طبيعية ، وأصماغ النشا .

٣ – فيتامينات أ ، ب ، والفيتامين ج موجود ، ومركز بكمية كبيرة .

٤ – بعض المعادن : كالكالسيوم ، والبوتاسيوم ، ثم حامض النحل .

٥ – بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

عسل النحل وفوائده

١ – المواد السكرية

العسل كغذاء :

أهم ما فى العسل : نوعا السكر المذكوران ، وهذان النوعان لا يحتاجان لهضم ، كسكر القصب ، بل يمران من القناة الهضمية إلى الدم بدون تغير وهذه ميزة كبرى لعسل النحل .

والسكر من ضروريات الحركة : كضربات القلب ، والتنفس ، والحركة العادية ، ويمكن للإنسان أن يقوى بطريقة أسرع لو غذى بهما : سواء بالفم ، أو حقنا فى الوريد ... ففى الحميات – مثلا – يصبح غذاء المريض سهل الامتصاص إذا حلى شراب الليمون بالعسل ، أو اللبن بالعسل ، لأن الجهاز الهضمى يتلبك أثناء الحميات فلا داعى لاشغاله بتحليل سكر القصب إلى جلوكوز أو ليفيلوز .

وفى حالات المرض بالبول السكرى ، فإن تحلية السوائل بالعسل أقل ضررا من تحليتها بسكر القصب أو النشويات ، وذلك لأن الليفيلوز لا ينقلب إلى سكر بول .

العسل كملين :

يعطى للأطفال (العسل) كملين ، ويدخل فى صفات الملينات كالسنا (سلمكة) فيمزج مسحوق (السنا) مع العسل فيزيد قوة تليينها . ويعمل العسل حقنة شرجية بمقدار فنجان قهوة كبيرة على كوب ماء دافىء ، فيأتى بلين أكثر ، وأقل ضررا ، وهو أحسن من الجلسرين فى هذه الوصفة .

العسل كدواء للأمعاء :

إذا كانت الأمعاء تخمر النشويات ، وسكر القصب ينتج من التخمير ثانى أكسيد الكربون – أى غازات بدون رائحة – ويحدث انتفاخة بالبطن ، فإن العسل أقل ضررا فى هذه الحالة من سكر القصب لأن سرعة امتصاصه تعيق تخميره .

٢ – الأصمـــاغ

الأصماغ والعسل يلينان البلغم ، ويسهلان خروجه ، فيفيدان فى أمراض الجهاز التنفسى العادية .

٣ – فيتامـــين ج

موجود بكثرة فى العسل وهو أهم فيتامين يحتاج له الجسم ، فيساعده على الحركة ، ومقاومة الأمراض ، ويقوى أسنانه وعظامه اللينة . ويظهر سببان لاستعمال العسل فى الحميات ، وهى إيجاد غذاء لا يحتاج لهضم ، وفيتامين ج لمقاومة المرض ، أما الفيتامين (أ ، ب) فإنها نافعة إلا أن كميتها ضئيلة .

٤ ، ٥ المعادن وبيض النحـــل

موجودة بكمية صغيرة تزيد فى التغذية كذا حامض النحل كمقو للعضلات ، أما بيض النحل ففيه مواد زلالية نافعة ومغذية .

إن العسل مفيد فى كل زمان :

١ – فى تغذية الأطفال والمرضى .

٢ – فى علاج تخمرات الأمعاء من تناول النشويات .

٣ - فى تحلية سوائل مرضى البول السكرى .

٤ - كملين للأطفال .

٥ - ومسهل بحقنة شرجية .

٦ - ثم مفيد فى حالات السعال مع بلغم بالجهاز التنفسى .

حقائـــق علميـــة

ولكى نزيد هذا الأمر وضوحا ، ونفصله تفصيلا يليق بإعجاز القرآن الذى يثبت نبوة محمد ﷺ ننقل هذه الحقائق العلمية عن فريق من الأطباء الباحثين الذين قالوا فى قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ .

استعمالات عســل النحــل

لم يعرف قدر هذه الآية العلمية الطبية - التى تعتبر دليلا ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمى - إلا فى السنين الأخيرة من القرن الحالى ، فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فهو يعطى بالفم ، وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ومغذيا وضد التسمم الناشىء عن مواد خارجية مثل الزرنيخ ، والزئبق ، والكلور ، وفورم ، كذلك ضد التسمم الناشىء من أمراض فى أعضاء الجسم مثل التسمم البولى ، الناتج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء . وفى الحميات ، والحصبة ، والالتهاب الرئوى ، والسحائى . وفى حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، وفى احتقان المخ والأورام المخية .

إذا علمنا أن الجلوكوز يستعجل مع الأنسولين - حتى فى حالة التسمم الناشىء من مرض البول السكرى - علمنا مقدار فوائده وأن القرآن الكريم لم يذكره مصادفة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

وتفيد الأخبار الطبية أن الباحثة الأمريكية جوليا تشرسن قد توصلت - بعد تجارب متعددة - إلى أنه توجد مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة - دون أن يسخن أو يتعرض لأى معاملة صناعية - يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب بنى الإنسان .

هذا ، وقد اتجهت الأبحاث العلمية التى تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذ تقوم حاليا بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذى يفرزه عن طريق آلة اللسع ، لاستعماله فى معالجة بعض الأمراض المستعصية ، وفى أمريكا وانجلترا حاليا (مناحل) لا غرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله ، وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية ، وعرق النساء ، والرمد الحبيبى .

ومازال العلم يحمل إلينا كل يوم فائدة طبية ، إلى جانب الفوائد التى ذكرناها فيما يخرج من بطون النحل .

وقد ذكرت الصحف اللندنية أنه توجد فى لندن امرأة نمساوية مسز (أوين) تداوى المرضى الذين يئس الأطباء من شفائهم بقرص النحل وقد أثار خبر هذه السيدة اهتماما كبيرا فى أوساط لندن لا سيما وأن نتائج معالجتها قد أدت إلى الشفاء .

ومن الأخبار العلمية التى نشرت فى صحف ٦ مارس ١٩٥٦ أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى (نور فولك) الانجليزى استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها وذلك بعد أن ثبت له أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح وإزالة آثارها ، فلا تترك تشويهات بعد العملية . كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات . وقد أعلن البروفيسور كلود هيليو من علماء فرنسا أن هناك نوعا من النحل يسمى (النحل الملكى) له قدرة على افناء جميع أنواع الجراثيم وأنه سيحقق للإنسانية فوائد عظيمة : **﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾** .

إلهـى .. ما أعظمـك

خبرنى بربك يا أخا الإسلام فى أى الجامعات تخرج محمد بن عبد الله ؟ وعلى أى الأساتذة تلقى العلوم ؟ من الذى علم محمدا منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ما أذهل العقول وحير الأفكار إنه الله الذى قال له : **﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾** فبينما العلماء المحدثون يجرون أبحاثهم وتتوارد الأنباء عن جهودهم ، نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الآماد البعيدة فى اعجازه المعجز : **﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾** .

ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه : « **عليك بالشفاءين : العسل والقرآن** » . هل دخل محمد ﷺ المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ فى الطب ووظائف الأعضاء وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله ﷺ لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم ولم يتتلمذ على أستاذ من الأساتذة وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ وقال له : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ .

الرد على أعداء الإسلام فى (آية النحل)

يحاول المستشرقون ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين أن يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الإسلام بغير علم ولا هدىً ولا كتاب منير وهم فى الحقيقة أقزام يمضغون الهواء ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالا وأن يطالوا السماء ويمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

(العقاد) والرد على المبشرين

وفى كتاب (ما يقال عن الإسلام) للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد وقفت على مقال فى هذا الصدد رأيت أن أسجله على هذه الصفحات لما يحويه من فوائد جليلة .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله : إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشىء بالغباوة والقداسة لعلة واحدة فى وقت واحد فإن تقبل العقل ذلك السبب وخاصة أمراض الجنون أو هوى دفينا يحمله على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها أو خداعا مقصودا يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاحتيال عليه .

ولسنا نخطىء القول فى أن جماعة المبشرين المتخصصين فى نقد القرآن وعقائد الإسلام آفة من هذه الآفات فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط فى التفكير كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية أو يملكه التعصب الذميم فيقوده إلى المغالطة ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه أو يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ويعينه أن يعرض بضاعته ويهيىء لها أسباب النفاق فى السوق وربما اكتفى من النفاق باقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة فى العرض والترويج .

وبعد هذه المقدمة عرض الأستاذ العقاد قضية من القضايا العاجلة الباطلة التى أثارها المبشر (صمويل زويمر) فى كتابه (بلاد العرب مهد الإسلام) فى فصل عن (العلوم

والفنون العربية) قال صمويل زويمر فى هذا الفصل أن (الشهد) لم يزل معدودا كالترياق فى بلاد العرب استنادا إلى القرآن والحديث وقد كانت الاشارة الوحيدة إلى الطب فى وحى محمد ﷺ هذه الكلمة (الغبية) التى يقول فيها عن النحل أنه : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله فى كتابه .. ثم يرد الأستاذ العقاد على هذه الفرية التى افتراها ذلك المبشر فيقول : إن الدجل المتعمد ظاهر فى قول هذا العلامة (الغبى) أن القرآن حصر الطب كله فى دواء واحد هو (الشهد) فإن المعنى الذى تفيده الآية – بغير لبس ولا محاولة – أن الشهد (شفاء) ولم تقل أنه كل الشفاء ولا أنه شفاء من جميع الأمراض فإن وصف (الشهد) بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية كما يوصف أى عقار من العقاقير فى الصيدليات .

ومثل هذا الادعاء (التبشيرى) لا يعتسف اعتسافا بهذه الصورة إلا للافتراء المتعمد طمسا للحقيقة مع سوء النية ، أما حكم العلامة (بالغباوة) على وصف (الشهد) بالشفاء فليس له معنى غير غباوة مطبقة فى القائل إن كان مصدقا لما قال .. لم لا يكون (الشهد دواء من الأدوية) وهو خلاصة أعشاب وأزهار ؟

إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جدا فى كل أمة وهو قوام للعلاج إلى اليوم فى أكثر الأدوية التى يصفها الأطباء العصريون لضروب شتى من الأمراض وتستحضرها معامل الكيمياء فى بلاد الحضارة ، وهذا قبل شيوع الكلام عن (الفيتامينات) وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والاعياء على اختلافها .. فلماذا يمتنع على العقل كل الامتناع أن يصف دواء (الشهد) بوصف غير الغباوة ؟

لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع الفيتامينات والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض ؟ إن (الغباوة) هى عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة أو عجزه عن فتح الباب لتصورها عن كل احتمال . وإلى هنا قد تكون (الغباوة) مفهومة إذا هى تشابهت فى سوء الفهم ولم تتخصص للشهد دون غيره ولكنها (غباوة) تنزل إلى ما دون مستوى الفهم إذا كان صاحبها يرفض (الشهد) علاجا ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سرورا للإله .. ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا : بعد وفاة (زويمر) ببضع سنوات ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الطب الطبيعى يقول مؤلفه عن (الشهد) ما كان (زويمر) يدعيه على القرآن الكريم ، ويعقد المؤلف لخصائص (الشهد) الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجعله (صيدلية) وافية تغنى عن عشرات من العقاقير وليس المؤلف واحدا من أولئك المتطببين الجهلاء بل هو الدكتور

(جارفس) الطبيب المتخرج من مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية العديدة وهو لا يعلل فائدة (الشهد) فى العلاج (بالبركة) ولا بالتأثير النفسانى المستمد من العادة ولا بالتغذية الصالحة التى تعمل عمل الدواء وإن لم يحسبها الأطباء من الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التى تحدث الأمراض أو تضاعف أضرارها . ويقول فى تمهيدات فصل مطول كتبه عن (الشهد) خاصة : أنه لا يتكلم عن نظرية معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التى أثبتت أن (البكتريا) لا تعيش فى (الشهد) لاحتوائه على مادة (البوتاس) وهى تحرم (البكتريا) تلك الرطوبة التى هى مادة حياتها .

قال : أن الدكتور (ساكيت) أستاذ البكتريا بكلية الزراعة فى (فورت كولتد) وضع أنواعا من جراثيم الأمراض فى (قوارير) مملوءة بالعسل الصرف فماتت جراثيم (التيفود) بعد ثمان وأربعين ساعة ... وماتت جراثيم (النزلات الصدرية) فى اليوم الرابع ... وماتت جراثيم (الدوسنتاريا) بعد عشر ساعات ... وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات .

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية الموفورة فى (الشهد) فذكر منها الأغذية المعدنية وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل فى تركيبه ، ونقل تقرير الأستاذ (شويت) العالم الكيماوى الذى يقول فيه : أن الأغذية المعدنية تختلف باختلاف ألوان (الشهد): فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر فى (الشهد) الضارب إلى السواد ... والحديد ضرورى لاتصاله بالمادة الملونة للدم أو الهيموجلوبين ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب كما جاء فى القرآن الكريم وهو يشير إلى اختلاف ألوانه وما احتوته من أسباب الشفاء ، ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية فى (الشهد) فعدد منها :

١ – أنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .

٢ – أنها سريعة التمثيل فى البنية .

٣ – أنها تتحول سريعا إلى طاقة بدنية .

٤ – أنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة .

٥ – أنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .

٦ – أنها مهدئة ملطفة .

٧ – أنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلا عن سهولة الحصول عليها .

ومضى الطبيب فى خصائص (الشهد) النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ولم يذكر فى سائر الفصول دواء (طبيا) آخر له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل .

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعى تذكرت كلمة (زويمر) عن الآية القرآنية ووجدتها مثالا أصلح من كل مثال لابراز (عقلية المبشر) بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة مع عيوب الغباوة والغى فى كثير من الأحيان ولاح لى أن نصيب (زويمر) من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته فى ميدان التبشير إلا أنها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أوفى منها لو أنه أراد تثبيت المسلمين على عقائد الإسلام . (انتهى كلامه)

ولا يسعنا بعد الكلام عن هذه المشاهد القرآنية الكريمة إلا أن نجمع هذه الآيات التى سبق الكلام عنها الآن لتكون صورة متكاملة أمام القارىء .

قال جل شأنه : ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون .. ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس . إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ .

لقد أفضنا فى الحديث عن هذه الآيات لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد وتقطع الطريق على كل ﴿ **أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذاعلم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ .

فليسأل الإنسان نفسه أهناك نظام يقوم بلا منظم أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد نظاما أو تشيد كونا متكاملا منسقا كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث ؟

سبحانك ربى أنت خالق كل شىء وأنت على كل شىء قدير :

يا من لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار وهو الواحد القهار .

الايجـــاد والعـــدم

وتنتقل بنا الآيات الكريمة بعد هذا إلى النهاية المحتومة والمصير المكتوب على كل إنسان فيقول تعالى : ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير** ﴾. فهذا النص الكريم ينبه ويرشد بعد آيات النعم إلى أنه لابد من المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين لذلك فإننا نرى الكتاب العزيز فى مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى ...

اسمع هذا المشهد القرآنى الذى يقول الله عز وجل فيه :

﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ .

وبعد هذا إلى المصير المحتوم الذى لابد من أن نلاقيه جميعا فقال عز شأنه :

﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى يوم يتذكر الإنسان ما سعى** ﴾ ثم انتقل معى إلى مشهد قرآنى آخر يزيد المعنى توكيدا حيث يقول الله جل شأنه :

﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه .. أنا صببنا الماء صبا .. ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ .

ثم ينبه بعد ذلك إلى ما سنلاقيه جميعا فيقول جل شأنه :

﴿ **فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ .

وهكذا أيها القارىء الكريم يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت فهى مولية وأن الحياة مهما طالت فإنها منتهية . فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر :

﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير** ﴾ .

فالله تعالى يخبر فى هذه الآية الكريمة عن تصرفه فى عباده وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ثم بعد ذلك يتوفاهم ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم وهو الضعف فى الخلقة كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾ .

وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة وفى هذا السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ولهذا قال : ﴿ **لكى لا يعلم من بعد علم شيئا** ﴾ أى بعدما كان عالما أصبح لا يدرى شيئا .

روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : « **أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات** » .

عـود إلى أدلـة التوحيـد

بعدما قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق جاءت الأدلة السابقة : ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم** ﴾ لتبين أن المصير فى النهاية إلى الله الخالق العظيم ، ثم عاد النظم الكريم يحدثنا عن القضية الأصلية الأساسية التى تدور حولها الأدلة ، وهى قضية التوحيد ، فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطابا منطقيا سديدا .

يخاطب الذين زعموا أن لله شركاء : ﴿ **سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** ﴾ فقال جل شأنه : ﴿ **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذه الآية عن جهل الضالين المضلين المشركين المارقين ويبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء وهم يعترفون أنهم عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك فقال تعالى منكرا عليهم : أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبيدكم فيما رزقناكم . وكلمة (الرزق) هنا كلمة شاملة كاملة تشتمل على كل ما يجود الله به على الإنسان وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم كما قال فى الآية الأخرى التى تطابق هذا المعنى فى ايضاح قضية الوحدانية توضيحا لا لبس فيه ولا غموض . وهذه الآية فى سورة (الروم) حيث يقول جل شأنه :

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء . تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ .

وقد بلغ من روعة القرآن وعلو طبقته أن آية (الروم) هذه جاءت عقيب عقد فريد انتظم عديدا من الأدلة على الوحدانية مثله فى ذلك كمثل آية (النحل) التى نحن بصدد الحديث عنها .

لقد سبق آية (الروم) – السالفة الذكر – قوله تعالى :

﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون . وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ثم بعد بيان هذا الأدلة المضيئة بنور الوحدانية تأتى الآية الكريمة لتخاطب كل من له عقل وإدراك فيقول : **﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ .**

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتساوى معك فى رزقك فكيف ترضى ذلك للخالق البارىء المصور ، وكيف تدعى زورا وبهتانا أن معه من عباده من يساويه فى الألوهية والعظمة .

سبحانك ربى : يا من تقول فى الحديث الجليل : « **الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى** » نعم يارب العزة : ﴿ **فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه** سواء ﴾ .

يقول ابن عباس رضى الله عنه فى هذه الآية الكريمة : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى فذلك قوله تعالى : ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ .

ويقول ابن عباس أيضا : فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟ وقوله تعالى : ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ أى أنهم جحدوا نعمة الله فأشركوا معه غيره وكان الأجدر بهم أن يشكروا هذه النعمة بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريم سيره المبارك فيذكر لنا نعمة هى من جليل النعم التى امتن الله بها على عباده فيقول جل شأنه : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ .

أى منطق وأى عقل سليم يمعن النظر فى هذه الآية ثم لا يلقى باللوم الشديد على كل من يؤمن بالباطل ويكفر بنعمة الله ؟ فالله جل شأنه يخبر فى هذه الآية الكريمة أن من نعمه على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وأشكالهم ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته أن خلق من بنى آدم ذكورا وإناثا وجعل الاناث أزواجا للذكور . ثم ذكر جل جلاله أنه جعل من الأزواج : البنين والحفدة وهم أولاد البنين ، قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد .

قال شعبة : عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (بنين وحفدة) ، وهم الولد وولد الولد . وفى قوله تعالى : ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ إيجاز بليغ وكلمة جامعة فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التى ينعم بها الإنسان وواجبة شكر المنعم عليها :

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

يا ابن آدم :

يا من بدنياه اشتغل وغره طول الأمل
الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل

وبعد هذه النعم كلها يأتى الاستفهام الانكارى : ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ بل ويأتى عقيب ذلك قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون** ﴾ .

وقد جاء فى الحديث الصحيح : « **إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتنا عليه : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ؟** » .

وأما قوله تعالى : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ فقد جاء نتيجة لمقدمات صحيحة : إذ قد ثبت أن الله واحد أحد فلا يليق بعاقل أن يضرب له الأمثال ويجعل له الأشباه والأنداد لأن ما سوى الله تعالى إنما هو مخلوق له فكيف يكون المخلوق شبيها بالخالق ؟

الضلال كله أن يحب الناس خمسا وينسون خمسا : يحبون المخلوق وينسون الخالق . ويحبون المال وينسون الحساب . ويحبون القصور وينسون القبور . ويحبون الدنيا وينسون الآخرة . ويحبون الذنوب وينسون التوبة .

ابن آدم :

أنت الذى ولدتك أمك باكيا والناس حولك يضحكون سرورا
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكا مسرورا

﴿ **إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

إيضاح وتبيين

لما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا بل هى أعظمها جميعا فإن القرآن الكريم أورد كما كبيرا من الأدلة وأراد أن يزيدها إيضاحا وتقريرا فضرب مثلين إذ بالمثال يتضح المقال .

قال جل شأنه : ﴿ **ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهوى ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون . الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه**

لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم . ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

معنى المثل :

ضرب الله مثلا لكل ما يعبدون من دون الله فى أى زمان أو مكان : (والله تعالى هو الواحد الخالق البارىء فاطر السموات والأرض واهب الوجود والمنعم بكل شيء موجود) ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لمالكه وهو لا يقدر على شيء أبدا فلا ينفع نفسه ولا غيره وحرا رزقناه منا رزقا حسنا وأعطيناه مالا وفيرا فهو ينفق من المال سرا وجهرا فى جهات الخير والبر : هل يستوى هذا العبد الذى لا خير فيه مع هذا الحر الغنى المنفق فى وجوه البر والخير وهل يستوى الضار والنافع .

لا يستوى هذا وذاك أبدا ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله وتباركت أسماؤه صاحب النعم وله ملك السماوات والأرض يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء الحمد لله والثناء الجميل والشكر الجزيل لله الواحد القهار المنعم بجلائل النعم والمتفضل بدقائقها لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع .. هو المستحق وحده الحمد والثناء لا إله إلا هو : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى لا يعلمون الحق فيتبعوه ويعرفوا المنعم عليهم بالنعم الجليلة فيخصوه وحده بالتقديس والتنزيه .

ومعنى المثل الثانى : ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة وهى لا تضر ولا تنفع فقال : ﴿ **وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم** ﴾ أى عيى مفحم مقطوع اللسان أخرس لا يقدر على شيء أبدا لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق: ﴿ **كل على مولاه** ﴾ أى يقوم بحاجته ولا يؤدى عمله لنفسه فهو ثقل على قرابته هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شيء أبدا وهو كل على مولاه أينما يوجهه إلى أى جهة أخرى لا يأت بخير قط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له .. هل يستوى هذا الذى وصفناه بهذه الأوصاف والذى يأمر بالعدل ويسير بالعدل ويحكم بالعدل ، ويأمر بالعدل وينطق ويفهم ويتصرف على أتم وجه وأكمله وهو على صراط مستقيم ودين قويم وسيرة صالحة لا افراط فيها ولا تفريط .

والنتيجة :

نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن يتساوى مع الله فالله واجب الوجود لذاته وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب له كل كمال يليق بذاته وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه الحدوث ، وواجب له الوحدانية فاستحال فى حقه الشرك والتعدد ووجبت له القدرة فاستحال عليه العجز ووجبت له الارادة فاستحال فى حقه القهر والجبر ، ووجب له العلم فاستحال فى حقه الجهل ، ووجبت له الحياة فاستحال فى حقه الموت ، ووجب له السمع والبصر فاستحال فى حقه الصم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى فاستحال فى حقه البكم وغاية الأمر أن كمالات الله لا تتناهى لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد : ﴿ **قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفو أحدا** ﴾ .

مع القــدرة الباهــرة والعلــم المحيــط

وبعد الحديث عن الوحدانية ينتقل بنا النظم الكريم إلى الحديث عن العلم المحيط والقدرة الباهرة فيقول جل شأنه : ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير** ﴾ .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظيم قدرته على الأشياء فهو تعالى يعلم غيب السموات والأرض وأنه مختص بعلم الغيب لا شريك له فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلع الله من يشاء على ما يشاء قال جل شأنه : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول** ﴾ .

أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ أى فيكون ما يريده سبحانه كطرف العين . وهكذا قال ههنا :

﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير** ﴾.

وكما قال : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾ .

هـــذا خلـــق الله

عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم وقدرة الله الذى أنزل القرآن وعلى صدق سيدنا محمد ﷺ الذى بعث بالقرآن ، فإن الأطوار التى يمر الإنسان بها فى الرحم عديدة ومختلفة . يقول سبحانه :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : **﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾** فما هو الرحم .

يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : أنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ثم يذكرون أبعاده فيقولون أن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات ، والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم قرارا مكينا حيث يقول جل شأنه :

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ﴾ هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : **﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾** .

فلينظـــر الإنســـان مم خلـــق ؟

مم خلقنا ؟

من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر فى الثانية الواحدة اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان .

فكيف حالنا فى عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها وقد أمدنا الله بالأوكسيجين اللازم وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفا ولا شتاء وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو فى الأرحام خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية..

فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق ضيق دقيق ؟

ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج أمر الرحم أن تتقلص عضلاته حيث أصبح الإنسان ضيفا ثقيلا عليه فتقلصت العضلات فعبر الإنسان هذا المضيق الدقيق ، والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : ﴿ **من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره** ﴾ .

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟

يقول عز وجل : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ وبنظرة فاحصة فى قوله تعالى : ﴿ **لا تعلمون شيئا** ﴾ تفيد نفى العلم بالكلية إذ يقول علماء اللغة أن النكرة فى سياق النفى : تفيد العموم ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل انعامه وتفضله ولنقابل هذا بالشكر والشكر لله : أن تسخر نعم الله فى طاعته وأن لا تستعملها فى معصيته .

قال موسى عليه السلام لربه : (يا رب كيف أشكرك ؟ قال : يا موسى تذكرنى ولا تنسانى : إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى) وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ **فاذكرونى اذكركم واشكروا لى ولا تكفرون** ﴾ .

وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز فى يديه وهو يردد بلسانه قائلا : (الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه) فقال له الرجل : فمن أى شىء عافاك ؟ قال له : (وهب لى قلبا ذاكرا ولسانا شاكرا) ثم أنشد يقول :

وحمـدت الله ربى إذ هـدانى ... إلى الإسـلام والديـن الحنيـف
فيذكـره لسـانى كل وقـت ... ويعرفـه فـؤادى باللطيـف

عالـم الطـير

وينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى آية المشاهدة لتدل على عظمة الإله الخالق المهيمن من أن تلك الآية هى عالم الطير حيث يقول جل شأنه : ﴿ **ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾.

يقول المفسرون فى هذه الآية الكريمة : ينبه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى وجعل فيها قوى تفعل ذلك وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها كما قال تعالى فى

سورة الملك : ﴿ **أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير** ﴾ .

وأعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير فقد نطق العلم مخبرا عن هذه الأسرار : كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته ، هذه الدنيا التى يعيش فيها ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون أن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافا كبيرا عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات مما يؤكد دقة المرمى، ويظهر حسن القصد ويوضح جميل الصنع إذ تميد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلا من الفم ، والشفتين والأسنان عند سائر الحيوان إذ يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها : فالطيور الجارحة كالبوم والحدأة ذات منقار قوى مقوى حاد على شكل خطاف وذلك تمزيق اللحوم . بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء . وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذاا لغرض . بينما منقار البجعة مثلا طويل طولا ملحوظا ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب أعد باتقان للبحث عن الحشرات والديدان والتى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم أنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب فلما لم يعط أسنانا فقد خلقت له حويصلة مقانصة تهضم الطعام .

ويلتقط الطير موادا صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى من الذى هيأ لعالم الطير هذا النظام وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة كما قال سيد المرسلين ﷺ : « **لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا** » هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والاتقان الحكيم ؟

﴿ قال فمن ربكما ياموسى؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى
قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى
الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به
أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ .

الفصل التاسع

القول الحق

ما زال الحديث يدور حول الرد التفصيلى على ما جاء فى تلك الرواية (أولاد حارتنا) .

قال كاتب الرواية : كان مكان حارتنا خلاء فهو امتداد لصحراء المقطم الذى يربض فى الأفق ولم يكن فى الخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى كأنما يتحدى الخوف والوحشة وقطاع الطريق . وذات يوم استدعى سيد البيت أبناءه إلى حجرة الجلوس بالطابق السفلى وجاء أبناؤه جميعا : إدريس وعباس ورضوان وجليل وأدهم مرتدين حللهم الحريرية ويخبرهم أنه رأى من الأفضل أن يعهد بإدارة الأوقاف إلى شخص آخر غيره وظن الجميع أنه سيعهد بها إلى إدريس ابنه الأكبر ولم يشك أحد فى ذلك .

لكن المفاجأة أن الجبلاوى يختار أدهم بدلا من إدريس ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ . ويثور إدريس ويحتج بأنه أكبرهم ولكن الأب يؤكد له أن اختياره لصالح الجميع : ﴿ **قال إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ .

ويقول إدريس : (إنى واخوتى أبناءهانم خيرة النساء ، أما هذا فابن جارية سوداء) ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ . ويرد الجبلاوى بعد أن يأمر إدريس بالتزام الأدب بأن أدهم يعرف المستأجرين ومعظم أسمائهم وعلى علم بالكتابة والحساب ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة** ﴾ .

وتثور ثائرة إدريس وينفجر قائلا : أى نوع من الآباء أنت ؟ خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا ونحن ابناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين .

والحق أنه لم يبد من الأب قبل هذا اليوم ما ينم عن التحيز فى معاملته لأبنائه حتى إدريس على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى اللهو لم يسىء قبل ذلك اليوم إلى أحد من اخوته كان شابا كريما حلو المعشر (هنيئا لإبليس دفاع الأستاذ عنه) .

وينتهى الموقف بطرد إبليس من البيت بينما يتولى أدهم إدارة الوقف : فكان أدهم يذهب كل صباح إلى مكتب الوقف فى الحديقة المجاورة للبيت الكبير يعمل بجد واجتهاد يجمع الايجار من المساكن ويوزع الأسهم على المنتفعين ثم يعرض الحسابات على أبيه . ويتعلق قلب أدهم بفتاة فى البيت الكبير هى أميمة ويتم زواجهما . أما إدريس فيدخل فى حالة شبه دائمة من السكر والعربدة على مقربة من البيت الكبير ويرسل لعناته فى الهواء ويفاجىء إدريس أدهم بزيارة أثناء عمله ويطلب منه أن يسدى إليه معروفا هو أن يطلع على ما دون الأب (الجبلاوى) فى الكتاب السرى ثم يخبر إدريس إن كان له نصيب فى الوصية أم لا حتى يعرف مستقبله . ويظل إدريس يغرى أدهم مظهرا له الود وصدق النية والاخلاص ويستعطفه ولكن أدهم يستنكر أن يقوم بعمل مثل ذلك لأن الجبلاوى حرم على الجميع أن يقتربوا من الحجرة الصغيرة التى تحتوى على الكتاب السرى والملحقة بغرفة نومه ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ ولكن أميمة تعلم بالأمر وتظل تحرض زوجها على أن يفعل ذلك وتزينه له باعتباره لن يضر أحدا بينما سينتفع به إدريس فيعلم ماذا ينتظره وسيعلم كذلك أدهم وأميمة ماذا سيكون نصيبهما .

ويظل أدهم فريسة للتردد إلى أن يقدم على هذا الأمر وينتهز فرصة عدم وجود أبيه ويتسلل إلى الحجرة الصغيرة الداخلية بينما تنتظره أميمة بالمصباح فى الخارج .

وقبل أن يتمكن أدهم من قراءة محتوى الكتاب السرى يفاجئه أبوه ويمسك به متلبسا ويعرف منه أن إدريس هو الذى أغراه بارتكاب هذا الخطأ .

وينفتح باب البيت الكبير ولكن هذه المرة لكى يكون الطرد من النعيم إلى الشقاء الخارجى من نصيب أدهم وأميمة (إخراج آدم وحواء من الجنة بعد المعصية) .

ويقيم أدهم وأميمة فى كوخ صغير خارج البيت الكبير وإلى جواره كوخ مماثل شيده إدريس لنفسه عند طرده وعاش فيه مع زوجته . ويفطن أدهم إلى أن إغراء إدريس له كان مكيدة لكى يطرد هو الآخر من البيت ويكونا سواء بعد أن فضله الجبلاوى عليه .

ويسعى أدهم لكسب قوته وقوت أسرته على عربة يد يبيع فيها الخيار وأصبح له ابنان : قدرى وهمام . ولأن قدرى ورث عن عمه إدريس صفاته الذميمة بينما يتصف همام بالصفات الطيبة .

وتتكرر المأساة حينما يرسل الجبلاوى أحد خدمه إلى بيت أدهم يخبرهم فيه أنه قرر أن يعيش همام مع جده وينعم بالسعادة فى قصره .

وتدب الفتنة حينما يرفض قدرى تمييز جده لأخيه همام واختياره وحده لهذا النعيم ويحرض إدريس قدرى على هذا التمرد .

وتصل الغيرة والنزاع بين قدرى الشرير وهمام الطيب ذروتها عندما يقتل قدرى أخاه ويدفنه فى الصحراء : ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين** ﴾ .

ويفر قدرى بعد ذلك مع هند ابنة إدريس ثم يعودان بعد زمان إلى الحارة ومعهما أولاد كثيرون من نسلهم جاءت الأجيال التالية .

حقيقـة استخــلاف آدم

الكاتب فى السطور الماضية يتحدث عن استخلاف الله تعالى آدم فى الأرض ونراه قد افترى على الله كذبا بل افترى على إبليس نفسه عندما ذكر أنه قد تجرأ على الذات الإلهية ، وفى نفس الوقت أثنى على إبليس الذى رمز له بإدريس ثناء جميلا فهنيئا لإبليس بهذا الثناء ثم افترى على آدم كذبا بأن جعل منه بائعا متجولا يبيع الخيار ، ثم تحدث عن قصة ابنى آدم الذى رمز لهما بهمام وقدرى إلى غير ذلك من الافتراءات التى تناقض ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . ولكى نبين وجه الحق وأصل الحقيقة فلابد أن نعرض ما جاء فى كتاب الله تعالى عن قصة استخلاف آدم وموقف إبليس منه ثم نتبع ذلك بقصة ابنى آدم قابيل وهابيل .

قصـــة استخـــلاف آدم

﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ .

للقصة فى القرآن العظيم أهداف عليا وأغراض عظمى ، ففيها إثبات النبوة للنبى الأمى صلوات ربى وسلامه عليه . وفيها وسيلة من وسائل التربية الناجحة . وفيها كما قال مولانا لحبيبه ومصطفاه : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ فإذا ما أردنا تفصيل ما أوجزنا ألفينا أن فى القصة ما يدل دلالة قاطعة ساطعة على أن هذا النبى صادق كل الصدق مؤيد كل التأييد فى نبوته . فمن الذى أخبره بقصص الأولين ولم يكن معهم فى

أوطانهم ولم يعاصرهم فى أزمانهم ، ولم يذهب إلى معلم ولم يختلف إلى معهد ؟

ومن ثم فإننا لنرى كثيرا من القصص القرآنى يختم بما يدل على هذا فبعد الفراغ من قصة نوح نقرأ قوله تعالى : ﴿ **قيل : يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ يتوجه الخطاب بعد ذلك من رب العزة إلى صاحب الرسالة العصماء فيقول له مولانا : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ .

فإذا ما انتقلنا إلى قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وتحركنا مع أهدافها من بلد إلى بلد ومن حدث إلى حدث ، وواكبنا وقائعها ألفينا أن الله تعالى وجه الخطاب أيضا لحبيبه ومصطفاه بعدما ختم القصة بقوله جل شأنه حكاية عن يوسف : ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾ .

توجه الخطاب الربانى إلى النبى الأمى قال تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ ثم يختتم السورة الكريمة بما يفيد إثبات نبوة المصطفى فيقول سبحانه : ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ .

فإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى المذكورة فى سورة طه نرى أن الله تعالى بعد ختامها وجه خطابه إلى حبيبه ومصطفاه فيقول له : ﴿ **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا** ﴾ .

وإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى فى سورة القصص وجدنا أن الله جلت قدرته وعظمت حكمته يوجه الخطاب فى نهايتها إلى مبعوث العناية الإلهية فيقول له : ﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ﴾ .

فإذا ما انتقلت إلى قصة آل عمران وجدنا أن الله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله فيقول له : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم . وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ فمن الذى أوحى إلى نبيه بأنباء الغيب ، إنه العليم

الخبير ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك** ﴾ . والوحى دليل النبوة : ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا** ﴾ .

قال تعالى مخاطبا شمس الهداية الربانية: ﴿ **وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا** ﴾ ولحكمة ما أرادها الله أنه تعالى جعل الأمية آية وكمالا لرسوله الكريم . قال تعالى : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ حتى لا يقول جاحد كنود أو كافر عنيد أو معتد أثيم أن محمدا قرأ الكتب السابقة ووعى ما فيها ثم أداها كما قرأها . والتاريخ يشهد والحقائق تؤكد وعقول الراشدين تثبت والتواتر يروى أن محمد ﷺ قضى حياته بينهم فى مكة قبل البعثة أربعين عاما وقد جاء ذلك صريحا فى كتاب الله : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن اتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ .

فإذا ما انتقلنا إلى الغرض الثانى من القصة القرآنية وهو الجانب التربوى وهو الذى عبر عنه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾ فالقصة القرآنية مدرسة لتخريج الدعاة إلى الله ، فالدعوة إلى الله تعالى قد تكون بالقدوة الصالحة والتى بينها القرآن الكريم بيانا كافيا شافيا وحذر الدعاة أن تخالف أقوالهم أفعالهم . قال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾ .

وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب يقول لقومه : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه** ﴾ . وقال جل ذكره : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ .

وكما أن التربية تكون بالقدوة كذلك بالموعظة الحسنة ، ولابد من متابعة النفس بالموعظة ، إذ أن النفس كزجاجة اللدواء إن لم ترج قبل استعمالها ترسبت فيها العقاقير ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وإن لم يملأها شيء ملأها الهواء .

قال تعالى : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ كذلك تكون التربية بالقصة ، ويكفيك أن تأخذ مثلا على هذا قصة يوسف وما احتوته من عبرة وحكم بالغة .

فقد انتقل يوسف من بين أحضان أبيه عندما انتزعته أيدى إخوته وألقى فى غيابة الجب ثم انتقل إلى قصر العزيز واستعصم بالله واجتاز محنة المراودة ، ولم تنسه شدة السجن أن يدعو إلى ربه . وانتقل بعد ذلك إلى ملك مصر فكان على خزائن الأرض وجمعه الله بإخوته ، وكانت هناك أحداث ومباحثات إلى أن جمع الله شمل الأسرة ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا . وهكذا تكون التربية باستنباط العبر وتكون الدعوة باستخلاص الدروس . نعم لقد كان فى قصصهم عبرة .

كذلك تكون التربية والدعوة بالتعليق على الأحداث الجارية على وجه الأرض أولا بأول بحيث يضرب الداعية والحديد ساخن . كذلك تكون التربية بتطبيق العقوبات على الذين لا تردعهم الحجج الساطعة ولا البراهين القاطعة وقد جمع الله الفريقين فى قوله : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** ﴾ . فالناس قسمان : قسم تكفيه الحجة والبرهان ، وقسم : ﴿ **وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا** ﴾ . ﴿ **يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ هذا القسم يردع بالعقوبة حتى لا تنتقل عدواه المدمرة إلى غيره من أصحاب العقول الرشيدة .

أما الغرض الثالث من أغراض القصة القرآنية فهو تثبيت النبى وتصبيره على ما يلاقيه من أذى قومه . وقد جاء مصداق ذلك فى سورة هود ، فبعد ما قص الله عليه قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى ، قال الله له فى نهاية السورة : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ .

وفى هذا المجال يقول سبحانه لصفوة خلقه : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾ . ويقول جل شأنه : ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك** ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التى كانت تنزل على قلب رسول الله ﷺ بردا وسلاما

تخفف عنه ما يلاقيه من أذى قومه وعنادهم وحرصه على هدايتهم . قال تعالى : ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون** ﴾ .

ولنأخذ الآن فى تفسير قصة آدم : فإنه تعالى لما امتن على عباده بنعمة الخلق والايجاد فى قوله جل شأنه : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم** ﴾ بين لهم بعد ذلك تشريفه لأبيهم الذين جاءوا من صلبه وكيف ذكره فى العالم العلوى والملأ الملائكى ، وأنه تعالى لما خلق لنا ما فى الأرض جميعا وسخر لنا ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه امتن على أبينا آدم بالخلافة ليقيم العدالة على وجه الأرض ويطبق أحكام الله بدقة . وليس ثمة أدنى شك فى أن تشريف الآباء تشريف للأبناء ، وأن التنويه بشرف الأجداد فيه شرف للأحفاد فكان بين الآيات تمام ارتباط وقوة صلة : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة** ﴾ تقديره : اذكر لقومك يا محمد ما قاله ربك صاحب الإنعام والإكرام المربى عباده على كرمه ورزقه . ماذا قال ؟

إنه قرار إلهى لا يقبل النقض : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ أى يقوم بتطبيق أحكام الله ونشر الهدى والرحمة والعدل بين أهل الأرض . أو إنى جاعل فى الأرض أقواما يخلف بعضهم بعضا . فالمعنى الأول من باب قوله جل شأنه : ﴿ **يا داود : إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهدى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ .

والمعنى الثانى من باب قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض** ﴾ يفيد أنه خلق لعمارة الأرض ولو دخل الجنة فإنما يدخلها لحكمة بل لحكم . من تلك الحكم أنه سيأكل من الشجرة ثم يتوب فيتوب الله عليه كذلك أبناؤهم يخالفون ثم يتوبون . ففعل الله منزه عن العبث ثم يعود هذا المخلوق إلى الأرض فيعمرها وتعمرها أبناؤه من بعده . قال : ﴿ **فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : عجبت لابن آدم يتكبر على وجه الأرض وهو حفنة من ترابها وكيف يتكبر وهو الذى تنتنه عرقه وتؤذيه بقه وتقتله شرقه ؟ أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة :

يا مدعى الكبر اعجابا بصورته … انظر خلالك إن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم … ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا … أكثر فإنك مأكول ومشروب

كيف تتكبر يا ابن آدم والقبر يناديك كل يوم : يا ابن آدم لا تتكبر على ظهرى لأننى غدا سأضمك فى بطنى .

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه وأين المباهى إذا ما افتخر
تساووا جميعا فى مخبر وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضوا أما لك فيما مضى معتبر ؟

فماذا قالت الملائكة فى هذه الحضرة الإلهية المقدسة ؟ ﴿ **قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ .

إن هذا الاستفهام أرادت به الملائكة أن تعرف من الله تعالى الحكمة من خلق آدم ، وهو استفهام خال من الاعتراض ، لأن الملائكة معصومون من مثل هذا . قال تعالى فى حقهم : ﴿ **بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ . وقال فى شأنهم : ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ . وإنما قالت الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ لأنها رأت ما كان يفعله الجن قبل خلق آدم من وجوه الفساد والافساد .

وقد نطق القرآن الكريم بأن الجن خلقت قبل آدم . قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾ (من قبل آدم) . فقاست الملائكة هؤلاء الذين سيخلقون على الذين خلقوا من قبل . قالت الملائكة لرب العزة : ﴿ **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ التسبيح هنا المراد به التنزيه .. ومعنى التسبيح بالحمد أى نسبح تسبيحا مقترنا بالحمد فنقول : (سبحان الله وبحمده) . والتقديس هو التعظيم والتطهير . ولتسبيح الله فضل عظيم عند الله ، قال النبى ﷺ : « **الحمد لله تملأ الميزان . وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض** » .

ولذا جاء التسبيح فى القرآن الكريم بصيغ مختلفة : جاء بصيغة الماضى : ﴿ **سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض** ﴾ . وجاء بصيغة الأمر : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ . وجاء بصيغة المصدر : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾ . وجاء بصيغة الصفة : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ .

قال لهم مولانا جل جلاله : ﴿ **إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ أى إن فى علمى من الحكم البالغة ما لا تعلمون أنتم ، فإن فى ذرية هذا المخلوق خلقا لو علمتموهم لعلمتم أن فعلى كله خير ، فإن منهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . إن الملائكة دائما مطبوعة ومجبولة على طاعة الله . قال النبى ﷺ : « **أطت السماء أطاً وحق لها أن تئط . ما من موضع قدم فى السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع ، أو ساجد لله ثم يقولون : وعزتك وجلالك**

ما عبدناك حق عبادتك ، والتسبيح عندهم كالتنفس عندنا». ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ .

وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف خليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعل عمر ، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور . ويجب أن يكون الخليفة ذكرا حرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء . ولما كان آدم عليه السلام جديرا بالاستخلاف في الأرض وتعميرها فقد أراد ربك أن يظهر فضل آدم ويبين شرف آدم واستحقاقه بالخلافة قال تعالى : ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين** ﴾ . ومعرفة الأسماء لها من الغايات السامية والأهداف العالية ما لها . فلولا أن الله تعالى سمى الأسماء بأسمائها وجعل الأسماء علامة عليها لتوقفت مصالح البشر وما استطاعوا أن يتعاملوا فيما بينهم . فخبرني بربك لو لم نعلم أسماء الأشياء كيف كنا نتعامل ؟ فإذا كنت تريد مثلا أن تبيع فرسا وأنت لا تعرف اسمه أو تريد التنزه على شاطىء النهر ، فهل كنت ستأخذ صاحبك حتى تريه الفرس وتقول له : أريد بيع هذا ؟! وإن كنت تريد رغيف عيش وأردت ابنك أن **يشتريه** فماذا كنت تقول ؟ أو كنت تريد السفر إلى بلد ما مع أحد الأصدقاء وسألك أين تريد الرحيل وأنت لا تعرف اسم البلد فماذا كنت تقول له ؟ أعلمت لماذا علم الله آدم الأسماء كلها ؟ وعلمت قيمة العلم ومكانته ؟ العلم نور ، والعلم أفضل من المال لأنه يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلماء ورثة الأنبياء : ﴿**فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما . قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال : إنك لن تستطيع معي صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال : ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا** ﴾ . إن الملائكة وهم عباد مكرمون ، لا يستطيعون عمارة الأرض . أليست عمارتها قائمة على الزراعة والتجارة والصناعة والأسفار والتزاوج والتكاثر والمأكل والمشرب والملبس والتنقيب عما في باطن الأرض ؟ وليست كل هذه الأشياء من خصائص الملائكة ، فإنهم لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينامون ، ولا يتزوجون ، ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة بل يسبحون الليل والنهار لا يفترون . شهيقهم وزفيرهم : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله

والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ومن ثم فإن المكلف بمعرفة الأسماء هو آدم لأنه سيتعامل معها . وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعرض الله المسميات على الملائكة . ويقول لهم : انبؤنى بأسماء هذه المسميات ولا يسع الملائكة إلا أن تعترف بالعلم كله لله فتنزه الله التنزيه الذى يليق بذاته قائلة: ﴿**سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾ وحدك الذى أحاط علمك بكل شىء فقد وسعت كل شىء رحمة وعلما ، وأنت (الحكيم) الذى تضع الأشياء فى نصابها والنقاط على حروفها وتسمى الأشياء بأسمائها . فالعبث عليك محال يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . وهنا قال الله تعالى : ﴿ **يا آدم أنبئهم بأسمائهم** ﴾ أى أخبرهم بها فأنبأهم بها آدم كما علمه الله تعالى . فقال لهم المولى جل جلاله : ﴿ **ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض** ﴾ أى ما غاب عنكم فى السماوات والأرض فهو سبحانه وتعالى علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾ بل إنه تعالى يعلم القول : ﴿ **قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ أى أعلم ما تظهرونه بقولكم : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾ وما كنتم تكتمونه فى أنفسكم من أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يخلق آدم ويجعله خليفة فى الأرض ينشر العدل ويقيم أسس الحق . أما قوله تعالى : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أى فى قولكم : إن الله لن يخلق أعلم منا ، فقد كان آدم أعلم عندما أنبأكم بأسماء المسميات . وجلت حكمة الله فبدأ عمارة الأرض بآدم ثم خلق حواء فأصبحا زوجين وأنجبا من الذرية ما بلغ اليوم أربعة آلاف مليون من البشر ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾ .

آدم وزوجه والملائكة وإبليس

﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا : اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى**

فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

ولنأخذ الآن فى المعنى الذى تدور حوله الآيات . قال تعالى : **﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾** المعروف أن آدم خلق من طين وأن الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة وقدأقسم الله بهم فى بعض الآيات كما فى قوله جل شأنه : **﴿ والصافات صفا . فالزاجرات زجرا . فالتاليات ذكرا ﴾** . وفى قوله جل شأنه : **﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا ﴾** .

وفى قوله جل شأنه : **﴿ والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا ﴾** وقد جبلت الملائكة على الطاعة كما وصفهم الله جل شأنه فى قوله : **﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون ﴾** . والتسبيح عندهم كالتنفس عندنا : **﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾** أى لا يضعفون ولا يملون ولا يسأمون . قال تعالى : **﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسأمون ﴾** . وأما إبليس فقد خلق من نار وهو أصل الجن وقد صرح بذلك الكتاب الكريم فى قوله جل شأنه : **﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾** وليس إبليس ملكا لأن الملائكة لا تتزوج ولا تتناسل ولا يوصفون بذكورة أو أنوثة . أما إبليس فله ذرية لأنه متزوج . قال تعالى : **﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ﴾** والملائكة لا تعصى الله تعالى لأنهم فطروا على الطاعة وإبليس قد أبى وعصى واستكبر وكان من الكافرين . والآية التى بين أيدينا قد جمعت ثلاثة نماذج من المخلوقات : آدم والملائكة وإبليس . وقد أخبر الصادق المعصوم عن الملائكة بأنهم يأمرون بالخير . أما الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر .

روى الترمذى بسنده إلى رسول الله ﷺ : « **أن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاز بالشر وتكذيب بالحق . وأما لمة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ومن وجد الآخر فليتعوذ الله من الشيطان ثم قرأ : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾** » . واللمة : الالمام والاصابة .

أما السجود فقد يراد به التحية ويراد به العبادة وقد يكون من العقلاء وغير العقلاء من مخلوقات الله . وقد اجتمع النوعان فى قوله تعالى : **﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى**

السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ .

ولقد كان السجود لآدم سجود تحية وإكرام لا سجود عبادة وتقديس . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك فقال : « **لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله عليهن من الحق** » .

أما الملائكة فقد أطاعت ربها وسجدت سجود التحية لآدم تلبية لأمر الله . أما إبليس فقد استكبر على أمر الله وأبى أن يطيعه وركب رأسه عنادا وجحودا فصار بذلك من الكافرين واستعمل القياس الفاسد فقال : أنا خير منه ثم أراد أن يستدل على تلك الخيرية فجمح به خياله العقيم حيث قاس عنصرا على عنصر وظن أن الخلق يتفاضلون بالعناصر ونسى أن الميزان العادل الذى توزن به كرامات الخلق التقوى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « **أن الله تعالى يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم . أين المتقون . أين المتقون** » .

لقد غفل إبليس عن حقيقة المعصية فلا تنظر إلى المعصية من حيث أنها معصية ، فحسب إنما انظر إليها من حيث من تعصيه . لقد أمرك الله أن تسجد فكيف تنصرف من طاعة الأمر إلى البحث فى العناصر . قال ﷺ : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه حبة من خردل من كبر** » .

قيل لبلال بن رباح : يا بلال ابن من أنت ؟ فقال : أنا ابن من أسجد الله له الملائكة . وقيل لسلمان الفارسى : يا سلمان من أبوك ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أنا ابن الإسلام ، فلما بلغ ذلك القول أمير المؤمنين عمر صاح قائلا : وأنا ابن الإسلام وأنا ابن الإسلام وأنا ابن الإسلام .

وهكذا كرم الله آدم بسجود الملائكة له كما كرمه من قبل بجعله خليفة فى الأرض وتعليمه الأسماء كلها وسيكرمه بعد ذلك بسكناه الجنة فإلى هناك :

﴿ **وقلنا : يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ وهذا تكريم وتعظيم لآدم وذريته . قال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ . وجلت حكمة الله أن يقول لآدم اسكن ولم يقل له خالدين فيها لأن آدم خلق للأرض وتعميرها فلا مفر من عيشه على ظهرها وقال له : أنت وزوجك وهذا دليل على

أن صلة الرجل بالمرأة لا سبيل لها إلا الزواج وليس هناك من سبيل آخر إذا لم تكن محرما له .

والجنس فى الإسلام قد أحاطه الله بالرعاية والعناية والصيانة حيث قال جل شأنه فى وصف المؤمنين : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ ثم أغلق الباب أمام أى طريق آخر فقال : ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ وليس فى الإسلام ما يسمى عشق أو عشيقة . قال تعالى فى صفة المؤمنين : ﴿ **محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان** ﴾ . وقال فى وصف المؤمنات : ﴿ **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾ ومن ثم فإن الخطاب الذى وجه إلى آدم بالسكن له دلالته إذ أن الخطاب لم يأت بضمير التثنية فلم يقل مولانا : ويا هذان اسكنا الجنة إنما جاء موجها إلى آدم أصلا ثم عطفت عليه زوجه تبعا بمعنى أن المرأة مسئولة من زوجها وأن زوجها مسئول عنها من حيث الرعاية والنفقة وحقوق الزوجية . وقد جاءت الحكمة واضحة فى قوله جل شأنه : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** ﴾ فتأمل قوله جل شأنه : ﴿ **فتشقى** ﴾ ولم يقل فتشقيا بعدما قال : ﴿ **يخرجنكما** ﴾ فقد ثنى الضمير فى النهى عن الاخراج وأفرده حيث وقوع الشقاء ، لأن الشقاء فى الدنيا سيكون على رأس الرجل أما المرأة فهى مستقرة فى بيت زوجها . أما الرجل فهو الذى سيضرب فى مناكب الأرض سعيا وراء القوت لا سيما إذا غدا القوت فى يد الناس كالياقوت . وجاء بعد ذلك الضمير مفردا كذلك فى قوله جل شأنه: ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ وتأمل حكمة العليم الحكيم حيث جمع بين الجوع والعرى وبين الظمأ والحر وقد يبدو الأمر لأول وهلة فى صورة أخرى فللسائل أن يقول : لماذا لم يجمع بين الجوع والظمأ وبين العرى وحر الشمس ؟ لكن حكمة الحكيم اقتضت أن يكون هناك جمع بين الجوع والعرى لأن الجوع يفقد الجسم حرارته حيث تكون طاقة الطعام قد تبددت والعرى يزيد الإنسان جوعا فناسب أن تكون الصورة على هذه الكيفية من شدة المعاناة جوع يصاحبه عرى وعرى يسبب شدة البرد وجوع يفقد الجسم طاقته فتأتى الصورة فى أشد معانيها كذلك الجمع بين الظمأ وشدة الحر فشدة الحر تزيد الظمأ لهيبا وتزيد الكبد ظمأ فناسب أن يجمع بينهما فى آية واحدة وصدق من قال عن كتابه : ﴿ **الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم .

والزواج سنة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم . قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾ وبعد ذلك قال الله لهما : ﴿ **وكلا منها رغدا حيث شئتما** ﴾ أى أكلا هنيئا ذا سعة . وهذه منحة من الله وقد جرت سنة المولى جل ذكره أن يقرن المنحة بالمحنة ليكون العبد بين الترغيب والترهيب والخوف والرجاء فتستقيم حاله وتنتظم

خطاه . ورحم الله أصحاب رسول الله ﷺ نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، فإذا مر بآية تنذر بعذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

وهل سلم الأنبياء من الابتلاء ؟ كلا لقد ابتلى نوح فى ابنه ألم يقل له : ﴿ **يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾ . ألم تعتلج لواعج الشوق فى قلب نوح فقال لربه : ﴿ **رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ . ألم يقل له ربه : ﴿ **يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين** ﴾ . ألم يبتلى إبراهيم فى ابنه بعدما من الله عليه به ؟ ألم ير فى المنام أنه يذبحه ورؤيا الأنبياء وحى . ألم يذهب بابنه لينفذ فيه أمر الله . وفى هذا يقول العلى الأعلى : ﴿ **فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى . قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ . ثم ماذا ؟ لقد أسلم الوالد وولده الأمر لله . قال تعالى : ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ . ويعقوب عليه السلام ألم يبتلى بفقد يوسف ؟ ألم يسلم الأمر لله ويقول لأولاده : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون** ﴾ . ثم ألم يبتلى يوسف بمراودة امرأة العزيز له وهو ابتلاء من أشد أنواع ما يبتلى به المرء ، ألم يقل لها يوسف : ﴿ **معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ . ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : « **رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله** » . ألم يقل يوسف لربه : ﴿ **السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه** ﴾ . ألم يبتلى أيوب فى نفسه وماله وأهله ؟ ألم يقل لربه : ﴿ **مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ . ألم يبتلى يونس ببطن الحوت ؟ ألم يقل مولانا العظيم : ﴿ **فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ فنادى فى الظلمات هذا النداء الكريم : ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت ، وظلمة فى قاع بحر زاخر متجندل : ﴿ **فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ . ألم يقل فى شأنه رب العزة : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ ولولا أن يطول الكلام ولا يتسع له المقام لقلنا فى الأنبياء جميعا ما قلناه فى هذه الكوكبة الطاهرة ويكفى أن تعلم أن سيدنا الأعظم وإمامهم الأكرم قد لاقى من البلاء ما تزول من هوله الجبال الشامخات . ألم يرم بالحجارة يوم الطائف حتى دميت قدماه . ألم يرسل برقية عاجلة إلى رافع السماء بلا عمد يطلب النجدة والمدد : « **اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين**

وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » . ألم يمت أولاده فى حياته عدا فاطمة ؟ ألم يتجرأ المنافقون عليه حتى بلغ من سوء فعلهم أنهم رموا أم المؤمنين عائشة الناسكة المحصنة العفيفة رموها بالإفك وظلت المدينة شهرا تغلى غليان المرجل حتى قال الرسول لعمر : ما تقول فى عائشة يا عمر ؟ وكان عمر معروفا بالصرامة فى الحق ، قال : يا رسول الله من الذى زوجها لك ؟ فقال الرسول الكريم : الله . قال عمر بصراحته المعهودة وهو الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه : يا رسول الله أترى أن الله دلس عليك فى زواجها ؟ وظلت المدينة فى فزع طيلة شهر . لو وضعت نفسك فى هذه المحنة ساعة لتصدع فؤادك تصدع الزجاج فما بالك بمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية والدنيا كلها تشهد من هى عائشة والعالم أجمع يعرف من أبوها إنها الصديقة بنت الصديق أنصع من ماء الغمام وأطهر من السحابة فى سمائها بهذا شهد الله من فوق سبع سموات : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ ثم لمن تقال هذه الأقوال الخبيثة إنها لا تقال إلا للخبيث . أما الأقوال الطيبة فإنها تقال للطيبين ومن أطيب من أم المؤمنين ؟ إن الطيبين مبرأون مما يقول عنهم مرضى القلوب ، قال جل شأنه : ﴿ **الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرأون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

فلا عجب أن يبتلى آدم بالنهى غن قرب الشجرة لأن الابتلاء سنة الله لمن يعش على ظهر الأرض ولمن قدر له أن يعيش عليها: ﴿**ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ .

أما الشجرة التى نهى آدم من قربها فإنها شجرة لم يرد تعيينها فى الكتاب أو السنة إنما على ما ورد فيها أقوال لم تثبت أمام البحث فمن قائل أنها شجرة الكرم أى العنب ومن قائل أنها شجرة الحنطة ، ومن قائل أنها شجرة التين ولو كان فى تعيينها فائدة لعينها الله كما عين النخلة التى أمرت مريم بهزها ولله حكمة فى عدم تعيينها حتى لا يشمئز العباد من الأكل منها فالشجرة لا ذنب لها ولا حيلة إنما كانت إرادة اختبار . وليس بصحيح ما قاله بعض الذين تعثرت أقدامهم وزلت أقلامهم وانفلت خيالهم فقال : إن المراد بها شجرة الجنس أو المقصود

بها الشر لأن اللغة لا تساعد على ذلك . فالأصل فى الألفاظ حقائقها لا مجازاتها وإنما يلجأ إلى المجاز إذا تعذرت الحقيقة بشرط أن تكون هناك قرينة مانعة من إيرادالمعنى الأصلى كقولهم سمعت بحرا يخطب ويراد به العالم ذا المعرفة الواسعة فأى مجاز فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ **فأكلا منها** ﴾ فهل يؤكل الجنس ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم اما الجنة التى كان فيها آدم فقد صال فيها العالمون وجالوا . فمن قائل أنها كانت فى السماء وأنها جنة الخلد ومن قائل أنها بستان فى ربوة عالية كذلك اختلفوا فى مكانها من الأرض ولما بحثت هذه الأقوال كلها رأيت أن القوم يضربون فى حديد بارد وسألت نفسى ما ثمرة هذا الخلاف ؟ إن الجنة التى دخلها آدم وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ فلنقف عند قول الله سبحانه وليس لنا أن نتجاوز الحدود . إنها جنة دخلها آدم وكلف فيها ألا يقرب الشجرة ووصفها الله بأوصاف خاصة . فلنؤمن بها كما وردت ولنأخذ العبرة مما حدث فيها وهذا القدر يكفينا قوله تعالى : ﴿ **فتكونا من الظالمين** ﴾ أى آدم وحواء أى من الظالمين لأنفسكما وذلك بإخراجكما من الجنة فماذا حدث ؟

﴿ **فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ والزلل معناه السقوط وذلك عن طريق الوساوس الشيطانية . قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ **ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ .

فأنت ترى فى هذه الآيات أن إبليس أقسم لآدم وقال أنى لكما من الناصحين ولم يكن آدم يتوقع أن هناك من يقسم بالله كذبا فهذا أمر عزيز على نفس آدم ، وهذا يذكرنا بما دار بين المسيح بن مريم وبين أحد اللصوص فقد رأى المسيح لصا يسرق فقال له المسيح : لماذا سرقت ؟ قال اللص : والله ما سرقت . فقال المسيح : صدق الله وكذبت عيناى قالها تمجيدا وتقديسا وتعظيما لاسم الله . وهكذا ما كان يدور بخلد آدم أن هناك من يتعرض ليمين الله بالكذب فى قراءة (فأزالهما) أى أبعدهما عن الجنة وترتب على ذلك إخراجهما منها . قال تعالى : ﴿ **فأخرجهما مما كانا فيه** ﴾ وهو تعبير موجز عن معنى كثير أى ما كانا فيه من

راحة وهناء وأكل رغد ولكنها سنة الله . وهكذا كما قال جل شأنه : ﴿ **وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾ والهبوط قد يكون من مكان أعلى إلى مكان أسفل وهذا هو الهبوط الحسى ، وقد يكون هبوطا معنويا كما قال موسى لقومه وقد قالوا له : ﴿ **لن نصبر على طعام واحد** ﴾ قال لهم : ﴿ **اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم** ﴾ فهذا هبوط من المن والسلوى إلى القثاء والفوم والبقل والعدس والبصل نعم إنه هبوط كما قال جل شأنه : ﴿ **أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير** ﴾ والمراد بمصر أى مكان ينبت هذه الأشياء أى غير هذا المكان الذى ينزل فيه المن والسلوى . قوله تعالى : ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ المقصود بين آدم وحواء وبين إبليس وذريته : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ وليس بلازم أن يكون إبليس قد دخل الجنة التى كان فيها آدم وحواء فقد وسوس لهما من خارج الجنة . قال تعالى : ﴿ **فوسوس لهما الشيطان** ﴾ وقد ذكرت فى هذا المقام أقوال من الإسرائيليات كقولهم إنه دخل فى فم الحية إلى غير ذلك مما تنفر منه العقول السليمة . ولابد لنا هنا من سؤال : كيف يقع آدم فى المخالفة ؟ وقد قال أبو ذر : أرأيت آدم أنبى كان ؟ قال : « **نعم نبيا ورسولا يكلمه الله قبيلا** » يعنى عيانا وللإجابة عن هذا السؤال أن آدم أصاب وكان وقتها ناسيا قال تعالى فى سورة طه : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما** ﴾ أى قصدا وإنما سماها الله معصية فى قوله : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ ذلك لما كان لآدم من مكانة عظيمة فحسنات الأبرار سيئات المقربين :

على قدر أهل العـزم تأتى العزائـم وتأتـى على قدر الكـرام المكـارم

لقد بلغ من مكانة آدم عند الله أن يوم الجمعة نال الكرامات لأن الله خلق آدم فيه . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها** » .

قوله تعالى : ﴿ **ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ المراد بمستقر : الاستقرار والعيش فيها . وهذا مقتضى الأمر الإلهى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ ، ﴿ **قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ والحين زمان غير محدود المقدار وهكذا نحن فى الدنيا :

﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء وما الجيل فى زمان الألبنة فى بناء وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾ . وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا** ﴾ .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

يا ابن آدم اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

يا ناظراً يرنو بعينى راقد ومشاهدا للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدم منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال تعالى : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ سبحانك ربى يا كاشف الضر والبلوى يا عالم السر والنجوى يا من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه :

أنت الذى تهب الكثير وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات

وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

لقد تاب آدم لتتوب ذريته وقبل الله التوبة حتى لا ييأس العباد من رحمة الله . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾ شاكلة العبد : المعصية ، وشاكلة الرب : المغفرة والرحمة . وقال عمر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ **غافر الذنب وقابل التوب** ﴾ . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ . قال العلماء : إن الكلمات التى تلقاها آدم مفسرة بقوله تعالى : ﴿ **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .

وقال ابن عباس : قال آدم يا رب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له : بلى . ونفخت فى من روحك ؟ قيل له : بلى عطست فقلت : يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك . قيل له : بلى وكتبت على أن أعمل هذا . قيل له : بلى قال : أرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟

وقال بعض العلماء : الكلمات هى : « **اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم** » .

قوله تعالى : ﴿ **إنه هو التواب الرحيم** ﴾ أى أنه يتوب على من تاب إليه وأناب كقوله تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه** ﴾ . وقوله : ﴿ **ومن تاب وعمل صالحا** ﴾ وغير ذلك من الآيات وبعدما أمر الله تعالى آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض مقترنا بقوله تعالى : ﴿ **بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ أعاد الأمر بالهبوط مقترنا بقوله تعالى : ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى** ﴾ . قال سبحانه : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ هذا الأمر بالهبوط اقترب بالحكم الإلهى النافذ: ﴿ **إما يأتينكم منى هدى** ﴾ وإن هنا شرطية مقترنة (بما) تقلب توكيد الفعل بعدها كما فى قوله تعالى : ﴿ **فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما** ﴾ وأما هنا جىء بها بين إن والفعل لافادة توكيد الإتيان كأنه تعالى قال : سيأتيكم منى هدى وسوف يترتب على هذا الهدى الذى قد يراد به الارشاد إلى طريق الحق من باب قوله تعالى : ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ . وقوله جل شأنه : ﴿ **إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾ . والرسل داخلون فى هذا الباب دخولاأوليا. قال تبارك اسمه : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ . كذلك قد يراد بالهدى الكتب المنزلة على الرسل وعلى رأسها وفى قمة رفعتها القرآن العظيم : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ فما الذى ترتب على اتيان الهدى ؟ قال جل شأنه : ﴿ **فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ .

تباركت ربنا وتعاليت فقد أرسلت إلينا رسلا وأنزلت عليهم كتبا وخلقت لنا عقلا ذلك كله من باب رحمتك وبرك ولطفك وأرشدتنا إلى الطريق فظهر الأمر جليا فمن تبع

هداك واتبع رسلك عاش آمنا من خوف مطمئنا لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون لا يخاف مما سيأتى ولا يحزن على ما فات : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم** ﴾ .

إن نفى الخوف والحزن نعمة لا تدانيها نعمة وطمأنينة القلب بلقاء الله هى أعظم مملكة يتربع المؤمن على عرشها ولذلك أدرك الصالحون هذا :

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا يا تقى الدين ؟ قال الحسن : يا أمير المؤمنين : صم عن الدنيا ، وافطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة . ولما حضرت محمد بن كعب القرظى الوفاة قيل له : ماذا تركت لأولادك من المال ؟ فقال : ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى . إن ابن آدم يوم يموت يصاب بمصيبتين لم يصب بهما أحد غيره . الأولى : أنه يترك ماله كله ، والثانية : أنه يسأل عن ماله كله . ومن هنا فإن التأمين الحقيقى على الحياة لا يكون بإيداع الأموال فى شركات التأمين التجارية الربوية إنما هو كما قال تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم** ﴾ ماذا يفعلون يارب ؟ قال : ﴿ **فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا** ﴾ فتقوى الله والقول السديد خير ثمرة فى خير شجرة تظلل على أبنائك بعد موتك . فصاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكأ . البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت أعمل ما شئت كما تدين تدان .

ومن أجل ذلك فإن الله يطمئن أهل الصلاح ألا تخافوا ما سيأتى ولا تحزنوا على ما فات .

أما الفريق الثانى فقوم كفروا وكذبوا بالآيات جحدوها ولم يصدقوا بها فجمعوا بين أكبر جريمتين : الكفر والتكذيب : ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ . ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ . ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

ما أقسى النار ولكن الأقسى منها هو الخلود فيها فالكرب كلما اشتد انتظر الإنسان الفرج ، والليل إذا اشتد ظلامه قرب فجره ولكن تنخلع القلوب لوعة وتسيل الكبد مرارة إذا فقد الإنسان الأمل إنهم قوم قال الله فيهم : ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم** ﴾ . وقد جاء فى سورة طه قوله جل

شأنه : ﴿ **قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ .

فانظر معى كيف جمع الله للذين اتبعوا هداه وسلكوا سبيل مرضاته جمع لهم بين سعادة الدارين : لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة وليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة أو بالاستمتاع بالغيد الأماليد إنما السعادة فى رضا الله . ولقد كان قوم من الصالحين يبيتون على الطوى ويقولون : نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف . وفى سورة النحل ما يجمع للمؤمنين بين خيرى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ **والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين** ﴾ . وقال تبارك اسمه : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ . وقال تبارك وتعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ .

وهكذا لا يضل من اتبع هدى الله فى الدنيا ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ولا يشقى فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾ . أما الفريق الثانى وهو الذى أعرض عن ذكر الله فقد حقت عليه الشقاوة فى الدنيا والآخرة فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك :

يا بارىء الكون فى عز وتمكين ... وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى ... لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾ أى يعيش فى ضيق ولو كان يملك من الأموال جبالا ومن الذهب والفضة القناطير المقنطرة ، ومن الخيل المسومة ما تضيق به أودية مكة ، ومن النساء والجوارى ما يفوق جمالهن ملكات الجمال . سوف تضيق عليه الأرض بما رحبت لأنه مثل الذى يشرب الماء الملح ولا يزيده إلا ظمأ على ظمأ تراه دائما فى

كرب إن أقبلت عليه الدنيا طلب المزيد وإن أعرضت عنه تقلب فى فراشه ليلا أو نهارا لا يطمئن جبينه فى المضاجع ولا يذوق للراحة طعما .

إن الصادق المعصوم ﷺ قال لابن عمر : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور** » . وقال لأبى ذر : ﴿ **جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر الزاد فإن السفر طويل وأخلص العمل فإن الناقد بصير وخفف الحمل فإن العقبة كئود** ﴾ ولذا كان أحدهم يقول : (حفر بئرين بابرتين ونزح بحرين بغربالين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وهش أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى) . وليت العذاب قد اقتصر على دار الدنيا إنما هو ممتد إلى دار الآخرة ﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ ، وما أدراك ما العمى فى الآخرة ؟ إنه الحيرة كلها والشقاء كله ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا** ﴾ حتى يقول العبد : ﴿ **رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا** ﴾ فيأتيه الجواب الصادق : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أخذ مضجعه لينام يقول لنفسه : ماذا تقول لربك غدا يا عمر لقد كنت ضالا فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله وكنت وضيعا فرفعك الله . وكان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا فإن مما يهون عليكم الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر : ﴿ **يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ وكان يقول : « **لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخلون الجنة إلا واحدا لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد** » .

فمن يبارى أبا حفص وسيرته ... أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى ... فقومى لبيت المال رديها

وكان على كرم الله وجهه إذا أرخى الليل سدوله يتمثل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ اللديغ أى الذى لدغته حية ويبكى بكاء اليتيم ويقول : يا دنيا غرى غيرى ألى تعرضت أم إلى تشوقت هيهات هيهات لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك حقير آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

تزود من التقوى فإنك لا تدرى ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى

وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

تباركت ربنا وتعاليت حكمت لمن اتبع هداك بأنه لا يخاف ولا يحزن ولا يعتل ولا يشقى ، وحكمت على من كذب بآياتك وكفر بها بأنه مخلد فى النار وبأن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . سبحانك أنت الحق وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق . اللهم عليك توكلت وإليك أنبت ولك حاكمت ، وبك خاصمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهى لا إله إلا أنت :

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ... ويجود على العاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ... ستر القبيح وجاد بالإحسان

استحى أن أسألك وأنا أنا ، وكيف لا أسألك وأنت أنت ؟ إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير الآثم
ادعوك ربى كما أمرت تضرعا ... فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضا ... وعظيم عفوك ثم أنى مسلم

فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله .

تأمل يا أخى النص القرآنى الكريم الذى سقناه آنفا هل ترى فيه جرأة من إبليس على الذات الإلهية كما زعم الكاتب فى قوله : (وتثور ثائرة إدريس وينفجر قائلا : أى نوع من الآباء أنت خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا ونحن أبناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين) . سبحانك هذا بهتان عظيم وسوف نسوق بعض النصوص القرآنية التى تصور المشهد الذى ذكر الله فيه آدم والملائكة وإبليس حتى ترجع البصر كرتين هل ترى من جرأة من إبليس للذات الإلهية . إليك ما جاء فى سورة الأعراف لهذا الصدد :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من

الصاغرين . قال : انظرنى إلى يوم يبعثون . قال : إنك من المنظرين . قال : فبما اغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلماذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ .

وإليك هذا النص الكريم من سورة الحجر :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصل من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون من الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال : رب فانظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ .

وإليك هذا النص من سورة ﴿ طه ﴾ :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان . قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهمامن ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم

القيامة أعمى . قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

وإليك هذا النص من سورة (الإسراء) :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾ .

وإليك هذا النص من سورة (ص) :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال : يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين . قال : أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال : فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال : رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين . قال : فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

ارجع البصر فى هذه النصوص فهل ترى ما يشير إلى المعنى الذى ذكره الكاتب على لسان إبليس وما فيه من جرأة على الذات الإلهية سبحانك اللهم هذا افتراء على الله وجرأة على الله فمن أصدق من الله حديثا ؟ لا أحد ومن أصدق من الله قيلا ؟ **﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .**

الفصل العاشر

قدرى وهمام

وقد رمز بهما إلى ابنى آدم قابيل وهابيل فماذا قال عنهما :

(ويسعى أدهم [آدم] لكسب قوته وقوت أسرته على عربة يد يبيع فيها الخيار وأصبح له ابنان قدرى وهمام وكأن قدرى ورث عن عمه إدريس صفاته الذميمة بينما يتصف همام بالصفات الطيبة وتتكرر المأساة حينما يرسل الجبلاوى أحد خدمه إلى بيت أدهم يخبرهم فيه أنه قرر أن يعيش همام مع جده وينعم بالسعادة فى قصره وتدب الفتنة حينما يرفض قدرى تمييز جده لأخيه همام واختياره وحده لهذا النعيم ويحرض إدريس قدرى على هذا التمرد .

وتصل الغيرة والنزاع بين قدرى الشرير وهمام الطيب ذروتها عندما يقتل قدرى أخاه ويدفنه فى الصحراء . ويفر قدرى بعد ذلك مع هند ابنة إدريس ثم يعودان بعد زمان إلى الحارة ومعهما أولاد كثيرون من نسلهم جاءت الأجيال التالية) .

القــول الحـــق

أرأيت كيف زلت القدم وتعثر القلم وانفلت خيال الكاتب فقال على ابنى آدم كلاما ما أنزل الله به من سلطان وما ليس له به علم وقد نهانا الله تبارك اسمه عن أن نقول كذبا أو نقف موقف اختلاق الأشياء . قال تعالى : ﴿ **ولا تقفُ ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ . ولقد جاءت قصة ابنى آدم فى كتاب الله تعالى كما نزل بها الروح الأمين على قلب رسول الله ﷺ تنطق صدقا وتقول حقا . استمع إلى ما قاله المولى جل شأنه فى هذه القصة :

﴿ **واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك ؟ قال : إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من**

الخاسرين فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال : يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين ﴾ .

أرأيت كيف قص الله علينا قصة ابنى آدم وقرنها بالحق وكيف تجلت فيها الوقائع صادقة عن طريق الوحى المعصوم ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير** ﴾ . ثم هل أتاك حديث ما ذكره الكاتب عن ابنى آدم ؟ قارن بين ما كتبه وبين كلام الله يتبين لك الحق من الباطل والصدق من الكذب والافتراء : ﴿ **قل أأنتم أعلم أم الله** ﴾ ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

الفصل الحادى عشر

ردود علمية موجزة

ويجمل بنا قبل أن ننتقل للرد على كاتب تلك الرواية فى شأن الأنبياء المكرمين موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وقبل أن نرد على ما ذكره فى شأنهم مما لا يليق بهم يجمل بنا قبل ذلك أن نسجل هنا ما نشرته جريدة (النور) بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ - ٢٢ نوفمبر ١٩٨٨ من ردود علمية بقلم الأستاذ مصطفى عدنان وهذه الردود وإن كانت موجزة المعنى إلا أنها فى إيجازها وسرعتها فيها ما يشفى الصدر من علم وفهم . وإليك ما قاله الأستاذ مصطفى عدنان .

كتب تحت عنوان (قبل فوات الأوان لكى تصير نجيبا محفوظا) ونحن ننقل ما كتبه الأستاذ مصطفى عدنان دون أن نزيد حرفا أو ننقص حرفا وذلك بمقتضى الأمانة العلمية .

كتب يقول - ولكن المنطلق الذى اخترته لحديث اليوم معكم - بل بالأدق مع الأستاذ الكبير نجيب محفوظ يتأسس على المحاور التالية :

المحور الأول :

إن البحث عن استراتيجية إسلامية منقذة ، بدلا من الفوضى والتشرذم والعار ، يتطلب أول ما يتطلب أن تتعرف جماهير المسلمين الآن بالذات فى مشارق الأرض ومغاربها على الفكر الذى يجب أو الذى لا يجب أن يقودها .. وعلى أولويات القضايا التى يجب أن تشغلها وعلى المثل العليا التى يجب أن تحتذى بها فى سائر الساحات .

وإذا كان الدكتور عبد الحليم مندور المحامى ، قد أرسل البرقية المنشورة التالية على صدر جريدة الحقيقة إلى كاتبنا الفائز فى السباق فنحن نتحفظ عليها .. وهذا هو نصها :

الكاتب الكبير نجيب محفوظ : كتبت للدنيا فأجدت وفزت بأكبر جائزة فيها ، رصدها يهودى ، وقررتها لجنة من اليهود فاكتب فى الإسلاميات فإن أصحاب الجنة هم الفائزون .

أما التحفظ ، فنحن لا نعلم أن من رصد الجائزة يهودى (نوبل) وأن كل أعضاء اللجنة التى قررتها (قد تكون التى رشحت) يهود وليس المهم فى رأينا إذا كانوا يهودا ، أو مسيحيين ، أم خليط من الأديان الثلاثة ومعهم الملحدون فالمهم الآن هل القرار صائب أم لا ؟

ولهذا نعود إلى النص الرسمى الكامل لحيثيات منح جائزة نوبل فلعله يعفينا من الخلاف حول : هل هذه الرواية تناولت الله ورسله وأنبيائه ومثلتهم بأشخاص فى الحارة أم لا فى رأى من منحوا هذه الجائزة .

تقول الحيثيات الرسمية :

موضوع هذه الرواية غير العادية (أولاد حارتنا) هو البحث الأزلى للإنسان عن القيم الروحية فآدم وحواء وموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والرسل بالإضافة إلى العالم المحدث يظهرون فى [تخف طفيف] (لاحظ دقة العبارة .. فى تخف طفيف .. طفيف) .

إذن : دعونا نعد قراءة أولاد حارتنا .. كى نكتشف هل وراء حيثيات جائزة نوبل والاشارة التى جاءت فيها إلى هذه الرواية المصادرة تحديدا بل والتركيز عليها بعد الثلاثية وحدهما عندما خرج ممثل نوبل ليعلن الفوز العظيم نوايا بريئة أم العكس .. هناك نوايا خبيثة .. أن تفجر فى طول العالم الإسلامى والمسيحى وعرضه (قضية مستفزة) لجماهير المسلمين والمسيحيين ، كى يتعامل معها الذين يزودون عن عقائدهم ، وعن الأدب فى التحدث عن الله عز وجل ، وأنبيائه ورسله وآل بيتهم وفى تصويرهم بغير تشويه .

هل وراء هذه الحيثيات أصابع تحاول وضع (البترول) على (النار) الخامدة فى مصر ؟ أو أن ذلك تزيد وتجاوز فى التحليل يصدر عن حساسية مفرطة ، وعن تشكيك غير لائق بلجان الجائزة التى انصفت الأدباء العرب فى شخص أحب أدبائهم إلى الجماهير .. بالرغم من التسليم بأن مردود الاشارة والاشادة بأولاد حارتنا الممنوع طبعها فى كتاب قد يعكر (الأمن الروحى) للعالم الإسلامى .. ولمصر بالذات فى هذه الأوقات العصيبة وبينما الدولة لا يسعها إلا أن تكرم من كرمه أكبر منابر التكريم فى العالم .

وفى وقت تصيدت فيه (دول الرفض) الرفضى - الفوز المصرى لتهاجمه كرمز الأدباء الذين تعاونوا مع الجانب اليهودى الذى أسرع بعد كامب ديفيد يقدم أعمال نجيب محفوظ على مسارحه .. ويترجمه إلى جماهيره ويحاوره فى أجهزه إعلامه ، ويطلب اللقاء معه أبو فوده .. الخ .. الخ .

إن القراءة التى قمت بها - بالنيابة عنكم - لهذه الرواية التى فجرت وجددت الهجوم على متخلفى الأزهر الشريف توضح أنه منذ السطور الأولى أسرع الكاتب بقوله : (كل ما سيأتى بين القوسين على طول المقال هو من عندنا ويخرج عن النص : (هذه حكاية حارتنا) سنرى بعد ذلك أنه يرمز إلى الدنيا : لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير (القرن العشرين) ولكنى سجلتها جميعا كما يرويها الرواة ، وما أكثرهم وكما نقلتها الأجيال ؟

كلما ضاق أحد بحاله أو ناء بظلم سوء معاملة اشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة (يرمز إلى الكعبة إلى بيت الله) من ناحيتها المتصلة بالصحراء (صحراء مكة) وقال فى حسرة : هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه (فكر غير إسلامى .. أننا أبناء الله) ونحن مستحقوا أوقافه (لاحظ التعبير الأوقاف) فلماذا نجوع وكيف نضام .

ثم يستطرد : جدنا (الله) هذا اللغز من الألغاز . عمر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور .. حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد – وكان يدعى الجبلاوى .. وباسمه سميت حارتنا (ملكوت الله) وهو صاحب أوقافها .. وكل قائم فوق أرضها والأقطار المحيطة بها فى الخلاء (الفضاء) .. وحارتنا أصل مصر أم الدنيا (لاحظ) .. ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته .. وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه دون جدوى . أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا .

ملاحظة من عندى : يقول الله عز وجل فى القرآن الكريم : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾ فكيف يقول الكاتب أن الله لا يرانا .. لأن هذا النص جاء بلسان الراوى : المؤلف .

ثم يستطرد المؤلف : أليس من الغريب أن يختفى هو (الله) فى هذا البيت الكبير المغلق . وأن نعيش نحن فى التراب ؟

فلماذا الاستغراب يا أستاذ محفوظ .. هل من المنطقى أن نساوى المخلوقات البائدة بالخالق الصانع .. الباق .

ملاحظة أخرى : هل من حق شخوص رواياتك التى خلقها مثلا أن تتساءل : لماذا فزت أنت دونها بجائزة نوبل ؟

ثم يستطرد نجيب محفوظ : (وإذا تساءلت عما صار به وبنا إلى هذا الحال سمعت من فورك القصص . ثم يقول : (إن أحدالم يره منذ اعتزاله) .

ملاحظة : من قال : أن هناك زمن اعتزل فيه ربنا وزمن لم يعتزل فيه ؟

ثم يقول : ولم يكن ذلك بذى بال عند أكثر الناس ، فلم يهتموا إلا بأوقافه (ترمز إلى الرزق أو الدنيا) .

وبشروطه العشرة (ترمز إلى الوصايا العشرة التى نزلت على سيدنا موسى عليه السلام) لم تسمها الوصايا العشرة بل بالشروط . ونحن لا نتحفظ على هذه التسمية ولكن على قولك فى شأنها بالنص : (ومن هنا نشب النزاع فى حارتنا منذ ولدت ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد فقد اعتبرت الوصايا العشرة هى سبب النزاع وأنه لم يكن قبلها يوجد أى نزاع بين البشر .. بالرغم من أنك تعرضت فى قصتك إلى قيام قابيل بقتل أخيه هابيل .. وما تلا ذلك من نزاعات قبل موسى عليه السلام) .

فهل هذا كلام يا أستاذنا .

ثم يبدأ حامل جائزة نوبل يتحدث عن :

بدء الخلق :

كان مكان حارتنا خلاء .. فهو امتداد لصحراء المقطم الذى يربض فى الأفق .. ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبلاوى (الله) كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطرق (حاشا لله .. الله يتحدى الخوف .. ممن ؟ أى قطاع طرق ؟) . ثم يبدأ الأستاذ نجيب محفوظ يرمز إلى سيدنا آدم باسم أدهم وإلى إبليس اللعين باسم إدريس فيقول : اختار الجبلاوى أدهم دون إدريس ليدير أوقافه (أى أن يكون خليفة فى الأرض) .

واعترض إدريس (إبليس) .. وانتفخ كالديك المزهو قائلا : إننى وإخواتى أبناء هانم خيرة النساء (النار) .. أما هذا فابن جارية سوداء (الطين الصلصال) .

فرد الجبلاوى على الاعتراض : أدهم على دراية ويعرف أكثرهم بأسمائهم وعلى علم بالكتابة والحساب .

إبليس (إدريس) يقول للجبلاوى (لله) ما لم يرد فى أى كتاب منزل : (خلقت فتوة جبارا .. فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا .. ونحن أبناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين !!

فهل هذا رأى إبليس فى هذا الموقف .. أم أن الكاتب يستنطقه من الخيال ما يطرح هذه القضية دون أن يرد عليها ؟ ألم تراجع الكتب المنزلة .

ثم يقول نجيب محفوظ : وأعجب شىء ان الناس يحسدوننا (حفاة حارة الجبلاوى) ولكنهم لا يعلمون أننا بتنا فى الفقر كالمتسولين نعيش فى القاذورات بين الذباب والقمل ،

ونقنع بالفتات ، ونسعى بأجساد عارية .. ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير (الكعبة) . ويقول فى حزن وحسرة : هنا يقيم الجبلاوى صاحب الأوقاف هو الجد ونحن الأحفاد .

ويعترض الجبلاوى على تسمية إبليس آدم بابن الجارية (يرمز إلى الصلصال) فيقول الله عز وجل : إنها زوجتى اعتبر الأستاذ نجيب نفخنا فيه من روحنا (بأنه زواج بالصلصال) التى يسعى إليها البعض فى شأن بنوة المسيح لله ». بسبب النفخ من روحنا .

ويؤكد نجيب محفوظ هذا المعنى فى هذه العبارة بلسان أن جارية استطاعت أن تعبث بك - بالله ..

بينما القرآن يقول ما معناه على لسان إبليس عكس ذلك يا أستاذ نجيب : خلقتنى من نار وخلقته من طين .. إلا إذا كانت مصادرك أوثق . إن ما أمامى من الأمثلة كالسيل المنهمر ما يفزع حقا الحليم . منها مثلاما يتعرض لعدالة الله .

مأساة جديدة من المآسى التى يشهدها هذا البيت (بيت الله) كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة منه إلى متسولة تعيسة .. وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة يحمل على ظهره العارى سياط . والدم يطفح من فمه وأنفه لم توضح أنها عقوبات .. وكأنها أحكام غير عادية : ﴿ **فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة .. ومنهم من خسفنا به الأرض .. ومنهم من أغرقنا .. وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ (صدق الله العظيم) .

وفى موضع آخر يقول الجبلاوى (الله) لإدريس (إبليس) لا أنت ابنى ولا أنا أبوك .

ثم رفع الجبلاوى (الله) رأسه صوب نوافذ الحريم (حريم الله) طالقة ثلاثا من تسمح له بالعودة . وهكذا بدأ الفن ينساق بك يا سيدى إلى انشاء وأوصاف وعلاقات لله غير صحيحة بل تخريفية .. وفى رأيى أنك تجاوزت إلى مدارك لم تجرؤ عليها الأساطير الوثنية ، ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾ فأسرع وتب إلى الله .

ثم يمهد الكاتب للطعن فى عدالة الخالق بقوله : والحق أنه لم يبد من الأب قبل هذا اليوم ما ينم عن التحيز فى معاملته لأبنائه .

وعاش الأخوة فى وئام بفضل مهابة الأب وعدالته حتى إدريس [إبليس] (على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى اللهو) لم يسىء قبل ذلك اليوم إلى أحد من أخواته ، كان شابا كريما

حلو المعشر . ثم يبدى نجيب محفوظ رأيه فى رب العزة مباشرة بقوله : (على جبروته كل يستخفه ضرب أثناء – هكذا –. إن كلمة يستخفه وحدها يجب أن نتوقف عندها مستغفرين جميعا من كتبها ومن أعاد نشرها ومن قراها فورا .

ثم يصور الأستاذ نجيب محفوظ الملائكة :

عباس (عزرائيل) ورضوان (خازن الجنة) وجليل (جبريل) وهم يقامرون فوق سطح البيت (السماء) (هكذا الملائكة المقربين يلعبون القمار) .

ثم يأتى الكاتب على سيدتنا حواء فيرمز لها بأميمة ، بأنها قريبة لأمه (الصلصال) قبل أن يتزوج بها أبوه الجبلاوى (الله) فيقول بلسان سيدنا آدم عليه السلام : ظلها جزء من جسدى المضطرب بالرغبات . ولن يسخر أبى من اختيارى فكيف جاز له أن يتزوج من أمى : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ (صدق الله العظيم) .

ثم يقول بلسان إبليس : إننى عدت قاطع طريق كما كان (الجبلاوى) تصوروا الله كان قاطع طريق وعربيد اثيما معتديا كى يكون .

ثم فى موضع آخر يقول : وفجأة تفجر الأب عن ثورة جديدة كانت ضحيته هذه المرة امرأة .

ويقول إبليس معترضا : يا أندال (لبنى آدم) تدافعون عمن تكرهون خوفا على الطعام والشراب . ثم يصف سيدنا آدم بقوله أنه هتف بلسان مخمور : إن الملائكة تندروا من صلوات آدم التى كان يختتمها هاتفا الحمد لصاحب المنن على رضا أبى .. الخ . فهل هذا معقول الملائكة تتندر من صلوات آدم لأنه يحمد الله .

ثم يصور الأستاذ نجيب خطيئة أمنا سيدتنا حواء عليهاالسلام (الأكل من الشجرة المحرمة كما ورد فى القرآن الكريم) بأنها خانت أبينا سيدنا آدم مع إبليس بالزنا (!!!) مع أن المعروف – قرآنيا وتوراتيا وإنجيليا – أن آدم وحواء سويا أكلا من الشجرة المحرمة فما دخل الزنا من طرف واحد– حواء– مع إبليس– هنا ... يمهد الكاتب بعد ذلك بهذه المقولة إلى شيء مخيف أن إبليس على حق عندما أخذ يسب ابن سيدنا آدم بأنه ابن الزانية .

وبدلا من أن يسلم نجيب محفوظ لقوله تعالى بأنه علم آدم كلمت فتاب عليه كما ورد فى القرآن الكريم يقول نجيب محفوظ أن آدم قال لله : لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كان كبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك ؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام كالحشرات ؟ واللين والتسامح ما شأنهما فى بيتك الكبير أيها الجبار ؟

من قال إن هذا الحوار جرى ؟

أما هابيل (همام) الطيب فيقول أيضا : أما هو (الله) فقابع وراء الأسوار بلا قلب متمتعا بنعيم لا يخطر على بال بالمقارنة بـ أبانا الذى يكدح وراء عربته .. وأمنا التى تكد طول النهار وشطرا من الليل ونحن نعاشر الأغنام حفاة شبه عراة .

أما قابيل (قدرى) فيقول عن الله : أنه كان يخرج كثيرا فى الماضى فيمر بهم فى ذهابه وإيابه أما اليوم فلا يراه أحد . وكأنما يخاف على نفسه .

ثم يقول : أصبح للجبلاوى العظيم (الله) حفيدة عاهرة وحفيد قاتل لم يفهم أن أول بنات سيدنا آدم تزوجت شقيقها الذى لم يولد معها فى حمل واحد حتى يعمر الكون فيسميها عاهرة بلا نفى من غير الذى سماها .

ثم نسير مع الرواية على هذا المنوال المخيف حتى نلتقى بالبلقيطى (سيدنا شعيب عليه السلام) فيصوره ومعه جوزة ولفة ويقول : خير الليل ما مضى بين هذا وذاك .

ويصور سيدنا شعيب بأنه حاوى .

وفى حديث سيدنا شعيب مع سيدنا موسى عليه السلام يقول سيدنا شعيب : أصارحك بأنى أحبك أكثر من أى ثعبان عندى . فضحك جبل (سيدنا موسى عليه السلام) فى نشوة طفل .

وكان الكاتب قد وصف لقاء سيدنا موسى عليه السلام مع الله بأنه التقى بشبح هائل .. حيث قال له : أنا جدك الجبلاوى فيسألونه ألم تكن مسطولا فيرد : إن السطل لم يذهب بعقلى قط . ونلاحظ هنا أن على طول الرواية يتضح أن عمودها الفقرى يذكرنا بمقولة نبى الشيوعية لينين : أن الدين أفيون الشعوب ، الدين مخدر لا تمضى صفحة إلا ويرمز للدين بالحشيش . ففى الموضع الذى يشتم فرعون سيدنا موسى عليه السلام نراه يقول له : أخرس يا محتال يا حشاش .

ثم يصف الكاتب أفراح انتصار المؤمنين بموسى على فرعون : جرت البوظة أنهارا .. وانعقدت فى سماء الحجرات سحب الحشيش (لاحظ) .. ورقصت تمر حنة حتى انحل وسطها . وصور لقاء الجبلاوى (الله) بجبل (موسى عليه السلام) فى هالات من نور الخيال .

وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل وشقيقه (سيدنا هارون عليه السلام) أطيب الأيام .

وفى موضع آخر يصف سيدنا موسى عليه السلام بقوله : وانقض عليه جبل (سيدنا موسى عليه السلام) كالثور الهائج – هكذا – وتهامس الناس بقسوته وظلمه . ولكن وجد هؤلاء من يرد عليهم قولهم يذكرهم بالوجه الآخر لقسوته وهو الرحمة بالمعتدى عليه والرغبة فى إقامة نظام يضمن العدل والاخاء ووجد هذا الرأى الأخير كل تأييد حتى أنس إليه الناس .

وبالرغم من أن سيدنا موسى دعا فرعون وقومه إلى عبادة الواحد الأحد وكانت المواجهات التى نعلمها جميعا والنوازل والمعجزات فإن رواية الأستاذ نجيب محفوظ تصور بلسانه كراوى سيدنا موسى أنه لم يدع غير اليهود إلى عبادة الله الواحد الأحد .

والواقع أن هذا خلط كبير بين احتكار أحبار اليهود للشريعة وبين قيام سيدنا موسى وسيدنا هارون (شقيقه الأكبر) عليهما السلام بالرسالة .

وكان سياق الرواية قد اضطر الكاتب إلى أن يقول عن الله : الجبلاوى مات. تنتظرون تدخل المسيح (الله) فإن الله قد صلب ومات . كما قال الفيلسوف نيتشه الذى قامت فلسفته لحماية الألمان من الفرنسيين فإذا كنتم تؤمنون بأن المسيح صلب فإن الله مات لأنه كان يجسد الله فاعتمدوا على أنفسكم . وهكذا أخذت شطحات أغبياء الفلاسفة من شياطين الإنس تقود الكاتب على هواها .

وفى آخر الرواية يقول الكاتب أن (الجبلاوى) بعد أن مات قد جاء فى المنام بكراسة السحر (يرمز هنا للكتاب المقدس) وأنه بدأ البحث عنها فى زبالة الحارة التى أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته حيث لم يبق لخادم الجبلاوى رجل الدين هنا من أمل فى الحياة إلا تلك الكراسة ثم يتحدث نجيب محفوظ بلسان أحد شخوصه بهذه العبارة : لا شأن لنا بالماضى ولا أمل إلا فى سحر عرفه .. ولو خيرنا بين الجبلاوى والسحر لاخترنا السحر .. وفى موضع آخر يقول ساخرا : من خير الناس أن سيد الناس يضرب الناس ويظلم الناس ويغتال الناس أنت مؤمن من هو سيد الناس ؟

ويرمز إلى الذين يحمدون الله على كل حال بالحمدان والحمدانيون كما هو معروف هم أتباع محمد . فيصفهم بأنهم تمرغوا فى تراب القذارة والبؤس .. لم يظهر منهم فتوة واحد (الفتوة هو الحاكم) .

بل هو يتزيد فى اعتبار معجزات الأنبياء ألاعيب حواه .. فنراه يقول بلسان سيدنا شعيب (البلطيقى) لسيدنا موسى عليه السلام (جبل) أنت تصلح حاويا ماهرا إنى أحبك أكثر من أى ثعبان عندى وسأعلمك كيف تخفى بيضة فى جيب متفرج وتخرجها من جيب آخر فى الصف الذى يقابله ... هكذا .

ثم يصف جلسة سيدنا شعيب مع سيدنا موسى عليه السلام : وسهر الليالى (سيدنا موسى) يتجاذب على البلطيقى سيدنا شعيب الجوزة الدين هنا يرمز له بالجوزة .

أرأيت لماذا يتحمس الشيوعيون لهذه الرواية يا أستاذ محفوظ ؟ لأنهم أول من قالوا : الدين أفيون الشعوب .

ثم أيليق بكم - أستاذنا - أن تصف السيدة مريم العذراء بهذا الوصف . وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين فخذيها .. لتريح بطنها المنداحة .. أيليق بك وأنت رجل مسلم مؤمن أن تردد ما يقوله اليهود (ضد المسيح عليه السلام) أنه كان ابن يوسف النجار من السيدة مريم العذراء سيدة نساء العالمين كما جاء فى القرآن الكريم والإنجيل .

ففى لقاء شافعى النجار (بجواز الشاعر) يسأله الأخير عن زوجك ثم يقول : وها هو ابننا رفاعة (المسيح) اختار له نجيب محفوظ اسم رفاعة لأنه رفع إلى السماء .

وفى وصف لقاء المسيح عليه السلام بمريم المجدلية يقول :

فوجد نهضة النهدين وحافية وعارية الساقين ولبثت هامته. ثم يقول نجيب محفوظ : وما لبث أن تناول عم شافعى (سيدنا يوسف النجار) الجوزة .. ويحدثنا عن روائح المعسل من حوله ويختتم بأغنية لها رمزية هامة :

يا ولاد حارتنــا	تــوت تــوت
انتــوا نصــارة	ولا يهــود
تاكلــوا أيــه	ناكــل عجــوة
تشربــوا ايــه	نشــرب قهــوة

ثم يشكك الكاتب بهذه العبارة فى وجود الله - وتوقفوا عندها - وأى دليل على حياة الجبلاوى إلا الأشجار والحكايات وفى جملة اعتراضية يقول عن الجبلاوى (الله) أنه ينعم بالسلام وحده (!) .

ثم يبدأ فى حديثه عن المسيح عليه السلام بأن حارتنا تعيرنا برقته (!) ويسخر بعبارات على لسان شخوصه منها - مثلا - هل تخاف الزواج هل أدركه البلوغ اليوم ؟ إنه رقيق أكثر من اللازم ويظنه الناس كودية زار .. شاعراً لتعلقه بالحكايات وأن كل مهمة رفاعة (المسيح عليه السلام) أن يزور المساكين ليطرد عنهم العفاريت .. وبزواجه بياسمينه (أظن يقصد مريم المجدلية) يتزوجها . ويصف الكاتب الزفاف الذى لم يحدث (خلافا للواقع وتزايدا للتشهير كما

فعلت بالمسيح اليهودية) فقد رفع المسيح فى سن ٣٣ سنة بعد ٣ سنوات فقط من بدء رسالته ولكن الأستاذ نجيب محفوظ يقول أنهم غنوا له - أى للمسيح - فى زفافه (يا سمينة) (يا رفاعة يا وش القملة من قال لك تعمل دى العملة) .

ثم يصف من حضروا العرس بأنهم ختموه بالتهليل (لاحظ) والعربدة وتدعو : يا سمينة رفاعة (المسيح) عندى شراب .. عندى حشيش طيب (تانى) وتقول له : أبوك حشاش قارح رأيته مرة خارجا من غرزة شلضم وهو لا يميز بين الليل والنهار . أهذا هو المؤتمن يا أستاذ نجيب على سيدة نساء العالمين التى قال فيها ربنا : ﴿ **يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ .

وفى هذه الليلة تصف الزفاف . شق ثوبها الرقيق عن جسدها البارع وجلست تنظر فى عينيه الهادئتين (للمسيح) حتى داخلها اليأس ، أخاف أن تزورنا أمك غدا (يقصد السيدة العذراء تزور ابنها السيد المسيح عليه السلام) لتحذرك من الافراط فى المعاشرة (سخرية) .

وفى قول آخر : دع أعمال النساء للنساء .. وفى قول آخر رفاعة (بن شافعى - المسيح عليه السلام) : خف عقله ... (!) .

إن الأمثلة لا حصر لها لما أريد أن أتوقف عنده ويجب أن اتوقف عنده .

ثم تصور الرواية زوجة المسيح عليه السلام تتسلل لتخونه عند بيومى حيث تشاركه فى تدخين الجوزة وشرب البوظة أيضا وهو يفضل أن يسكر ويحشش لأنه لا يليق به الشم كالأتباع ويقرصها فى صدرها ويمطرها بالقبلات وهما يتحدثان عن المسيح ككودية زار من جنس الرجال - هكذا - وأنها تصبر على حياتها الزوجية المعطلة معه لأننى مدينة له بحياتى .. ولا ضرر منه فما أيسر من خداعه فيرد : اتتركينه يعبث بك عبث الأطفال فتهز منكبيها هازئة قائلة : لا عمل لزوجى (المسيح) فى هذه الدنيا إلا تخليص الفقراء من العفاريت وأنه مشغول عن زوجته بعفاريت الناس ، فشخر الفتوة هازئا قائلا : لعل الجبلاوى (الله) عفريتا ولعله سبت ومدت زوجة المسيح يدها إلى فستانها لتنزعه رويدا .. و... مع عشيقها .

وبعد كل هذا الهراء تقول لها العذراء مريم بكل مقامها عندما يفر المسيح : من ادعت الرواية أنها زوجته . رفاعة (أى المسيح) فى عهدتك عهدة زوجة زانية .

ولكنها- زوجة المسيح عليه السلام تعود إلى عشيقها لأنها لا تجد الاطمئنان إلا بين يديه .. وتبوح له بسر زوجها المسيح وأنه يهرب وأتباعه .. وتدافع أمامه عن المسيح بقولها : إنه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت . إنه انقذنى يوما من الهلاك فيرد عليها عشيقها ساخرا : وها أنت تسلمينه للهلاك واحدة بواحدة والبادى أظلم .

من أين جاء الكاتب بأن نبى الله المسيح ابن مريم عليهما السلام تزوج أو أنه مستغفل؟ من أى كتاب إلا كتب كهنة اليهود .. الذين أنكروه وكى يؤكد الكاتب قول المسيح : (من يصفعك على خدك الأيمن أدر له الأيسر) يصور لنا نفس المشهد باعتداء (بطيخة) على رفاعة (المسيح عليه السلام) ثم تصور لنا الرواية العشاء الأخير .. وياسمينة تقول له : ستخلصنى غدا من عفريتى إن مد الله فى العمر .. وهكذا صورت الرواية أنها وإن كانت زوجته فإنه لم يخلصها من عفريتها .. الذى يخلص منه الفقراء .

لخبطة :

ثم يصور الكاتب مقتل المسيح (رفاعة) وكيف أنهم وجدوا آثار دمائه ولم يجدوا جثته بينما زوجته ياسمينة فى بيت عشيقها حيث قتلها أحد الحواريين بعد ذلك . أحداث لم ترد . مختلقة . ثم أعطى المسيحيون (خلفاء رفاعة – المسيح عليه السلام) كما أعطى اليهود من قبل (خلفاء جبل – موسى عليه السلام) وقفا لهم وأصبح لهم أيضا رئيس .

ولكن مع ذلك لم يتغير شىء فى حال البشر . الذباب ما زال يلهو بين الزبالة والأعين .. والثياب مرقعة .. والشتائم تتبادل كالتحايا .. والبيت الكبير رمز الله ، لا يزال قابعا وراء أسواره غارقا فى الصمت والذكريات (!) .

ثم يظهر الكاتب سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام باسم قاسم (معروف أن من أسمائه أبو القاسم) لأنه أنجب سيدنا القاسم ، ويناجى محمد (قاسم) نفسه فيتساءل عن جدنا العظيم الله (الجبلاوى) ويقول : هل ما يزال بعقله أم خرف ؟ هل يذهب ويجىء أم أقعده الكبر . هل يدرى بما يقع حوله أم عن كل شىء ذهل . هل يذكر أحفاده أم نسى نفسه ؟؟ هكذا .

ثم يعرض لست قمر (السيدة خديجة أم المؤمنين) ويصفها هذه السيدة الأربعينية . ويردد أن الزواج بها تم بعد أن كان سيدنا محمد ﷺ لظرف ما يتردد على بيتها قالها بلسان زوجة كبير الحارة مشهرا بالسيدة خديجة أم المؤمنين ومن قبل هذا دار حديث آخر مع قاسم (سيدنا محمد ﷺ) على الناس برأى يفض نزاعاتهم (يستر فيه على السارق !!!) رمزا لقصة وضع الحجر الأسود فى الكعبة . سرت فى القوم همهمة ارتياح (اقتراحه فاشتد خفقان قلبه ﷺ) لأن ذلك جرى على مشهد من دار قمر (السيدة خديجة) وهو موقن أن عينيها السوداوين ترقبانه فداخله زهو سعيد وشعر بلذة فوز كبير (إذ هو مزهو بإنجازه من أجل قمر) .

ويسجل الكاتب كيف أن الجارية كما حدث فى الواقع هى التى اقترحت على قاسم (محمد) زواجه من السيدة خديجة .

وعندما وصف عرسه ﷺ قال : دارت أفراح البوظة وعشرون جوزة وغنى المطرب : زمان الوصل قرب بالتهانى .

وازداد قاسم (محمد عليه الصلاة والسلام) اضطرابا ففطن صادق (أبو بكر الصديق) إلى حالة كشأنه دائما فقدم إليه قدحا جديدا من الشراب وما زال به حتى أفرغه فى جوفه حتى الثمالة . وكانت الجوزة ما تزال فى يده وجلس قاسم بين حسن وابن عمه سيدنا على كرم الله وجهه أبو الحسن وصادق فحياهم قائلا لصبيه : باليلة الهنا جوزة دنجل .. يا وله للجدعان ، أما صادق (سيدنا أبو بكر) فاخرج من صدره بلبوعة فى حجم البلية أدارها بين أصبعيه تحت ضوء الكبوب وقال فى أذن قاسم : معجونة بالهريسة ولها مفعول يا سلام . فتناولها قاسم واودعها فاه باسما وقد أحمرت عيناه السوداوان من الشراب فعاد صادق يقول : امضغ ثم استحلب .

وراح المنشد يغنى الأوله آه عينى دى الثانية آه من أيدى دى الثالثة آه من رجلى دى .. اصل اللى شبكتنى مع المحبوب عينى دى لما سلمت عليه سلمت بايدى دى .. وإن اللى ودتنى للمحبوب رجلى دى .. وتعالت الآهات من الأفواه المخمورة المخدرة وبلغ الضرب منتهاه فتناول أحدهم (زكريا) عصاه وراح يرقص كما هز الوسط .. وصور بحركاته المرنة هيئة القتال .. وهيئة الوصال ثم دار حول نفسه مؤذنا بحسن الختام .. بين التهليل والتصفيق عند ذلك انتقل قاسم إلى الحريم رأى قمر جالسة فاتجه نحوها يخوض أمواجا من الزغاريد تتقدمها راقصة كأنما تلقى عليها الدرس الأخير حتى احتوتهما حجرة العرس وباغلاق باب الحجرة انفصل انفصالا كليا عن العالم الخارجى .. ومرت عين قاسم بالفراش الوردى .. وأشياء لم تقع له فى خيال .. ثم استقر بصره على المرأة التى جلست تنزع الزينة عن رأسها .. بدت فخيمة مليئة بضة ذات بهاء .. هكذا .

ثم يقتحم الكاتب بقلمه بيت النبوة ويصف رضاعة السيدة فاطمة الزهراء (إحسان) الثدى .. الخ عندما جاء قاسم (محمد عليه الصلاة والسلام) بعد لقائه بجبريل (قنديل) فى الليل والخلاء تحت الصخرة ويمضى إلى أن يعكس الثابت تاريخيا فيصور أن السيدة خديجة اعترضت على الرسالة المحمدية ومن ذلك مثلا قولها : ما جدوى الانفراد كأنك تأمل فى لقيا الخادم (سيدنا جبريل عليه السلام) مرة أخرى ولكن أى جديد عنده ترتقب . سيطاردك السؤال عن الله تقول له لا شخصه رأيت . ولا صوته سمعت ولا شخصه رجع .. تقصد الله .

إلى أن تقول : **قد** تهمل طفلتك الجميلة تبكى فلا ترحمها (الذى سماه ربه رحمة للعالمين) وتلعب فلا تلاعبها .

يقول الكاتب : هذا إنكار أن السيدة خديجة هى التى قالت للرسول عندما نزلت عنه الرسالة : والله لن يخزيك الله أبدا .

وأما سر إنصاف الإسلام للنساء فهو قرار من سيدنا محمد (قاسم) ليس من عند الله بالرغم من قوله تعالى : ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ بدليل أن الرواية ذكرت حديثا كاذبا على لسان قاسم (محمد ﷺ) ينذر فيه لله نذرا إذا نصرنى المولى فلن أحرم النساء من ريع الوقف (الارث) وكأنه بدا يشكل الشريعة من وحى نفسه لا من ربه .

رغم قوله تعالى عن نبيه الصادق : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين** ﴾ **الوتين** : عرق الحياة يعنى ذبحه .. لو تقول وذهب مع صادق (أبو بكر) وحسن (سيدنا على) ودارت الجوزة دورة مليحة وتوهجت جمرات الموقد فى ظلمة الدهليز وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة .

وتطوع (سيدنا على) لخدمة الجوزة وبدأ نقد محمد عليه الصلاة والسلام :لاعيب فيك إلا اهتمامك بالوقف (الدنيا) سوف يسوقك ذلك إلى متاعب لا حصر لها ..

ويقال لمحمد عليه الصلاة والسلام : ماذا أبقيت لمن يجىء بعدك ؟ فيرد : إذا نصرنى المولى فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى .

وهكذا تصور الرواية أن ختام النبوة هو قرار من محمد عليه الصلاة والسلام وليس قرارا من عند الله . وفى السياق قرب ختام الرواية بعد ذلك ينفى أن هذا حدث : أصبحت كلمات موسى والمسيح ومحمد ﷺ أحلاما ضائعة قد تصلح ألحانا للرباب لا للمعاملة .

وتصف الرواية جلسة الرسول مع صحابته بالقول ودارت الجوزة كملاك فى الحلم .. وغنى الماء فى القنينة .

ثم يقول نجيب محفوظ : واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر . ثم تصور لنا الرواية يوم العيد فتصفه ﷺ بقوله : وهو رجل يحب الغناء والطرب وذلك تعليقا على سماعه أغنية (أصل اللى شبكتنى مع المحبوب عينى دى) .

وتمر عربة تنشد تحت شباك النبى ﷺ الفاتحة وابتسم قاسم (النبى) متذكرا المعلم وهو يغنى هذه الأنشوذة وهو في تمام السطل .

ثم يوصى قاسم (النبى) أتباعه فى حى الجرابيع (الاسم الذى اختارته الرواية) : تجنبوا الظهور وأنتم سكارى ثم شاع أن الجرابيع يهاجرون .

وعلى لسان النبى (قاسم) تأتى الرواية بهذه الجملة (بدلا من أننى سأهاجر) : سوف أهرب بلورى . ثم يوضح لسيدنا على (حسن) سأهرب بالحيلة لا بالقوة .

وبينما يقرأ سيدنا محمد ﷺ على من حاصروه ليلة الهجرة : ﴿ **إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ . ويمر بسلام دون أن يرونه تصوره الرواية بأنه ارتقى السطح ومضى إلى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملاصق وهم بالجرى فإذا بشبح يعترضه قائلا : (قف فأدرك أن الأسطح محتلة بالقتلة وأن حصاره أحكم مما قدر واستدار ليرجع ولكن الآخر وثب حوله وأحاطه بذراعين قويتين راستدعى (النبى) قوته التى ضاعفها الخوف . فاجأه بضربة فى بطنه ففك حصار ذراعيه وكذا بركله فى بطنه أيضا فسقط .. إلى أن يقول : ولمح خارج الدار شبحا يتحرك فانقض عليه قابضا على عنقه ثم نطحه برأسه ويعنى بالروسية وطعن بطنه بركبته (...) حتى أطلق قاسم (النبى) بساقيه ولكن شبحا اعترضه وقال له : (قف يا ابن اللئيمة) .. وانطلق (النبى) وسيدنا على يجريان إلى أن يقول لصادق (سيدنا أبو بكر) : أحسنتم التنظيم والتدبير .

ولما وصلا إلى الحارة الجديدة (المدينة المنورة) أطلت رؤوس رجال ونساء وتعالى الهتاف والزغاريد وانطلقت الحناجر تنشد : يا محنى ديل العصفورة (بدلا من طلع البدر علينا من ثنيات الوداع) .

ويقول الكاتب : فاستخف قاسم (النبى) الابتهاج استخف . وبالرغم من الحديث الشريف أن الرسول ﷺ لم يتزوج إلا بأمر ربه فى جميع المرات وأن سيدنا جبريل عليه السلام جاءه يحمل السيدة عائشة بنت أبو بكر الصديق ومعه أمر الله تعالى بأن يتزوجها فإن الرواية تذكر أن الجارية التى زوجته السيدة خديجة هى التى أغرته على الزواج بقولها : ما انضجها وهى تقدم الطعام أو القهوة !! فتحول عنها قاسم (النبى) وهو يقول : يا شيطانة لعنة الله على سلالتك : هكذا .

ويصف الزفاف كاد صادق (سيدنا أبو بكر الصديق) أن يرقص .. وزغردت أمه حتى اسمعت الخلاء ورقصت نساء من بينهن أم بدرية أم السيدة عائشة رضى الله عنها وغنى أبو فصادة : أنا كنت صياد سمك ..

ثم تصف الرواية بعد ذلك الغزل .. وتصور الغزوات بأنها تتم فى ليالى زفاف فتوة الأعداء : سنهاجم الزفة كما يفعل الفتوات - هكذا - ويتبادل الصحابة مع الأعداء خلال المعركة السباب ..

العدو : يا ابن النجسة ..

سيدنا على : يا ابن الزانية .

وتصور الرواية أن السبايا - النساء - أصبحن حلالا للمسلمين لقاء ما نهب الأعداء من أموالهم خلافا لحكمة الإسلام من أن فك أسر النساء لضمهن إلى عقيدة الحق لا تعويضا عن المال .

وتختتم الرواية كعادتها رحلة كل نبى بتقييم لمرحلته بلسان الراوى - الأستاذ نجيب محفوظ - على سبيل المثال فى نهاية مرحلة النبى موسى عليه السلام قالت الرواية كما ذكرنا من قبل أنه أول من ثار على الظلم وهذا ليس صحيحا فكل نبى سبقه كان ثائرا على الظلم .. وقالت الرواية أنه لم يهتم بالآخرين (اهتم باليهود فقط) ولعله كان يضمر لهم احتقارا وازدراء كسائر أهله .

وهذا ليس صحيحا أيضا . يقول الله عز وجل : ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ حتى سحرة فرعون آمنوا برب موسى حتى زوجة فرعون آمنت برب موسى وكثيرون آخرون .. لا اليهود فقط .

أما أن (أحبار اليهود) كما ذكرنا من قبل لم يسيروا على نهج سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام بدعوة الأمم الأخرى إلى دينهم وانغلقوا على أحفاد الأسباط الأثنى عشر فهذا ليس مبررا لادانة نجيب محفوظ لسيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام بأنهما لم يهتما بالآخرين بالبشرية .

كذلك فقد ذكرت الرواية فى ختام مرحلة سدنا المسيح عليه السلام ما معناه أن الله رفع جسد المسيح بعد قتله (صلبه) ودفنه فى الجنة .

وهذا ليس صحيحا بل رفعه إليه ربه قبل صلبه لأنه شبه لهم كما ورد فى القرآن الكريم وهو لا يزال حيا وسوف يموت قبل يوم القيامة بعد معجزة ظهوره من جديد طبقا لما ورد فى الأحاديث الصحيحة .

وفى ختام مرحلة سيدنا محمد ﷺ تقول الرواية أن الجرابيع (الاسم الذى اختارته الرواية للمؤمنين بسيدنا محمد ﷺ) رأوا فيه طرازا من الرجل لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد وبعد عدة أوصاف طيبة تقول الرواية بالنص :

(وإلى ذلك كله كان ظريفا بشوشا أنيقا وحشاشا يلذ مجلسه) . ثم تتحول الرواية : (اللهم إلا أنه توسع فى حياته الزوجية) فعلى حبه بدرية (السيدة عائشة) تزوج حسناء من آل جبل (اليهود) يقصد (السيدة صفية) إذ أن أبوها من سادة اليهود وأخرى من آل رفاعة (المسيحيون) يقصد (السيدة مارية القبطية) وتعشقه(لاحظ اللفظ الذى اختاره المؤلف) امرأة من الجرابيع ثم تزوج بها أيضا وقال أناس فى ذلك أنه يبحث عن شيء افتقده منذ فقد زوجته الأولى قمر (السيدة خديجة) وهكذا أصبح فرويد اليهودى هاديا لتحليل شخصيات الأنبياء المعصومين . تقول الرواية : وقال عمه (عم النبى) أنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا (القبائل) لكنهم أى الناس لم يكونوا بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث بل الحق أنها إذا كانت قد أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته وحبه النسوان مرات . إن حب النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ومنزلة تعدل فى درجتها درجة الفتوات فى زمانها أو تزيد . هكذا يتحدث عن النبى ﷺ كما تحدث عنه أعداء الإسلام ثم تأتى السيدة سكينة فؤاد وبقية الشلة لتقول لنا : (عار علينا) أن نمنع طبع هذه الرواية فى كتاب .

ثم تسير الرواية قدما إلى المرحلة الراهنة إلى (شاعر المديح النبوى) (آل قاسم) الذى تصفه الرواية بأنه أراد بفكرة الأوقاف أن يجد حاجته فيستغنى عن العمل ويفرغ للسعادة الغناء التى حلم بها آدم وتقول الرواية : ذلك قول قاسم (النبى) تصور أن يمضى العمر فى فراغ وغناء (يقصد فى الجنة حيث التسبيح) ويعلق المؤلف على هذا المصير الذى اختاره رب العزةِ بقوله بلسان أحد شخوصه : هو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش .. الأجمل حقا أن نستغنى عن العمل لنصنع الأعاجيب (وكأن الجنة فى حاجة إلى مخلوق يصنع فيها الأعاجيب) وفى حديث بين حسناء (السيدة صفية) وفتوة مسلم (ملحد) أصبح لا يبالى بالذكريات عن الله (الجبلاوى) ويؤمن بأن إصلاح الأمور لن يتأتى بالرجوع إلى الماضى ثم تبدأ السخرية بالقول عن أحد الشخوص أنه زوج لأربع فغاص قلبه فى أعماقه وتساءل : وإذا كان عنده تسع يقصد أنه كان للنبى تسع زوجات مات عنهم جاهلا أنه كان من حق المسلمين استبدال من يشاءون من زوجاتهم الأربعة إلى أى عدد إلا النبى الذى لم يعد يحل له كما كان من حق جميع الأنبياء من قبله أن يستبدل أزواجه أو يتزوج بعد وفاتهم من أخرى .

يقول له ربه : **﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾** .

ثم تبدأ الرواية تصور حال شكرون (الذين يحمدون الله على أى حال) وهو يصيح : يا جبلاوى (يا الله) إلى متى تلازم الصمت والاختفاء وصاياك مهملة وأموالك مضيعة أنت فى الواقع تسرق كما يسرق أحفادك وقهقه كثيرون : يا جبلاوى (يا الله) ألا تدرى بما حل بنا لماذا عاقبت إدريس (إبليس) وكان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا .. ثم نلاحظ التشبيهات الغريبة للأستاذ نجيب محفوظ ومنها : فهبطت النبابيت التى يستخدمها البلطجية كرؤوس المصلين . وعن سيدنا رسول الله : وهكذا كان قاسم الماكر الداهية . وعن الله : وهل سمعت عن واقف (الله) يعبث العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكنا وما السبيل إلى تنفيذ شروطه (وصاياه) وجدنا قعيد الفراش ويبدو أنه ما عاد بوسعه أن يكلف أحدا من أحفاده بعمل .

ملاحظة : يقول الله عز وجل : ﴿ **والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إنه هو السميع البصير** ﴾ وعندما يقال فى الرواية يوجد رجل جاوز المائة والخمسين من العمر يرد المتحدث على قائله : (ربك قادر على كل شىء) .. فيغمغم كذلك السحر فهو قادر على كل شىء بالرغم من قول ربنا : ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ وفى موضوع آخر مثلا من الرواية أنه كان فى وسع موسى عليه السلام (جبل) أن يبقى فى وظيفته (لدى الفرعون) وكان بوسع المسيح (رفاعة) أن يصير النجار الأول وكان فى وسع محمد ﷺ (قاسم) أن يهنأ بقمر (السيدة خديجة) وأملاكها وأن يعيش عيشة الأعيان ولكنهم اختاروا الطريق الآخر .

فيعلق حنش : ما أكثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم – وكان رفاعة يقف فى مكاننا عندما ترامى إليه صوت الله (الجبلاوى) وفى هذا الخلاء كلم بنفسه موسى (جبل) وأرسل خادمه إلى محمد (قاسم) وفيه أيضا قتل رفاعة (المسيح) واغتصبت أمنا (يصر أن أمنا حواء اغتصبت) ولم يحرك الجبلاوى (الله) ساكنا وهذه هى شخصية عرفة التى أبرزها نجيب محفوظ لنا (أى الذى يعرف كل شىء) أظهره مثلا وهو يفكر عندما سوف يسير فى (بيت الله) لكى يلقى الله (الجبلاوى) لعله يستوضحه عن شروطه وسر كتابه ذلك الحلم الذى لا يتحقق إلا بين سحابات الدخان الذى تنفثه الجوز (هكذا) ثم يقول : فربما وجده وقد كبر وخرف وفقد ذاكرته أو مات من زمن بعيد دون أن يدرى أحد إلا الناظر (الحاكم) .

ملاحظة : الله هو : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ و﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ وإنكاره له (الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم) لن ينجينا من وعيده لقوله تعالى : ﴿ **قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار** ﴾ لأن

﴿ الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ﴾ (صدق الله العظيم) .

ثم تمضى الرواية مع عرفة وتوقع أن يغمر الظلماء نور وأن يرى الله (الجبلاوى) واقفا حياله سيسجد عند قدميه مستعطفا . ولكنه يجد فراشا فخما ويجده نائما هناك غير دار بجريمته . واقتنع بأنه من الجنون أن يتصل بجده ولكن حسبه الكتاب الخطير بما يتضمنه من شروط وآيات السحر التى سيطر بها جده على الخلاء والناس فى زمانه الأول (يعنى الله سيطر على الكون بالسحر) أن أحدا قبله لم يتصور أن الكتاب (الكتاب المقدس) كتاب سحر لأن أحدا قبل الله لم يمارس السحر .

ويتساءل : لماذا ضن الله على أبنائه بسر كتابه حتى ضن به على أحبهم إلى قلبه آدم واشعل الشيوعى شمعة فرأى عينين تنظران إليه ورغم ذهوله ورعبه تبين له أن العجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقظة وانقض على رقبته وضربه فى بطنه وسقطت الشمعة وساد الظلام وتحرك العجوز حركة أخيرة ثم همد ولكنه لم يستطع أن يتخطى الجثة إلى الكتاب الأثرى كانت جريمة أدهم (آدم) هى العصيان أما جريمته هو فالقتل .

ويعود ويشعر بأن النوم بات ابعد عنه من الجبلاوى (الله) ويعترف عرفة : قتلت عجوزا أو من يدرى فلعله الخادم الذى أرسله الجبلاوى (الله) إلى قاسم (محمد) .. يا لها من رحلة شاقة وخاسرة ولكنها علمتنى أنه لا ينبغى أن تعتمد على أى شىء سوى السحر فالسحر لا نهاية له حتى حل بها أكبر قاطع طريق رهيب وهو جدكم (الجبلاوى – الله) فيقول عرفة : أنا عندى ما ليس عند أحد ولا الجبلاوى نفسه عندى السحر (أو العلم) . وتسير الأحداث حتى تأتيه من عند (الله) خادمته وتعترف له أن الذى قتله هو جبريل وليس الجبلاوى ثم تعترف له أن الله مات بين يديها لأنه اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمه (جبريل) بغتة أصفر وقال لها : اذهبى إلى غرفة الساحر (الشيوعى) وأبلغيه أن جده مات وهو راض عنه (هكذا) ويسألون عرفة : أى شىء سوف تفعله لو نجحت (الشيوعية) فقال : سأرد الحياة إلى الجبلاوى . ويقول له صاحبه : كان (سيدنا آدم) أدهم يحب الأحلام ولا يعرف منها إلا ما أدخله الجبلاوى (الله) فى رأسه .. الله الذى أرحته أنت من عذاب الكبر .

ويغنى عرفة مع صاحبه قدرى (القدر) : يا عود قرنفل فى الجنينة منعنع يعجب الجدى من الحشاشة المجدع . واقترح آل جبل (اليهود) أن يدفن الجبلاوى (الله) فى مقبرتهم لأنهم أقرب نسبا إليه من الآخرين ولأنهم كرهوا أن يدفن فى المقبرة التى تضم إبليس (إدريس) ، وطالب آل رفاعة (المسيح) أن يدفن فى القبر الذى دفن فيه المسيح بيديه ،

وطالب آل قاسم (محمد) أن يدفن مع قاسم وتم دفن الله ولم يشهد الدفن إلا خدمه المقربون .. ولم يكن للناس من حديث إلا أمجاد قاهر الخلاء وسيد الرجال وصاحب كل شيء والأب الأول للأجيال المتعاقبة ، وبدا عرفة حزينا ذلك الذى اقتحم البيت بجلاله الذى لم يتأكد من وجود الله إلا عند موته شيء واحد يكفيه الآن أن يبلغ من السحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى الجبلاوى الذى قتله أسهل من رؤيته . وهكذا تتحدث الرواية (التى ترى السيدة سكينة وكل من لم نذكرهم أو ذكرناهم أن من العار منع تداولها) .

وبعد ....

عزيزى الأستاذ الروائى الكبير نجيب محفوظ :

لست أدرى هل تتفق مع علماء الإسلام وأوليائه فى سائر العصور أنه لا يجوز تجريح الأنبياء والرسل أو الحط من قيمهم وهم المعصومون الذين رباهم الله وجعلهم أئمة المتقين والصالحين ، وهل توافقنى أن الله هو المتصف بكل كمال المنزة عن كل نقص وأنه تعالى لا يشبهه أحد من خلقه فى ذاته أو صفاته أو أفعاله وصدق الله العظيمَ القائل : ﴿**وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب**﴾ . وهل توافقنى والدكتور محمد البطاوى العلامة الإسلامى الكبير الذى يلفت أنظارنا إلى ما قاله الراغب الأصفهانى وهو يحدثنا فى كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) عن مسائل أتمنى لو فحصناها سويا الآن ومنها : أن الارتداد عن المكارم له ثلاث مراحل : الكسل عن تحرى الخيرات .. ويورث ذلك الزيغ الذى يحدثنا عنه ربنا بقوله : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾ .

وثانيها : الغباوة .. وهى ترك النظر إلى حقيقة ملكوت الله وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ .

وثالثها : الوقاحة وهى أن يرتكب الإنسان منا الباطل ويراه فى صورة الحق ويذب عنه (يدافع) فيورثه ذلك قساوة القلب كما قال تعالى : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ ولا شك أنكم تؤمنون بقوله تعالى فى وصفه لهؤلاء بأن : ﴿ **هم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ .

ووصفه أن ﴿ **شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون** ﴾ وأنهم ﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا وأولئك هم وقود النار** ﴾ كما أنك لا شك تؤمن بالعقاب الذى ينزله الله بعباده لقوله تعالى : ﴿ **ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ لأنه ﴿ **ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد** ﴾

ولا شك أنك توافقنى على قوله تعالى مشهرا بمن قالوا : ﴿ **ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما هم بذلك من علم** ﴾ .

ولا شك أنك تؤمن بأن ﴿ **الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار** ﴾ .

إننى أربأ بخيال الروائى فيك أن يفخر بأولاد حارتنا التى رقعت – كقول الدكتور البطاوى – بحق بوثنيات اليونان وإباحيات الرومان وخبث الماسون وإلحاد إخوان ماركس إننى أربأ بمداد قلمك فيها أن يدنس عقيدة أهل التوحيد وأقداس الحق فى سائر عقائد السماء حتى لا نكون ممن (يعبدون) من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم بهم علم وما للظالمين من نصير فإن شخوصك(والراوى معهم فى هذه الرواية) هم ممن تتحدث عنهم هذه الآيات الكريمة : ﴿ **يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾ .

لأنه يا سيدى الله الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولأنه عندما قال اليهود مثل قول أولاد حارتنا : ﴿ **أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾ . لقد تحدثنا من قبل عن المأزق الذى كان يواجه الأستاذ ومفاتح الاعلام بين يدى رئيس تحرير الأهرام يوم نشرت الرواية ومفاتح النقد بين يدى اليسار يوم صعدت به هذه الرواية بالذات إلى سماء الشهرة .

لهذا يمكننا أن نطرح هذا السؤال التاريخى الآن بلا تعسف : هل إصرار أهرام عام ١٩٥٩ على نشر هذه الرواية لمدة ٣ أشهر كان نابعا من أنها تعبر عن فكر كاتبها وحده أم ناشرها أيضا ؟ هل التقى فكر الأستاذ نجيب محفوظ مع هدى وفكر الأستاذ هيكل رئيس تحرير الأهرام يومها بالصدفة ، أم أن الأستاذ محفوظ كصديق للأستاذ هيكل نبتت إليه فكرتها من الحوار الذى كان يدور بينهما كثيرا؟ ولن نجيب على السؤال لأننا لا نعرف فالأستاذ نجيب أو الأستاذ هيكل هو المطالب بالاجابة عليه .

ولكن السبب الذى جعلنا نطرح هذا السؤال عليهما سويا هو ما ورد فى كتاب هيكل (فى الطريق إلى رمضان) ص ٩٧ حيث يذكر لنا الحوار التالى الذى دار بين الأستاذ هيكل والرئيس الأسبق جمال عبد الناصر .

عبد الناصر : ماذا بعد الموت ؟

هيكل : هذا السؤال بالغ الصعوبة وأعتقد أن الجنة والنار هى هنا فوق هذه الأرض وربما كان القصد من ذكرهما الرمز للخير والشر وفى إمكاننا نحن أنفسنا أن نجعل من حياتنا جنة أو نارا بعد الموت فربما كانت النهاية .

عبد الناصر : اتعنى أن من يفعل خيرا على هذه الأرض لا يدخل الجنة ؟

هيكل : لا أدرى وإنما أظن أن الجنة والنار رموز .

عبد الناصر : ذلك يعنى أننا بالموت ننتهى وهذا كل شيء ؟

هيكل : هذا كل شيء .

عبد الناصر : هذا ليس مطمئنا .

وبعد هذا الحديث بثلاثة أيام كان عبد الناصر قد مات (هذا ما ورد فى كتاب الأستاذ هيكل) . وقد ذهب المعلقون وآخرهم منذ يومين الأستاذ كمال المليجى إلى أن عبد الناصر عندما استهل هذا الحديث بسؤال هيكل : هل أنت مؤمن إنما كان يشك فى إيمان صاحبه وإلا لما سأله هذا السؤال .. لأنه ليس من المعتاد أن يسأل الصديق صديقه بعد كل هذه السنوات : هل أنت مؤمن أم لا ؟ وأن عبد الناصر عندما يطرح هذه الأسئلة أيضا كان يعبر عن شكوكه هو أيضا .. فقد سأل عبد الناصر هيكل : ثم ماذا بعد الموت ؟ وكان الأعجب من هذا السؤال رد هيكل عليه : حيث أن القرآن الكريم لم يقرر أن الجنة والنار مجرد رمز ولا يوافق القرآن الكريم على قول هيكل بأن فى إمكان الفرد منا أن يجعل من حياته جنة أو نارا .

بل لقد سبق القرآن الكريم إلى وصف هذا الرأى فى الآية الشريفة : ﴿ **وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين** ﴾ (صدق الله العظيم) .

لهذا يرى الأستاذ المليجى وكثيرون آخرون أن هذا الحوار يعتبر إنكارا لما هو معلوم من الدين بالضرورة وهكذا يخرج المرء من دين الإسلام لأن رد الأستاذ هيكل ينفى وجود القيامة والبعث .

ردود أخـــرى

وما زال الحديث للأستاذ (مصطفى عدنان) وقد نشرت جريدة النور ردودا أخرى له فى عددها الصادر ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ - ١ فبراير ١٩٨٩ م. وقد كتبها تحت عنوان (القرآن الكريم هو الذى يرد على سفسطائية محفوظ) وها نحن أولاء نسجل تلك

الردود كما جاءت لا تنقص حرفا ولا تزيد كما تقتضى الأمانة العلمية .

قال : يسمى نجيب محفوظ سيدنا آدم عليه السلام باسم أدهم أى زاد على اسمه حرفا واحدا فقط الهاء .. ويسمى نجيب محفوظ إبليس باسم إدريس غير الباء واللام بالدال والراء ويشرح كيف أن الله اختاره دون إبليس ليدير أوقافه (ليكون خليفة الله فى الأرض) تماما كما جاء فى القرآن : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ (البقرة : ٢ - ٣٠) ويعترض إبليس فى الرواية كما اعترض فى القرآن : إننى وأخوتى أبناء هانم خيرة النساء (النار) أما آدم (فابن جارية سوداء) [الصلصال - الطين] نص كلام نجيب محفوظ أى كما جاء فى القرآن الكريم . ومن ذلك سورة الأعراف ١١/٧ - ٢٥ بلسان إبليس : ﴿ **قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ويرد الجبلاوى (الله) فى الرواية على اعتراض إبليس (أدهم على دراية ويعرف أكثرهم بأسمائهم وعلى علم بالكتابة والحساب) أى كما جاء فى البقرة ٣٠/٢ - ٣٩ : ﴿ **قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم ...** ﴾ الخ .

وبعد هذا الحوار المنقول بمعناه من القرآن الكريم يبدأ الكاتب فى طعن ذات الله عز وجل بلسان إبليس وهو يرد على الله بما لم يرد فى أى كتاب منزل : (خلقت فتوة جبارا فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جبارا ونحن ابناؤك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين) نص كلام الرواية .

وهكذا حول نجيب محفوظ (الخالق) عز وجل بكلمة منه وهى (خلقت) بضم الخاء من خالق إلى مخلوق فحاشا لله ، ولو رد علينا نجيب محفوظ بقوله : أن المراد بكلمة (خلقت) هنا هو جبلت أى كنت بطبيعتك فتوة جبارا .. لزادت الطينة بله لأنه يستهزىء باسم الله (الجبار) إذ قرنه بلقب الفتوات الذين يعاملون أبنائهم كما يعاملون ضحاياهم العديدين بنص قوله فى أولاد حارتناً .

ولم يفهم نجيب محفوظ أن اسم الله (الجبار) لا يمت بصلة للبلطجة ، والبلطجية كما كتب وكما صور لنا ذات الله وإنما معناه أن الله (يجبر) الخلق وينفذ مشيئته على من أراد (من أمر ونهى) ولكن بعد أن كتب الله على نفسه الرحمة والعدل وحرم على نفسه الظلم « **ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى فلا تظالموا** » وهكذا لا تنفذ مشيئة أحد من المخلوقات على الله فهو المنفرد بعلو مرتبته ويخضع لعظمته كل شىء. قال تعالى : ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر** ﴾ (الحشر : ٣) . وقال عز من قائل : ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** ﴾ (فصلت : ١١) وذلك تنبيها لعباده بأنه قد عنت له الوجوه وخضعت له

الرقاب .. وفى القرآن الكريم آيات بينات توضح لك يا أستاذ نجيب صفة الجبار عندما تطلق على المخلوقين من الخلق والفرق بينها وبين اسمه الجبار الذى شرحناه آنفا قال تعالى : ﴿ **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد** ﴾ (هود : ٥٩) . وقال تعالى : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ (غافر : ٣٥) .

إذن جلت قدرته هو القاهر فوق عباده له الخلق والأمر فعال لما يريد .. وعندما ينعم الله يحفظ هذا العبد من الظلم والبغى من كل جبار عنيد . أفهمت ؟

فالجبار فى اللغة يا أستاذ نجيب اسم على وزن فعال من (الجبر) الذى يجبر الشىء فيغنى الفقير ويصلح الكسير - أى المصلح - أحوال عباده .. والجبار يا أستاذ نجيب هو (العالى) الذى لا ينال ويطال (بضم الياء) فسبحان الجبار الذى لا تصل العقول إلى الاحاطة بجلاله .

ثم يقول نجيب محفوظ بلسانه فى روايته أهل الله (أحفاد الله كما يسميهم) .

أكـل من يتبـع ديـن الله
يعيش مع القمـل فى القـاذورات ؟

وأعجب شىء أن الناس يحسدوننا ولكنهم لا يعلمون أننا بتنا من الفقر كالمتسولين نعيش فى القاذورات بين الذباب والقمل .. ونقنع بالفتات ونسعى بأجساد عارية ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير (بيت الله الحرام) ونقول فى حزن وحسرة هنا يقيم الجبلاوى .. وتعجب نجيب محفوظ هنا بقوله : واعجب شىء و(أن الذين يحسدوننا لا يعلمون) هو إنكار لصريح القرآن الكريم إنكار لقوله تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ (النحل : ١٨) وإنكار لقوله تعالى مثلا : ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ ولقوله : ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ (النحل : ٧٣) .. ولقوله : ﴿ **واسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة** ﴾ (لقمان : ٣١) .. ويحمل الكاتب رب العزة - بزعم أن مخلوقاته هم ضحاياه - يحمله وزر حياة المؤمنين به فى القاذورات بين الذباب والقمل بأجساد عارية .. الخ .. الخ .. لأنهم رغم ذلك كما يقول النص : (ولا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت) (الكعبة) .

أليس هذا الهراء والكفر إنكارا لقانون القرآن الكريم الذى تنبىء عنه هذه الآيات الكريمة على سبيل المثال : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** ﴾ (يونس : ١٤) . ﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾ (الإسراء : ٨٤) .

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ (الزلزلة : ٧ ، ٨)

إن هذا الترويج يتحدى قوله تعالى : ﴿ **إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى** ﴾ (آل عمران : ١٩٥) وقوله : ﴿ **إن الله لا يصلح عمل المفسدين** ﴾ (يونس : ٦١) .. وقوله : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾ (الفرقان : ٢٣) .. وقوله : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾ (الكهف : ٧) .. وقوله : ﴿ **إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا** ﴾ (الكهف : ٣٠) .. وقوله : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾ (التوبة : ١٣٥) .. وقوله : ﴿ **كذلك زينا لكل أمة عملهم** ﴾ (الأنعام : ١٠٨) .. وقوله : ﴿ **كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم** ﴾ (البقرة : ١٦٧) .

ومع ذلك رغم وضوح الآيات يلصق نجيب محفوظ الراوى القذارة والقمل الخ بالمؤمنين بالله (أهل الله) .. ألم تراهم يا أستاذ نجيب على حقيقتهم حتى بعد أن بلغت من العمر أرذله .. أولئك الذين وصفهم رسول الله ﷺ : « **ما من مسلم يبيت على طهر يتعار من الليل فيذكر الله خيرا من خير الدنيا والآخرة إلا أتاه الله إياه** » جرب ولسوف تمزق أولاد حارتنا بكل ما جاء فيها أم أنك من المصرين ؟

ألم تسمع قوله تعالى ألم تر حال وطهارة الذين أطاعوه من حولك حيث يأمرهم قرآنهم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا** ﴾ عن أى قمل وقاذورات تتحدث أيها المؤمن ؟

ألم تعلم بما ورد عن رسول الله ﷺ عندما قال لبلال رضى الله عنه : « **أخبرنى بأرجى عمل عملته منذ دخلت الإسلام ؟** » فقال بلال : لماذا يا رسول الله . قال : « **لأنى سمعت دق نعليك بين يدى فى الجنة** » . قال يا رسول الله : ما أحدثت حدثا إلا وتطهرت وصليت بذلك الطهور ما شاء الله أن أصلى .. ثم تصف أهل الله والمؤمنين بأنهم مع القاذورات لا يعملون كالمتسولين .

إذن أنت لم تقرأ قوله تعالى : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ ألم تر بعد من لبوا نداءه تعالى : ﴿ **فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ أو قوله ﷺ : « **من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة** » أكل هذه الشعوب الإسلامية والمسيحية واليهودية الكادحة أصبحوا مصدر تحقيرك لأنهم آمنوا بالله وأن من كفر به وآمن بالشيوعية هو الذى حقق الرخاء والتقدم .. وهم الذين يتبعون وصيته ﷺ : « **إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس** » فكيف تصف من لم يعمل بأن ذلك مرجعه إلى

إيمانه بالله أليس هذا نقص فى دينه الدين منه براء؟ فكيف تعزو هذا إلى الله وإلى الدين؟

أستاذ نجيب .. أنت تصف الله بأنه يتزوج فإبليس يتهم رب العزة فى روايتك فى حوار لم يرد فى أى كتاب منزل كنص قولك : (جارية استطاعت أن تعبث بك أى بالله) .

إذن أنت تكذب ما أورده الله عن هذا الحوار : ﴿ **قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ (الحجر : ٢٦) . ويرد إبليس : ﴿ **قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ فيرد عليه رب العزة : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾ . توقف يا أستاذ محفوظ طويلا إذا سمحت لك الفتن التى أحاطت بك وبحوارييك الذين يتقاتلون على الظهور فى البرامج المحشودة من أجلك توقف عند لفظ (عبادى) : [عبادى ليس لك عليهم سلطان] إنك تصف أن لله زوجات (حريم) وبنين (الملائكة تارة كما تقول على طول روايتك وبنى آدم تارة أخرى كما تقول على طولها وعرضها أيضا) بل أنت تقول بلسان رب العزة فى حديثه ردا على قول إبليس أن جارية (أم آدم) عبثت بالله فيرد الله دافعا عن ذاته (إنها زوجتى) ألم تسمع قوله تعالى يرد عليك من فوق سبع سموات : ﴿**فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ (الصافات : ١٤٩) .

أهذا تحديا من حضرة (الفائز) بجائزة نوبل لقوله تعالى : ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون** ﴾ (النحل : ٥٧) . ولقوله تعالى : ﴿ **أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين** ﴾ (الزخرف : ١٦) . أو قوله : ﴿ **أم له البنات ولكم البنون** ﴾ (الطور : ٣٩) . أو قوله : ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين** ﴾ اسمعت .. فكيف استباح لك علمك وفنك أن تقول عن ذات الله الواحد الأحد الفرد الصمد : (ثم رفع رأسه صوب نوافذ الحريم) ليهددهن بقوله : طالقة ثلاثا من تسمح له (لإدريس - إبليس) بالعودة .

يمين الطلاق تلقيه روايتك على حريم الله وكم مرة ثلاثا إذن أنت تنفى الألوهية عن ربنا بصفات بشرية تسبغها عليه من قبل أن تخبرنا أن الشيوعى (عرفة) قد تسبب كما جرى فى نهاية روايتك فى موت الله حزنا لأن الشيوعى قتل الأمين جبريل وهو يظن أنه يقتل الله عندما بلغ الله من العمر عتيا وأصبح لا حول ولا قوة لله : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم** ﴾ .

وتدافع عن إبليس حيث تقول بلسانك بصفتك الراوى قدحا منك فى الله ومدحا منك فى الملعون الشيطان الرجيم .. تقول حتى إدريس (إبليس) : على قوته وجماله وإسرافه أحيانا فى اللهو لم يسىء لأخوته الملائكة قبل أن (يتحيز) الله لآدم ضد إبليس .

تصف بقلمك قرار الله عز وجل بجعل آدم خليفته فى الأرض بأنه قرار (متحيز) هذا كلامك فأنا لك هذا العلم بالغيب وأنا لك هذا المقام لمحاكمة قرارات الله عز وجل أيها الفرحان بفوز أولاد حارتنا أنا لك أن إبليس كان يتميز بالقوة والجمال فلمن الصفات الأخرى كالقبح والضعف هل هى للملائكة أم لآدم عليه السلام ؟

تقول هذا وربك هو القائل للشيطان الرجيم فى القرآن الكريم : ﴿ **اخرج منها (أى من الجنة) مذءوما مدحورا (اخرج منها فإنك رجيم)** ﴾ تقول هذا الذى قلته بالرغم من أن القرآن الكريم (وهو أمامك إن شأت اقرأه قبل أن تكتب) أن إبليس أصبح بعد ثورة الله عليه (قاطع طريق) كما كان من قبله الله قاطع طريق هكذا .. وأنه صار بعد الثورة عليه عربيد أثيم يعتدى (ثورة من إبليس ضد ما اسميته بتحيز الله ضد إبليس لحساب آدم) .

تخريف مخيف .. الله الموصوف فى قرآنه بأنه ﴿ **على كل شىء قدير** ﴾ .. وأنه بكل شىء عليم والذى يسألنا تنبيها لنا : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ وأنه (الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم) الله الذى أمته فى نهاية روايتك بيدى بطلك الشيوعى ورضيت أن توصف روايتك فى ترجماتها فى الخارج بصفة (موت الإله) الله (المبدىء المعيد الفعال لما يريد .. السميع البصير الذى لا يعزب عن رؤيته حتى دبيب النمل فى حفراته تقول عنه بنص كلامك : لا يرانا ولا نراه . الله الذى بين أيدينا كلامه الذى يتحدى الزمن والبشر بآياته التى لا تعد ولا تحصى . الله الأول بلا بداية الآخر بلا نهاية . بعلمه القديم وإرادته التى لا مرد لها . الله الحى ، الله الغنى ، الله الرزاق الذى تصف أهله بالمتسولين وهو القائل : ﴿ **وفى السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ .. الله العزيز الذى علمنا العزة فى الطلب كما ينبهنا رسول الله ﷺ : « **اطلبوا الحوائج بعزة النفس فإن الأمور تجرى بمقادير** » . الله الذى يقسم لنا بقوله عز وجل بذاته : ﴿ **فورب السماء والأرض** ﴾ رب كل شىء مؤكدا لنا أن تقدير الرزق وتحديده فى السماء : ﴿ **فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ (الذاريات : ٢٣) فكيف تروج فى أولاد حارتنا أن الله ليس كما وصف نفسه بالصمد الذى يقصد لقضاء كل الحوائج والذى بيده الخير كله والذى يستطيع أن يعطى كل إنسان حاجته دون أن ينقص ذلك مما عند الله شيئا وهو فى قوته لا يستعصى عليه أحد مهما بلغ جاهه أو سلطانه ..

وإنه الأحد الذى ليس كمثله شىء .. الذى لا شريك له ولا أحد يعلو إليه أو عليه ليكون ندا أو غالبا له .. تصفه بأنه قاطع طريق منحاز بلغت به الشيخوخة مبلغ العزلة والعجز .. تاركا ملكوته يسير على هوى غيره .. ويظلم عباده وله ضحاياه من المؤمنين به

والله هو القائل : « **وسعت رحمتى كل شىء** » . وهو القائل : ﴿ **إن الله يحب التوابين** ﴾ . وهو القائل : ﴿ **إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾ إلا أن يشرك به فما البال بإنكارك أصلا لألوهيته بأنه لا يرى ولا يسمع ويموت وكل أنبيائه ورسله فسقة يتعاطون المخدرات والمسكرات وجواريهم وأتباعهم (جرابيع) .

أهذا هو الله الذى اعتزل حتى مات .

أم تسمع قول الرسول ﷺ وهو يتلو قول الله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ ويفسرها بقوله : « **إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناديا : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار** » قال الرسول ﷺ : « **فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب لهم من النظر ولا أقر لأعينهم منه** » .

أستاذ نجيب : ثم أراك تجعل لله عز وجل مكانا - كالبشر - فى بيته الكبير والله هو الموجود فى كل مكان الذى لا يحده المقدار . ولا تحويه الأقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرض والسماوات . المستو على العرش على الوجه الذى قاله وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المحاسة والاستقراء والتمكن والحلول . لا يحمله العرش بل العرش وحملته من الملائكة محمولون بقدرته وهم معهودون فى قبضته .

تقول أن الله اعتزل لا يدرى عنا شيئا .. وهو الله القريب من كل موجود أقرب إلى عباده من حبل الوريد .. وهو على كل شىء شهيد فتعالى الله عن أن يحويه مكان فى حارتك . كما تقدس الله عن أن يحده زمان كما وصفته فى حارتك بل كان الله يا رجل قبل أن يخلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان .

ثم تصف الله بالعجز (راجع فى مقالنا الأول) بنص كلماتك وهو الله الحى القادر الجبار القهار الذى لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا يعتريه موت ، فهو ذو الملك والملكوت والقوة والجبروت وصاحب الأمر فى السماوات والأرضين وأنه تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء . بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ألم تعرف .

الله أول موجود لذاته وكل ما سواه لولاه معدوما ومفقودا حتى أنت . هذا هو الله الذى تجرأت عليه جرأة وصفها غلاف كتابك بالانجليزية بأنها غير مسبوقة فى تاريخ الأدب كله .. ولكن الأوركسترا المعادى للأديان . أو المدمن للظهور فتنك .. وساقك وسقته للحديث عن أى شىء يتيح لهم الظهور على هواك وهوى من السيد الأستاذ نجيب محفوظ (وصفت نفسك

بخط يديك بلقب شيوعى ، وهو لقب الرفيق) – راجع رسائلك التى نقلناها عنك فى مقالنا الأخير –. فيا أيها الرفيق – لغيرنا – أراك تصف الملائكة عباس كما اسميت عزرائيل ورضوان (خازن الجنة) وجليل (كما اسميت جبريل) بأنهم يقضون وقتهم فوق السطح (السماء) يقامرون .

الملائكة يلعبون القمار :

ألم تعلم أنها أجسام نورانية لطيفة قادرة على التشكل عظيمة القدرة على الأفعال الشاقة . يعبدون الله آناء الليل وأطراف النهار ولا يعصون الله ويفعلون ما يؤمرون .. فكيف يسمح لهم ربهم بلعب القمار وكيف يستقيم ذلك مع نصوص القرآن الكريم التى تجرم هذا القمار ويعاقب ربنا من يمارسه .

ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ .

إذن فقد طرد الله إبليس من الجنة ومع ذلك أنت تراه تركه يغوى الملائكة لممارسة هذا الرجس . يقول الله عز وجل فى شأن الميسر : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء** ﴾ (المائدة : ٩٠) أم أن الملائكة يعصون الله ومع ذلك يصفهم فى قرآنه : ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ ويستغفرون لمن فى الأرض ويسبحون لا يفترون (الخ) .. لا أظنهم والله يستغفرون لأولاد حارتنا . بل أراهم لا يفترون عن لعنها .

كيف يا ترى تكون ممن ذقت حلاوة الإيمان يوم سطرت أولاد حارتك أو يوم فزت بسببها .. ويوم مجدك من مجدك بعدها . كيف يا ترى تكون ممن ذقت طمأنينة اليقين وعز الخشوع ثم تشهر بالمؤمنين وتصفهم فى الرواية دون أن يبرئهم أى من شخوصها بأنهم الأندال (نص كلامك) وأن كل علاقتهم بالله هى من أجل الطعام والشراب .

ويتم ذلك بلسان من يحظى فى روايتك بإعجابك وهو الملعون ودون أن تفند رأيه هذا بل تتركه كنار السموم يعصف بضحاياك من الكتاب الصغار والقراء المساكين الذين يسبحون بمجدك ليل نهار .. لا يفترون .

كيف تكون من هؤلاء الذين ذاقوا حلاوة الإيمان ثم تقذف أم البشر عليها السلام زوج أبينا آدم أبو البشر عليه السلام بأنها زنت مع إبليس .. وأننا نحن أبناء الزانية .

ألم تسمع قول الله عز وجل فى قرآنه الكريم يسأل من على شاكلتك ممن يتحدثون عن اتخاذ الله إناثا أو ممن خلق آدم وحواء وذريته والسماء والأرض بما لم يشهد به الله وينبئنا به :

﴿ اشهدوا خلقهم . ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ (الزخرف : ١٩) .

وعن من اتخذوا الشيطان وذريته أولياء كما فعلت أولاد حارتك يسألهم القرآن الكريم **﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا . ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾** (الكهف : ٥٠) .

ثم تناقش ما تروجه روايتك – دون دحض منك – من أننا أولا زانية فنسألك : أكنت أحد أربعة شهداء فى هذا اليوم الأول ؟

ثم : ألم تعلم بعد أن عقوبة القاذف للبرىء بالزنا هى ثمانين جلدة : **﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾** (النور : ٤) .

ألم تعلم أن هذه هى عقوبة من يتهم المحصنات . فما البال .. بمن يتهم أم البشر بالزنا .. إن الذى يتهم المحصنات فاسق .. فما حكم الشرع أى أنه فسق عن الإسلام .. كما يفسق البلح بإزالة القشرة على الثمرة فالإسلام برىء منه تماما .

فهل أنت من أولاد أمنا حواء كسائر البشر من أمثالنا .. أم أنك ونحن جئنا بمقتضى نظرية دارون من نسل القرود .. رغم ثبوت بطلان هذه النظرية .. أم أن لك نظرية أخرى لم تعلن عنها بعد عن نشأتك ونشأتنا .

إنك تجبرنا جبرا أن نسألك عن أصولك وفروعك إن كنت حقا من بنى آدم وحواء مثلنا . فإن لم تكن فنحن مضطرون لسؤالك عن نظريتك التى شيدت عليها أولاد حارتك ؟ لأن إنكار الله (والحكم عليه بالموت بيدى أحد مخلوقاته بعد فشل الله وعجزه وكبر سنه .. يدفع بك إلى هوة سحيقة من الأسئلة : كيف خلقنا .. ألم تعلم بعد ؟

ومن منا تناسل بالحلال ، ومن منا تناسل بالحرام ؟

أم أنه فى يقينك واعتقادك أن الحلال والحرام قيم (أفيونية) (أى دينية) باعتبار الدين هو أفيون الشعوب كما تعلمنا روايتك ؟

تقول فى روايتك : كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة من الله (الجبلاوى كما تسميه) إلى متسولة تعيسة .. وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة يحمل على ظهره العارى سياط .. والدم يطفح من فمه وأنفه .

وهكذا تؤكد المرة بعد الأخرى أن التسول والعوز مصير كل عابد مخلص وأن الله كما ذكرت : قابع وراء الأسوار بلا قلب .. متمتعا بنعيم لا يخطر على بال بالمقارنة بأبانا الذى

يكدح .. وأمنا التى تكد طول النهار وشطرا من الليل . ونحن حفاة شبه عراه.– نص تعبيراتك – وتصف حفيدة الله (أخت سيدنا هابيل) بأنها عاهرة . وحفيد الله – كما تصفه – (قابيل) بأنه قاتل ، هكذا قلت : حفيدة وحفيدا .

﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو** ﴾.. وهو الله : ﴿ **الذى لم يلد ولم يولد** ﴾ وبالرغم من أنه ﴿ **لله ميراث السموات والأرض** ﴾.. وأنه ﴿ **له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ .. وأنه ﴿ **عنت الوجوه للحى القيوم** ﴾ .. لأن ﴿ **لله مقاليد السماوات والأرض** ﴾ .. ﴿ **وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات والأرض** ﴾ .. ﴿ **والله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل** ﴾ .. ﴿ **ذلكم الله خالق كل شىء لا إله إلا هو** ﴾ أتريد المزيد من آيات القرآن التى ترد عليك أم هذه الآيات التسع تكفيك ؟

أم أن كل آيات القرآن الكريم والكتب المنزلة من قبله لم تكفك والقول أننا أولاد زنا لأن إبليس زنا بحواء . فيه جهل وعدوان شديد بل مريع .. لأنك لم تعلم أن إبليس يطوف بكل امرأة أو رجل يتلاقيان كزوجين لا يستعيذان بالله .. ولا توصف المرأة هنا بالزانية لأن الطواف هنا يقصد به (مس الجنين) كى لا يعيش أو كى لا يكون مباركا .. أو كى تمرض المرأة أو الرجل لأن الشيطان يسرى فى الإنسان مسرى الدم إن لم يتحصن منه فهل نسمى تمكن الشيطان من ذلك قبل الاستعاذة منه زنا . أرأيت هول وخطورة فكرك وهو يلوث لا العقول والعقائد بل طهارة الكون كله .

وبهذا المنطق– أن هناك عاهرة وأولاد زنا – أثبت يا أستاذنا – عدم علمك بعد بأنه لما أراد الله تعمير الأرض ببنى آدم كخلفاء فى الأرض أذن لسيدنا آدم عليه السلام أن يزوج ذكر كل بطن (من أمنا حواء) بأنثى البطن الأخرى فأراد هابيل أن يتزوج بأخت قابيل (توأمه) وكان قابيل أكبر من هابيل وأخت هابيل أحسن .

وهذا حق هابيل طبقا لما علمهما آدم بإذن ربه .. ولكن قابيل أراد أن يستأثر بتوأمه – أخته بولادة واحدة – على أخيه هابيل فأبى سيدنا آدم عليه السلام وأمرهما أن يقربا قربانا وذهب آدم ليحج إلى مكة وقرب قابيل حزمة من ردىء زرعه وقرب هابيل وتركت قربان قابيل علامة عدم قبول الله فغضب قابيل وقال لاقتلنك قال: إنما يتقبل الله من المتقين . فقال هابيل التقى لأخيه الفاسق : ﴿ **لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك . إنى أخاف الله رب العالمين . إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين** ﴾ .

وبعد .. إن هناك (خلل) فظيع فى هذه الرواية .. إنها لم تر عظمة الكون والملكوت بينما (قليل من الفلك) كان كفيلا بإنارة العقل وبايقاظ هذه الحارة بأولادها من غفلتها وسقطتها المرعبة مما يدعونا إلى أن ننصت سويا إلى هذه الأنباء الهامة . فلعل الكاتب الكبير لم يعرفها لانشغاله بتخصصات أخرى عندما كتبها (مما كشفت رسائله إلى لندن عنها) أو انشغاله بالعرس الكبير الذى أقيم له وكأن معجزة من السماء قد حدثت بيديه .. هذا العرس الاعلامى الذى لم يسبق له مثيل فى طوله الذى بدأ قبل خمسة أشهر لم تتوقف الأفراح فيها لا بالنهار ولا بالليل يوما واحدا حتى أصبح الوضع مريبا جدا .. فلا هو حدث لانتصارات أكتوبر .. ولا للجلاء .. ولا لأى مناسبة أخرى .. خمسة أشهر ليل نهار .

قلت لك قليل من الفلك يصلح أحوال أولاد حارتك .

لقد تم هذا العام اكتشاف مجرة جديدة (٤ س ٤١) تعتبر أبعد تكتل من الكواكب عن الأرض . أمكن اكتشافه حتى الآن وهى على مسافة ١٥ ألف مليون سنة ضوئية (السرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة) وهى تزيد عن تسعة أعشار المسافة التى تمتد من كوكب الأرض إلى حدود الكون المعروفة وكنا قبلها نعتقد أن أكبر مجرة فى الكون (واسمها ماركريان) ١١٤٨ حجمها أكبر من مجرتنا بـ ١٣ مرة وأنها ولدت منذ ١٢ مليار سنة ضوئية .. فهل فى ظل هذا (الغيب) من المعرفة يمكن وصف الله كما فعلت ؟

وقد يقرب الصورة لنا ولك عن عظمة الخالق يا أستاذ نجيب أن تعلم أن النجوم والكواكب كائنات حية لها أعمار زمنية محددة ، تنفجر بعدها وتموت هذه الفجوات السوداء التى يراها الفلكيون عبارة عن (قبور النجوم التى توفت) ، أما الفجوة السوداء المركزية فى الفضاء فهى التى تهدد بابتلاع كافة نجوم وكواكب الفضاء .. ولو اقترب القمر ٣٠ كيلو متر فقط ناحية الأرض لانشق وتلك من علامات يوم القيامة كما يذكر لنا القرآن الكريم .. ألم تقرأ هذه السورة ؟

والمعرفة بعلم الفلك سوف تؤكد لنا أن هذا العلم لا يتعارض مع الحقائق الدينية بل يتطابق معها .. وبصورة شبه حرفية .. فعلم الفلك يقول أن ولادة الكون قد حدثت منذ خمسة عشر مليار عام حيث كانت هناك نقطة سوداء عملاقة انفجرت ذلك الانفجار الرهيب الذى ولدت منه الكواكب والحياة وولد الكون (المسافة من الأرض إلى الشمس ١٥٠ مليون كيلو متر .. وهناك نجم أبعد عنا ١٢ بليون مرة بعد الأرض عن الشمس) .

أما المجموعة حديثة الولادة فهى تبعد عنها ١٢ مليار سنة ضوئية (أى حوالى مائة وأربعة عشر تريليون كيلو متر) . أما مجرتنا فقطرها ١٠٠ ألف سنة ضوئية فقط .

هذا الكون يا أستاذ نجيب عجز أمامه جهاز مزود بسبعة وعشرين تليسكوبا لاسلكيا قطر كل واحد منها ٢٥ مترا وضعوه فوق الأراضى المرتفعة بولاية نيو مكسيكو وبه تمكنوا من اقتفاء أثر بعض النجوم المختفية ، أكد أن هناك عشرات الآلاف من الكواكب لم نكتشفها بعد.

هناك يا أستاذ نجيب نجم أكبر من الشمس عشرات المرات يلف ٦٠٠ مرة حول نفسه فى الثانية الواحدة .. أى أنه يدور حول نفسه ٥١ مليون و٨٤٢ ألف دورة فى اليوم .. وهو يندفع خارج المجرة بسرعة ١٣٠٠ كيلو متر فى الثانية .. محاولا الخروج إلى الكون الشاسع خارج المجرة التى تجمعه مع الأرض . أرأيت أن حارتك تدعى ادعاءات باطلة عن أنها هى الكون .

أما النجم الغامض (اس / س ٤٣٣) فيلف دورة واحدة حول نفسه كل ١٦٠ يوما .. ولكنه يتحرك بسرعة جنونية أيضا تبلغ ٣٠ ألف ميل فى الثانية .. وحارتك لم تراه فهو على مبعدة منا بعشرة آلاف سنة ضوئية وهو يتجه إلينا الآن .

والنجم عندما يشهق شهقة واحدة ينفجر .. انفجار يساوى ملايين القنابل الهيدروجينية وعشرة نجوم تنفجر كما نكتشف سنويا ، وفوق كل ذى علم عليم لهذا فإن الله أكبر يا أستاذ نجيب .

وقبل أن ننتقل إلى ردود القرآن الكريم على ما قاله نجيب محفوظ عن الرسل والأنبياء نتوقف عند قول نجيب محفوظ الذى يكرره فى كل مناسبة أن العالم الإسلامى كله يقرأ هذه الرواية إلا مصر وهذه أكذوبة كبرى فالرواية مطاردة من جميع الدول المؤمنة بربها ولقد أراد نجيب محفوظ أن يغرر بالصحافة السعودية فأرسل إلى (أخبار العالم الإسلامى) وهى مجلة أسبوعية تصدرها رابطة العالم الإسلامى فى مكة المكرمة برسالة يقول فيها أن حلمى زيارة الأراضى المقدسة (ملحوظة : طبعا سيادتكم تعلمون أن أفضل الحج هو ما يتم على نفقة الحاج إن استطاع إليه سبيلا وإن كنت أوقن أن دخلك من هذه الرواية أو من جائزة نوبل التى منحتها بسبب هذه الرواية لا يصلح للانفاق منه على الحج). ثم تقول يا أستاذ نجيب أنه ليس فى رواية أولاد حارتنا ما يدعوك للتبرؤ منها ردا على النداء الذى وجهته إليك رابطة العالم الإسلامى فى هذا الشأن .

لهذا فقد أفردت هذه الرابطة الكبرى التى تقف فى المرتبة التالية للأزهر الشريف عالميا فى المجلة التى توزع فى العالم أجمع صفحة كاملة للرد عليك بقلم ممثلها فضيلة الأستاذ محمد حسانين لكن قاصمة الظهر هى رواية أولاد حارتنا والتى هى فى واقع الأمر أشد الروايات خطورة وهرطقة والمصيبة أنه أعلن بعد الفوز أنها من أحب الأعمال إلى قلبه كما أنى قرأت

حيثيات الفوز بالجائزة ووجدت إشادة من اللجنة بهذه الرواية على أنها تمثل بحث الإنسان الدائم فى جانب الروحانيات وتعجبت وأكاد أقول الآن أن ذلك كان لحاجة فى نفس يعقوب .

ثم يقول : ما زالت رواية (أولاد حارتنا) لم تصدر فى مصر حتى كتابة هذه السطور وقد قرأتها أول ما قرأتها باللغة الانجليزية لكن الدولة فى عهود ثلاثة من رؤسائها عاصرهم نجيب محفوظ هم جمال عبد الناصر - أنور السادات - محمد حسنى مبارك .. رفضت أن تصدر فى مصر وإن كان الأمر بعد نشرها فى الأهرام غير مفهوم خاصة وأن (الأزهر) المعمور .. حين ثار .. صدر قرار (تطوير الأزهر) كما يقول العالمون ببواطن الأمور .

وقد كان نجيب محفوظ غير موفق حتى فى اختيار الأسماء والدلالات الرمزية الوقحة وهو يصف المولى عز وجل بصفات ليست من صفاته فهو يمرضه ويشفيه ويشكك فى وجوده وهو يقصد بالحارة هذه الدنيا الواسعة وتصل هرتقطته إلى أنه يصور الله كأى شخصية روائية يبتكرها خيال روائى أو قصاص **﴿ تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ﴾** .

إنها زلة كبيرة وكفر يعلم الله بواح .. لأن هذه الرمزيات الواضحة تضع الكاتب ما لم يتب بين صفوف الملحدين وعندئذ إذا لم يسارع بالتوبة أو نفى التهمة فلا فرح به أوله .. لأن زلة الكاتب الذى تتاح كتبه للناس لقراءتها تقرأها الأجيال المتعاقبة غير زلة الإنسان العادى الذى لا يؤثر إلا على نفسه أو على من حوله (على أقصى تقدير) . أما زلة الكاتب فتمتد آثارها وآثاره إلى أناس لا يعرفهم ولم يلتقوا به بل وربما عاشوا فى زمان غير زمانه ومن هنا يصبح تأثير الكاتب - أى كاتب - غير محدود الزمن والمكان .. لا تكتب بخطك غير شىء يسرك فى القيامة أن تراه ولذلك فإنه إذا زل أحد العلماء أو الكتاب قد يزل بزلته خلق كثير وعالم واسع فى أزمان وأماكن مختلفة .

وما أن فاز محفوظ بجائزة نوبل حتى تعالت أصوات (الشيوعيين) تطالب (بطبع) وإصدار الرواية بدعوى أنه من (العار) أن تكون كتب الرجل تقرأ فى كل أنحاء العالم مترجمة بكل اللغات بينما إحدى رواياته مصادرة وممنوعة فى مصر ، وقال البعض أنه لا يوجد (حكم قضائى) بالمصادرة و(حرية النشر) فى مصر تحتم نشرها متناسين دستور البلد الذى ينص على (الشريعة الإسلامية) وأن هذه الرواية لا تسيىء حتى للمسلمين فحسب بل لأنبياء الله جميعا ومنهم (موسى) و(عيسى) و(محمد) (جبل) و(رافع) و(قاسم) كما يسميهم محفوظ فى أولاد حارتنا .

ويتبجح البعض قائلاأن المصادرة تمت بناء على طلب هيئة غير رسمية (يعنى الأزهر) .. مما يجعلنا لا نملك إلا أن نتوجه بهذا النداء العاجل ، نقول للأزهر ومفكرى عالمنا

الإسلامى وقياداتنا : لا تستسلموا لأن الرجل فاز بجائزة نوبل وليكن الأزهر أزهرا لا تحنوا رؤوسكم للعواصف ، ثقوا بالله ثم بالمسلمين يسمعونكم فلا تهنوا .. ونقول للمسئولين بمصر : أليس جديرا بنا مع توالى المحن أن نتقى فى فكرنا وكتاباتنا كل ما يغضب الله علينا ؟ رواية ظلت ممنوعة عشرات السنين تطبع الآن والآن بالذات ولماذا ؟ لمجرد فوز محفوظ بالجائزة أم ماذا ؟

انتهى ما نقلناه من نص هذا البيان فى الخارج بمناسبة إنكار الأستاذ نجيب والاوركسترا الذى يعزف له وجود أى من منظمة فى العالم الإسلامى غير الأزهر ثارت عليه .

وبعد ...

لقد صورت سيدنا شعيب عليه السلام عند لقائه بسيدنا موسى عليه السلام بأنه يقضى وقته مع الجوزة واللفة ويقول بالنص لسيدنا موسى : (خير الليل ما مضى بين هذا وذاك) وأن موسى عليه السلام كان يضحك (فى نشوة طفل) لأن سيدنا شعيب قال له : (إنى أحبك أكثر من أى ثعبان عندى) وأن فرعون كان يسب موسى بأنه محتال وحشاش وتصف احتفال المؤمنين بسيدنا موسى وانتصاره على فرعون بأن (البوظة جرت أنهارا).

وانعقدت فى سماء الحجرات سحب الحشيش ورقصت تمر حنة حتى انحل وسطها وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل (سيدنا موسى الذى كلمه الله على جبل الطور) وشقيق سيدنا موسى – سيدنا هارون عليهما السلام – هى (أطيب الأيام) – نص كلامك –.

ثم قولك أن كل قوة الله هى فى كتاب السحر الذى أودعه أسراره وفنونه والذى ألقى به فى زبالة الحارة وأن المؤمنين قالوا لو خيرنا بين الله والسحر لاخترنا السحر .

وأن معجزات الأنبياء هى الاعيب حواه .. يقول سيدنا شعيب (أو البلطيقى) لسيدنا موسى (أو جبل) عليه السلام : (سأعلمك كيف تخفى بيض فى جيب متفرج وتخرجها من جيب آخر) أرأيتم تلميذ وهو كليم الله تلميذ محتال .. حاوى .. تكذيبا لقوله تعالى لموسى عليه السلام : **﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾** .

﴿ وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ﴾ .. ﴿ ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ .

﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب موسى وهارون** ﴾ ولكنك تقول أن موسى عليه السلام تعلم على يدى حاوى وأنهما كانا يسهران يتجاذبان الجوزة .. ونقص عليك هذه الحكاية كما وقعت لا كما شئت تشويهها على أطراف الشام ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم لوط كان هناك مدينة اسمها مدين على اسم قبيلة تسكنها وهم من أولاد مديان بن سيدنا إبراهيم عليه السلام وكان بينهم فى أرجح الأحوال سيدنا شعيب قد عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته ولهذا دليل من القرآن إذ شكى إلى سيدنا شعيب سيدنا موسى عليهما السلام عندما فر موسى خائفا من مصر فقال له هذا الذى يعلم بعلم الله : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾ . إذن كيف وصف القرآن الكريم سيدنا شعيب هل وصفه كما وصفته أنت حشاشا حاويا يغرر بالناس بثعابينه ويتعاطى مع سيدنا موسى عليه السلام المخدرات والخمر .. الخ .

انصت إلى قول الله عز وجل : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين . وإن كانت طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا . قال أولو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين . الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها . الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾.

أبعد أن تليت عليك هذه الآيات التى تقص علينا ما جرى لازلت مصرا على ألا تعترف وتتوب أرأيت كيف تجد فى روايتك وتزيف التاريخ .

الفصل الثانى عشر
ماذا قال عن أنبياء الله تعالى
(جبـــــل)

وقد رمز بهذا الاسم لكليم الله موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام فماذا قال عنه ؟

قال الكاتب :

مات أبناء الجبلاوى صغارا والوحيد الذى بقى من نسلهم وعاش طيلة حياته فى البيت الكبير كان (الأفندى) وهو ناظر الوقف . أما أهل الحارة فكانوا بين باعة جائلين وأصحاب دكاكين أو مقاه وعدد كبير من الشحاذين وقد استقر النظام على أن يسيطر ناظر الوقف على الحارة ومن فيها مستعينا بالفتوات فلكل حى فى الحارة فتوة يحمى أهله ويقهر من يعارضه ويدفع له الناس الأتاوات ، ثم للحارة كلها فتوة رئيس يساعد ناظر الوقف وكان فتوة الأفندى هو (زقلط) الذى كان يعيش فى بيت مواجه لبيت الأفندى .

وكان أفقر الناس وأكثرهم تعرضا للذل والهوان مع كونهم أيضا ينحدرون من نسل الجبلاوى هم آل حمدان . وفى بيت الأفندى وتحت كنفه وكنف زوجته السيدة (هدى) نشأ (جبل) وهو أصلا من آل حمدان ولكن أهله ماتوا فتبنته السيدة هدى والأفندى لأنهما لا ينجبان .

وينشأ جبل موزع النفس والضمير بين ولائه للبيت الذى تربى فيه وانتمائه لآل حمدان المستضعفين .

ويثور آل حمدان ويذهبون يتقدمهم حمدان إلى بيت الأفندى طالبين العدل والانصاف لكنه يردهم خائبين ويُعمل فيهم فتوته البطش والتنكيل ويحاول جبل أن يتدخل لوقف أو على الأقل تخفيف العقاب على آل حمدان ولكن موقفه يواجه رد فعل عنيفا من الأفندى وزقلط الفتوة ، ويتساءل جبل : (أيعجبك هذا الطغيان يا جبلاوى ؟) .. (هذه النغمة سائدة عبر

القصة كلها تقريبا نغمة التمرد والدهشة والحنق إزاء صمت الجبلاوى وإزاء ما يحدث فى حارته من ظلم وعسف وطغيان) .

ويستمر (قدرة) فتوة آل حمدان فى اضطهادهم وسومهم صنوف العذاب ويطارد ذات ليلة (دعبس) أحد أبناء الحى متوعدا إياه إلى أن يمسك به وينهال عليه بنبوته الغليظ بلا رحمة ، ويرى (جبل) هذا المشهد فيحاول إثناء الفتوة عن بغيه بلا طائل فلا يملك إلا أن يبطش به ليوقفه عن قتل دعبس المسكين وينطرح (قدرة) أرضا بلا حراك ويعلم أنه مات مع أنه لم يقصد قتله ويهرب (جبل) من الحارة بأكملها قاصدا الصحراء ، بينما تثور ثائرة الفتوات وينزلون بالأهالى أشد ألوان الاضطهاد والعذاب .

ويسير (جبل) مبتعدا إلى أن يرى على البعد فى سوق المقطم منزلا منعزلا ينبعث منه نور فيقصده ويرحب به صاحبه (البلقيطى) مروض الحيات الذى يقيم فى الدار مع ابنتيه (شفيقة) و(سيدة) وكان (جبل) قد أسدى إلى الفتاتين معروفا عندما سقى لهما الماء وكانتا غير قادرتين على ذلك وسط الجموع الكثيرة وأخبرتا (جبل) أن أباهما رجل كبير متفرغ لعمله لا يستطيع أن يذهب معهما لحمل الماء : ﴿ **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تزودان ...** ﴾ .

ويقيم (جبل) مع (البلقيطى) الذى يعرف منه قصته ويتفق معه على أن يعلمه مهنة السحر وترويض الثعابين ويتبادل جبل وشفيقة الاعجاب ويتم زواجهما .

ويتقن (جبل) المهنة ويقضى زمنا مع (البلقيطى) يكتسب عيشه معه ثم يعود خفية إلى الحارة ومعه زوجته ويقصد بيت حمدان كبير قومه فيرحب به ويدرس الجميع كيف يمكن أن ينتقموا من الفتوات وينهوا حياة الذل والاضطهاد .

ويقص عليهم (جبل) حادثة غريبة وقعت له وهى أن شخصا هائلا كالجبل استوقفه فى الظلام الحالك وهو يتجول فى الصحراء وقال له بصوت غريب : (لا تخف أنا جدك الجبلاوى) وقال له : (أنا هنا) فحدق (جبل) بصره فى الظلام لكى يرى وجهه ولكنه لم ير شيئا . فقال له الجبلاوى : لن تستطيع أن ترى وجهى فى الظلام (إشارة إلى تكليم الله تعالى لموسى فى طور سيناء) وإلى طلب موسى لربه : ﴿ **أرنى انظر إليك قال لن ترانى** ﴾ .

وبينما استمع آل حمدان إلى (جبل) وهو يقص عليهم القصة وهم مشدوهون متشككون . أكمل (جبل) قائلا : أن الجبلاوى قال له إنك رجل يعتمد عليك يا جبل ولكنك نبذت حياتك المريحة حزنا على ما أصاب قومك من اضطهاد ولكن قومك هم قومى ولهم حقوق فى وقفى لابد أن يحصلوا عليها . ولما سأله (جبل) : وكيف السبيل إلى ذلك ؟

قال : بالقوة سوف تحطمون الظلم وتنالون حقوقكم وتحيون حياة كريمة . فصاح (جبل) سنكون أقوياء ، وباركه الجبلاوى وانصرف .

ويعلم (الأفندى) وفتواته بعودة (جبل) وينتشر سر مقابلته للجبلاوى وتثور ثائرة (الأفندى) لأنه يحس فى ذلك تهديدا لسلطته ونظارته للوقف إذا وقف الجميع خلف (جبل) مطالبين بحقوقهم .

وفجأة تنتشر فى بيوت الناس وبالذات (الأفندى) والفتوات ثعابين مخيفة ويسود الذعر بين الناس لدرجة أنهم يغادرون بيوتهم ويبقون فى الخلاء من الذعر ثم يرجون (جبل) أن يتدخل لانقاذهم من الحيات مستخدما مهنته التى تعلمها ويقبل (جبل) بشرط أن يكون الثمن هو كلمة شرف من (الأفندى) أن يحترم آل حمدان ويحفظ لهم كرامتهم وحقهم فى الوقف ، ويوافق (الأفندى) تحت ضغط الموقف وسرعان ما يخلصهم (جبل) من كل الثعابين السامة والخطيرة التى تملأ بيوتهم (دعاء موسى لله تعالى أن يكشف عن آل فرعون الرجز الذى حل بهم مقابل تعهدهم بأن يؤمنوا . والثعابين فيها إشارة إلى تفوق موسى على سحرة فرعون يوم الزينة) .

ويقرر (الأفندى) و(زقلط) التخلص من كل آل حمدان حتى لا يطالبوا بحقهم فى الوقف بينما يكون (جبل) وأهله قد دبروا خطة مضادة للقضاء على الفتوات قضاءا مبرما فقد صنعوا لهم كمينا فى دار حمدان حيث تركوا الباب مفتوحا وحفروا حفرة عميقة فى المدخل غطوها من الخارج بحيث ينخدع الفتوات ويسقطون فيها . وهذا ما حدث فعلا فقد سقطوا جميعا وعندئذ القوا عليهم المياه ليغرقوهم والتراب ليخنقوهم وانهالوا كذلك عليهم بالهراوات ضربا عنيفا حتى يستأصلوا شأفتهم تماما (غرق فرعون وآله ونجاة موسى وبنى إسرائيل) ويستعطف (الأفندى) (جبل) حتى لا يلحقه أذى هو الآخر ويتفق الجميع على أن يحصل آل حمدان على حقهم فى الوقف بالانصاف .

ويقضى (جبل) على (دعبس) بخلع إحدى عينيه قصاصا منه لأنه فقأ عين شخص آخر (إشارة إلى القصاص الوارد فى التوراة : « **وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس** ... » وهكذا يسود العدل والمساواة بين الناس زمن (جبل) وتنتهى قصته عند هذا الحد .

القــول الحــق

لعلك أيها القارىء قد علمت علم اليقين أن ما رمز به الكاتب إلى رب العزة وموسى وشيخ مدين والأفندى الذى قصد به فرعون وهدى زوج فرعون والرجل الذى وكزه موسى

فقضى عليه والذى جاء من أقصى المدينة يسعى وما رمز به إلى ابنتى شعيب وإلى مناجاة الله لموسى عند جبل الطور . لعلك لمست فى كل هذا أن الرمز هنا كان قد أغنى عن العبارة وأن التلميح قد أغنى عن التصريح فمن أنكر ذلك فقد أنكر ضوء الشمس فى وضح النهار وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية وقد سال منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه . ومن أدعى أنه لا يقصد بتلك الرموز ما وضحناه سابقا فمثله كمثل ذلك الذى سأل أبناءه فقال لهم : هناك حيوان أليف يمشى على أربع وله ذيل وصوته (مواء) وأول حرف من اسمه قط فخبرونى ما هو ؟ هل يعقل أن يقولوا أنه كلب مهما كانوا أغبياء ؟ ذلك شيء بعيد . فالرموز فيما ذكره الكاتب فى روايته تكاد تنطق بمدلولاتها الدينية وبأسماء الأنبياء وذلك فضلا عما أطلقه على الذات الإلهية من اسم الجبلاوى : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ .. ﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون** ﴾ . وفى الفقرة السابقة من كلامه هنات ليست بهنات فما كان يليق به أن يحدثنا عن الله بتلك العبارة وما جرى بين موسى وابنتى شعيب لم يكن استلطافا ولا يليق أن يقال هذا عن نبى قال عنه رب العزة : ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا** ﴾ . وقال فى شأنه : ﴿ **وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى** ﴾ .. وقال : ﴿ **وألقيت عليك محبة منى** ﴾ .. وقال : ﴿ **واصطنعتك لنفسى** ﴾ .. وقال : ﴿ **ولتصنع على عينى** ﴾ .. وقال : ﴿ **يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين** ﴾ كما أن موسى عليه السلام لم يكن ساحرا وأن شيخ مدين لم يعلمه السحر ويدربه على استعمال الحيات . ومن قال هذا فقد ردد قول فرعون عدو الله عندما قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم . كل هذا تحدث به الكاتب عن نبى جعله الله من أولى العزم الخمسة . قال سبحانه : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾ . وقال فى شأنهم : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ ولا أجد دفاعا عن كليم الله موسى أبلغ من قول الله تعالى ردا على مثل هذا الكاتب فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها** ﴾ .

القرآن الكريم يرد على أمثال هؤلاء

ولا يسعنا هنا إلا أن نأتى بما قاله الله تعالى بالحق المبين عن موسى وقصته فى حدود ما ذكره الكاتب عن بعض أحداث القصة ونبدأ بسورة القصص :

قال تعالى : ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين نلتوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخاف ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأت فرعون قرت عينى لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين . وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب . قال : رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال ما خطبكما ؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير . فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا . فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . قال : إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن اتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن اشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل . فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور

نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون. فلما آتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب . يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملإه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ .

تأمل :

أخى القارىء ارجع البصر فى النص القرآن السابق هل ترى شيئا مما قاله الكاتب عن نبى الله موسى ثم ارجع البصر كرتين هل ترى استلطافا دار بين موسى وبنت شعيب .

إن الله تعالى قد وصف حياءها بقوله : ﴿ **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء** ﴾ كأن الأرض نسجت بساطا من الحياء تحت قدميها فالخطا قصيرة والحياء يرفرف عليها بأجنحة الإيمان والسكينة لم تقل له كلمة واحدة فيها غزل أو كلام مريض إنما قالت له مباشرة : ﴿ **إن أبى يدعوك** ﴾ ولم تنتظر منه أن يقول لها : لماذا ؟ فتبادره قائلة : ﴿ **ليجزيك أجر ما سقيت لنا** ﴾ حتى ذكر أصحاب القصص أن موسى عليه السلام أمرها أن تسير خلفه خشية أن يعبث الهواء بثوبها وقال لها : إذا رأيتنى ضللت الطريق فاقذفى بحصاة تشير إلى الطريق حتى لا يكون هناك صوت ولا صورة فلا العين تراها ولا الأذن تسمعها ثم تأمل النص الكريم : هل تجد موسى تلقى سحرا أو تدريبا على الحيات على يدى شيخ مدين .

ما كان موسى ساحرا إنما كان صاحب معجزات أجراها الله على يديه والفرق بين المعجزة والسحر شاسع والبون بعيد فشتان بين الثرى والثريا وهيهات هيهات بين التراب والسحاب وما أبعد ما بين مسابح الأسماك ومدار الأفلاك المعجزة . أمر خارق للعادة يظهره الله على أيدى الأنبياء تصديقا لهم فى دعواهم مع عجز جميع الخلق عن الاتيان بمثله .

أما السحر فأمر عادى عبارة عن تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ويجرى هذا الأمر على أيدى الفساق بترديد بعض التعاويذ والسحر أحد السبع الموبقات وهو كبيرة من الكبائر . أما المعجزة فإنها حقيقة واقعة لا تخييل فيها ولا وهم وهى أى المعجزة ثلاثة أنواع : قد تكون معجزة فعل كما حدث لسفينة نوح ومن فيها من المؤمنين وكعصا موسى ويده ، وانفلاق البحر وتفجير الماء من الحجر ، وكإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى بإذن الله ، وكانشقاق القمر والإسراء والمعراج ونبع الماء من بين الأصابع الشريفة وأنين الجذع إلى غير ذلك من المعجزات التى أظهرها الله على يدى مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية

محمد ﷺ . وقد تكون المعجزة تركا كترك احراق النار لإبراهيم مع وجود الأسباب وإزالة الموانع وكترك الذبح من السكين لإسماعيل مع توافر الأسباب وزوال الموانع . وقد تكون المعجزة

قولا كالقرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله ﷺ : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ ومن ثم فإن الله تبارك اسمه يلقى باللوم على هؤلاء الذين يلقون التهم جزافا على أنبيائه فيقول : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ ثم يأتى الاستفهام الذى تسيل له الكبد مرارة ويتفتت له الفؤاد أسى : ﴿ **أتواصوا به بل هم قوم طاغون** ﴾ .

وإليك يا أخى هذا النص من سورة (الأعراف) والذى يحدثنا فيه الله جل جلاله عن موسى وبعض معجزاته مع فرعون وقومه .

قال تعالى : ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملإه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى : يا فرعون إنى رسول من رب العالمين حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال : إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا : أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون قالوا : إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا : يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال : ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين . قالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون** ﴾ .

وإليك هذا النص الكريم من سورة (طه) هل ترى فيه أن المعجزة كانت سحرا :
﴿ **وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى . وما تلك بيمينك ياموسى ؟ قال : هى عصاى أتوكأ عليها واهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . قال : ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى . قال : خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . واضمم يدك إلى جناحك**

تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ .

ثم إليك هذا النص التفصيلي من سورة (الشعراء) لتقف فيه على حقيقة الأمر فى قصة موسى :

قال تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون . قال : رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال : كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى إسرائيل . قال : ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . قال : فعلتها إذا وأنا من الضالين ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل . قال فرعون : وما رب العالمين ؟ قال : رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آباءكم الأولين . قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال : لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال : أولو جئتك بشيء مبين . قال : فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين . قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين . فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم إذا لمن المقربين . قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا : آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا : لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين . وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى إسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال : كلا إن معى ربى سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم

الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

هذه نصوص قرآنية كريمة تعبر عن شأن موسى كما جاء فى القرآن الكريم وتنفى كل شبهة كما أنها تدحض كل افتراء عن كليم الله الكريم عرضناها ليكون فيها القول الفصل والحكم العدل فمن أصدق من الله قيلا ؟ لا أحد . ومن أصدق من الله حديثا ؟ لا أحد : **﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾** .

الفصل الثالث عشر

ماذا قال عن نبىّ الله عيسىَ

(رفـــاعـة)

ذهب (جبل) وأيامه السعيدة وعاد عصر الفتوات والقهر من جديد متمثلا فى (زنفل) هكذا تحدث شافعى النجار إلى زوجته عبده وهما يفران من الحارة إلى مكان بعيد لكى تضع طفلها حيث أن زنفل الطاغية يقتل كل رضيع فى قوم (جبل) ..

ويعود شافعى وعبده إلى الحارة بعد سنوات وقد هدأت الحال فيها ومعهما ابنها (رفاعة) شابا يافعا ويشغف رفاعة بالقصص التى تروى على الربابة فى المقاهى عن الجبلاوى وأبنائه ويتحسس شاعر ضرير ملامح وجهه وكتفيه ويومىء ويقول : مدهش أن له جمالا مثل جمال الجبلاوى نفسه (الايحاء ببنوة السيد المسيح لله لأنه الوحيد الذى يشبهه) .

ويحاول شافعى أن يجعل ابنه يعمل معه فى دكان النجارة الذى افتتحه فى الحارة ولكن (رفاعة) لا يركز فى هذا العمل فهو مشغول بقصة الجبلاوى وما يرويه شاعر الربابة وعلى مقربة من مسكن شافعى وعبده تسكن بغى اسمها ياسمين تشرع فى مغازلة وإغراء (رفاعة) الذى لا يستجيب لها وفى زيارة للراوى فى منزله يلفت نظر (رفاعة) رسم بالزيت على الحائط (شىء غير معروف ولا شائع فى البيوت المصرية باستثناء رسوم الزينة الشعبية على جدران البيوت بمناسبة الحج مثلا) وهذا الرسم على الحائط داخل البيت هنا ليخدم غرضا فنيا هو نقل جو الكنائس بصورها الداخلية التى تمثل الأقانيم المسيحية والملائكة والعذراء والطفل والقديسين وما إلى ذلك .

وتمثل الصورة شخصا هائلا تبدو بجانبه بيوت الحارة مثل لعب الأطفال ويسأل (رفاعة) : صورة من هذه ؟ فيأتيه الجواب : الجبلاوى . فيسأل : وهل رآه من أحد ؟ فيجيبه (جواد) الراوى أو الشاعر : لا لم يره أحد من جيلنا وحتى (جبل) نفسه لم يستطع أن يتبين ملامحه فى الظلام عندما قابله فى الصحراء ولكن الفنان رسمه حسب أوصافه فى

الحكايات . ويتساءل (رفاعة) فى أسى : لماذا أوصد بابه فى وجه أبنائه ؟ وينصحه الشاعر بقوله : إنه ما دام الجبلاوى لا يفكر فينا فيجب ألا نفكر نحن فيه أيضا . ويعلم رفاعة أن زوجة الراوى (أم بخاطرها) تعمل فى السحر وطرد الأرواح الشريرة وتقول له : أن كل إنسان له روح خاصة تحركه وأن كل روح تتطلب معاملة خاصة وأن الإنسان يشبه روحه المسيطرة ، فالأرواح الشريرة تتطلب بخورا خاصا ونغمات خاصة لطردها فيهتم (رفاعة) بذلك اهتماما شديدا ويطلب منها أن تعلمه كل ما تعرفه من ذلك وتوافق على أن يوافيها كلما استطاع لكى تلقنه مهنتها على شرط ألا يغضب أبوه من ذلك .

ويطلب رفاعة من أبيه أن يحضر من يرسم لهم صورة زيتية للجبلاوى على الحائط فى منزلهم كتلك التى شاهدها عند (جواد) فيقول له أبوه : إنهم أحوج إلى المال الذى سينفقه على هذه الصورة ثم أنها أوهام وخيالات .

وكم شهد (رفاعة) ليالى مع (أم بخاطرها) يتابع ويراقب دق الطبول واخضاع الأرواح الشريرة وكان المرضى يساقون إلى بيتها ضعافا وفى حالة فقدان وعى وبعضهم كان يُحمل حملا أو يقيد ويوضع فى الأصفاد نظرا لتوحشه ، وكان لكل حالة ما يناسبها من البخور حيث يحرق البخور وتضرب الايقاعات المطلوبة . ويحس (رفاعة) أن هذا هو العلم الذى يريده لكى يخلص الحارة من ناظر الوقف والفتوات وأمثالهم ولا سيما بعد أن اكتشف أنه يمكن اخضاع وتطهير النفوس الشريرة عن طريق أشياء طاهرة ونقية وطيبة مثل الروائح المعطرة والنغمات الجميلة . وصعد (رفاعة) إلى أعلى السطح وتأمل البيت الكبير قرب الفجر وراودته الخواطر أين أنت يا جبلاوى ؟ لماذا لا تظهر ولو للحظة واحدة ؟ ألم تعلم أن كلمة واحدة منك تغير حال الحارة بأكملها وأبوه يعنفه كلما سمع منه هذه الخواطر ويحثه على أن يعمل عملا جادا بدلا من تضييع وقته هكذا .

وتزور الست زكية زوجة (خنفس) الفتوة عبده أم رفاعة وتقدم لها ابنتها (عائشة) وتفاتح عبده وشافعى ابنهمابشأن هذا الشرف الكبير .. ويحاولان اقناعه بأن هذه فرصة عظيمة للوصول بعد ذلك إلى منزل الناظر الوصى على تركة بنى جبل ومن يدرى لعله يرث هذا المنصب يوما ما ..

ويحتج رفاعة : كيف أصاهر هذا الشيطان فى الوقت الذى ينصب فيه كل اهتمامى على طرد الشياطين .

ويجن جنون أبيه ويتهمه بأنه يريد أن يتحول إلى ساحر وبأنه كالبنات وبأن الحارة كلها لاحظت نعومته وطراوته (هكذا) ويعجب شافعى من رفض ابنه لفكرة الزواج ويحاول

إثناءه عن أفكاره باللين وبالشدة ، بينما يقرر (رفاعة) فى نفسه أن هذا البيت ليس هو المكان الذى يبحث عنه .. إنه أصبح كالسجن ولابد له من مكان آخر .

ويفتقد شافعى ابنه فى دكان النجارة بعد ذلك فلا يجده ويسأل عنه جواد فى قهوة شصم فيخبره بأنه لم يره .. ويستبد القلق بعبده عندما يعود شافعى وليس معه رفاعة وتنصحه أن يبحث عنه عند ياسمين - البغى - وتفاجأ ياسمين بشافعى ويسألها عن رفاعة فتندهش وتقول له : لماذا يأتى هنا ؟ وينصرف ويسمع عندانصرافه حديثا من داخل المسكن تقول فيه ياسمين لرفيقها إنهم يقلقون عليه كما لو كان بنتا .

ويذهب شافعى وعبده إلى سوق المقطم حيث كانوا يعيشون لمدة ٢٠ سنة عندما هربوا من الحارة قبيل ولادة رفاعة ويسألون جيرانهم القدامى ومعارفهم عنه ولكن بلا طائل .

ويظهر (رفاعة) فجأة بعد فترة وقد أصابه الضعف والهزال .. ويخبر الجميع أنه كان فى الصحراء لأنه أحس أنه يريد أن يخلوا إلى نفسه وأنه لم يخرجه من الصحراء إلا البحث عن طعام (حسب العقيدة المسيحية لم يكن المسيح قد أكل شيئا مدة ال ٤٠ يوما والليلة التى قضاها فى البرية والتى تسمى [خلوة البرية] التى رمز لها الكاتب هنا بخلوة رفاعة فى الصحراء) وتخبرهم (أم بخاطرها) أن (رفاعة) نمط مختلف عن باقى الناس وليس هناك من يماثله فى الحارة كلها وأنه لم يكن من الحكمة محاولة إجباره على شىء لا يريده .

(لا يفوتنا كذلك ملاحظة كون رفاعة ينتسب إلى هذه الحارة التى يغرق فيها أهلها فى الشرور والآثام والظلم والمادية وهو ما يشير إلى مجىء المسيح عليه السلام من الناصرة) : [لم يصدق نثنائيل هذا الخبر فقد ظن أن المسيح لا يمكن أن يجىء من الناصرة إما لحقارتها أو أن صيتها كان رديئا بسبب شرور أهلها] (سيرة المسيح ص ٩٦) .

وعاد (رفاعة) للعمل فى دكان والده شافعى النجار وكان يهاجم العنف فى كل مناقشاته مع زبائن المحل ويقول لهم أن (العنف) لا يحل أى مشكلة وأن (جبل) لم يلجأ للعنف إلا للدفاع عن النفس .

وذات يوم يقول (رفاعة) لوالده أن هناك شيئا حدث ولا يستطيع كتمانه أكثر من ذلك ويخبره أنه كان فى الصحراء بالقرب من البيت الكبير وسمع فى الظلام صوت الجبلاوى يقول له أن (جبل) أدى رسالته وفعل ما عليه ولكن الأمور عادت لتصبح أسوأ مما كانت فنادى (رفاعة) : جدى .. لقد مات جبل .. وحن آخرون محله .. فامدد يدك إلينا وساعدنا فجاءه الرد من الجبلاوى : كيف يطلب الحفيد من الجد أن يعمل إنما يعمل الابن

المحبوب (بنوة رفاعة للجبلاوى هنا ليست كالآخرين) لأنه ابنه (المحبوب) وهى تقابل العقيدة النصرانية ابنه المولود له .

ولاحظ أيضا مما سبق من أنه قيل عند قدومه للحارة أنه يشبه الجبلاوى كما لم يشبهه أحد آخر وهو إيحاء بنفس المعنى . قارن (لأن المسيح هو كلمة الله المتجسد المولود الوحيد الذى لا يكون إلا على صورة المولود منه الذى وصفه الإنجيل بأنه [محبة]) .

ويقلق شافعى وعبده مما قاله ابنهما (رفاعة) ويخشيان أن يبلغ الأمر لسكان الحارة وتحدث ضجة ذات يوم عندما يتجمع الأهالى ويطالبون بطرد ياسمين البغى من الحارة فيدافع (رفاعة) عنها ويقول أن المسئول هو (بيومى) الفتوة الذى أغواها ويطلب منهم أن يرحموا ضعفها : [من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر] ثم يعرض أن يتزوجها انقاذا لها من بين أيديهم . ويصرح رفاعة ليلة زفافه بأنه شرب بعض الخمر وأنه جرب الحشيش ولكنه لم يجد لديه ميلا إلى شربه (هكذا يصور السيد المسيح عليه السلام) .

ويدور حوار بينهما ليلة العرس يتضح منه أن رفاعة زاهد فى متاع الدنيا ، وأنه لم يقرب عروسه ، مما أثار غيظها وحنقها وكان كل حديثه معها عن وجوب تطهير نفس الإنسان من الأرواح الشريرة حتى يحصل على السعادة الحقيقية (ايحاء بالعجز الجنسى للسيد المسيح مما يعنى أن زهده تحصيل حاصل) ، وهذا – فضلا عن أنه سوء أدب فى حق نبى كريم – هو قلب أيضا للحقائق التاريخية وطبيعة الأشياء لأن المسيح لو تزوج لكان كأى رجل ، ولكنه لأنه لم يتزوج لم يمارس هذه الأمور ، أما تصويره هكذا وهو متزوج معناه أنه عاجز من هذه الناحية ، وبالتالى يكون كل ما دعا إليه من العفة والفضيلة ليس إلا ضعفا من جانبه أضف إلى ذلك اتهام الكثيرين له فى سياق الرواية بأنه كالنساء وأن فيه نعومة وطراوة ، والايحاء بأن تصرفه هذا يبرر ما حدث بعد ذلك من خيانة زوجته له وذهابها إلى فراش غيره .

ويتخذ (رفاعة) له بيتا فى حى آخر ويأتيه الناس – ولا سيما الفقراء – طلبا للعلاج والهداية ، ويتوب الكثيرون على يديه من غواياتهم وضلالاتهم .. ويصبح العصبى هادىء الطباع ، وهكذا .

ويتخذ من مرضاه أربعة يعتبرهم أصدقاءه (لعلهم يرمزون إلى الحواريين الأربعة أصحاب الأناجيل فى العهد الجديد) بعد أن تحولوا إلى أناس أسوياء ذوى خلق حسن وطبيعة طيبة ، وكانوا من قبل ذلك أشرارا فقد كان (زكى) متشردا صعلوكا و(حسين) حشاشا مدمنا ، و(على) بلطجى قاسى القلب و(كريم) قوادا ، وتخون ياسمين زوجها رفاعة مع

(بيومى) الفتوة بينما ينهمك رفاعة فى علاج الناس وتخليصهم من أرواحهم الشريرة ويطلب من تلاميذه الأربعة أن يمارسوا نفس العمل ويبلغوا هذه الرسالة لكل الناس لأنه لا يستطيع ذلك وحده .

وفى لقائهما سرا فى بيته يتحدث بيومى مع ياسمين عن دعوة (رفاعة) ويخشى بيومى أن يكون هدف رفاعة استعادة الوقف وتسليمه من جديد إلى قوم جبل .. ويسخر من احتمال ادعاء (رفاعة) أنه سمع ذلك من الجبلاوى نفسه .. ويعلن فى نهاية الحوار مؤكدا أن الجبلاوى مات .. أو هو كالميت .

وتحدث مواجهة بين رفاعة وكل من خنفس وبيومى بعد أن يستبد القلق بإيهاب - ناظر الوقف - وينذرانه بالكف عما يفعله من استقبال الناس وعلاجهم وإلا فالويل له . وينصح الجميع (عبده وشافعى وياسمين والأصدقاء الأربعة) رفاعة بأن يهرب من الحارة كلها لأن الفتوات يتربصون به ليقتلوه . وتخونه ياسمين وتبلغ بيومى بخطة الهرب ، وفى اللحظة المقدرة يهجم عليهم الفتوات فيهرب أصدقاء رفاعة (خيانة ياسمين لرفاعة) بسبب ارتباطها العاطفى والجسدى ببيومى الفتوة مما لا تطيق الاستغناء عنه (يرمز لخيانة يهوذا الاسخربوطى للسيد المسيح مقابل المال [يهوذا]) الذى باع نفسه كما باع سيده بثلاثين من الفضة مع أن المسيح جاهد ليربيه فى الصلاح ويقوده إلى الخلاص (سيرة المسيح ص٤٧٢).

وفيما هو يتكلم إذا بهونا أحد الأثنى عشر قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب والذى أسلمه أعطاهم علامة قائلا : الذى أقبله هو هو .. أمسكوه متى . ثم يسوقه الفتوات عبر الحارة ويمرون على البيت الكبير ، ويفكر رفاعة : هل يحس الجبلاوى بمعاناته الآن ؟ وينادى جبلاوى ولا يرد عليه أحد ثم يقتلونه بهراواتهم (قارن : فى العقيدة المسيحية أن المسيح استنقذ الله قبل صلبه (فى الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا : إلهى .. إلهى .. لماذا تركتنى) (إنجيل مرقس : ١٥) .

ويستخرج أصدقاءه جثته من المكان الذى دفنها فيه الفتوات ليدفنوها فى إحدى المقابر ثم يقتلون ياسمين لخيانتها ويشرعون فى مواصلة رسالة رفاعة بتعليم الناس أسرار مهنته وتناقل الناس قصة رفاعة . وزعم بعضهم أن الجبلاوى نفسه هو الذى استخرجه وحمله بعيدا إلى حيث قصره ووضعه تحت ثرى حديقته الغناء (إشارة إلى رفع السيد المسيح إلى السماء) ويرى بعض تلاميذ رفاعة ضرورة الانتقام من الفتوات الجبابرة ، ويرى آخرون أن فى ذلك مخالفة لتعاليم رفاعة التى تنبذ العنف . ثم تبدأ موجة من الانتقام ضد كل الفتوات حيث يجد الناس جثثهم واحدا وراء الآخر أمام منازلهم وتحدث مواجهة بين الفتوات وأنصار رفاعة وتنتهى بانتصار (الرفاعيين) ويتم اتفاق بين (على) زعيمهم وناظر الوقف بمقتضاه يتم

الاعتراف بهم وبأن لهم نصيبا من التركة مثل قوم جبل .

ويعود كل الذين فروا من الحارة فى فترة الارهاب والاضطهاد ومنهم شافعى وعبده ، بينما يختلف أتباع رفاعة (اختلاف فرق المسيحية) فمنهم من يرى أن رسالته مداواة المرضى والرحمة ، ومنهم من يرى غير ذلك ويتطرف بعضهم فيمتنع عن الزواج اقتداء برفاعة (فكرة الرهبنة) ومع ذلك فلنا هنا تعليق صغير : من الذى قال إن رفاعة امتنع عن الزواج ؟ لو كان المؤلف قدمه عازبا طوال حياته لما كان هناك خلاف ولكنه قدمه فى أسوأ صورة يمكن أن يوضع فيها رجل : صورة الديوث أو العنين الذى يدفع امرأته إلى أحضان غيره ولا يكترث بذلك وحاشا لله أن يكون السيد المسيح عليه السلام كذلك إنه الرسول الكريم الذى قال الله تعالى فى حقه : ﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين** ﴾ (صدق الله العظيم) .

والسلام على عيسى يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا .

القـــول الحـــق

المسيح بن مريم عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه بهذا نطق القرآن الكريم : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا** ﴾ .

وحقيقة المسيح لخصها القرآن الكريم فى آية واحدة : ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل** ﴾ ومريم البتول لم تتزوج بيوسف النجار لأنها كانت عذراء وظلت كذلك حتى لقيت ربها . قال تعالى : ﴿ **والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين** ﴾ بل إن يوسف النجار عندما رأى مريم تحمل وليدها قال لها فى أدب وحياء : يا مريم إن فى النفس شيئا ؟ قالت : وما هو يا يوسف ؟ قال لها على استحياء : اينبت نبت بدون ماء ؟ قالت مريم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين أن الذى خلق الزرع والماء وجعل الزرع فى حاجة إلى ماء قادر على أن يخلقه بلا ماء . ففطن يوسف لما تقول واقتنع بقولها ولم يكن المسيح شبيها بأبيه لأنه ليس له أب . فالله تعالى خلق الناس على أربعة أقسام : القسم الأول : لا أب له ولا أم وهو آدم . والقسم الثانى : من ضلع آدم وهى

حواء . والقسم الثالث : من أم وليس له أب وهو المسيح . والقسم الرابع : من أبوين وهم بقية الخلق . قال تعالى اثباتا لقدرته على خلق الأشياء : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين** ﴾ ولقد طهر الله مريم واصطفاها على نساء العالمين اقرأ ذلك فى سورة (آل عمران) :

﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا . كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا . قال : يا مريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ **وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين . ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر . قال : كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله . وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم** ﴾ .

والمسيح عليه السلام لم يتزوج بمريم المجدلية التى سماها الكاتب (ياسمين) والتى نسج حولها خيوطا كثيبة مظلمة وقال عنها أنها كانت على صلة خبيثة بمن سماه بيومى واتهم السيد المسيح بأنه كان طريا . ولو تزوج السيد المسيح لكان مثله وشأنه كشأن بقية أنبياء الله سليما معافى من العيوب الخلقية والخُلقية والعقلية . ومما هو معلوم من الدين بالضرورة أن أزواج الأنبياء طاهرات . قال ﷺ : « **ما بغت امرأة نبى قط ولم تكن خيانة امرأة نوح وامرأة لوط خيانة فى الفراش إنما كانت فى إذاعة أسرار الدعوة للقوم الكافرين** » ثم أن

المسيح عليه السلام لم يتردد على (أم بخاطرها) ليتعلم منها الشعوذة وإطلاق البخور إنما كان تعليمه عن طريق الوحى المعصوم . قال جل شأنه : ﴿ **ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم** ﴾ .

﴿ **إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين . وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا : آمنا واشهد بأننا مسلمون . إذ قال الحواريون : يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا : نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين. وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله . قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير** ﴾ .

إن المتأمل فى الفقرة السابقة للكاتب والتى ساقها وجعلها خاصة بالسيدة مريم وابنها يلمح أن الكاتب قد جعل السيدة مريم زوجة ليوسف النجار وليست خطيبة له ولا شك أن هذا أمر مقصود ومفهوم أيضا فى إطار (السيناريو) الجديد الذى وضعه لتاريخ البشرية واستبعد فيه تماما كل أثر للمعجزات والخوارق لأنه لو جعلها بلا زوج أو مجرد خطيبة لن تستطيع تبرير حملها وولادتها إلا إذا أوحى بخطيئتها فيقع بذلك فى مطب لعله لا يريده ولكن ما الحيلة وقد وقع فى المطب على كل حال فنحن لا نعتقد أن السبب وراء ذلك سبب فنى بحت لأن المؤلف كان بمقدوره أن يتجاوز هذه النقطة بأن يقدم شخصية مريم بعد وضعها للطفل صامتة عن أى شىء آخر أو حتى لا يقدمها فى سيرة رفاعة . أما جعل يوسف النجار بالذات زوجا لها وأنه الذى أنجب منها عيسى فقد ضرب به المؤلف أكثر من عصفور بحجر

واحد : فقد أنكر عذرية السيدة مريم وأنكر الميلاد المعجز للسيد المسيح وتبنى أقاويل اليهود فى طعن وشرف السيدة مريم ورميها بالزنا والغى من شخصية مريم الجانب الروحى العظيم الخاص بها هى حتى قبل ولادة المسيح من حيث أنها كانت عابدة صديقة مطهرة على نساء العالمين ومصطفاة عليهم ونزل بها إلى شخصية امرأة عادية وسمح لنفسه أن يصفها وصفا لا يليق فى أحد المشاهد حيث قال : (وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين فخذيها لتريح بطنها المندلحة) .

الحكمة وفصل الخطاب

ومن أراد الجواب الشافى والدواء الكافى فليلجأ إلى كتاب الله تبارك وتعالى ماذا قال عن مريم البتول وابنها ؟ اقرأ ذلك فى سورة من سور الكتاب الكريم أطلق عليها القرآن سورة (مريم) وذلك أمر يسترعى النظر والفكر فالسورة حافلة بقصص الأنبياء : زكريا ويحيى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس وآدم وإسرائيل ونوح . فما الحكمة فى أنها سميت باسم مريم ؟ ذلك لأنها تعالج قضية هى أساس عقيدة الألوهية فالله جل ذكره لم يصرح باسم امرأة فى القرآن العظيم إلا باسم مريم ليرد على الذين قالوا أن المسيح ابن الله فيقول لهم بل إنه ابن مريم أمة الله البتول الناسكة الحصان أطهر من السحابة فى سماءها وأنصع من ماء الغمام ، وفى ذلك رد على اليهود الذين قالوا أنه ابن زنا . قال تعالى : ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما** ﴾ وقد ختم القرآن هذه السورة بهذا المشهد الرهيب المهيب :﴿ **وقالوا اتخذ الله ولدا . لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ . وقال جل شأنه فى سورة (الأنعام) : ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

واقرأ القصة كاملة فى سورة (مريم) ففيها شفاء للنفوس وحجة ساطعة وبراهين قاطعة ودواء ناجع للقلوب :

﴿ **واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت : أنى يكون لى غلام ولم**

يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال : كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا فحملته فانتبذت به مكانا قصيا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلى واشربى وقرى عينا . فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا . فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك أمرأ سوء وما كانت أمك بغيا فأشارت إليه . قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال : إنى عبد الله أتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون . وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ .

صدقت يا سيدى يا رسول الله حيث تقول فى حديثك الشريف : « **كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية زوج فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وخديجة زوج محمد ، وفاطمة بنت محمد** » .

الفصل الرابع عشر

ماذا قال عن خاتم الأنبياء

(قاسم)

قال الكاتب : وتمر أجيال يسيطر فيها نظار الوقف واحدا وراء الآخر على الوقف ويأخذون خيراته لأنفسهم ويسومون الناس الظلم والاضطهاد مستعينين بالفتوات .. وبينما يعيش قوم جبل (اليهود) فى الحى الخاص بهم وكذلك أتباع رفاعة (النصارى) فى حيهم ينشأ (قاسم) فى أفقر الأحياء وأكثرهم بؤسا (حىَ الجرابيع) و(قاسم) غلام يتيم يكفله عمه (زكريا) بائع البطاطا الفقير الذى لم يرزق بابنه (حسن) إلا بعد أن كفل ابن أخيه ولذلك اعتبر وجوده معه فألا حسنا وبركة .

ويشب (قاسم) على حكايات الجبلاوى وأدهم وجبل ورفاعة وتنطبع هذه الأحداث فى ذاكرته ويذهب به عمه مرة إلى العجوز (يحيى) بائع الأحجبة والمسابح والبخور الذى يتوسم فيه خيرا و(يحيى) هذا من أتباع رفاعة ولكنه هجر حى رفاعة بسبب بطش وظلم الفتوات (نلاحظ أن بعض الشخصيات فى الرواية تؤدى أكثر من دور من الناحية الرمزية فكما رأينا [ياسمين] ترمز مرة لمريم المجدلية ثم فى النهاية ليهوذا الخائن ترى هنا [العجوز يحيى] يرمز لبحيرى الراهب الذى رأى الرسول صغيرا وتنبأ بنبوته ثم يرمز بعد فترة لورقة ابن نوفل ثم يقوم بعد ذلك بدور أحد الصحابة وهكذا) . ويكبر (حسن) فيرى (قاسم) أنه – أى حسن – أحق منه بمصاحبة والده فى جولاته على عربة البطاطا (هذه الجولات ترمز للرحلات التجارية التى اصطحب فيها أبو طالب الرسول ﷺ) ويتفرغ (قاسم) لرعى الأغنام وهى المهنة التى أحبها حبا جما وجعلته يقضى أوقاته كلها تقريبا فى الصحراء يتأمل الطبيعة ويراقب الخراف فى حياتها الفطرية وكذلك جعلته هذه المهنة يكثر من زيارة العجوز (يحيى) .

وفى أحاديثه مع العجوز (يحيى) يسأل (قاسم) : هل يمكننى أن أصبح مثل رفاعة فيسخر منه قائلا : أنت مثل رفاعة ؟ كيف وأنت مولع بالنساء وتتصيدهن فى الصحراء

عندما تغيب الشمس (هكذا) وتستبد الرغبة بقاسم فى أن يصبح مثل (جبل) و(رفاعة) (لاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يفكر فى أمر الرسالة أو النبوة مطلقا طوال ٤٠ عاما عاشها قبل البعثة وإنما جاءته من عند الله تبارك وتعالى وكل ما كان فيه من عفة وحسن خلق وصدق وأمانة وميل إلى الخلوة والتأمل فقد كان من قبيل إعداد الله له ليكون رسولا) :
﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

أما هو فكان ينظر فى حالة خلوته وتأمله (قبل البعثة) من وجهة نظر خاصة هى تفضيله للانعزال عن الحياة الجاهلية وحبه للتأمل وهى طبيعة خاصة له مثل باقى المتحنفين فى عصره . والدليل أن مسلكه هذا لم يكن مثار إنكار أو دهشة من أحد . أما فى هذه الرواية فيجعله المؤلف يسمع باهتمام وشغف أخبار السابقين وتملك عليه نفسه ويصبو ويتطلع إلى أن يكون مثلهم مما يوحى بأنه كانت لديه طموحات شخصية فاختلق أمر الرسالة اختلاقا ليكون نبيا كالأنبياء السابقين . وتقع حادثة تعلى من شأن قاسم وتجلب له احترام الفتوات والناس وذلك عندما صاح أحد الناس (فنجرى) وهو منجد كان خارجا لتوه من بيت أحد السادة الكبار بعد أن قبض مبلغا ضخما من المال نظير عمل طويل وشاق صاح بأن نقوده سرقت منه والتف الناس حوله وخرج الفتوات كل من منطقته واتهم كل منهم الآخر بأن اللص من حيه ثم رأوا تفتيش كل الأحياء ولكن فتوة كل حى وقف متنمرا يدافع عن كرامة حيه وكادوا يقتتلون وتحدث مجزرة إلى أن اقترح عليهم (قاسم) أن يطفئوا الأنوار فى كل الأحياء وعلى من سرق النقود أن يضعها فى الظلام دون أن يفتضح أمره أو أمر الحى الذى هو منه ونفذوا اقتراحه وأضاءوا الأنوار فإذا بالمحفظة ملقاة فأخذها صاحبها مسرعا وانتهت المشكلة (هذا يقابل قصة النزاع على وضع الحجر الأسود عند تجديد الكعبة فى شباب رسول الله ﷺ عندما أنقذ الموقف بفكرة الثوب الذى يمسك كل واحد من أشراف قريش طرفا منه إلى أن وضعه الرسول ﷺ بيديه الشريفتين فى مكانه) . ويحدث تقارب بين (قاسم) والسيدة (قمر) التى يرعى لها غنمها وتفاتحه (سكينة) خادمتها فى أمر زواجه منها ويستبعد عمه (زكريا) وزوجته أن يتم هذا الزواج نظرا للفارق الاجتماعى ويستنكر (عويس) عم قمر أيضا هذه الزيجة لما فيها من تنازل كبير من جانب ابنة أخيه ، إلا أن (قمر) تصر على ذلك ويتم الزواج بالفعل . وفى ليلة العرس يشرب الجميع الخمر بمافيهم (قاسم) الذى يتعاطى الحشيش أيضا .

المهم يعيش الزوجان (قاسم) و(قمر) فى هناءة وسرور وبعد فترة يكتسب (قاسم) ثقة عم زوجته فيعمل فى مكتبه ويدير أموال زوجته وتكتمل الفرحة عندما يرزق قاسم وقمر بمولودتهما الأولى (إحسان) ويصيب القلق قمر بسبب خروج قاسم إلى الصحراء فى الليل والهموم التى بدأت تساوره . ويتأخر ذات ليلة إلى قرب الفجر فيستبد بها

القلق وترسل فى طلب عمه (زكريا) وابنه (حسن) وصديقه (صادق) ليبحثوا عنه فيجدونه بعد بحث وتعب مغشيا عليه فى كوخ العجوز (يحيى) ويعلمون الأمر منه بعد أن أفاق فى بيته بعد ذلك . وقد أخبر زوجته أولا بالسر لأنها أول شخص يثق فيه فأخبرها أن شخصا غريبا ناداه وهو فى خلوته بالصحراء وأبلغه أنه أحد خدم الجبلاوى واسمه (قنديل) وقال له أن الجبلاوى يعرف كل شيء وأنه اختاره هو - أى قاسم - بسبب حكمته يوم السرقة وبسبب ولائه لأسرته وأنه يبلغه أن كل أهل الحارة أولاده سواء بسواء وأن الوقف هو تركتهم جميعا بالتساوى وأن الفتوات هم شر يجب أن يزول وينتهى وأن الحارة يجب أن تكون امتدادا للبيت الكبير . ولما سأله قاسم : ولماذا يبلغنى أنا بالذات بكل هذا ؟ أجابه قائلا : لأنك أنت الذى ستفعل كل هذا .

وبالرغم من حب قمر لقاسم وثقتها فيه ويقينها من أنه رجل صادق وأمين إلا أنها تحاول التأكد من أن الذى رآه وسمعه حقيقة وليس حلما فتعيد عليه السؤال تلو السؤال : ألم يكن حلما لقد وجدوك مغشيا عليك ؟ هل أنت على يقين أنك لم تشرب الحشيش ولم تختلط عليك الأمور (مرة أخرى التركيز على أن الذى قاله إما أن يكون مناما أو حدث له تحت تأثير الحشيش) ولكنه يؤكد لها أن الذى حدث كان حقيقة . وتتفاوت مواقف من حوله حينما يعلمون بالأمر ويقدرون عواقبه فيؤيده ويصدقه تماما صديقه (صادق) وابن عمه (حسن) على حين يحاول إثناءه عن ذلك بكل ترغيب وترهيب ممكن كل من عم زوجته (عويس) وعمه (زكريا) ويحذرانه من أنه لن يقف معه أحد إذا تصدى له الكبار الأقوياء والفتوات بهراواتهم وبنبابيتهم بينما لا يشغل بال زوجته قمر سوى الخوف عليه مغبة هذا الأمر ويصر قاسم على تنفيذ وصية جده الأكبر الجبلاوى . وفى زيارة إلى العجوز يحيى ومعه (صادق) و(حسن) يسأله (يحيى) : ما الذى ستتركه للذين يتبعونك ؟ فيجيب قاسم : إذا نصرنى الله فإن الحارة لن تحتاج إلى أى شخص آخر بعدى (أولا ننبه إلى أن ذكر الله تعالى فى ثنايا الحوار من قبيل [إن شاء الله] و[يفعل الله ما يريد] و[إذا نصرنى الله] الخ .. تدخل ضمن الاطار الابهامى الذى وضعه المؤلف لنقل جو الرواية واضفاء المسحة الواقعية عليها ولا تعنى أكثر من ذلك .

وثانيا : يراد بهذه الجملة (أن الحارة لن تحتاج إلى أى شخص آخر بعدى) تسجيل المقولة الإسلامية بأن محمدا ﷺ خاتم النبيين لمحاولة دحضها فيما بعد حينما يأتى عرفه (العالم المادى الملحد) كاستجابة لحاجة جديدة للمجتمع البشرى مما يدخل فى النغمة المكررة - النشاز - التى تفتعل تناقضا بين الإسلام والعلم وضرورة غياب أحدهما إذا وجد الآخر . ثم يتعاطون جميعا الحشيش (قاسم وصادق وحسن والعجوز يحيى) فى هذه الجلسة وتدور رؤوسهم ويعود كل منهم إلى منزله تحت تأثير هذا المخدر (هكذا) .

وتأتى قاسم فكرة أن ينشأوا ناديا رياضيا خلف منزله وينضم إليه فقراء الحى بحيث يبنى فيه الجميع أجسامهم بممارسة الرياضة من رفع أثقال وخلافه ومعهم قاسم نفسه وصادق وحسن (فكرة الشيوعيين بأن الإسلام كان ثورة البروليتاريا ضد البرجوازية ولكن ماذا يقولون فى الأثرياء الذين انضموا للإسلام وساندوه وهم كثيرون) .

ويتفقون على أن يظل سرهم فى الحارة طى الكتمان أى تنفيذ رغبة الجبلاوى إلا أن أحد الأتباع (عجرمة) يبوح بالسر فى الحارة ذات يوم وهو تحت تأثير الخمر فيلعن قاسم الخمر وما فعله بالإنسان (إيحاء بأن تحريم الإسلام للخمر اقتناع شخصى من محمد ﷺ وليس وحيا إلهيا وهكذا يعاد تفسير كل مبادىء الإسلام وتعاليمه على أساس مادى بحت) ولكنهم يتفقون على الذهاب إلى محام من باب الاحتياط بحيث إذا حدثت مواجهة بينهم وبين ناظر الوقف والفتوات يمكنهم رفع قضية للمطالبة بالتنفيذ العادل للوصية وتوزيع ريع الوقف بالمساواة ويذهبون بالفعل إلى (الشنافرى) المحامى الشرعى الذى يقبل القضية لفرط دهشتهم ويتناول مقدم الأتعاب ، ويظهر بعد ذلك سر موافقته السريعة والسهلة عندما يعلمون أنه وشى بهم إلى ناظر الوقف وفتواته وتحدث مواجهة عنيفة بين قاسم والناظر وبعض الفتوات حيث يضربونه ويهينونه وينذرونه بالقتل إن استمر فيما هو فيه من العزم على تنفيذ رغبة الجبلاوى لكى يسود العدل والمساواة .

وتبدأ فترة من الاضطهاد لأتباعه بينما لا يستطيع هو أن يغادر منزله وتأتيه الأخبار أن حى جبل وحى رفاعة يتداولون خبره مكذبين له ويقول فى حسرة : لماذا يتهموننى بالكذب فى حين كان الأولى بهم من دون الناس جميعا أن يكونوا أول من يؤمن بى ويؤيدنى (إشارة واضحة إلى موقف أهل الكتاب من رسالة سيدنا محمد ﷺ ودعوته) ويتصاعد الاضطهاد ويصل إلى درجة قتل بعض أتباع قاسم مثل (شعبان) وسط خوف الناس وذعرهم . ويصل قاسم مع أصحابه إلى قرار البعد عن الحارة والهجرة إلى الصحراء حتى يستكملوا بناء قوتهم كما فعل جبل من قبل ثم يعودوا بعد ذلك (إشارة إلى الهجرتين الأولى إلى الحبشة فرارا من الاضطهاد والثانية إلى يثرب حيث بناء الدولة) .

ثم تموت (قمر) بعد مرض ومعاناة ويسيطر على قاسم حزن عظيم ويأتيه أصحابه المهاجرون فيقابلونه سرا فى المقابر لكى يقدموا له واجب العزاء وبوفاة زوجته الغنية ذات النسب والشرف يفقد قاسم جزءا كبرا من الموانع الأدبية التى كانت تحول بين أعدائه وقتله أو التخلص منه وهكذا تصله الأخبار بأنهم يدبرون لقتله فى ليلة معينة فيضع خطة لانقاذ ابنته فيتفق مع (سكينة) الخادمة على أن تذهب بها إلى حيث يوافيهم (حسن) ابن عمه لتهريبهم أما هو فسيبقى إلى أن يخيم الليل ويسود السكون فينتقل عبر الأسطح المجاورة إلى بيت عمه

تاركا مصباحا مشتعلا فى شقته لتضليل المتربصين به (كناية عن نوم على فى فراش النبى ﷺ لتضليل المشركين ليلة الهجرة) . ومع أنه اضطر لتغيير خطته إلا أنه نجح آخر الأمر فى الفرار وركض بأقصى سرعة حتى بلغ المكان الذى كان أصحابه ينتظرونه فيه وانطلق الجميع فى عربة إلى الجبل حيث قابلوا العجوز (يحيى) ثم ذهبوا إلى المكان الذى استوطن فيه المهاجرون من قبلهم فى جبل المقطم حيث استقبلوه بالترحاب والغناء والهتاف ونشيد (يا محنى ديل العصفورة) (إشارة إلى الهجرة إلى المدينة) ونشيد (طلع البدر علينا) .

وعندما تناوله (سكينة) الخادمة كوب ماء وتقول له إنهم أحضروه من الصنبور العمومى كما سقى جبل المرأتين من قبل يسر قاسم كثيرا لأن أى إشارة تقرنه بجبل ورفاعة أو تشبهه بهما تجعله سعيدا (كما لو أن لديه حاشا لله مركب نقص أو أنه ادعى النبوة متشبها بموسى وعيسى من غير أن يكون نبيا صادقا أو أهلا للرسالة أو كما لو أنه كان يشعر أنهما بلغا مكانة لا يستطيع أن يبلغها . ولاحظ أيضا مسألة تصوير الوحى أو الاتصال بالسماء بالنسبة لشخصية قاسم حيث حدثت مرة واحدة وحولها ظلال من الشك ممن حوله) وهو الراوية الوحيد لها مما يوحى بأن محمدا ﷺ اختلط عليه الأمر أو كان مجرد تهيؤات إذ لم يعد الملاك مرة أخرى وإذن فالرسالة كلها من عند محمد ولكنها بدأت بما (إعتقد) أو (خيل له) أنه وحى من السماء ، ويشعر (قاسم) بالوحدة بعد وفاة (قمر) ويفاتحه أصحابه فى ضرورة الزواج وأخيرا يتزوج من (بدرية) الفتاة الصغيرة الناضجة أخت (صادق) أخلص أصحابه ويتذكر قاسم قمر ذات يوم وتفلت منه عبارة ثناء عليها فتتجهم بدرية غيرة وتقول له أنها كانت عجوزا ولم تكن جميلة فينهاها من أن تتحدث عنها هكذا ويقول لها أن امرأة مثل قمر ينبغى أن تذكر بالترحم عليها (طبق الأصل ما قالته السيدة عائشة مرة للرسول ﷺ عن السيدة خديجة ورده عليه السلام عليها) وبعد أن يزداد عدد المهاجرين وتزداد قوتهم فى الحيل يهجمون على زفة (سوارس) فتوة الحارة وتحدث معركة رهيبة بالشوم والنبابيت تنتهى بمصرع سوارس وانتصار قاسم وأصحابه (غزوة بدر) وما يلبث الفتوات وأنصارهم أن يزحفوا على الجبل حيث قاسم وأصحابه للانتقام منهم وبينما يخالف بعض أنصار قاسم أوامره ويتركوا مواقعهم الجنوبية يتسلل (لهيطة) (الفتوة الكبير)من الثغرة ويهاجم قاسم وأصحابه (غزوة أحد) ولكن ينتصر قاسم وأتباعه (الجرابيع) بعدمعركة رهيبة تسيل فيها الدماء أنهارا ويقتل فيها لهيطة .

ويستدعى رفعت (ناظر الوقف (جلطة) و(حجاج) الفتوتين الباقيين ويأخذ عليهما عهدا بالاتحاد من أجل الانتقام وذلك بحصار قاسم وأصحابه فى الجبل ولكن جلطة وحجاج يضمران لبعضهما البعض شرا حتى يفوز أحدهما بمنصب لهيطة (كبير الفتوات)

وبالفعل يقتل حجاج غدرا وهو مخمور بالليل ويتهم أنصاره جلطة بتدبير مقتله وما تلبث أن تنشب معركة بين الفريقين يحاول ناظر الوقف منعها واقناعهم بأنها مكيدة من قاسم لبث الفرقة بينهم ومهاجمتهم على حين غرة ولكن نصح الناظر يذهب سدى ويحدث بالفعل هجوم مفاجىء من قاسم وأتباعه من أكثر من اتجاه وتحدث مواجهة عنيفة ينتصر قاسم وأصحابه فى نهايتها نصرا مؤزرا (فتح مكة) ويقود قاسم الناس بعد انتصاره ويقف الجميع أمام البيت الكبير حيث يقف فيهم خطيبا قائلا :

(هنا يعيش الجبلاوى جدنا جميعا ليس هناك حى من الأحياء أقرب صلة به من الآخر ولا أى شخص رجلا أو امرأة حولكم أوقافه وهى تخصكم جميعا على قدم المساواة كما وعد أدهم عندما قال له أن الوقف لك ولذريتك فيجب علينا أن نتسخدمه كما ينبغى حتى يحصل كل منا على نصيبه ويعيش كما أراد أدهم فى بحبوحة وسلام وسعادة . لقد ذهب ناظر الوقف بغير عودة وانتهى الفتوات ولا يجب أن يحل محلهم فتوة آخر لن تكون هناك أتاوة تدفع إلى طاغية أو تكون هناك استكانة وذل لفتوة مخمور يمكن أن تقضوا حياتكم فى حب ورحمة وسلام وفى مقدوركم ألا تعود الأمور كما كانت عليه من قبل (لعلها إشارة إلى خطبته ﷺ فى حجة الوداع) .

وقضى قاسم حياته فى البناء والتعمير والسلام يوزع بالعدل ريع الوقف على الجميع ولم تشهد الحارة من قبلِ مثل هذه الوحدة والانسجام والسعادة لقد رأى فيه الجرابيع رجلا نموذجيا لم يروا مثله من قبل (يُشكر المؤلف على كل حال) لكن ما قيمة شهادتهم هذه وهم أولاد (جرابيع) فإنه كان يجمع بين القوة والرقة والحكمة والبساطة والسيادة والتواضع كان أمينا ومهيبا ومحبوبا فى آن واحد وإلى ذلك كله (خذ بالك مما سيأتى) كان ظريفا بشوشا أنيقا وحشاشا يلذ مجلسه اللهم إلا أنه توسع فى حياته الزوجية فعلى حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة .

وقال أناس فى زواج قاسم من أكثر من واحدة أنه يبحث عن شيء فقد منذ افتقد زوجته الأولى قمر . وقال ابن‌عمه زكريا أنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث بل الحق أنه إذا كانت الحارة قد أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته وحبه النسوان مرات ان حب النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ومنزلة تعدل فى درجتها درجة الفتوات فى زمانها أو تزيد .

القــول الحــق

وكما رمز الكاتب لموسى عليه السلام برمز جبل ورمز لعيسى عليه السلام برمز رفاعة رمز لسيد الخلق محمد ﷺ برمز قاسم فانظر كيف طوعت له نفسه أن يتحدث عن الحى الذى نشأ فيه رسول الله ﷺ بحى الجرابيع إنها كلمة تقشعر منها الأبدان وتشيب من هولها الولدان فلم يكن آل رسول الله ﷺ ولا أصحابه بالجرابيع ، إن رسول الله ﷺ خير ثمرة فى خير شجرة نبتت فى هذا الوجود .

لقد نبتت فى حرم وبسقت فى كرم وكما قال بن مسعود : « **اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختاره برسالته ثم أطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته فما رأه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن** » . ثم قارن أيها القارىء بين ما ذكره الكاتب فى الفقرة السابقة وبين ما شهد به الأجانب الذين لا يدينون بالإسلام ما شهدوا به لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية .

يقول سباستيان شارتلى : لقد مات الشرق بموت دارا وعادت إليه الحياة على يد محمد .

وقال توماس كارلايل : أحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ما كان محمد بعابث قط ولا شاب قوله شائبة لغو ولهو ويزعم المتعصبون أن محمدا لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان كلا وأيم الله لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس والمملوءة رحمة وبرا وحنانا وخيرا ونورا وحكمة أفكار غير الطمع الدنيوى وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان .. فحبذا محمد من رجل متقشف خشن الملبس والمأكل مجتهد فى الله دائب فى نشر دين الله .

وقال برنارد شو : إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة .

وقال المستر كاين تلر : إن الغلو فى الحرية والتهتك وراء الشهوات البهيمية لا تحبذه الشريعة الإسلامية والدين الإسلامى هو الدين الذى يعم به النظام بين الورى ويقمع النفس عن الهوى ويحرم إراقة الدماء والقسوة فى معاملة الحيوان والارقاء ويوصى بالإنسانية ويحض على الخير والأخوة ويقول بالاعتدال فى تعدد الزوجات وكبح جماح الشهوات .

وقال لامرتين : لقد كان محمد فيلسوفا وخطيبا ومشرعا وقائدا وفاتح فكر وناشر عقائد تتفق مع الذهن ومنشىء عشرين دولة فى الأرض وفاتح دولة فى السماء من الناحية الروحية أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وصفت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه ؟

وقال غاندى : لقد كان محمد نبيا عظيما كان النبى العظيم فقيرا زاهدا فى متاع الدنيا فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يكون ثريا كبيرا لو أراد .

لقد ذرفت الدموع وأنا اقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم إذ كيف يستطيع باحث عن الحقيقة مثلى أن لا يطأطىء الرأس أمام هذه الشخصية التى لم تعمل إلا من أجل مصلحة البشرية كلها .

ولكن ما قيمة شهادة هؤلاء جميعا وهم ليسوا مسلمين وليسوا من المساطيل الذين لا يفارقون جلسات الحشيش فى حق محمد ما دام نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم السبيجلى أحمد الباشا المولود بحى الجمالية فى ١١ ديسمبر سنة ١٩١١ والفائز بجائزة نوبل فى الآداب لعام ١٩٨٨ عن روايته (أولاد حارتنا) يرى غير هذا .

صـور من حيـاة الرسـول ﷺ
المثل الأعلى فى الأنبيـــاء

جاء فى كتاب (المثل الأعلى فى الأنبياء) :

لما اصطفى الله رسوله محمدا للنبوة كان أول ما نزل عليه فى غار حراء قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ رسالة خلت من كل نزعة شخصية أو قبلية ولكنها بلغت غاية العظمة والجلال لأنها دستور عام يهدف إلى النهوض بالإنسانية .

ثم يمضى المؤلف قائلا :

إن محمدا ﷺ جاء برسالة تختلف فى صبغتها عما تقدمها من كل الوجوه وتسمو على كافة الأغراض الشخصية والجنسية وتعتبر الناس جميعا أمة واحدة . وتتحدث عن الهدف الأسمى الذى أعد الله الإنسان له وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الغرض الأعظم وهى رسالة تتحدث كثيرا عن القراءة والكتابة كما يفهم من قوله تعالى : ﴿ **الذى علم بالقلم** ﴾ كما تتحدث عن تعلم العلوم التى كان الناس يجهلونها وقت البعثة النبوية كما تدل عليه الآية :

﴿ **علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ . وهى رسالة ذات صبغة عالمية تنتظم فى سلكها الجنس البشرى كله ومعلوم أن الإنسان هو أكمل الكائنات نشأة إذ يبلغ النمو الجسمى غاية كماله فى هيكله الجسمانى ومع ذلك فقد نشأ كله من علقة كما تشير الآيات المذكورة واقتضت إرادة الخالق سبحانه وهو الذى أنشأ ذلك المخلوق العجيب من علقة أن يبلغ به غاية الكمال العقلى والخلقى والروحى .

فبلغ الإنسان عن طريق رسوله هذا الغرض الأسمى وأبان له فى أول وحى نزل عليه الوسائل الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .

ثم يتحدث المؤلف تحت عنوان (المثل الأعلى فى الأخلاق) فيقول :

نزل جبريل الأمين بالوحى على النبى ﷺ فى غار حراء فأخذته رعدة شديدة فرجع إلى خديجة ترجف بوادره فقال : « **زملونى .. زملونى** » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « **يا خديجة لقد خشيت على نفسى** » فقالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا إنك تصدق الحديث ولا تجزى بالسيئة السيئة وتؤدى الأمانة وتصل الرحم وإن خلقك لكريم ولست بصخاب فى الأسواق .

ثم يسوق المؤلف هذا المشهد فيقول :

ويروى أنه بينما كان من رجالات قريش جلوسا يتحدثون عرضوا الذكر رسول الله ﷺ فاعترضهم النضر بن الحارث وكان أعلمهم بشئون الدنيا فقال مسفها لآرائهم : يا معشر قريش إنه قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم به قلتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون لقد استمعت لما قاله محمد فلا والله ما هو بساحر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر ولا هو بمجنون . يا معشر قريش فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان أبو جهل عدو الرسول يقول : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به .

(انتهى كلامه)

أجل يا رسول الله .. أعد على سمع الناس هذه العبارة النبوية الشفافة الطاهرة : « **لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين** » .

والذى نفسى بيده يا رسول الله إنك جدير بهذا الحب حقيق بهذا التقدير أهل لهذه المحبة لا يجحدك إلا كل ظلوم جهول ولا ينقص من قدرك إلا كل معتد أثيم . وها نحن أولاء

نذكر هذه الاشارات وتلك التنبيهات من حياتك الطاهرة بما تيسرمن التقدير وتقدر من التيسير .

لقد أصاب الشاعر إذ يقول :

لم يبق للبلغاء فضل بعدما نطقت بك الآيات من رب السما
كلا ولو جعلوا القوافى أنجما أيروم مخلوق ثناءك بعدما
أثنى على أخلاقك الخلاق

مكانة النبى ﷺ

وها نحن أولاء نسوق هذه الآيات الكريمة بين يدى القارىء ليتبين مدى فضل رسول الله ﷺ ومدى مكانته فى القرآن الكريم وكيف تربع على مناط الرفعة وسلك مدارج الفخار والعزة الإسلامية . يقول تبارك اسمه :

﴿ ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلاهو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ .

﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

وبالإشارة إلى الآيتين الأخيرتين قال رسول الله ﷺ : « **أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة** » .

ويرحم الله الإمام البوصيرى حيث يقول :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد ... حال سنا منك دونهم وسناء
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء فوق علياء

نسبه ﷺ

لقد اختار الله رسوله من أعظم القبائل شرفا وأعلاهم قدرا وحسبا فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤى ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خذيمة بن مدركته بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان الذى ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام .

إن الله تعالى اصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى محمدا ﷺ من بنى هاشم فهو خيار من خيار من عترته خير عترة وسيرته خير سيرة وشجرته خير شجرة نبتت فى حرم وبسقت فى كرم .

وأمه ﷺ السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم ، فهى تلتقى مع نسبه من أبيه فى جده حكيم . وكل منهما ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم . وكأن الله تعالى قد أراد أن يلتقى كل منهما على أمر قد قدر .

فما أشرف نسبه وما أطهر مولده . وما زال ﷺ ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الذاكية حتى استقر فى رحم آمنة :

أبان مولده عن طيب عنصره ... يا طيب مبتدأ منه ومختتم
كالشمس تظهر للعينين من بعد ... صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

مولده الشريف ﷺ

سلام عليك يا رسول الله . أنت دعوة أبيك إبراهيم : ﴿ **ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ .

فكنت أنت هذه الدعوة وما أجملها وما أجلها وأنت بشارة أخيك عيسى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾ .

يا رسول الله كنت أنت هذه البشارة :

البدر دونك فى حسن وفى شرف والبحر دونك فى خير وفى كرم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من العدم

أنت رؤيا أمك آمنة .

لقد رأت حين ولدتك كأن نورا سطع منها أضاء لها قصور الشام فكنت أنت ذلك النور .

يا رسول الله :

أنت مصباح كل فضل فما تصدر إلا عن ضوئك الأضواء
لم تزل فى ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء

فى ليلة صفت سماؤها ورق ماؤها وطاب هواؤها وضعت آمنة بنت وهب خير خلق الله وصفوة رسله محمدا ﷺ وأذاعت على الكون هذا النبأ السعيد :

تجلى مولد الهادى وعمت بشائره البوادى والقصابا
وأسدت للبرية نبت وهب يدا بيضاء طوقت الرقابا
لقد ولدته وهاجا منيرا كما تلد السموات الشهابا
فقام على سماء البيت نورا يضىء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكا وفاح القاع أرجاء وطابا

ولما بشر جده عبد المطلب بمولده سماه (محمدا) .

يقول كتاب السيرة :

لما جاء عبد المطلب ليراه قيل له : ما سميت ابنك ؟ فقال : (محمدا) . فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟

فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

ولقد كان ذلك كذلك .

هذه ثويبة جارية عمه أبى لهب عبد العزى بن عبد المطلب تبشر سيدها بمولده فيمتلىء فرحا وبهجة ويقول لها : اذهبى فأنت حرة وتكون أول جرعة لبن تصل إلى جوفه الشريف بعد مولده من هذه الجارية فكان هذا تنبيها للعالم أجمع أن هذا المولود سيحرر العبيد ويجعل منهم سادة ومن المستضعفين قادة .

ولقد أخبر الرسول ﷺ عن نفسه فقال :

« إن لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر وأنا العاقب الذى لا نبى بعدى » .

وفيما رواه الإمام أحمد :

« أنا محمد وأنا أحمد وأنا نبى الرحمة ونبى التوبة والحاشر والمقفى ونبى الملاحم » .

لقد كان فى مولده عبرة لأولى الألباب .

هذا عبدالمطلب يقدم على نذرا ان رزقه الله بعشرة من الذكور ان يتقرب بذبح واحد منهم ويرزقه الله بهذا العدد ويأت يوم الوفاء بالنذر ويجرى القرعة بين أولاده فتأتى القرعة على عبدالله ولكن عبدالمطلب يجد فى داخل نفسه مايمنعه عن الاقدام على ذبحه فيعيد القداح مرة اخرى فتأتى على عبدالله ولكنه يجد نفس المانع وتعاد القداح فلم تجاوز عبدالله وهنا يشير القوم عليه ان يجرى القرعة بين عشرة من الابل وبين عبدالله فكلما جاءت على عبدالله ذبح العشرة واخذ العدد يتزايد الى ان بلغت الابل مائة وبعدها فارقت القرعة عبدالله وذبح المائة ليأكل منها الانسان والحيوان والطير فكان فى هذا عبرة لمن يعتبر من الذى منع عبدالمطلب ان يقدم على ذبح عبدالله ولماذا؟ ان الذى منعه هو الله الذى منع السكين ان تذبح اسماعيل بن ابراهيم وكان الخليل يريد ان يذبح ولكن الجليل اراد أنه لايذبح ﴿ **فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام انى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى**

المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴾ كذلك حدث مع عبدالله بعدما لزمته القداح ولما تفارقه ومن ثم يقول النبى ﷺ « انا ابن الذبيحين » لماذا منع الله عبدالمطلب ان يذبح ابنه عبدالله ؟ لأن فى صلب عبدالله خير خلق الله .

« عبدى انت تريد وانا أريد ولايكون الا ماأريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ماتريد وان لم تسلم لى فيما أريد اتعبتك فيما تريد ولا يكون الا ماأريد »

عــبرة آخــرى

وتلك عبرة أخرى بعدما دخل عبد الله بآمنة قضى معها أياما قلائل ونادى المنادى للخروج الى رحلة الشام صيفا فكان عبدالله من الذين خرجوا فى هذه القافلة وترك عروسه آمنة فى أيامها الأولى وتمر الأيام سراعاً وتعود القافلة وشوق آمنة يزداد إلى عبد الله لتزف إليه البشرى بجنين يتحرك فى احشائها ولكن اهل القافلة عادوا جميعا ماعدا واحدا هو الذى تأخر لماذا ؟ من الذى حجزه ؟ لقد جاءه الموت فى يثرب فمات عند اخواله من بنى النجار ولقيت آمنة ما لقيت من عناء الفرقة وفداحة المصاب ولكن ماذا تفعل ؟

مشيناها خطا كتبت علينا ومن كتبت عليه خطا مشاها
ومن كانت منيتــه بأرض فليس يموت فى أرض سواها

وتمت مدة الحمل كما أراد الله ﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ وجاء هذا النبى الى الكون يتيما حتى لايقول أبى أبى وانما يقول ربى ربى وهل وجود الأبوين أو فقد أحدهما يغير من مقادير الله شيئاً ؟ كلا هذا يوسف بن يعقوب عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام نشأ فى كنف اب أكن له الحب وافعم قلبه بالعطف عليه ولكن ذات يوم يتلفت الوالد حوله فلا يجد ابنه بين يديه وتقع الفرقة بينهما فهل أغنت حياة يعقوب بالنسبة ليوسف شيئا ؟

الفصل الخامس عشر
القول الحق

ويهمنا فى الفقرة التى تحدث فيها عن قاسم ان نرد فيها على مسألتين الوحى وتعدد زوجات الرسول ﷺ اما ماعدا ذلك مما قاله فعبث لايستحق الرد عليه كقوله ان قاسما شرب الحشيش والخمر والدنيا كلها تعى ان رسول الله ﷺ كان معصوما من التلبس من اى شبهة أو شائبة بل انه فى فجر حياته لما هم بأن يشارك قوما افراحهم القى الله النوم عليه فنام والدنيا كلها تعلم انه ﷺ لم يجد الاعداء عليه مغمزا أو مطعنا اما ماقاله المؤلف عن الوحى فاليك هذه الفقرة من كلامه (ويتفرغ قاسم لرعي الأغنام وهى المهنة التى احبها حبا جماً وجعلته يقضى أوقاته كلها تقريبا فى الصحراء يتأمل الطبيعة ويراقب الخراف فى حياتها الفطرية وكذلك جعلته هذه المهنة يكثر من زيارة العجوز يحيى .

« فى سيرة الرسول ﷺ انه لم يلجأ الى ورقة أو بمعنى أصح لم تنصحه خديجة رضى الله عنها باللجوء اليه لاستشارته الا بعد أن نزل عليه جبريل فى الغار ولكن المؤلف يجعل من يمثل شخصية ورقة فى الرواية – وهو (يحيى) هو المعلم والاستاذ الذى يتلقى عنه قاسم منذ صغره النصح والارشاد والعلم واخبار الأولين مما يوحى بأن الرسول ﷺ انما أخذ عن علماء النصارى ماجاء به بعد ذلك وهى دعوى متهافتة ساذجة من دعاوى المستشرقين المتعصبين واعداء الاسلام سبقت الاشارة اليها وتفنيدها فى القرآن الكريم نفسه فى غير موضع وكان أولى بها أهل الكتاب المعاصرون للرسول نفسه ولكنهم لم يدعوها والذى ادعاها منهم لم يستطيع الصمود بها امام صحيح القرآن ومنطقه القوى وهكذا يتحيز المؤلف فى قصته هذه التى تعتبر تفسيرا الحاديا « أى يستبعد تدخل السماء تماما » للتاريخ الدينى للبشرية الى ادعاءات اعداء الاسلام ضده لقد أوحى عبدالرحمن الشرقاوى فى كتابه « محمد رسول الحرية » الذى تصدرت الغلاف فى احدى طبعاته عبارة « انما انا بشر مثلكم » محذوفا منها (قل) و(يوحى الى) اللتان تثبتان الوحى بحيث يبدو الأمر وكأنه دين بشرى خالص بالتوكيز على بشرية محمد نقول أوحى بأن القرآن كان من خواطر محمد ووحى نفسه وكانت بدايته حلما ومناما ويقول الشرقاوى بالنص :

« ولكنه فى تلك الليلة من رمضان أغفى قليلا فنام فرآى من يعرض عليه كتابا ويطلب منه ان يقرأ فسأله (ماذا أقرأ) فقال ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم** ﴾ وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه فى النوم وهو يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه اذا به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتا من بعيد يقول له « يا محمد أنت رسول الله وانا جبريل » طبعة دار الهلال ص ٦٥ واذن فالرسالة المحمدية فى رأى الشرقاوى لم تكن إلا حلما رآه محمد فى المنام كالأصوات التى كانت تسمعها جان دارك مثلا ويصفها علماء النفس بأنها (هلاوس سمعية وبصرية) ولقد استطردنا كل هذا مع كلام الشرقاوى لكى نقول هنا ونسجل للأستاذ محفوط انه ذهب شوطا أبعد من هذا بكثير فان الرسالة التى جاء بها محمد ليست حتى من عند نفسه هو بل تلقاها على يد علماء اهل الكتاب وكأنى بالاستاذ يكتب روايته هذه وامامه على المكتب دعاوى المستشرقين الحاقدين واقتراءاتهم ضد الإسلام يحشو بها كتابه حشوا وستأتى ملاحظات اخرى تثبت هذا الاتجاه الذى سار عليه المؤلف مثل وصفه قاسم بأنه مزواج وانه زير نساء الى غير ذلك والله غالب على أمره .

[قضيــة الوحــى]

ما هو الوحى ؟ الوحى بمعناه الشرعى حقيقة يشترك فيها الانبياء جميعا وهو اعلام الله تعالى لنبى من انبيائه بحكم شرعى ونحوه وقد يطلق ايضا على كلام الله المنزل على النبى ﷺ وجاء فى تعريف الوحى ايضا عند بعض العلماء انه عرفان يجده الشخص فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله بواسطة وبغير واسطة قال الله تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه مايشاء انه عليم حكيم . وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾
ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأنه انسان ان يكلمه الله الا وحيا وانما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث .

١ - اما أن يكون وحيا بمعنى ان الله يلقى فى النفس مباشرة فتعرف انه من الله .

٢ - واما ان يكون من وراء حجاب كما كلم الله موسى عليه السلام حيث طلب الرؤية

ولم يجب اليها ولم يطق تجلي الله على الجبل ﴿ **وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك وانا أول المؤمنين** ﴾ .

٣ – واما ان يرسل رسولا وهو الملك ﴿ **فيوحي بإذنه مايشاء** ﴾ .

صور العرض التي وردت عن رسول الله ﷺ

الأولى : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير ان يراه كما قال ﷺ « **ان روح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب** »

والثانية : انه كان ﷺ يتمثل له الملك رجلا فيخاطبه حتى يعى عنه مايقول .

والثالثة : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس وكان اشده عليه حتى ان جبينه ليتفصد عرقا فى اليوم الشديد البرد وحتى ان راحلته لتبرك به الى الأرض ان كان راكبها ولقد جاء الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت تردها .

والرابعة : انه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها فيوحى اليه ماشاء الله ان يوحيه وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم ﴿ **علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى الى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى** ﴾ هذه صورة الوحى وطرق الاتصال (انه على حكيم) يوحى من علو ويوحى بحكمة الى من يختار .

قال بعض المحققين : انه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحى أو حديث يتكلم عنه لأتأمل هذا الاتصال الا أحسست له رجفة فى أوصالى كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله الأزلى الأبدى الذى ليس له حيز فى المكان ولا حيز فى الزمان المحيط بكل شيء والذى ليس كمثله شيء كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله العلى وذات الانسان المتحيزة فى المكان والزمان المحدودة لحدود المخلوقات من ابناء الفناء ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معانى وكلمات وعبارات وكيف تطيعه ذات محدودة فانية ان تتلقى كلام الله الأزلى الأبدى الذى لا حيز له ولا حدود ولا شكل له معهود وكيف ؟ وكيف ؟ ولكنى أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف وانت لا تملك ان تتصور الا فى حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت فى صوره وصار لها وجود هو الذى تملك أن تدركه من وجود ولكن الوهلة والرجفة والروعة لاتزال أن النبوة هذه أمر عظيم حقا وان لحظة التلقى هذه

لعظيمة حقا تلقى الذات الانسانية لوحى من الذات العلوية .

أخى الذى تقرأ هذه الكلمات أأنت معى فى هذا التصور أأنت معى تحاول ان تتصور هذا الوحى الصادر من هناك أأقول (هناك) كلا انه ليس هناك (هناك) الصادر من غير مكانٍ ولا زمان لا حيز ولا حد ولا جهة ولا ظرف الصادر من النهائى الأزلى الأبدى الصادر من الله ذى الجلال .. الى انسان مهما يكن نبيا رسولا فانه هو هذا الانسان ذو الحدود والقيود هذا الوحى هذا الاتصال العجيب المعجز الذى لايملك الا الله ان يجعله وقفه تتحقق ولا يعرف الا الله كيف يقع ويتحقق أخى الذى تقرأ هذه الكلمات هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المنقطعة التى أحاول أن أنقل بها مايخالج كيانى كله ؟ انى لا أعرف ماذا اقول عما يخالج كيانى كله من الروعة والرجفة وانا أحاول الآن تصور ذلك الحديث العظيم العجيب الخارق فى طبيعته والخارق فى صورته الذى حدث مرات ومرات وأحس بحدوثه ناس رآوا مظاهره رأى العين على عهد رسول الله ﷺ . وهذه عائشة رضى الله عنها تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية فتروى عن واحدة منها فتقول : قال رسول الله ﷺ « **يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام قلت وعليه السلام ورحمة الله قالت وهو يرى ما لايرى** » أخرجه البخارى .

وهذا زيد بن ثابت رضى الله عنه يشهد مثل هذه اللحظة وفخذ رسول الله ﷺ على فخذه وقد جاءه الوحى فثقلت حتى كادت ترد فخذه . وهؤلاء هم الصحابة رضوان الله عليهم فى مرات كثيرة يشهدون هذا الحادث ويعرفونه فى وجه رسول الله ﷺ فيدعونه للوحى حتى يسر عنه فيعود اليهم ويعودون اليه ثم أية طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال العلوى الكريم ؟ أى جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحى ويختلط بذلك العنصر ويتسعد مع طبيعته وفحواه . انها هى الأخرى مسألة انها حقيقة ولكنها تتراءى هنالك بعيداً على أفق عال ومرتقى صاعد لاتكاد المدارك تتملاه روح هذا النبى ﷺ روح هذا الانسان كيف ياترى كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقى ؟

كيف كانت تتفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجسد الوجود فى هذه اللحظات العجيبة التى يتجلى فيها الله الموجود والتى تتجاوب جنباته كلها بكلمات الله ؟ ثم أية رعاية ؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟ والله العلى الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليقة الضئيلة المسماة بالإنسان فيوحى اليها لاصلاح امرها وانارة طريقها ورد شاردها وهى أهون عليه من البعوضة على الإنسان حين تقاس الى ملكه الواسع العريض انها حقيقة ولكنها اعلى وارفع من أن يتصورها الإنسان الا مطلعا الى الأفق السامق الوضيء .

قوله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور** ﴾ يريد الله تبارك وتعالى ان يقول لصفوة خلقه ومثل الوحى الذى أوحيناه الى الأنبياء السابقين عليك أوحينا إليك روحا من أمرنا فيه حياه يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها فى القلوب وفى الواقع العملى المشهود ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ . والمقصود بهذا النص هو اشتمال قلب الحبيب محمد ﷺ على هذه الحقيقة حقيقة الكتاب والإيمان والشعور بها والتأثر بوجودها فى الضمير وهذا مالم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذى لابس قلب محمد ﷺ ﴿ **ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ وهذه طبيعته الخالصة طبيعة هذا الوحى هذا الروح هذا الكتاب إنه نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء الله لها أن تهتدى به بما يعلمه من حقيقتها ومن مخالطة هذا النور لها ﴿ **وانك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ .

هذا توكيد على تخصيص هذه المسألة مسألة الهدى بمشيئة الله جل شأنه وتجريدها من كل ملابسة وتعليقها بالله وحده يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص الذى لا يعرفه سواه والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله فهو لاينشىء الهدى فى القلوب ولكن يبلغ الرسالة فتقع مشيئة الله ﴿ **وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فهى الهداية الى طريق الله الذى تلتقى عنده المسالك لأنه الطريق إلى المالك الذى له ما فى السموات وما فى الأرض فالذى يهتدى الى طريقه يهتدى إلى ناموس السموات والأرض وقوى السموات والأرض ورزق السموات والأرض واتجاه السموات والأرض الى مالكها العظيم الذى اليه تتجه والذى اليه تصير ﴿ **الا الى الله تصير الأمور** ﴾ فكلها تنتهى اليه وتلتقى عنده وهو يقضى فيها بأمره وهذا النور يهدى الى طريقه الذى اختار للعباد أن يسيروا فيه ليصيروا اليه فى النهاية مهتدين طائعين . ومن الجدير بالذكر أن هذه السورة التى ختمت بآيات الوحى قد بدأت بالحديث عن الوحى انها سورة الشورى التى بدأها الله تعالى بقوله :
﴿ **حم . عسق . كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ لقد كان الوحى محورها الرئيسى وقد عالجت قصة الوحى منذ النبوات الأولى لتقرير وحدة الدين ووحدة المنهج ووحدة الطريق ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ممثلة فى رسالة سيدنا محمد ﷺ وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة ولتلقى على عاتق هذه العصبة امانة القيادة الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز الذى تصلح به للقيادة وتحمل به هذه الأمانة التى تنزلت من السماء الى الأرض عن ذلك الطريق العجيب العظيم .

[بشـــائر النبـوة]

بعد الفراغ من تعريف الوحى وانه حقيقة واقعة يشترك فيها جميع الأنبياء فإن للوحى بشائر مثل نزوله تبعث الأمن والطمأنينة فى قلب النبى الذى يوحى اليه الا وهى الرؤية الصالحة .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال أول مايؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحى بعد فى اليقظة .

وقد روت عائشة رضى الله عنها فى حديث بدء الوحى أنه أول مابدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

[صــور الوحــى]

وهى كثيرة متنوعة كما روت عائشة رضى الله عنها ان الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فينفصم عنى وقد وعيت عنه ما قاله واحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأوعى مايقول قالت عائشة رضى الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا » .

[الصحابة يشاهدون ساعة الوحى]

ويجدر بنا فى هذا المقام أن نذكر ان هناك كثرة من الصحابة قد أبصروا الملك جبريل الأمين وقد تمثل فى صورة بشرية حسنة الهيئة وهو يجلس ويخاطب رسول الله ﷺ وهذه بعض المشاهد التى رويت فى ذلك :

أخرج الإمام أحمد فى مسنده والخرايطى فى مكارم الأخلاق عن طريق ابى العالية عن رجل من الأنصار قال : « خرجت مع أهلى أريد النبى ﷺ فإذا به قائم ومعه رجل يقبل عليه فظننت ان لهما حاجة قال الأنصارى لقد قام رسول الله ﷺ حتى جعلت ارثى له من طول القيام فلما انصرف قلت يا رسول الله لقد قام بك هذا الرجل حتى جعلت ارثى لك من طول القيام قال ولقد رأيته قلت نعم قال أتدرى من هو ؟ قلت لا قال : ذاك جبريل مازال يوصينى بالجار حتى ظننت انه سيورثه ثم قال اما انك لو سلمت رد عليك السلام » وأخرج أبوموسى المدينى فى المعرفة عن تميم بن سلمة قال : « بينا انا عند رسول الله ﷺ اذا انصرف من عنده

رجل فنظرت إليه موليا معتماً بعمامة قد أرسلها من ورائه قلت يارسول الله من هذا ؟ قال جبريل » .

واخرج أحمد والطبرانى فى الدلائل عن حارثة بن النعمان قال : « مررت على رسول الله ﷺ ومعه جبريل فسلمت عليه ومررت فلما رجعنا وانصرف النبى ﷺ قال : **هل رأيت الذى كان معى قلت** : نعم ، قال : **فإنه جبريل وقد رد عليك السلام** » واخرج أحمد والبيهقى عن ابن عباس قال: « كنت مع ابى عند رسول الله ﷺ وعنده رجل يناجيه فكان كالمعرض عن ابى فخرجنا فقال لى ابى يابنى الم تر أن ابن عمك كالمعرض عنى قلت ياأبى انه كان عنده رجل يناجيه فرجع فقال لرسول ﷺ : قلت لعبد الله كذا وكذا فقال : انه كان عندك رجل يناجيك فهل كان عندك أحد ؟ قال : **وهل رأيته ياعبدالله ؟ قلت** : نعم ، قال : **ذاك جبريل هو الذى شغلنى عنك** » .

واخرج ابن سعد عن ابن عباس قال رأيت جبريل مرتين واخرج أبوبكر بن أبى داوود فى كتاب المصاحف عن ابى جعفر قال كان أبوبكر يسمع مناجاة جبريل للنبى ﷺ ، واخرج الحاكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : « رأيت جبريل واقفا فى حجرتى هذه ورسول الله ﷺ يناجيه فقلت : يارسول الله من هذا ؟ قال : **بمن شبهت قالت** : بدحية الكلبى وهو صحابى من اصحاب رسول الله ﷺ قال رسول الله لعائشة : **لقد رأيت جبريل** » وجاء فى صحيح الإمام مسلم ان جابر بن عبدالله الأنصارى وكان من اصحاب رسول الله ﷺ كان يحدث قال قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى قال فى حديثه فبينما انا أمشى سمعت صوتا فى السماء فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالساً على كرسى بين السماء والأرض قال رسول الله ﷺ : **فرجعت فقلت : زملونى دثرونى فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿ يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ﴾** ومن حديث أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى صحيح الإمام مسلم عند قوله تعالى **﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ ﴿ولقد رآه نزلة أخرى ﴾** فقالت انا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « **انما هو جبريل لم أره فى صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين فرأيته منهبطا من السماء سادا عظيم خلقه مابين السماء الى الأرض** » .

وبعد بيان هذه المشاهد التى رآى فيها بعض أصحاب رسول الله ﷺ أمين الوحى راى العين فان المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين لايدعون قضية الوحى دون أن يكون لهم فيها غمز ولمز فقد طفحت نفوسهم بالحقد وقد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم اكبر وهانحن اولاء ندحض هذه الشبه بالرد القاطع فنبطلها ونمحوها فنذرها هشيما تذروه الرياح .

[شبهات باطلة]

ركز المستشرقون جهودهم حول قضية الوحي لأنها الاساس الأول فى الإسلام فأخذوا ينفثون سمومهم ويثيرون غبار الشبهات حول اثبات الوحي لكى يسلم ماتهواه نموسهم المريضة وقلوبهم السقيمة ولكن الله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الشبه والرد عليها فاننا نضع بين يدى القارىء الكريم صوره مفصلة عن بدء الوحى كما جاء فى كتب السنة الصحيحة حتى يكون للقارىء علم ببدء هذه القضية التى تعتبر الدعامة الأولى فى صرح العقيدة . روى الإمام مسلم فى صحيحه عن بن الطاهر أحمد عمر بن عبدالله بن عمر بن سرح أخبرنا بن وهب قال اخبرنى يونس عن بن شهاب قال حدثنى عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرت انها قالت : « كان أول مابدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ، وهو التعبد ، الليالى أولات العدد ، قبل ان يرجع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال اقرأ قال : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ قلت : ما أنا بقارىء ، قال فأخذنى فغطنى الثانيه حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ثم قال لخديجة أى خديجة مالى ؟ وأخبرها الخبر ، قال لقد خشيت على نفسى . قالت له خديجة ، كلا أبشر فوالله لايخزيك الله أبداً ، والله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فأنطلقت به خديجة حتى أتت به ورقه بن نوفل أسد بن عبدالعزى (وهو عم خديجة) وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية .

وكان يكتب الكتاب العربى ويكتب من الإنجيل بالعربية ماشاء الله أن يكتب و كان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة أى عم أسمع من أبن أخيك ، قال ورقه بن نوفل ياابن أخى ماذا ترى : فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارآه فقال له ورقه هذا الناموس

الذى أنزل على موسى عليه السلام ياليتنى فيها جزعاً : ياليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك ، قال رسول الله ﷺ أو مخرجى هم ؟ قال ورقه نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا .

وهذا الحديث اشتمل على الخطوات التى مر بها رسول الله ﷺ عندما أراد الله تبارك وتعالى . أن يبعثه إلى العالمين بشيراً ونذيراً ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً** ﴾ .

﴿ **قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾ .

﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيرا** ﴾ .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيماً** ﴾ .

نعم : لقد اتصل نور السماء بأرض الصحراء وكانت أول خطوه فى هذا الطريق (الرؤيا الصادقة فى المنام) فكان صلوات الله وسلامه عليه لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح جليه ناصعة ، لا لبسَ فيها ولا غموض ولا مراء ولاخفاء . وخلت فى هذه الحال سته أشهر ولذلك فإن الرؤيا الصادقة مع رسول الله تعدل جزءاً من سته وأربعين جزءا بيان ذلك أن الرسول ﷺ استمر ثلاثاً وعشرين سنه يوحى اليه فتكون ، الاشهر السته تساوى بالنسبه لهذه المده جزءاً من سته وأربعين ، ثم انتقل الوحى الى اللقاء المباشر بين الملك الموكل به وهو الأمين جبريل الذى بين الله وصفه فى قوله : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوه عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين** ﴾ وفى قوله : ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** ﴾ .

﴿ **وفى قوله : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين** ﴾ .

كان اللقاء الأول بين سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء وبين المبعوث رحمه للعالمين فى غار حراء الذى كان الرسول يخلو فيه متأملا فى رحاب الكون ، مقلبا طرفه فى ارجاء العالم بكواكبه ونجومه ، وأرضه وجباله ، ونباته وجماده وشمسه وقمره وليله ونهاره هاتفاً بخالقه مردداً آيات الحمد والثناء لرافع السماء بلا عمد سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾ وكان الأمر بالقراءه ، وكان الرسول يقول ماأنا بقارىء ، وقال له أمين الوحى : اقرأ بأسم ربك الذى خلق ، وانطلق الرسول بهذه الآيات يرجف فؤاده من هول ما رأى .

إن هناك طائفه ملائكيه شديدة الجذب كان جبريل يضمه إليه حتى يبلغ منه الجهد ثم يرسله ويأمره بالقراءه ، وهكذا دخل الأمين محمد ﷺ على زوجه الوفيه خديجة بنت خوليد يقول لها : زملونى . زملونى فتبعث إلى قلبه مايشرح الصدر ، وتريش بجناحها جراحه وتقسم له بالله إن الله لايخزيه أبداً ، وتنطلق به إلى ابن عمها ورقه الرجل الذى قرأ الكتاب الذى أنزل على عيسى ورأى فيه البشارات الصادقات ببعثه محمد بن عبدالله ﷺ فيخبر رسول الله أن هذا الملك الذى نزل عليه هو الذى نزل على موسى قبل ذلك وينبئه بأمور ستقع فيقول له : ليتنى اكون حياً إذ يخرجك قومك ، يقصد هجرته من مكه إلى المدينة ويسأل الرسول متعجباً أو مخرجى هم ؟ فيقول له ورقه ، نعم ، ثم يبين له السبب وهو أنه ما من أحد يأتى قومه بمثل ما أتى به محمد ﷺ إلا عاداه الناس إنه يحمل لواء الحق فلابد أن يصطدم بأصحاب الباطل ويتمنى ورقه بن نوفل أن يكون حياً وقت أن يخرجه قومه حتى ينصر النبى ﷺ نصراً عزيزاً مؤزرا .

وهكذا يثبت لنا الحديث الشريف الخطوات الكاملة التى خطاها رسول الله ﷺ على طريق الوحى .

ونستنتج من هذا قاعده فى العقيده لابد لكل مسلم أن يعلمها هذه القاعده تثبت أنه لانبوه بلا وحى ولا رساله بدون نبوه بهذا نطق القرآن العظيم فى قوله جل شأنه : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وأسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجه بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما لكن الله يشهد بما أنزله إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون . وكفى بالله شهيداً** ﴾ .

من هذه الآيات أثبت الله أنه قد أوحى إلى نبيه محمدا كما أوحى إلى النبيين قبله ، وبناء عليه فليس هناك نبوه بدون وحى ، ثم اثبت القرآن أن هناك رسلا من هؤلاء الأنبياء جاءوا

مبشرين ومنذرين ، ليقطع المعاذير والحجج ، فإذا كان ذلك كذلك فإن النبوه أوسع من دائره الرساله ، فكل رسول لابد أن يكون نبياً .

وإذا كان الحبيب محمد قد ختم النبوه ، وهى الاعم فإنه يلزم على ذلك لزوما حتمياً أن يختم الرسالة وهى الأخص ولذا فإنه لاأساس من الصحة لقول من قال إن هناك رسالة بعد رسول الله ﷺ لأن الوحى لم ينزل على أحد بعده وحيث لا وحى فلا نبوه وحيث لا نبوه بلا نبوه .

وصدق الله إذا يقول : ﴿ **ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما** ﴾ .

[ماذا قالوا عن الوحى]

الآن نبدأ فى عرض شبه المبطلين الذين هاجت صدورهم بعقارب البغضاء ، فنقول لهم أن الرسول ﷺ نبى ثبتت نبوته ثبوتاً قطعياً وتضافرت على ذلك الأدلة التى لا مراء فيها وعلى رأسها الكتاب الخالد الذى تعهد الله بحفظه فى قوله : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

فهو الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ولم يذهب إلى أستاذ ولم يجلس أمام فيلسوف ، فنزول هذا الكتاب عليه بما اشتمله من قصص السابقين فى القرون الأولى ، ومن الوعد والوعيد والإنباء بالغيب والنظم الفريدة التى اشتملت الحياة كلها من شتى نواحيها والدعوة الخالصة لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهو الأمى ، دليل قاطع على أنه الصادق الأمين .

قال تعالى :

﴿ **وماكنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ومايجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾ .

لما لم يجد أعداء الرسول فى حياته ، ولا فى أخلاقه مايمكنهم من الطعن فيه ، جندوا أقلامهم وجمعوا صحفهم ، ليفتروا على الله ورسوله الكذب ، فيقولون : كان قادوسانيا غضب لأنه لم ينتخب لكرسى البابويه وأنه وهو الفيلسوف الحكيم ، عز عليه ذلك ولم يشأ أن يصبح شيخاً لقبيلته ، أو رئيساً لأمته إنما اراه أن يكون إلهاً أو فى مصاف الآلهة ومما يثبت كذب هذا الافتراء أن محمدا جاء برسالته فى وقت تناحرت فيه الفرق الدينيه وتشعبت المعتقدات ، وتناول البعض الرسالات الدينية السابقه بالتحريف والتغيير وبلغ الأمر إلى

الإرتفاع بالأنبياء إلى مقام الألوهيه ، فلو كان محمد يرجو مجداً دنيويًا لوجد البيئة الصالحة لذلك ولكنه كان يتلوا عليهم قرآن الله الذى يقول :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما الهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

﴿ قل إنما أبا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ .

ويحسم الرسول الأمين الأمر حسما فيقول فى حديثه الشريف : **« لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا عبد الله ورسوله »** فهل بعد ذلك يستقيم قول قائل إنه كان يريد مجداً أو كان يريد أن ينصب نفسه إلها؟ تهمة باطلة: ويتمادى أعداء الله فى غيهم وبهتانهم فيزعمون أن رسول الله صلوات الله عليه وسلامه كان مريضاً بالصرع وأن الوحى التى كانت تعتريه ماهى إلا نوبات الصرع ويزيدون افتراءهم بهتاناً وإثماً مبيناً فيقولون إنه كان يسمع كلاماً أثناء نوبات الصرع . سمى بعد ذلك قرآناً هذه فريه ما فيها مرية :

إن ما قالوه كلام سخيف لا أساس له من الصحة باطل لا نصيب له من الحقيقه العلمية ولذلك فإننا عندما نوجه شمس الحقيقه على هذه الخرافات فإنها ستبدد ظلماءها الداكنه لتبدوا الحقيقه جليه واضحة لايعتريها لبس ولا يعتورها غموض ولا شك يرد الدكتور (يحيى طاهر) أخصائى وأستاذ الأمراض العصبيه بكلية طب ومستشفى القصر العينى بجامعة القاهرة على الفريه فيقول :

لقد أراد بعض الناس أن يطعنوا الدين الإسلامى فى شخص الرسول ﷺ فقالوا إن النبى محمد كان مريضاً بالصرع وإن الوحى الذى كان ينزل على الرسول بالقرآن ما هو إلا نوبات كان يسمع أثناءها كلاماً فردده ليصبح قرآنا . والذى يدرس الصرع من أى ناحية من نواحيه الطبية أو العلمية أو الفسيولوجية يتبين لنا جسامة هذا الافتراء إذ أن النوبات الصرعية ليست نوبات نفسيه كما يتبادر إلى الذهن ولكنها ناتجه عن تغيرات فسيولوجية عضويه فى المخ بدليل انه امكن تسجيل تغيرات كهربائية فى المخ اثناء تلك النوبات الصرعيه مهما كان مظهرها الخارجى .

ومن المعروف ان هناك مظاهر خارجيه عديده ومختلفه للنوبات الصرعيه وذلك تبعا لمراكز المخ التى تبدأ فيها التغيرات الكهربائية وطريقة وسرعة انتشارها فإذا بدأت فى مراكز الحركة كانت النوبه على شكل تقلصات أو تشنجات عصبيه وإذا بدأت فى مراكز الإحساس كانت النوبه . على شكل إحساسات مختلفه وإذا بدأت فى مراكز الابصار كانت النوبه على

شكل ذكريات أو احلام وهكذا .

ويكفى ان اشرح نوعاً واحدا من النوبات الصرعيه الذى يشتبه أن يكون هو النوع الذى قيل عنه أن النبى ﷺ كان مصابا به الا وهو النوبات الصرعية النفسية .

ففى هذه النوبات الصرعية النفسية يكون التغير العقلى هو المظهر الأساسى للنوبة ولا يفقد المريض شعوره تماما كما فى الأنواع الاخرى من النوبات ويمكنه الى حد ما تذكر التجارب النفسيه التى حدثت له اثناء النوبه بعد انتهائها وتكون هذه التجارب النفسيه التى تمر بالمريض اثناء النوبه اما على شكل انفعالات مثل الخوف أو على شكل تفكير فى اتجاه معين كان يردد المريض فى ذهنه لايجب ان اقول لفلان كذا أو كذا » أو على شكل خيالات أو هلاوس وفى هذه الحاله تمر بذهن المريض ذكريات وأحلام مرئيه أو سمعيه أو الاثنان معاً ومن امثلة الهلاوس المرئيه ما قالته مريضه من انها ترى اثناء النوبه فتاه صغيره تسير بجانبها من الجهة اليمنى ثم من الجهه اليسرى وان هذه الصوره تتكرر بنفس الشكل فى جميع النوبات وبسؤال المريضه ثبتت انها لايمكن تبين ملامح الفتاه أو معرفه ملابسها وقالت مريضة آخرى انها ترى اثناء النوبه شبحاً أسود يهددها ولا يمكنها ان تتبين ملامحه وصورته .

وتتكرر بنفس الشكل فى جميع النوبات ومن امثله الهلاوس السمعيه قول مريضه انها تسمع أصواتا قادمة من الجهه اليمنى ولكنها ليست اصوات اطفالها انها تسمع فى نوبات آخرى قطعه موسيقية تظهر انها قادمة من المذياع الموضوع فى حجرة الجلوس وبالرغم من انها سمعت هذه القطعة الموسيقية مراراً فى المذياع فإنها لن يمكنها ان تتبين الالحان فى تلك القطعة الموسيقية وقالت مريضه اخرى انها تسمع اثناء النوبه اغنية كانت تغنيها لها أمها فى صغرها وهذه المقاطع من الأغنية تتكرر بنفس النظام فى جميع النوبات .

من ذلك نرى ان الاحلام والهلاوس التى تمر بذهن المريض فى اثناء النوبه الصرعيه ما هى الا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالإنسان أو فكر فيها ثم حفظت فى ثنايا المخ وقد ثبت ذلك علميا بأن نبهت مراكز المخ المصابه بتيار كهربائى من الخارج فشعر المريض بنفس الهلاوس التى تنتابه اثناء النوبه الصرعيه كما نرى من الأمثله التى ذكرت ان الهلاوس تتكرر بنفس الشكل بتكرر النوبات وقد يكون هناك اكثر من نوع واحد من الهلاوس فى المريض الواحد ولكنها تتكرر كلها أو بعضها بالشكل نفسه كذلك نرى أن المريض يتذكر التجارب النفسيه التى مرت به اثناء النوبه عامة ولا يمكنه ان يتذكر التفاصيل أو أن يصف ما مر به فى اثناء النوبه وصفا دقيقا ثم يستطرد الدكتور يحيى طاهر قائلا « انه بطبيعه ما وصلنا اليه من هذا الوصف السريع للصرع على الافتراء الذى يفتريه خصوم الإسلام على الوحى الذى أنزل على سيدنا محمد ﷺ نجد ان الهلاوس والاحلام التى تمر بذهن المريض بالصرع ما هى

إلا أجزاء من ذكريات قديمه نبهتها النوبه ولايمكن للمريض بالصرع ان يؤلف اثناء النوبه شيئا فكيف بالقوانين والاداب والقصص والعلوم وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم كذلك لايمكن ان تتحسن لغه المريض بالصرع أثناء النوبه أو بعدها لأن هذا التحسن يحتاج إلى تعلم اما الصرع فهو ارتباك مفاجىء فى كهرباء المخ ووظيفته وقد نزل القرآن بلغه عربيه فصحى لم يتعلمها النبى ﷺ قبل الرساله كما ان الاحلام والهلاوس التى يشعر بها المريض فى اثناء النوبات الصرعيه تكرر بعضها أو كلها بنفس الشكل بتكرار النوبات كما أن المريض لايمكنه أن يصفها وصفا دقيقا أما القرآن الكريم فأنزلت آياته واضحة محددة شاملة كل ما يهم الناس فى شئون دينهم ودنياهم ، فهل يمكن أن يقال بعد هذا العرض العلمى البحثى أن القرآن ما هو إلا هلاوس رجل مصروع سبحانك هذا بهتان عظيم وقد كذبوا ورب الكعبة ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ .

اما بعد فقد تبين لنا بالعلم الصحيح والحقائق الثابته ان هذه الشبهة التى وجهوها إلى القصص قد اجتثت من اصلها كشجره خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

وننتقل بعد ذلك إلى رد علمى آخر على لسان الدكتور عبدالعزيز الشريف اخصائى واستاذ الأمراض الباطنية بكلية طب القصر العينى وعضو كلية الأطباء بأدنبره يقول عن هذه الفريه ان المرض علة تصيب أى عضو من اعضاء الجسم فتسبب خللا فيصبح الإنسان لذلك معتلا والشخص المريض هو الذى تغيرت حالته بسبب المرض فأصبح عاديا ان يقل فى قوته وصحته وبالتالى فى انتاجه وتفكيره ولم يعرف الطب ولم يحدثنا التاريخ الصحى ان شخصا أصيب بمرض فوهبه المرض علما أو عقلا أو مقدره اذ أن العقل السليم فى الجسم السليم فكيف يقولون عن الرسول الكريم محمد ﷺ انه اصيب بالصرع فتتحسن لغته تحسنا بحيث لايمكن ان نقارن بين حديثه العادى وبين القرآن الكريم الذى يقولون انه حديثه وهو فى نوبه الصرع .

وكيف يشرع مريض هذه التشريعات التى تعتبر الأسس القويمة لكل القوانين التى تهدف الى العداله . والرحمه والتقدم وهل يستقيم ذلك ؟ والصرع حالة تصيب بالاختلال المفاجىء فى وظيفه المخ .

وكيف يكون ماعند الرسول ﷺ نوبات صرع وهذه النوبات تسبب للمريض آلاما شديدة فى عضلاته تكون مصحوبه بالصداع والغثيان وتبقى مده بعد النوبه التى هى تشنج وتصلب فى العضلات فإذا غابت عنه حزن ووجل .

فقد فتر الوحى عن الرسول ﷺ فتره فتولاه الخوف والوجل وحزن حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى ﴿ **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ .

فلو كان ماينزل بالرسول ﷺ من الوحى حالة صرع مصحوب بالصداع والغثيان والألم الشديد ما تمنى الرسول ان يعود إليه هذا الصرع .

والله ما هو بصرع انه الوحى لقد هبط الأمين جبريل بعد ان فتر الوحى اياما واشتاقت نفس رسول الله ﷺ حتى قال للأمين جبريل « **لقد احتبست عنى حتى اشتقت إليك فقال له جبريل يارسول الله لقد كنت اشد شوقا منك اليك ولكنى عبد مأمور اذا أمرت تنزلت وان منعت احتبست** » ثم تلا عليه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **وما نتنزل الا بأمر ربك لم مابين ايدينا وماخلفنا ومابين ذلك وما كان ربك نسيا رب السموات والأرض ومابينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً** ﴾ هل يشتاق الرسول الى ان تنزل به حالة تسبب له الصداع والآلام هذا محال لاتقبله العقول ولا تستسيغه الافهام والله ما هو بصرع انما هو الوحى ﴿ **وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض الا الى الله تصير الأمور** ﴾ .

وننتقل بالحديث الى طبيب آخر هو الدكتور عزالدين عبدالقادر استاذ العقاقير بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة .

يقول : تخبط الناس منذ الخليقه فى تعريف مرض الصرع فمن قائل أنه يرجع إلى أرواح شريره تسكن جسم المريض الى قائل انه من آثار الالهيه وان كل حركه يحدثها المريض انما هى من فعل اله من الآلهه ولهذا سموه بالمرض المقدس حتى جاء سقراط العظيم فى القرن الخامس قبل الميلاد واظهر كذب هذه الأقوال ونادى بأن هذه الأعراض انما هى اعراض مرض لايختلف عن باقى الأمزاض الأخرى من أن له سببا ينشأ عنه ووصف نوبات الصرع بدقة متناهيه لاتختلف فى شيء عما تصفه به احدث المراجع الطبية فالمريض يفقد النطق ويخرج الزبد من فمه وتصتك اسنانه وتقبض يداه وتزيغ عيناه ويفقد الوعى تماما كما يفقد القدره على ضبط البول أو البراز ومن هذا نرى ان مريض الصرع يفقد حواسه ويفقد السيطره على نفسه فيصبح لاعقل له ولا وعى عنده ولاسيطره على حواسه جميعاً فلينظر الى ذلك من يقول ان القرآن الكريم انما هو هلوسه مصروع وحديث الرسول ﷺ وهو فى نوبات الصرع فكيف يمكن لمريض هذه حالته ان يأتى بجوامع الكلم والآيات البينات والبلاغه التى اعيت جهابذه العرب وارباب البيان ؟

سبحانك ربى يامن قلت: ﴿ **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من**

كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ ويا من قلت لحبيبك محمد ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** ﴾ .

ويا من قلت له : ﴿ **وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ .

ويا من تحدث العالم اجمع فتقول : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ .

وقلت للمعاندين ﴿ **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين** ﴾ .

كيف يتفق هذا التحدى مع الفريه القائله انه هلوسه مصروع وهل تقوى الهلاوس والخرافات أن تنزل ميدان التحدى الصارخ والله انها الأباطيل والاكاذيب لا جاده لها ولا قرار امام صولة الحق ﴿ **قل جاء الحق ومايبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ وينتقل بنا الحديث بعد ذلك فى هذا الصدد إلى أستاذ أوربى هو د . ر . ف . بودى فى كتابه حياة الرسول محمد يقول فى هذا الشأن :

« يذكر الأطباء ان المصاب بالصرع لايفيق منه وقد ذخر عقله بأفكار لامعه وانه لايصاب بالصرع من كان فى مثله الصحه التى يتمتع بها محمد حتى قبل مماته بأسبوع واحد وما كان الصرع ليجعل من أحد نبيا أو مشرعاً وما رفع الصرع احداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً وكان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابره يعتبر مجنونا أو به مس من الجن ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » .

ونخلص مما تقدم الى أن هؤلاء الدين يخبطون فى الأمور خبط عشواء ويحاولون أن يكيلوا تهم الحقد من قلوبهم لمرض فى نفوسهم انما يرتد كيدهم فى نحورهم ويموتون بغيظهم . ونعود إلى ما قاله الدكتور يحيى طاهر من حقائق عن الصراع على ما كان يعترى سيدنا محمد رسول الله ﷺ نجده يختلف أصلا وظاهراً عنه ويقرر بشكل قاطع أن ما كان يعترى الرسول انما هو وحى الله جل شأنه . فإن الحقائق العلمية الطبية تثبت ان الهلاوس التى يراها أو يسمعها المريض اثناء نوبته لابد ان يكون قد رآها أو سمعها فى طفولته ، وشبابه أو قبل مرضه فهل كان الرسول ﷺ قد رأى الأقوام قبل عصر الاسلام وعاش بينهم واستمع الى احاديث الرسل والانبياء السابقين فردد مثل آيات القرآن الكريم التى بلغت قمة السمع وعلو الطبقه فى الاعجاز المطلق مثل قوله تعالى حكاية عن نبى الله نوح ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ .

الى ان تنتهى هذه المشاهد بشأن نوح فى قوله تعالى ﴿ **قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم** ﴾ هل كان رسول الله محمد ﷺ مع نبى الله نوح وعاصره وعاشره وخالطه ثم ردد هذه الوقائع والذكريات فى نوبات الصرع كلا والف لا انه الوحى كما قال تعالى فى نهاية قصه نوح ﴿ **تلك من أنباء الغيب توحيها اليك ماكنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين** ﴾ .

وهل كان صلوات الله وسلامه عليه مع يوسف واخوته ومادار فى هذه القصه من احداث ووقائع من أول قوله تعالى ﴿ **اذ قال يوسف لأبيه ياأبت انى رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** ﴾ .

الى ان تنتهى القصه بقوله جل شأنه على لسان يوسف ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض انت وليى فى الدنيا والاخره توفنى مسلما والحقنى بالصالحين** ﴾ .

هل كان رسول الله ﷺ مع يوسف واخوته حتى ردد هذه الذكريات فى نوبه من نوبات الصرع كلا .·. ثم كلا .. انه الوحى ألذى قال فيه مولانا تعقيبا على قصة يوسف عليه السلام موجها الخطاب للرسول الكريم ﴿ **ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ .

وهل كان ﷺ مع آل عمران وما جرى فى هذه القصة من احداث ووقائع بدأت بقوله تعالى : ﴿ **اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم** ﴾ إلى ان انتهت القصة بقوله تعالى ﴿ **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾ هل كان الرسول الكريم معاصراً لتلك الأحداث حتى ظهرت هذه الذكريات عليه فى حاله من نوبات الصرع كلا ثم كلا انه الوحى .

كما قال تعالى تعقيبا على قصه آل عمنران ﴿ **ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾ .

من الذى علم هذا الامى اخبار السابقين وقصص الأنبياء المكرمين هو الذى لم يختلف الى استاذ ولم يذهب الى جامعة ؟

واذا كان الصرع ترديداً لذكريات مضت تنتاب المريض فى نوبه من نوباته فهل يتفق هذا مع الانباء بما سيحدث فى المستقبل فى مثل قوله جل شأنه ﴿ **الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح**

المؤمنون بنصر الله ينصـــر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

وهل يتفق هذا مع الاخبار بما سيقع من مشاهد القيامه من بعث وجزاء وحساب ونعيم وعذاب ؟ أين نوبات الصرع من هذا الوحى الذى نزل به الروح الأمين جبريل ؟ صدقت يارب العزه اذ تقول وقولك الحق **﴿ والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى ومانيطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مره فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على مايرى ولقد رأه نزلة أخرى عند سدره المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدره مايغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾** .

هذا المشهد القرآنى الرائع البديع يثبت حقيقة الوحى ثبوتا لا مراء فيه ولا لبث ولا جدال ولا غموض وينفى أى ضلالة أو غواية أو زيغ أو بهتان عن المعصوم صاحب الرسالة الطاهرة ويثبت انه قد رأى جبريل مرتين وهو على صورته الملائكية يقول فى المرة الأولى « **علمه شديد القوى ذو مره فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾** .

فهذه أوصاف أمين الوحى ، وسفير الأنبياء جبريل فهو شديد القوى ، شديد البأس ، ينتقم الله به من اعدائه فيزلزل الأرض تحت أقدامهم فتأخذهم الرجفة فإذا هم أعجاز فخل خاويه وجبريل ذو مرة أى ذو هيئة جميلة وذو قوه متينه مستوى فى الأفق الأعلى بهيئته الملائكية الجليه ولما استقر فى الآفاق ودنا وقرب وتدلى هابطاً حتى ازداد قرباً من رسول الله وصارت المسافه بينه وبين الحبيب المصطفى ﷺ أقل من مقدار قوسين وأوحى إلى رسول الله ما أوحاه الله وأمره بتبليغه إياه هذه كانت المره الأولى من المرتين اللتين رأى الرسول ﷺ فيهما جبريل بهيئته الملائكية وكانت المره الثانية ليلة المعراج عند سدره المنتهى وفيها يقول تعالى : **﴿ ولقد رآه نزله اخرى ﴾** أى مره أخرى **﴿ عند سدره المنتهى عندها جنه المأوى ﴾** .

وذلك فى العالم العلوى ، والملأ الملائكى (إذ يغشى السدره مايغشى) من النور والبهاء والجلال كان الرسول ثابت البصر ، ملتزماً الحدود التى رسمها الله له **﴿ مازاغ البصر وماطغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾** انها آيات الجلال والكمال والعظمة والقدرة الباهرة وهكذا أثبتت هذه الآيات الكريمة المشهدين اللذين ظهر فيهما كبير امناء وحى السماء وسفير الانبياء فى صورته الملائكية الجليلة .

[لقــاء آخر مع جبريــل]

ونرى من تمام الفائدة ان نسجل هذا المشهد الذى تم فيه لقاء كريم بين جبريل الامين ، والسيد الجليل محمد ﷺ وكان ذلك على مرآى ومسمع من عدد من صحابة رسـول الله ﷺ وقد دخل جبريل فى صورة بشر جميل الهيئة بديع الرؤية لصاحب الرسالة ومبعوث العناية الالهية . وها نحن اولاء نستمع الى الإمام مسلم رضى الله عنه وهو يروى لنا الحديث الجليل القدر العظيم الأثر الذى وقف الامين جبريل فيه موقف السائل ووقف سيدنا محمد ﷺ موقف الاستاذ المجيب .

عن عبدالله بن عمر قال حدثنى ابى عمر بن الخطاب قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه اثر السفر ولايعرفه منا أحد . حتى جلس الى النبى ﷺ فأسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه قال يا محمد أخبرنى عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد ان لا اله إلا الله وان محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا قال صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه قال فأخبرنى عن الإيمان قال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت . قال اخبرنى عن الإحسان قال ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك قال فأخبرنى عن الساعة قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل قال فأخبرنى عن اماراتها قال ان تلد الأمة ربتها وان ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان قال ثم انطلق فلبثت مليا ثم قال لى ياعمر اتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله اعلم قال فانه جبريل اتاكم يعلمكم دينكم » .

هذا نص صريح وحديث صحيح يدل دلالة قاطعة على ان الوحى حقيقة . شهد بها الجمع الغفير الذين رأوا الأمين جبريل رؤية لايعتريها شك ولايطرأ عليها لبس رأوه فى أى صورة ؟ فى صورة بشرية جميلة عبر عنها عملاق الاسلام عمر بن الخطاب بقوله (طلع علينا) وفى التعبير (بطلع) اشارة إلى أن ذلك لذى رأوه يشبه فى جماله الكواكب النيرة كالشمس والقمر ثم بعد ذلك وصفه بقوله (شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر) فهذه المواصفات تدل على ثقة الرائى للمرئى رؤية واضحة وضوح الشمس فى كبد السماء انها الحقائق الثابتة التى لا يجادل فيها الا مكابر لم يصل نور الإيمان الى قلبه ولم يشرح للاسلام صدره .

سيدى ابا القاسم يا رسول الله :

يوحى اليك الله آيـــاته جبريـــــل رواح بها غداء
دين يشـــيد آية فى آية لبناتـه السورات والاضـــواء
الحق فيه هو الاساس وكيف لا والله جل جلاله البنـــاء

فاللهم انا اصبحنا نشهدك ونشهد حمله عرشك وملائكتك وجميع خلقك انك أنت الله لا اله إلا أنت وحدك لاشريك لك وان محمدا عبدك ورسولك .

[رؤيـا الأنبياء وحـى]

من الاشياء التى يجب على المؤمن ان يعتقدها ان رؤيا الانبياء فى منامهم وحى من الله اليهم ولقد ذكر القرآن العظيم نماذج من هذه الرؤيا فها هو خليل الرحمن ابراهيم يبشر بغلام حليم ثم يرى فى المنام انه يذبحه بعدما بلغ معه السعى فيصحبه لتنفيذ أمر الله فيه فلو لم تكن الرؤيا وحيا ماعزم إبراهيم على تنفيذ الأمر .

وهذا هو المشهد القرآنى ينطق بالجلال ويفيض بالرحمة ﴿ **قال انى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فلما بلغ معه السعى قال يابنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال ياأبت افعل ماتؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم** ﴾ .

[نمـاذج أخـرى]

ويحدثنا القرآن عن رؤيا رآها سيدنا محمد ﷺ ونفذها رآى فى المنام انه يزور بيت الله الحرام معتمراً وأعلن ذلك فى صفوف اصحابه . فخرجوا معه ولبوا نداءهم وطافوا بالبيت الحرام وفى هذا يقول تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريبا** ﴾ .

[نمـاذج أخـرى]

وهذه نماذج عديده عن الوحى بطريق الرؤيا وقد آثرنا أن نسوق هذا الحديث لما له من قدر جليل ولما فيه من تشريع وخلق نبيل روى أبو موسى المدين فى كتابه الترغيب والترهيب

من حديث الفرح بن فضالة قال : حدثنا هلال ابوحيلة عن سعيد بن المسيب عن عبدالرحمن بن سمرة قال خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى صفة بالمدينة فقام علينا فقال : **انى رأيت رجلا من امتى قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه - ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجائته صلاته فاستنقذته من أيديهم ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشا كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فاسقاه وارواه ورأيت رجلا من أمتى ورأيت النبيين جلوساً حلقا حلقا كلما دنا الى حلقة طرد ومنع فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده الى جنبى ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمه ومن خلفه ظلمه وعن يمينه ظلمه وعن شماله ظلمه ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيه فجاء حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وادخلاه فى النور ورأيت رجلا من أمتى يتقى وهج النار وشرها فجاءته صدقته فصارت سترا بينه وبين النار وظلا على رأسه ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين ولايكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت يا معشر المؤمنين انه كان وصولا لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وادخله فى ملائكة الرحمة ورأيت رجلا من أمتى جاثيا على ركبتيه وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فادخله على الله عز وجل ورأيت رجلا من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه ورأيت رجلا من امتى قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى ورأيت رجلا من امتى قد هوى فى النار فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك ورأيت رجلا من أمتى قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفه فى رياح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى يزحف على الصراط يحبوا أحيانا ويتعلق احيانا فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته . ورأيت رجلا من امتى انتهى إلى أبواب فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة ان لا اله إلا الله ففتحت له الأبواب وادخلته الجنة »** .

قال الحافظ أبوموسى : هذا حديث حسن جداً رواه عن سعيد بن المسيب عمر بن ذرو على بن زيد بن جدعان .

[آيات كبرى]

ويجدر بنا ونحن بصدد الحديث عن النماذج التى رآهارسول الله ﷺ ان نسجل هنا هذه المشاهد وتلك الصور التى رآها السيد الجليل محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج رآها بعين بصره ووقعت امامه فى هذا الطواف المبارك الذى صحبه فيه أمين السماء جبريل وكان

الرسول يسأل عما يرى وجبريل الأمين يجيب ويوضح حتى يكون لنا فيما رآه الرسول العبره والموعظة والدروس النافعة الناجعة التى تسمو بالمجتمع الى الدرجات العلى وترتفع به من غياهب الظلمات وفلول الدجى الى باذخ العلياء واضواء اليقين لقد حدثنا الكتاب العزيز عن هذه المشاهد فقال : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير** ﴾ وقال فى مشهد المعراج ﴿ **مازاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ فبين قوله جل شأنه ﴿ لنريه من آياتنا ﴾ وقوله تبارك وتعالى :

﴿ **لقد رآى من آيات ربه الكبرى** ﴾ تتضح لنا هذه المشاهد وضوحا كله دروس مستفادة .

الفصل السادس عشر
الحكمة من تعدد زوجات الرسول

وهنا نرد على قول المؤلف (اللهم الا أنه توسع فى حياته الزوجية فعلى حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة) « إشارة إلى أن من نسائه ﷺ (صفية بنت حيى) التى كانت يهودية و(مارية القبطية) وتعشقه امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها أيضا) .

[دعــوى باطلــة]

ونبدأ الرد على تلك العبارة ببيان الحكمة البالغة من زواجه ﷺ بأمهات المؤمنين ونقول نعم انها دعوى باطلة لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها وباطلة لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الاسلام ونبعت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج المصطفى ﷺ بالسيدة خديجة رضى الله عنها ان نعقب بهذا البحث لنلجم السنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون ان يثيروا غبار الشبهات الباطلة على التعدد فى أزواج رسول الله وهم بذلك يفضحون ما فى قلوبهم من زيغ فلو تحول الناس جميعا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسيثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ... ان لايرى نورها من ليس ذا بصر نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وادعياء الثقافة وابناء الغزو الثقافى ان الرسول لن يضيره ان تنبح عليه هذه الأصوات فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

وما ضر الورود وما عليها اذا المزكوم لم يطعم شذاها نعم ثم نعم هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون ان توجهوا اليه هذه السهام الطائشة انه الرجل الذى بعثه الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا ، مايضر البحر أمسى زاخرا ان رمى فيه غلام بحجر .

وها نحن اولاء نسلط مدفعية الإسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا فنذرها قاعاً صفصفا ان قصة زواجه ﷺ من خديجة رضى الله عنها كما ذكرنا سابقا توضح للإنسان وضوحاً لا تلتبس مع الرؤية ان رسول الله ﷺ لم يكن فى اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها فلو كان مهتما بذلك كبقية اقرانه من الشباب لطمع فيمن هى أقل منها سنا أو فيمن ليست اكبر منه على أقل تقدير ويتجلى لنا انه ﷺ انما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى انها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة ولقد ظل هذا الزواج قائماً حى توفيت خديجة عن خمس وستين عاما وقد ناهز النبى الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى . ومابين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية ولكن محمداً ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون ان يفكر كما قلنا بأن يضم الى خديجة مثلها من الاناث زوجة أو أمة ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الاماء دون أن يخرق بذلك عرفا أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس هذا فضلا عن انه تزوج خديجة وهى أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره وفى هذا مايلجم افواه أولئك الذين يأكل الحقد افئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من وراءهم ينعقون بما لايسمعون الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون انهم يهرفون بما لايعرفون ويحاولون ان يطاولوا السماء وان يمدوا إلى الشمس يدا شلاء انهم يمضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبالاً لقد ظنوا أنهم واجدون فى موضوع زواج النبى ﷺ مقتلا يصاب فيه الإسلام ، ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ وتخيلوا انه بمقدورهم ان يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد العازف فى معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح . حاشا لله يارسول الله والله ما علمنا عليك من سوء انها فرية ما فيها مرية ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا** ﴾ .

علمتنا سر الحياة وقدتنا	للخير والتوفيق والبركات
جنبتنا الذلل الكبير وصنتنا	من شهوة تطغى ومن نزوات
ان شرق القوم الكبار وغربوا	فإليك حتما منتهى الخطوات
خلت علومهم برغم نبوغهم	وتعرضوا لمهالك خطرات
وتنكبوا سبل السلام وأقبلوا	يتشدقون بأجوف الكلمات
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا	ما غير دينك سلم لنجاة

ما ثمة ادنى شك فى أن المستشرقين والمبشرين هم الخصوم المحترفون للإسلام يتخذون القدح فى هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم .

أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم فأكثرهم يخاصمون الإسلام على السماع والتقليد ولايعنيهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم إنما هو هواتر التقليد والاتباع فخصامهم للإسلام ليس إلا من نوع الشارة التى قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة . ومعلوم أن الشارة ليست اكثر من رمز .

فخصومة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذى يعلنون به عن هويتهم بين الناس ، إنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامى فى شيء وان ولاءهم انما هو لهذا الفكر الاستعمارى الذى يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكرى من مبشرين ومستشرقين فهذا هو اختيارهم من قبل أى بحث ودون محاولة أى فهم .. أجل ان مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها انفسهم بين قومهم وبنى جلدتهم وليس عملا فكريا لقصد البحث أو الحجاج ، وإلا فموضوع زواج النبى ﷺ من أهون مايمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماما يريدون ان يلصقوا به ﷺ صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد وموضوع زواجه ﷺ هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماماً ، فالرجل الشهوانى لايعيش الى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها عفيف النفس دون أن ينساق فى شيء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله والرجل الشهوانى لايقبل بعد ذلك ان يتزوج من أيم لها مايقارب ضعف عمره ثم يعيش معها دون ان تمتد عينه الى شيء مما حوله وان من حوله الكثير وله الى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ثم الكهولة ويدخل فى مدارج الشيخوخة ، أما زواجه بعد ذلك من عائشة ثم من غيرها فإن لكل منهن قصة ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان من ايمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه .

أيا كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن ان يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة الرغبة الجنسية اذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها خصوصا وقد كان اذ ذاك خالى الفكر ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها مايصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية يقول بعض المحققين الباحثين فى الرد على هذه الفرية مانصه : لقد طعن كثير من سفلة البشر ومن أراذل المحترفين لمهنة التبشير فى محمد عليه الصلاة والسلام واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به وقالوا : انه رجل شهوانى يميل الى النساء ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا** ﴾ فى حين أن زواجه ﷺ يسمو بإنسانيته الى الحد الذى لايجاريه فيها انسان ولايباريه فيها بشر فلو أراد أن يضم فى بيته كرائم العقائل ونفائس الحرائر لكان له مايريد من اسمى بيوت العرب واجمل الجوارى من سبايا فارس والروم يرفلن فى حلل الدمقس ويتحلين بأفخر الجواهر ولكان سماطه كسماط قيصر وكسرى .

كيف لا وقد كانت تحمل اليه الأموال حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفى كفه منها شيء وما شبع هو واله من خبز الشعير وحاله من الغنى والجاه ما قدمنا وما وصفنا ولم يضم فى حريمه سوى المغتربات المكتهلات التى مات عنها زوجها فلم تجد مأوى والتى عز عليها العيش فى كنف غيره من الأزواج ولم تكن بينهم من فتاة عذراء سوى واحدة هى عائشة ابنة رفيقه وصديقه ابى بكر الصديق (ثانى اثنين اذ هما فى الغار)وعندما بلغت قسوة الحياة منتهاها حاد جاوزت الشدة مداها نزلت آية التخيير : ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله اعد للمحسنات منكن أجراً عظيما** ﴾ .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق الى حسن الاختيار واخترن دار القرار وقلن جميعا بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة فتمت لهن بذلك السعادة وحزن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة – رضى الله عنها – ولها أربعون سنة وهو ابن خمس وعشرين ولم يدفعه لزواجها سوى انها خطبته لنفسها بنفسها وكانت من أعف النساء واعرقهن نسبا وحسبا ولها بعد ذلك فضل السابقة فى الإسلام فلم يتقدمها اليه رجل ولا امرأة وماتت وسنها خمس وستون سنة وكانت مدة مقامها معه ﷺ خمساً وعشرين سنة ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله عنها وفاء المتعة والجنس بل وفاء الروح والنفس فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة وهى أصغر زوجاته وأحبهن إليه .

فترى من هذا أنه ﷺ قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ولم يتزوج عليها وإنما تزوجها لعفافها وعقلها وطهرها ومعاونتها له ومناصرتها اياه ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا .

[زواجه بالسيدة سودة – رضى الله عنها –]

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها وكانت زوجا للسكران بن عمرو وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ولو عادت إلى اهلها بعد موت زوجها لعذبوها وفتنوها فى دينها فكفلها ﷺ وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة .

فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيرا من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فارا بعقيدته وتآلفا لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته ﷺ فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا .

[زواجه بالسيدة عائشة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما- وكلنا يعلم من هو أبوبكر الصديق الذى كان معه ﴿ **ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا** ﴾ ولم يتزوج بكرا غيرها .

وإذا علمنا انه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة علمت أنه لم يرد الا مكافأة أبيها واحكام الرابطة بينهما وقد كانت - رضى الله عنها - واسطة فى نقل شتى الاحكام والتشريعات إلى سواء الأمة الإسلامية خصوصا ما يتعلق منها بالنساء وقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة حفصة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وكانت زوجا لخنيس بن حذافة ومات عنها من جراح أصابته ببدر وتزوجها ﷺ مكافأة لها وحبا فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ورغبة فى ايوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه فقل لى بربك أين الشهوة والميل الى النساء فى هذا .

[زواجه بالسيدة زينب بنت جحش - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش وهى ابنة عمته وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ويعلى من قدره ويجعله أهلا لمصاهرة بن هاشم مصداقا لقوله تعالى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد يوحى من الله تعالى للتشريع ﴿ **لكى لايكون على المؤمنين حرج فى أزواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطرا** ﴾ وقد كان زواجه بها اعفاء لها من اهمال يصيبها بعد طلاق يذلها فيقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين الى مطلقات الأحرار فما بالك بمطلقات الارقاء ؟ فقل لى بربك اين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة وكانت زوجا لعبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنها فقتل عنها يوم أحد فتزوجها ﷺ إيواء لها وجبرا لمصابها فى زوجها وحفظا لدينها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة أم سلمة - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة أم سلمة (هند بنت أبى أمية) وكانت زوجا لابن عمها عبدالله بن عبدالاسد وكانا أسلما قديما وهاجرا الى الحبشة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة فمات أبوسلمة من جرح اصابه فى غزوة أحد فتزوجها ﷺ ويروى عنها انها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول اللهم اجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيرا منها الا أخلفه الله خيرا منها** » فلما مات أبوسلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت فى نفسها ومن خير من ابى سلمة ؟ رجل نال الصحبة وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ولكنها استرجعت وقالتها فأخلف الله تعالى لها رسول الله ﷺ فآواها وحفظها . فترى من هذا انه ﷺ تزوجها ليعوضها خيرا من زوجها الذى فقدته (وكانت كثيرة الأولاد فآواها وآوى أولادها، قام بشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها) .

فقل لى بربك أين الشهوه والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة أم حبيبه - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة أم حبيبه (رملة بنت أبى سفيان وكانت زوجا لعبيد الله بن جحش . وقد هاجر إلى الحبشة ، الهجرة الثانية . ثم تنصر زوجها ومات بالحبشة وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تتنصر معه وخالفته ، واختارت الإسلام عليه فأتم الله تعالى لها الإسلام والهجره والصحبه واكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .

ويروى أن أباها - أبا سفيان - قدم المدينة فدخل عليها . فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه . فقال : يابنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه :

فقالت : بل هو فرش رسول الله ﷺ وأنت امرؤ نجس .

فقال : لقد اصابك بعدى شر قالت : بل خير .

وقد خطبها ﷺ من ملك الحبشة حيث سمع بانقطاعها وفقد نصرائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية - رضى الله عنها -]

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة وقد تزوجها إيواء لها وتآلفا لقومها وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم ابن

اختها سيف الإسلام خالد بن الوليد فقل لى بربك أين الشهوة والميل الى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث – رضى الله عنها –]

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار وكانت زوجا لمانع بن صفوان المصطلق وقد قتل كافرا يوم المريسيع واخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم فأعتقها ﷺ وتزوجها فلما سمع المسلمون بذلك اعتقوا ما فى أيديهم من سبى بن المصطلق وقالوا هم اصهار رسول الله ﷺ فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وحسن اسلامهم فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى اسلام قومها وقد انقذها من الاسر واعتقها من الرق وأعزها من الذل .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

[زواجه بالسيدة صفية بنت حيى بن اخطب – رضى الله عنها –]

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن اخطب سيد بنى النضير قتل أبوها مع بنى قريظة وكانت زوجا لسلام بن مشكم القرظى ثم فارقها فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق وقتل عنها يوم خيبر فأخذت رضى الله تعالى عنها فى السبى فخيرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول فاختارت الخيرة فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى اسلام قومها (اليهود) وقد اسلم كثير منهم فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟

« حكمـــة راشـــدة »

ويتضح مما تقدم ان الرسول ﷺ لم يتزوج احداهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية لا تمت إلى الشهوة بسبب ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء والتى لايستطيع تبليغها الرجال كالطهارة والغسل والحيض والنقاب والولادة والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لايستطيع افهامها للناس على وجهها الأكمل سوى النساء ولايمكن بحال ان تقوم بمهمة الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين امرأة واحدة بل عدة نساء من عدة قبائل وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من اظهار نوره وبسط شرائعه وقد ثبت أنهن أذعن عنه ﷺ علما وفضلا وفقها ولو كان ﷺ يريد بالتعدد مايريده سائر الملوك والأمراء من التمتع واللذة ليس غير لا نتخب الحسان الأبكار والكواعب والأتراب ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

وفضلا عن ذلك فلم تكن علاقاته عليه افضل الصلاة والسلام بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا بأى زوجة مهما علت فقد عاشرهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النابيه ، بل الكلمة الرقيقه ، ولم تبد على سماته النظره القاسيه ، بل النظره الحانيه .

وما من رجل - بلغ مابلغ من المروءة والرقة وسعه الصدر - إلا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعه ما ، وبدا منه التزمر والتضجر إزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما . ولكن الرسول ﷺ الذى أوتى جماع الفضائل . وبعث ليتمم مكارم الأخلاق الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم ، لم يكن كذلك ولم يكن هذا منه ﷺ جبنا أو ضعفا ، بل كان كمالا وجلالا فإن الضعف الاختيارى :أقوى من سائر القوى ، وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الإنسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها ، فإن من يتعهد نفسه باختياره ليترفق بضعيف لا طاقة له باحتمال القهر ولا غنى له عن طلب اللين والرفق لهو الشجاع الباسل القوى .

وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ، وهو قصة التخيير ، فما هى تلك القصة ؟ قصة التخيير : - ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً . وإن كنتن تردون الله ورسوله والدار الأخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما** ﴾ .

إن رسول الله ﷺ لم يرد الحياة متعة فانية ، لا زخارف براقة ، لأن قلبه كان مليئاً بالقناعة والرضا والإيمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ، وقال فى ذلك « **أجوع يوماً فأذكرك ، وأشبع يوماً فأشكرك** » ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتها ، ولو أرادها مملكة ونعيماً وخدماً وحشما وترفاً لكان له ذلك .

وراودته الجبال الشم من ذهب   عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته   إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته   قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

أيقال على هذا النبى الكريم إنه كان غارقاً فى ملذات الحياة وكان شهوان إلى النساء ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم : - إن حياة هذا النبى كما أخبرت أم المؤمنين عائشة قالت : إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهله بشهرين ولم يوقدفى بيت رسول الله ﷺ نار يطبخ عليها . أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول فى بيته ؟

كان طعامهم فى معظم الأحيان التمر والماء ومع ذلك كانت العيشة راضية لاتسمع فيها لاغيه ، إن السعادة مملكة قائمه بالنفس ، كما صورها السيد الجليل محمد ﷺ فى هذه الكلمات « **اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلماً . ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب** » .

ليست السعادة فى انتشاء الكئوس المترعة ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد .. إنما السعادة فى رضاك عن الله وفى رضا الله عنك وفى تزكية النفس وإشراق العقل وانتصار الذهن واستعلاء النفس على مطالب المادة وسيطرة القيم والمبادىء التى تحقق فى الإنسان إنسانيته . كيف يقال على هذا النبى إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذى كان يمكث فى بيته شهرين ولم توقد فى بيته نار يطبخ عليها ؟ لله درك يا رسول الله .

الحق أنت وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقها تيها من الأهـوال والظلمـات

إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بهاتين الآيتين فى أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن منه ذينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية وشهوة نسائيه لوفر لهن هذه المطالب وأكثر منها كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟ اسمع إلى العلامة ابن كثير يفسر هذا المشهد القرآنى بما تيسر من التقدير يقول رحمة الله تعالى :

« هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسول الله ﷺ أن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره أو يقنعن بالعيش ولهن عند الله تعالى فى ذلك الثواب الجزيل فاخترن رضى الله عنهن وأرضاهن – الله ورسوله والدار الآخره – فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى حدثنا أبواليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهرى قال : أخبرنى أبوسلمه بن عبدالرحمن أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت : « فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : « **إنى ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لاتستعجلى حتى تستأمرى أبويك** » وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « **إن الله تعالى قال : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك ﴾ إلى تمام الآيتين فقلت له** : ففى أى هذا استأمر أبوى فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخره » .

وروى الإمام أحمد قال : حدثنا أبوعامر عبدالملك بن عمرو . حدثنا زكريا بن إسحاق عن ابن الزبير عن جابر رضى الله عنها قال : « أقبل أبوبكر رضى الله عنه يستأذن

رسول الله ﷺ . والناس ببابه جلوس » والنبى ﷺ جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر رضى الله عنه فأستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا ، والنبى ﷺ جالس وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله لو رأيت ابنة زيد – امرأة عمر – سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها ؟

فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجزه ، وقال : « **هن حولى ويسألنن النفقه** » فقام أبوبكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة – كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ماليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لانسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ماليس عنده . قال : وأنزل الله عز وجل الخيار . فبدأ بعائشه رضى الله عنها فقال « **إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك** » قالت وما هو ؟ قال : فتلا عليها ﴿ **يأيها النبى قل لأزواجك** ﴾ الآية . قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأه من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ : « **إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ولكن بعثنى معلماً مبشراً ، لاتسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها** » تفرد بإخراجه مسلم دون البخارى . فرواه هو والنسائى من حديث زكريا بن اسحاق المكى به .

أرأيت يا أخا الإسلام لم كان التخيير وفيم كان ؟؟ لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها ، والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى ﴿ **أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً** ﴾ أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الإنسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعه وصاحب رغبة شهوانية هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة .

سبحانك ربى . لقد بعثته أسوه حسنه وقدوة طيبه إن هذا البيت بيت النبوه . لقد قال الله تعالى لنساء هذا البيت ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيراً** ﴾ بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة .

بيت يتلقى الوحى من رب السماء .

بيت قرآنى يفوح من أريج القرآن عطراً وريحاناً إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

ياسيد الكون فى ذكراك تذكره	وفى رحابك يسمو نظم أشعارى
من أنقذ الكون من شرك يدنسه	وخلص الناس من تأليه أحجار
من نظم العرب من فوضى ومهزلة	وطهر الأرض من رجس وأوضار
من لقن الناس أخلاقا مهذبه	وشاد للناس ديناً غير منهار
من حرر العبد من رق يكبله	وحرر العقل من سخف بأفكار
من علم البيت قرآنا يرتله	فتنصت الجن إعجاباً بتذكار

« بحث قيم »

جاء فى كتاب « الإسلام والعلم الحديث » للأستاذ عبدالرزاق نوفل بحث قيم فى زواج الرسول ﷺ وقد آثرنا أن نثبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع وها هو ذا نسوقه بنصه . قال المؤلف :

« لم تظهر حكمه زواج الرسول ﷺ بمن تزوجهن إلا عندما اتسع أفق الفكر فى العصر الحديث فإذا ما استعرضنا زواج النبى ﷺ نجد أن كل زواج إنما كان يحقق غرضاً سامياً أو كسباً للدين ، أو عملاً بتشريع جديد . وأن الرسول الأمين كان بعيداً كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوه أو مغنم .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقاً المخزومى ، ولما مات تزوجت أبا هاله التميمى فمات أيضاً . بذلك ورثت عنهما مالاً وفيراً علاوه على ما كانت تملكه . وقد كانت ذات شهره كبيره بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوه على مالها مما جعلها مقصد القاصدين للزواج من كبار القوم وأشراف قريش ، ولكنها كانت ترد كل طالب . فقد كانت عازفه عن الزواج وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبى الله ليشرف على هذه التجاره لما سمعت عنه من أمانه واستقامه وعادت القافله وقد حققت أرباحًا لم تعهدها ورواجاً لم تكن تتوقعه ، فلما سألت غلامها ميسره الذى صاحب الرسول ﷺ روى لها رقه شمائل محمد وجمال نفسه ، وصفاء قلبه ، وطهاره سريرته ، وعفته .. فأرسلت له صديقتها (نفيسة بنت منيه) تقترح عليه أن يتزوجها ، وتزوجها الرسول وهو شاب فى ريعان شبابه ، إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره فى حين كانت السيده خديجه قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد رجل متعه ؟ وهل كان كما يقول عنه أعداء الإسلام مشغوفاً بالنساء ؟ وها هو ذا يتزوج من سيده تزوجت قبله مرتين وتكبره بخمسه عشر عاماً ؟

لقد شدت خديجة أذر الرسول برجالها وعصبيتها حتى إنه عندما جاءه الوحى وخشى منه . سألت خديجة ابن عمها ورقه بن نوفل ، الذى كان أول من بشر بنبوته ، وشجعه على إعلان الدعوة حيث قال له وقد قابله فى طواف بالكعبه :

« والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمه ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن . ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشاً فيعلن لهم دعوه الله .

كما أن السيده خديجه شاركت الرسول فى جهاده فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له وتدفعه إلى النضال والصبر .. وعاشت معه خمس وعشرين عاماً أمضت منها خمس سنوات فى جهاد الدعوه . تقاسمه مايلقى من عنت وشده حتى لقيت ربها ولها من العمر خمسه وستون عاماً .

وبعد موت خديجه ازدادت قريش فى اذاها للنبى ﷺ ، فخرج إلى الطائف يدعو إلى الإسلام فوجد من ثقيف التكذاب ، والإعراض وبعد عام من جهاده عاد إلى بيته بمكه فوجده قفراً ، فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول به من وحشه أوعزوا إلى خوله بنت حكيم حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه ، وتقضى حاجه بيته وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشه بنت أبى بكر أو سوده بنت ذمعه التى آمنت به واسلمت وهاجرت إلى الحبشه مع زوجها الذى مات وتركها وحيده فقبل الرسول العزيز الزواج من الاخيرة التى كانت كبيره السن ضامرة الجسد ليس فيها مشتهى الرجال . ولكنها كانت مؤمنه مجاهده من الصابرين .

هذا هو زواج الرسول إذ أن ماتم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ما هو بعد ذلك من زواج .

فالمشاهد فى العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون أن يرتبطوا مع وزرائهم وقوادهم برباط المصاهره . بل إن قادة الأمم المختلفه يجعلون المصاهره بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم لتحقيقها فلربط رجال المسلمين الأول بعضهم ببعض تزوج الرسول ﷺ بعائشه بنت وزيره الأول أبى بكر ثم تزوج بحفصه بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج بنته رقية لعثمان بن عفان ، فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمه لعلى بن أبى طالب .

وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمداً ﷺ برجاله الأوائل : أبى بكر ، وعثمان وعلى أقوى الرجال فى الإسلام ، وأول من أسلموا وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول بزواجه . فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب إخواته واصدقاؤه إلى أرملته يواسونها ، ويعرض

أقربهم إلى زوجه مرتبه أن يتزوجها إكراماً لزوجها ، وذلك للإشراف على شئون بيته .

وقد أبلى من المسلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى سبيل الله ورسوله ، ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله ، فتزوج الرسول من بعض نساء قتلى المسلمين ممن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم . ولم يجدن أزواجاً لهن إما لكبر سنهن ، أو لكثرة أولادهن ، فزاد ذلك من تعلق المسلمين برسولهم ورفع من روحهم المعنويه وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل فى سبيل الله لم يعدم رجلا يشرف على بيته . ولم يعدم أباً يحنو على أولاده ، ولو لم يجد من المسلمين لو جد نبى الله نفسه . بل حبب ذلك الإسلام لغير المسلمين فأسلموا .

ولذلك تزوج الرسول من زينب أم المساكين زوجه عبدالله بن جحش أحد أمراء المسلمين الذى قتل فى وقعة أحد وكان على رأس أول سريه خرجت للغزو فى الإسلام .

كما تزوج للسبب نفسه هذا أم سلمه زوجة أبى سلمه أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشه الذى أبلى بلاء حسناً فى الدعوه ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار العرب ومنهم أبوبكر وعمر فرفضت حيث قالت « إنى امرأة مسنه وأم أيتام) وعز على الرسول ﷺ أن تظل السيده حزينه وحيده فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الإسلام فى زواج الرسول ، يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الحجرات ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ .

وقد كان الرق منتشراً فى بلاد العرب فدعا الإسلام إلى العتق وتحرير الرقبه وكان للسيده خديجة زوجة النبى – عبد اسمه (زيد) وهبته لسيدنا محمد ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوه ، وقربه الرسول إليه حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد . هذا العبد الذى تحرر هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره نداً له فيزوجه من قريبته مثلاً ؟

لقد طلب زيد يوما من الرسول ان يزوجه زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول فوافق عليه الصلاة والسلام ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن أهلها لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ولما تحقق الهدف وانتفت الأسباب التى من أجلها أحل الله لنبيه تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ وبذلك تزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب وكان ذلك تشريعا جديدا للمسلمين وعملا يقول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾ ولم يدم ذلك الزواج طويلا فطلب زيد الطلاق من زينب فكان رد النبى كما جاء فى سورة الأحزاب : ﴿ **أمسك عليك زوجك واتق الله** ﴾ .

وأراد الله تعالى تشريعاً جديداً ، إذ كانت التقاليد لاتجيز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمن ادعاه ، كما لاتجيز للمتبنى أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة عبد .

فنهى عن ذلك الله تعالى إذ يقول فى سورة الأحزاب **﴿وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل﴾** .

لذلك أمر الله بأن يكون الرسول القدوه للناس فى ذلك ، وخشى فى نفسه أن يقول عنه الناس تزوج من كانت زوجاً لدعيه أو كان يخفى فى نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما لبعض حتى لايتزوجها ولكن الله مبدى هذا التنافر ، يقول المولى عز وجل فى سورة الأحزاب **﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ﴾** .

هذه هى حكمة زواج الرسول من زينب بنت جحش . وهى بعيده كل البعد عما يرويه خصوم الإسلام من أن الرسول ﷺ كان قد ذهب لزياره زوجها فاستهواه جمالها فطلب من زوجها أن يطلقها ليتزوجها .

وأين كان الرسول يوم أن كانت زينب عذراء وهى ابنة عمته ، والتى كان يعرفها تماماً ؟

أو لم تستهويه محاسنها وهى عذراء ؟

ولكنه الحقد على الإسلام ونبى الإسلام الذى يجعل الخصوم يفترون .

وهناك حكمة من زواج الرسول إذ حقق به أهدافاً سياسية ، فعندما هزم المسلمون بنى قريظة بعد حصار طويل . كانت ريحانه بنت عمرو زوجه الحاكم أحد كبار بنى قريظة من نصيب الرسول فى الغنائم فعرض الرسول عليها الإسلام فأسلمت وتزوجها وكان لزواجه منها أكبر الأثر فى نشر الدعوه الإسلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم . وهز مشاعرهم إكرام الرسول لأحد سيداتهم بزواجه منها .

وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق كانت جويرية بنت الحارث بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس الذى طلب منها أن تفتدى نفسها فاستعانت بالرسول على فك أسرها فعرض عليها الإسلام وأسلمت فتزوجها وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ، فدخلوا جميعاً فى الإسلام .

ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر ، كانت صفيه بنت حيي بن أخطب ضمن الأسرى ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا مايفعله الفاتحون من ذوى الرحمه إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء فى الدول المهزومة حفظاً لكرامتهم وتخفيفاً من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الإسلام فى جزيرة العرب أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة الذى آوى المسلمين المهاجرين وأكرمهم ، ليكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبه رملة بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبيدالله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمه صادقه العقيده ، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمه ارتد زوجها المسلم وتمسكت بدينها . تحافظ عليه وتقيم شعائره فى دولة غريبه ، كما كانت سياسية بارعة ، إذ أن أم حبيبه بنت أبى سفيان عدو الرسول الألد واكبر مهاجمى الإسلام ، وزواجه منها انتصر على آخر معقل من معاقل الكفر والشرك فى قريش ، انتصاراً دون إراقة دماء ، وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوه إلى الخارج أرسل رسله إلى الملوك والأمراء ، منهم هرقل . وكسرى ، والمقوقس يدعوهم إلى الإسلام ، فكان من ضمن ود المقوقس عظيم القبط فى مصر أنه أرسل للرسول هدايا فيها جاريتان إحداهما ماريه القبطية التى تزوجها الرسول وسيرين التى أهداها إلى حسان بن ثابت .

ولما أحل للنبى الدخول إلى مكه وزيارة الكعبة الشريفه بعد صلح الحديبيه دخل الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء وظلوا أياماً ثلاثه هى ماأتفق عليه فى المعاهده .

وكان المسلمون من الكثرة والقوه والخلق الكريم لايشربون خمراً ولايأتون معصية ولايتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجاراً أو أوثاناً وإنما دعوتهم الله اكبر الله اكبر زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار ، فأسلم ضمن من أسلم ميمونه بنت الحارث خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها وأى تكريم وفتح لعائلتها التى كانت ومازالت على الكفر وقد صحت فراسة الرسول ﷺ كما كانت تصح دائما ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى ، وقتل سدنتها وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواعاً وكذلك أسلم عثمان بن طلحه حارس الكعبه وبإسلامهم أسلم كثير من أهل مكة .

هذا هو زواج رسول الله ﷺ فهل منه مايثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه للنساء وهل فى أزواجه كلهن واحده كان جمالها أو شبابها سببا فى زواجه منها ؟

وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول من زواجه لمصلحة الدعوه والدين .

لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف وانتفت الأسباب التى من أجلها أحل الله لنبيه تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى فى سورة الأحزاب ﴿ **لايحل لك النساء من بعد** ﴾ .

هذا هو زواج الرسول ﷺ فهل فيه مايثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء ؟

وهل كان بين كل هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟

أو ليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبى وعلى الحق أى افتراء ؟؟

وإلى هنا نكون قد أتينا على الحكمه البالغه التى من أجلها تعددت زوجات الرسول ﷺ .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

لما أراد الله جل جلالـــــه	أن ينقذ الدنيا من العثرات
اهداك ربك للورى ياسيدى	فيضا من الأنوار والرحمات
ياصاحب الخلق الكبير عرفته	وبسطته فى حكمة وأناة
وطلعت فى الليل البهيم مؤذنا	بالحق والأنوار والصلـــوات
ودعوت للخيرات قوما ضللوا	ماكان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصبر من دعا	وأقـــمت بين إساءه وأذاه
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت فى	أعناقهـم فى عزة وثبـــات
فحظيت بالنصرْ المبين مؤذرا	وأقمت حقك خافق الرايات
وضربته مثلا لكل مكابر	لايستـــوى حق بغير حماة

الإسلام وتعدد الزوجـات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا رسول الله ﷺ أن نعقب هنا بكلمه عن حكمه الإسلام البالغه فى أباحه تعدد الزوجات وقبل أن نسجل هذه السطور نود أن نبدأ بهذه القواعد التى تنبنى عليها دائما الحكم البالغه والأهداف الساميه لتشريعات الله أحكم الحاكمين وأعدل العادلين .

عــالمية الدعــوة

القاعده الأولى من تشريعات الإسلام أنه شريعه عالميه ، وليس حكما إقليميا .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾

وقال سبحانه : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ .

وقال جل جلاله : ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ .

وقال عظمت حكمته : ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله** ﴾ .

وقال ﷺ « **كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمروأسود** » .

وإذا قد تقرر ذلك فلابد أن يكون تشريع الإسلام شاملا لكل مقتنيات الزمن ومحيطا بكل نواحى الحياه .

الفصل السابع عشر

عرفة

وقد عقد المؤلف فصلا تحت هذا العنوان قال فيه : بعد وفاة قاسم يخلفه صديقه صادق بينا يحرص آخرون حسن على تولى الأمر لأنه أحق به من أى شخص آخر ولكن حسن لايقبل ان يستخدم العنف من أجل ذلك وبعد فترة من الزمن يعود الأمر إلى ما كان عليه قديما اذ يسيطر أحد أحفاد الناظر القديم (رفعت) بعد تقاتل اتباع قاسم ويكون لكل حى فى الحارة فتوته ويأتى إلى الحارة ذات يوم (عرفة) الساحر وهو بن جحشه العرافة التى كانت تقيم فى الحارة قديما ومعه أخوه ومساعده (حنش) ويستأجر (بدروما) فى الحارة ويستدعيه الفتوة (حجاج) ليعرف منه ماذا ينوى ان يعمل ويخبره عرفه انه ساحر وانه سيدفع له الأتاوة المفروضة ويغريه بأن يقدم له شيئا يقول له : جربه فى فنجان شاى قبل الجماع بساعتين وستعرف بعد ذلك إن كنت ستسر عرفه أم ستطلق خلفه اللعنات ويخاف حنش عندما يعرف أن الشقة التى سيعيشون فيها ماتت فيها امرأة محترقة من قبل ويخشى أن تكون مسكونة بالعفاريت فيسخر عرفة من خوفه ويقول أنسيت أننا نمارس عملنا مع العفاريت تماما كما كان جبل يفعل مع الحيات (ايحاء بأن مافعله سيدنا موسى بالحيات كان من قبيل السحر والشعوذة ولايختلف كثيرا عن أى سحر آخر ولم يكن وراءه قوة سماوية واشارة من ناحية أخرى إلى أن العلم استطاع أن يخرج العفريت من القمقم) ويتردد الزبائن على عرفة طالبين السحر والشفاء ويطلب معظمهم منه سر الوصفة الجنسية التى اهداها للفتوة وشاع أمرها ويكثر فى كلام أهل الحارة الاستخفاف بما كان عليه جبل ورفاعة وقاسم وان كانت ما تزال قصتهم تروى فى المقاهى على الربابة .

يسر عرفه إلى أخيه حنش بأفكاره بينا هو منهمك فى خلط أشياء غريبة فى ورشته حيث توجد الطلاسم والنباتات والبخور والعقارب والفئران والحشرات والجير والتراب

وحيوانات محنطة وقطع زجاجية وعلب بها سوائل لها روائح نفاذة غريبة وفحم نباتى وموقد إلخ ، ويقول عرفه لاتنس متعة السحر نفسه متعة استخراج شيء نافع من بين مواد غير نقية متعة الناس عندما يسمعون نصائحك ثم هناك القوى الخفية التى ستحب ان تمتلكها إن أحداً من السذج الذين يظنون انفسهم ذوى شأنه عظيم فى هذه الحارة لايفهم أهمية مايفعل فى هذه الغرفه المظلمة القذرة بروائحها الغريبة .

(اشارة إلى أن المخترعات العظيمة والإبداعات الكبيرة للعلم خرجت من معامل متواضعة انقطع فيها العلماء عن العالم الخارجى وعكفوا على بحوثهم فى صمت مما لايقدره الناس بعد ذلك وهم يستفيدون من نتائج هذا العمل) انهم يدركون فقط فائدة (الهدية) ولكن هذه الهدية ليست كل شيء فهناك عجائب لايمكن تخيلها يمكن أن تخرج من هذه الغرفة يوما ما سوف تتدفق المعجزات ولن تقف عند حد ان الحمقى لايقدرون قيمة عرفة الحقيقية ولكن لعلهم يقدرونه يوماً ما) ويزداد زبائن عرفة ويتعلق هو بفتاة فقيرة جميلة اسمها « عواطف » (سنعلم أن إرتباطه بها سيعوقه عن عمله وانه سيحدث خلاف بينهما وان رغبته فى زيارتها ستكون سببا فى القبض عليه والفتك به مما قد يشير إذا اخذنا فى الحسبان ما يرمز إليه اسمها « عواطف » ان العاطفة المنافية للعقل والعقلانية إلى أن انتصار العلم ونجاحه مرهون بتخلصه من كل اثر للعاطفة البشرية) وأبوها « شكرون » الذى اضناه فى شيخوخته التجول بعربة فى الطرقات فافتتح مقهى متواضعا كان من معاصرى قاسم ويواجه عرفة مشكلة هى ان (سنطورى) الفتوة معجب أيضا بالفتاة ولكن عرفة يحسن علاقته بحجاج الفتوة ينجح فى الزواج منها بعد أن قتل سنطورى أباها العجوز ويتضح من حوار عرفة وحنش أن عرفة كان يفكر فى الانتقام لأمه ومصيرها البائس من اهالى الحارة (يبدو أنها لقيت معاملة سيئة وساءت سمعتها بين أهل الحارة إلى أن ماتت فى بؤس) ولكن عرفة يخبر حنش ان تفكيره لم يعد يتركز فى الانتقام بل فى جلب السعادة للجميع بالتخلص من الفتوات وبطشهم ووسيلته فى ذلك : السحر وفى حوار مع عواطف يقول عرفة : كل من يمر بضيق يصيح (ياجبلاوى) كما كان أبوك المسكين يفعل ولكن هل سمعت عن أناس مثلنا لم يروا مطلقا جدهم هذا مع أنهم يحيون حول منزله الموصد وهل سمعت عن انسان له وقف يترك الناس يعبثون بوقفه من غير ان يحرك ساكنا على الإطلاق وتجيبه (انه كبر السن) فيقول بأرتياب « اننى لم اسمع مطلقا عن شخص عاش مثلما عاش » فتقول « إنهم يقولون ان هناك رجلا فى سوق المقطم عمره مائة وخمسون عاما فيقول عرفة بعد صمت « الله قادر على كل شيء » ثم يغمغم قائلا « ونفس الشيء بالنسبة للسحر انه الآخر قادر على كل شيء » وتنبت فى ذهن عرفة فكرة تسيطر عليه وهى ان يقابل الجبلاوى الجد الأكبر للحارة كلها بأن يذهب إليه فى قصره وتفكر عواطف زوجته فى دوافعه لذلك وهل هو رجل مجنون أم انه مخدوع وواهم ونعلم هنا أن عرفة هو

الوحيد فى الحارة كلها الذى لايتعاطى الحشيش (هذه مسألة فى غاية الأهمية لأنه لأول مرة منذ بداية القصة وحتى نهايتها نجد شخصا واحداً لايتعاطى الحشيش هو عرفة الذى يرمز للعلم المادى الملحد من حيث ان الجميع بما فيهم حتى أولئك الذين يرمزون لرسالات السماء كانوا يتعاطون المخدرات كالأكل والشرب تماما لدرجة ان القارىء يحس من سياق الرواية ان المخدرات من لوازم الحياة بين الجميع فى هذا المجتمع وكذلك الخمر دون أن يرد فى النص أى اشارة ولو خافتة إلى أن هذا محرم أو أن هناك من يستنكره أو يحاربه أو يجتنبه وفى كل ذلك اشارة واضحة إلى ان (الدين أفيون الشعوب) وإلى أن العلم المادى الملحد هو المنقذ الوحيد من هذه الحالة من فقدان الوعى) .

وتواتى عرفة فكرة يستعين بها لتحقيق غايته فيحفر على مدى عدة ليال وفى ظلام الليل الدامس نفقا من خارج البيت الكبير إلى داخله ثم يتسلل عبره ذات ليلة إلى داخل الحديقة الغناء ثم إلى داخل البيت إلى أن يصل إلى غرفة النوم التى بداخلها الغرفة الصغرى التى تحوى الكتاب السرى ولكن قبل أن يتمكن من الوصول للكتاب يستيقظ احد الخدم ويحاول الإمساك به وتمتلك عرفة المفاجأة والذعر فيجد نفسه وقد اطبق على عنق الخادم ولم يتركه إلا جثة هامدة وأسرع خارجا من غير أن يتمكن من تحقيق ماجاء لأجله فلا هو رأى الجبلاوى أو حادثه ولا اطلع على خفايا الكتاب السرى وعاد مذعورا إلى بيته ثم استيقظ الجميع على أصوات بكاء وصراخ آتية من البيت الكبير وعلموا ان (الجبلاوى قد مات) وتبين بعد ذلك انه علم بقتل خادمه ولم يستطع انقاذه لكبر سنه وشيخوخته وضعفه فأصابه الهم والغم ومات كمداً .

قال المؤلف وكان عرفة فى تلك الاثناء قد فرغ من تركيب مادة سحرية أو كيماوية عكف على صنعها وتجربتها زمنا طويلا واستعملها لأول مرة عندما ارتكب جريمته الثانية بعد قتل خادم الجبلاوى وهى جريمة قتل فتوة الحارة فقد ألقى على مطارديه هذه المادة فأحدثت انفجارا هائلا واصابتهم فى وجوههم واطرافهم (مما يفهم منه انها مادة حارقة) ويستطيع بذلك أن يفر ولكن الفرار لا يدوم لأن بعض شهود العيان الذين نجوا من الحادث كانوا قد تعرفوا عليه وابلغوا ناظر الوقف الذى استدعاه وهدده بأن يسلمه لأهل القتيل فيمزقوا جسده وينتهى اللقاء بعقد صفقة هى أن يحصل الناظر على هذا الدواء العجيب أو هذه التركيبة الخطيرة التى يملكها ويعرف سر تركيبها عرفة وحده مقابل ان يحميه الناظر من العقاب والإنتقام .

ثم يمضى المؤلف قائلا وفيما يتعلق بموت الجبلاوى فقد ثار نزاع بين حى جبل وحى رفاعة وحى قاسم ورأى كل فريق أنهم أولى بالجبلاوى واحق بأن يدفن عندهم هم (اشارة

إلى فكرة تنازع ابناء الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام حيث يدعى كل فريق منهم صحة انتساب عقيدته إلى الله تعالى وصحة كتابه المقدس وانه الوحيد الذى على حق الخ وهذه فكرة قديمة ويجب الا يظن المؤلف انه أتى بجديد عندما طعن فكرة الدين نفسها فى الصميم تأسيسا على هذا النزاع ذلك ان القرآن نفسه اشار إلى ذلك فى مثل قول الله تبارك وتعالى : **﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانو فيه يختلفون ﴾** وقوله سبحانه : **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾** ذلك ان اختلاف وتنازع أتباع الأديان لاينهض دليلا أو دفاعاً لرفضها كلها لكى يريح المرء نفسه ، فمن الطبيعى أن تختلف عقائد الناس وتتفاوت ولكن الإنسان مسئول ان ينظر فيها ويعمل عقله ويرضى باتباع العقيدة التى يطمئن اليها قلبه وعقله والا فما جدوى العقل) .

ثم يقول المؤلف وينتهى النزاع بأن يدفن الجبلاوى فى الزاوية الصغيرة الملحقة بحديقة قصره الكبير ويثور صراع بين حى جبل وحى رفاعة وحى قاسم على من يكون الفتوة الجديد بعد مقتل فتوة الحارة ويستدعى الناظر (يوسف) فتوة حى جبل متمنياً له الفوز بالمنصب ولكن (عجاج) فتوة حى رفاعة و(سنطورى) فتوة حى قاسم يتفقان عليه فيقتلانه ثم يبرمان عهدا ان تكون القرعة هى التى تحدد من منهما يكون فتوة الحارة كلها وعندما تأتى القرعة فى صالح سنطورى يهجم عليه أحد اتباع عجاج ويقتله ويقتل الفريقان إلى أن يأتى الناظر ويحسم الأمر بأن يصارح عجاج بأنه لايريد أى فتوات فى الحارة وسرعان مايأمر خدمه بإلقاء الزجاجات التى تحوى المادة السحرية عليهم فيحدث الانفجار ويسقط الجميع ويرتج المكان وتتساقط الجدران ويعلو الصياح ويجهز الخدم على الفتوات واتباعهم وينتقل عرفة وزوجته عواطف وأخوه حنش للإقامة فى قصر الناظر الذى قرر الاعتماد على سحر عرفة فى السيطرة على الحارة وأهلها بعد ان تخلص من الفتوات ويحس عرفة أنه فى سجن لأن الناظر استغل خوفه من انتقام أهل الفتوة الذى قتله وأصبح عرفه مضطرا للإنقياد له وخدمته بسحره مقابل حمايته وتحس عواطف بالملل والرتابة داخل جدران القصر فتذهب مغضبة الى بيت احدى النساء فى الحارة ويذهب عرفه ليقنعها بالعودة ولكنها تأبى ويحدث حادث مهم ذات يوم عندما تقابل عرفه فى الطريق امرأة نوبية عجوز تخبره أنها خادمة الجبلاوى وانه أوصاها قبل موته بإبلاغ رسالة إلى عرفة وهذه الرسالة هى (أذهبى إلى عرفة الساحر وأبلغيه عنى أن جده مات وهو راض عنه) واصابت الدهشة عرفه واتهم المرأة بالكذب أول الأمر بل وابلغها صراحة أنه هو الذى تسبب فى موت الجبلاوى فكيف يكون قد مات وهو عنه راض إلا أن المرأة نفت عن نفسها الكذب واكدت الوصية وكررتها له وقالت له « ان احداً لم يقتل

الجبلاوى ولم يكن لأحد ان يستطيع ذلك » ولكنه قال لها « أنت مخطئة فالذى قتل خادمه قتله » (حيث ان خادمه يرمز لناموس وحيه ورسوله إلى رسله وانبيائه فان المعنى هو ان الذى استطاع هدم هذه الأديان فكأنما بذلك قد قضى على مصدر الوحى نفسه) .

ويشك حنش فى رواية عرفة ويتهمه بأنه كان غائب الوعى وأن كل هذا (تهيؤات) ولكن عرفة يؤكد له ان ذلك حدث وان الجبلاوى مات وهو راض عنه .

ويمضى الكاتب قائلا بعد ذلك يفكر عرفه فى الهرب وينفذ خطته ليلا فيهرب هو وحنش قاصدين المنزل الذى تقيم فيه عواطف (منزل أم زنفل) ولكنه سرعان مايسرع وراءه أتباع الناظر وخدمه ويحاصرونه ويقبضون عليه بعد أن ينجح فى القاء الكتاب الذى أودعه خلاصة علمه السحرى فى منور ببيت أم زنفل حتى لايقع فى يد الناظر بينما يفلح أخوه حنش فى الهرب . ويلقى عرفه وعواطف حتفهما على أيدى خدم الناظر الذين يدفنونهما حيين فى جبل المقطم ويعود حنش متخفيا إلى أم زنفل يسألها عن الكتاب الأمل الوحيد فتخبره ان يذهب إلى حيث يحرقون القمامة فى (الصالحية) وهناك وبينما هو منهمك فى البحث يراه أحد أبناء الحارة ويسرع ناقلا الخبر وعندما يذهب الناظر للقبض عليه يجدونه قد اختفى ويتناقل الناس خبر حنش واحتمال عثوره على الكتاب لكى يعود مرة أخرى ذات يوم فينتقم ابشع انتقام من الناظر بعد أن يستكمل ويطور كل ما وصل اليه عرفه من علوم السحر ويدعى الناظر للناس انه عقد الصفقه مع عرفه لكى يقى الناس شر سحره ثم لما تمكن منه اقتص منه جزاء وفاقا لتسببه فى قتل الجبلاوى جدهم جميعا ويقابل الناس هذه الأخبار التى أمر الناظر ان تغنى على الربابة فى المقاهى بالاستخفاف واللامبالاة ويقولون اننا الان لم نعد نهتم بالماضى فلم يعد يعنى أى شىء بالنسبة لنا ان أملنا الوحيد هو سحر عرفه واذا كان لنا أن نختار بين الجبلاوى والسحر فإننا سنختار السحر (الكلام أوضح من ان يحتاج لأى تفسير أو تعليق) ويعرف الناس حقيقة عرفه من أم زنفل التى عرفته عن قرب وعاشرت زوجته طويلا وعن طريق حنش عندما قابل بعض الناس فى مكان بعيد عن الحارة وشعر الناس أنهم ظلموه وكان حكمهم عليه قاسيا واصبحوا يبجلونه ويرفعونه إلى مكانه أعلى من مكانة جبل ورفاعة وقاسم حتى ولو كان هو حقا الذى قتل الجبلاوى وادعاه كل حى لنفسه وبدأ بعض الناس يختفون من الحارة واحداً وراء الآخر وتهامس الناس أنهم يفرون إلى المكان الذى يختبىء فيه حنش حيث يعلمهم جميعا مبادىء السحر لكى يكونوا قوة كبيرة تعود فتنتقم من الناظر وتدفع هذه الأخبار الناظر إلى احكام قبضته على الحارة واضطهاد أهلها ولكن الناس يصبرون على الأذى فى انتظار بزوغ فجر جديد يتخلصون فيه من القهر والطغيان .

بيـــان وتعليـــق

بعد أن تقرأ أيها الأخ الفقرة السابقة من أولها تعرف ان (عرفه) « الأسم مشتق من المعرفة » أى الذى لديه العلم والمعرفة لكن ليس عن طريق الوحى أو الرسالات أو الأساطير أو الدين بل عن طريق ورشته ومعمله وما يخلطه من مواد وكل هذا يرمز للعلم المادى وما فيه من اكتشافات واختراعات وتكنولوجيا ولذلك فهذا العلم فيه وحده كل العجائب والغرائب وفيه وحده النفع والفائدة ولكن لأن اهالى الحارة قريبو العهد بقصص السابقين مثل أدهم وجبل ورفاعة وقاسم فلم يقدروا قيمة العلم المادى بعد ونلاحظ كذلك ان (عرفه) فى الرواية ينتمى إلى أم ساحرة يعنى تربى فى بيئة علمية بعيدا عن قصص السابقين واحداثهم وأساطيرهم ثم انه مجهول الأب أى أن العلم لا أب له أو لا يهم فيه الاسلام بل ما يكتسبه كل شخص باجتهاده أو أن العالم لا ينقص منه ان يكون ابن زنا أو أن ينجب هو نفسه من الزنا أو أن عرفه هذا مشكوك فى عودة نسبه إلى الجبلاوى وبالتالى فالعلم نشأ بعيداً عن الدين منقطع الصلة به لاينتسب اليه إلى آخر الدلالات التى يمكن أن تخرج بها من شخصية عرفه .

وقال المؤلف وفى حوار مع عواطف « كل من يمر بضيق يصيح ياجبلاوى كما كان أبوك المسكين يفعل ولكن هل سمعت عن اناس مثلنا لم يروا مطلقا جدهم هذا مع أنهم يحيون حول منزله الموصد وهل سمعت عن انسان له وقف يترك الناس يعبثون بوقفه من غير أن يحرك ساكنا على الاطلاق وتجيبه « إنه كبر السن » فيقول بارتياب « إننى لم اسمع مطلقا عن شخص عاش مثلما عاش » فتقول « انهم يقولون أن هناك رجلا فى سوق المقطم عمره مائة وخمسون عاما فيقول عرفه بعد صمت « الله قادر على كل شيء » ثم يغمغم قائلا « ونفس الشيء بالنسبة للسحر انه الآخر قادر على شيء » .

« تعليـــق »

هنا يخرج الكتاب عن الرمز إلى الحقيقة لأول مرة ولعلها المرة الوحيدة اذ لا تنصب الاتهامات هذه المرة على رأس جبلاوى كالعادة حتى مع كونه يرمز إلى الله تعالى بل يتجه الكلام إلى الله نفسه صراحة ومن غير غلالة الرموز أو غموض الأجواء الغريبة الله قادر على كل شيء وكذلك السحر قادر على كل شيء أى أن العلم يشارك الله فى احدى صفاته وهى القدرة المطلقة وبالتالى فالعلم إله جديد له نفس الصفة ومن هذه الزاوية يستحق التقديس على قدم المساواة ثم نأتى إلى التعقيب على هذه الدلالة فالمقصود انه إذا كان الدين قادرا على تحقيق

المعجزات أو تفسيرها فإن العلم المادى قادر على تحقيقها وتفسيرها تفسيرا ماديا وانه إذا كانت انجازات الأنبياء قد بقيت زمنا قصيرا فان العلم هو الذى ستدوم معجزاته وهذه الأفكار لاتحتاج إلى دحض من فرط سذاجتها فمن ذا الذى يقول ان العلم جاء بديلا للدين ومن ذا الذى يمكنه ان يدعى ان عصر النبوة انقضى وورثه عصر العلم مع ان معجزة الإسلام فى بقاء قرآنه وشريعته وسنة رسوله دليل على ان زمن رسالته ممتدا إلى يوم القيامة ومن ذا الذى لم يسمع حتى الآن بمدى اهتمام الإسلام بالعلم والعلماء وبالنهضة العلمية العظيمة إبان ازدهار حضارة الإسلام العظيمة التى تتلمذت عليها أوربا وبنت عليها نهضتها الحديثة بل من ذا الذى ينكر وجود مئات من العلماء من غير المسلمين يجمعون بين تفوق علمى عالمى فى تخصصاتهم وإيمان روحى عميق بالدين وقيمه ومبادئه وان التناقض بين نصوص الدين ومعطيات العلم أو بين سلطة الدين والكهنوت والسلطة الزمنية ... إلخ حدث فى أديان أخرى غير الإسلام فحتى لو انطبق هذا الكلام على أديان بعينها لا يمكن أن ينطبق على الإسلام ومن العجيب والمحزن ان تثار هذه القضية المختلقة على يد كاتب ملم من باب المحاكاة والتقليد الأعمى فقط لما قاله فلاسفة غربيون من قبل وان كان لا عجب مادام أمثال هذا الكاتب يولون وجوههم شطر الغرب فى كل حركة وسكنة .

قال المؤلف :

وتواتى عرفه فكرة يستعين بها لتحقيق غايته فيحفر على مدى عدة ليال وفى ظلام الليل الدامس نفقا من خارج البيت الكبير إلى داخله ثم يتسلل عبره ذات ليلة إلى داخل الحديقة الغناء ثم إلى داخل البيت إلى أن يصل إلى غرفة النوم التى بداخلها الغرفة الصغيرة التى تحوى الكتاب السرى ولكن قبل ان يتمكن من الوصول للكتاب يستيقظ أحد الخدم ويحاول الإمساك به وتتملك عرفه المفاجأة والذعر فيجد نفسه وقد أطبق على عنق الخادم ولم يتركه إلا جثة هامدة واسرع خارجا من غير ان يتمكن من تحقيق ماجاء لأجله فلا هو رأى الجبلاوى أو حادثه ولا اطلع على خفايا الكتاب السرى وعاد مذعورا إلى بيته ثم استيقظ الجميع على أصوات بكاء وصراخ آتية من البيت الكبير وعلموا ان « الجبلاوى قد مات » وتبين بعد ذلك انه علم بقتل خادمه ولم يستطع انقاذه لكبر سنه وشيخوخته وضعفه فأصابه الهم والغم ومات كمداً .

« تعليـــق »

نلاحظ ان تفاصيل موت الجبلاوى زاخرة بالرموز والدلالات ولا ريب فى انها أهم احداث هذه الرواية على الاطلاق وهى الهدف الذى يريد المؤلف أساساً ان يصل بالقارىء

اليه عبر كل تلك الأحداث المتشابكة المتلاحقة فنجد ان موت الجبلاوى (أو موت الاله) يرمز إلى أن الدين والإيمان بالله تعالى قد استنفذ أغراضه وانقضى عهده ولا أمل فى عودته لان الموتى لايعودون إلى الحياة فى هذه الدنيا ثم أن موته كان بسبب تعرف عرفه أو أن عرفه كان هو السبب فى موته يعنى ان موت الاله أو انقضاء وإنهيار الدين السماوى حدث على يد العلم الدنيوى الملحد وهكذا نرى ان الرمز مركب فمن ناحية ! مات الإله ومن ناحية آخرى مات على يد العلم .

وهذه هى الفكرة الطفولية الساذجة ومؤداها ان البشرية شهدت عصورا متتابعة قضى كل منها على ماسبقه فكانت أولا حقبة الأساطير والتفكير الخرافى ثم جاءت الأديان فى عصور تالية فهذبت شيئا ما من التفكير الأسطورى واضفت عليه قيما معينة لا بأس ببعضها لأنها مرحلة من التطور الفكرى الإنسانى ثم جاء عصرالعلم فألغى رحلة الأساطير ومرحلة الدين وحل محلهما بمنطقه المادى العقلانى وهكذا وفق هذا التصور يجب أن يظل هذا المنطق المادى الملحد هو السائد لأنه الذى ورث كل هذه العهود الخرافية الأسطورية بما فيها عهود الدين لأنها فى أحسن الأصول ليست إلا امتدادا لعصر الأسطورة ومجرد مرحلة مر بها العقل البشرى فى مدارج تصوره ورقيه ثم تخطاها مع ان دارسىالفلسفة والتاريخ والمثقفين عموما يعلمون جيدا أن الذين اعلنوا هذه الصيحة « أن الله قد مات » قالوها وفى أذهانهمن « اله » غير « الله » الواحد الأحد .. فكلة (الله) فى لغات الغرب المسيحى تعنى (الابن) مثلما تعنى (الأب) (والروح القدس) - أقانيم المسيحية أو الثالوث المقدس وفى هذا الإطار كان المقصود بموت الاله هو موت يسوع المسيح على الصليب (فى اعتقادهم) وكأن اصحاب هذه الصيحة ومن اشهرهم نيتشه وقد دعوا تماما الاثار السلبية لسيطرة الكهنوت المسيحى الأوربى على المجتمع حكاما ومحكومين ومعاداته للعلم وحرية الرأى .. الخ فأرادوا أن يذهب هذا السلطان البغيض إلى غير رجعة ووجدوا فى موت الرب المخلص يسوع المسيح على الصليب حجتهم فيما من لاتزالون تؤمنون بمثل هذا الدين تذكروا أن ربكم هذا قد مات واذن فالطريق خالى لرب جديد . مالنا نحن يااستاذ محفوظ ومال هذا سامحك الله المهم نعود إلى رموز وفاة الجبلاوى فنجد ان عرفه هو الوحيد الذى استطاع الدخول إلى بيت الجبلاوى ثم تسبب فى القضاء عليه واذن فالعلم المادى هو الوحيد الذى استطاع قهر فكرة الألوهية والقضاء عليها ثم انه كان الوحيد فى الحارة الذى لم يكن يشرب الحشيش « الأقرب أواخر الرواية وكرمز لوقوعه تحت سيطرة السلطة الزمنية » واذن فكل اتبا الأديان - بما فيهم أتباع الإسلام (مساطيل) فى اتباعهم للدين الذى هو (الحشيش) و(الأفيون) الذى يسيطر على الناس إلا الذى يتمسك بأهداب العلم المادى فهو وحده اليقظان الواعى الذى يملك على حواسه وعقله وارادته والسحر الذى يمارسه عرفه فى الرواية ويحقق به كل ذلك يرمز للعلم

المادى فهو الوحيد القادر على صنع المعجزات وهى معجزات حقيقية يمكن ان نراها وليست كتلك المعجزات التى يحكى عنها الشعراء والرواة على الربابة فى المقاهى « رمز للكتب المقدسة التى يردد ما فيها علماء الدين والمتدينون » فهل من قبيل الأساطير التى لايعلم أحد ان كانت حدثت أو لا .

كما ان عجز الجبلاوى عن الدفاع عن خادمه وقهر عرفه يرمز لعجز الدين أو الاله – كما يزعمون – عن التصدى لقوة العلم القاهرة والدفاع عن اتباع الدين (الضعاف المسحوقين) فى مواجهته كذلك يقول عرفه بعد تجربة دخوله قصر الجبلاوى فى اطار التوبيخ لمعتقدات أهل الحارة انهم يظنون أن حارتهم هى وكذا الكون ولكنها ليست إلا ملازا التافهين الصعاليك والشحاذين وحيث ان الحارة ترمز قبل عرفه لعصر الأديان فا'منى أن الدين هو الوهم الذى يلجأ إليه كل فقير فى العلم الدنيوى فهو كالشحاذ لا يملك قوتا « فكريا وعقلانيا » وكالتافه غير جاد لأنه يشغل نفسه بهذه الأقاصيص التى تحكى على الربابة (الآيات والاخبار الدينية) كذلك من الدلالات أن الجبلاوى بالرغم من اعلان وجوده الطاغى وتصرفاته القاهرة المؤثرة فى أوائل الرواية إلا أن عرفه (العلم المادى الذى يكتشف كل شىء ويحكم عليه بالوجود أو العدم طبقا لأدواته وحواسه فقط) لم يره عندما دخل بيته فهذا يشير إلى انه غير موجود أو غير حقيقى أى ان الكل يسمع ويتحدث عنه ولكن عندما يغامر العلمانى الشجاع المتسلح بروح التحدى ليكشف حقيقة هذا الاله لا يجد شيئا فكأنه وهم موجود فقط فى رؤوس المؤمنين به كل ذلك علاوة على الدلالة الأخرى الموازية والمتمثلة فى موت الجبلاوى وكأن المؤلف هداه الله لم يكتف برمز يشير إلى الشك فى وجود الخالق لعدم التمكن من رؤيته جهرة فأضاف إلى ذلك رمز موته و(دفنه) حتى يقطع الشك باليقين ويؤكد مقولة نيتشه بأن الخالق الذى يزعم المؤمنون وجوده ان كان له وجود اصلا قد مات وشبع موتا بل ودفن أيضا إلى الأبد . ان قضية عدم الإيمان بالله لاننا لانستطيع ان نراه أو نكلمه فكم جاء علها من ردود عديدة فى القرآن منها ﴿ **وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون** ﴾ وقال تعالى حكاية عن قوم موسى ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكثر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم**﴾ **فرؤية الله تعالى فوق طاقة البشر فى الدنيا فهو سبحانه وتعالى لا تدركه ولا تحويه الأنظار ولايؤثر فيه الليل ولا النهار وهو الواحد القهار** ﴿**ذلكم الله ربكم لا اله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وانا أول المؤمنين** ﴾ .

ومن لطيف مايروى من مسألة تشبث الملحدين برؤية الإله قبل الإيمان به قصة استاذ ملحد قال لتلاميذه أيها التلاميذ هل ترون المدرس؟ قالوا نعم قال اذن فالمدرس موجود هل ترون المكتب قالوا نعم قال اذن فالمكتب موجود هل ترون الله؟ قالوا لا قال اذن فالله غير موجود فقام تلميذ نابه ذكى وقال للتلاميذ أيها التلاميذ هل ترون عقل الاستاذ؟ قالوا لا قال اذن فعقل الاستاذ غير موجود .

والحديث عن رؤية الله تبارك وتعالى مبحث كبير لعلماء العقيدة ليس هذا محله ولكن نقول ان رؤية الله تعالى حاصلة للمؤمنين فى الآخرة قال جل شأنه ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ .

« تعليــق آخــر »

ونسوق هذا التعليق الذى نختم به كتابنا هذا وهو الذى نشرته جريدة النور الصادرة بتاريخ ٢٠ ربيع آخر ١٤٠٩هـ ٣٠نوفمبر ١٩٨٨ للأستاذ مصطفى عدنان ونجتزىء هذا الجزء الذى يتحدث عما نحن بصدده قال ما نصه :

نحن نؤكد للأستاذ الكبير نجيب محفوظ – بعد فحص النص الذى أمامنا لأولاد حارتنا انه حين كتبه كان يكتبه خدمه للشيوعية كيف ؟

فلقد انتصر للشيوعى الملحد (الذى قتل الله) ولنرجع للحلقه المنشوره فى الأهرام يوم ١٩٥٩/١٢/٢٥ وهى الحلقه الخاتمه للرواية ويتضح منها جليا الهدف من الرواية وينكشف بلا أية أرديه حيث يقول الأستاذ نجيب محفوظ : هذا الشيوعى الملحد الذى قتل الله هو المصلح الأخير » . للبشريه وهو الأمل الذى سيقود العالم إلى « يوم الخلاص » .

فعلى طول ٩٦ حلقة و١٤ فصلا ، انتهى الأستاذ نجيب إلى أن الوصايا العشر (التى انزلها الله على موسى عليه السلام) والكلمات التى جاء بها موسى(التوراه) وعيسى (الإنجيل) ومحمد (القرآن) عليهم أفضل الصلاة والسلام أجمعين . هى بنص كلماته . احلاما ضائعه قد تصلح الحانا للرباب لا للمعاملة فى هذه الحياه الفصل ١٤ .

وان الحكام المستبدين الذين يوحون إلى شعراء المقاهى ان يتغنوا بقصة الله ... وبخاصه مقتله بيد الشيوعيين الملحدين الذين يهادنهم الحاكم خوفا مما لديهم من السحر ... وانه من

عجب ان تلقى الناس اكاذيب الرباب (عن الله) بفتور وسخريه .. وقالوا لا شأن لنا بالماضى (الله ورسله هو الماضى) ولا أمل لنا إلا فى سحر عرفه (الشيوعى قاتل الله) ولو خيرنا بين الله (الجبلاوى) وهذا السحر لأخذنا السحر وان الناس أكبروا ذكر الشيوعى قاتل الله فوق اسماء موسى (سماه جبل لأن الله كلمه على جبل الطور) وعيسى سماه رفاعه الذى رفعه الله ومحمد سماه قاسم لأن من أولاده القاسم) ... وان هذا الشيوعى الملحد قاتل الله هو المصلح الأخير وهو الأمل الذى سيقود الناس إلى يوم الخلاص .. لأنه رغم فشل شرائع السماء المنزلة .. فلابد على يدى هذا الملحد وهذا المصلح للظالم من آخر ، والليل من نهار ... ولنرين مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب بيدى هذا المخلص .

ونحمد الله تعالى ان هذه الجائزه - جائزه نوبل - قد منحت لهذا الفكر الذى رفعه عليا نجيب محفوظ فى ختام روايته الآن . بعد أن كفر الشيوعيون فى بلادهم بشيوعيتهم .. وانهم الذين يقولون لنا هذه الآن وبعد أن أصبح عدد أعضاء الأحزاب الشيوعية فى العالم لايتعدى ٣٢,٨ مليونا أى حوالى ١,٧٥٪ من سكان العالم (وهى أسوأ نسبة منذ عام ١٩٣٢) رغم أنهم يمسكون بالسلطه فى ١٧ دولة تحتل ثلث سكان العالم فى مساحه تزيد عن ثلث مساحة الأرض إذا فالشيوعية كما روجوا لها تترهل الآن ففى اسبانيا هبط عددهم واصبحوا الربع ، وهناك ٥٠ ألفا تركوا الحزب فى إيطاليا وهبط العدد فى بريطانيا من ٤٦ ألفا إلى ١٢ ألفا .

ولا شك ان هذا الإنهيار فى العدد . لايهمنا بقدر إنهيار العقيدة نفسها داخل هؤلاء القاده والقيادات الشيوعية لأن الانتماء للأحزاب الحاكمة لايمثل بالضرورة كامل الولاء لها ولفكرها .

وإذا كانت أولاد حارتنا قد ترجمت قول كارل ماركس : ان الدين هو آفة الإنسان المقهور وانه أفيون الشعوب .. وان القضاء عليه كما قضت عليه أولاد حارتنا بقتل الله بعد ان اتهمته بكل نقيصه (راجع النصوص فى مقالنا السابق) فإننا نتشكك فى ان هناك فرقا بين شخصية اليسارى وشخصية الشيوعى بالصوره التى يوحى بها لنا تصريح الأستاذ نجيب محفوظ السابق الإشارة إليه عن نفسه .. وإلا لثار بقلمه البارع وحطم ودمر فكره الملحد قاتل الله ولمجد وسبح بعظمة الخالق . ورسالته ورسله .. فى ختام الذروه للرواية ... ولكنه فعل العكس .

ومن عجب ان أولاد حارتنا التى روجت ان جميع الأنبياء كانوا يتعاطون المخدرات والمسكرات - بمعنى أن الدين أفيون - تواجه الآن فضيحة لها وبلسان جورباتشوف الرئيس السوفيتى الحالى حيث يقول للعالم إن الإدمان هو المشكلة الكبرى فى الاتحاد السوفيتى الان

وانه هو المأساة القومية ، ارأيت يا استاذ نجيب أين ينتشر الإدمان الحقيقى ؟ فى جنة الشيوعيه وجنة العلمانية ... وجنة العصاه لا المؤمنين ثم تفوز أولاد حارتنا بجائزة نوبل وفى عام ١٩٨٨ اما ثورات الشعوب فى الدول الشيوعية التى تطالب بممارسة حقوقها ضد الاستبداد والتى نقرأ عن انبائها كل صباح ، فهى ترد الآن على الختام الذى جئتنا به فى أولاد حارتنا من أن الشيوعى هو المخلص كما قلت لنا قبل ٢٩ عاما فقط من اليوم فى أولاد حارتنا وفى أوج حكم الأستبداد الناصرى فى مصر .. وعند بدء غزو الشيوعية لقمم الحكم فيها ... (نهاية عام ١٩٥٩ يوم صدرت الرواية) .

ولذا فنحن نحزن حقاً لأن أولاد حارتنا حاولت ان تحقق هدف البروتوكول الرابع لحكماء صهيون الذى يقول : يحتم علينا ان ننتزع فكرة الله . وعندها يصير المجتمع منحلا ومبغضا من الدين .. ويستطرد الاستاذ مصطفى عدنان قائلا :

ثم نعود إلى الشيوعية التى ستخلص بها أولاد حارتنا العالم من بؤسه ... لقد اعترف مسئول بولندى أخيرا ان تكهنات الشيوعية بانهيار الرأسمالية حل محلها انهيار الشيوعية لا الرأسمالية فعلا ..

وها نحن فى العالم الشيوعى نتجه إلى الأسواق الحره ولم يمض علينا قرن واحد .

كذلك فإن المانيا الشرقية تتلقى معونة المانيا الغربية الآن ... وفى الصين يلقون بأيديولوجى الثورة الشيوعية الثقافية فى السجون ويبدأون عصر الانفتاح ..

وفى انجلترا تحطم تاتشر (رئيسة الوزراء) كل فلول الاشتراكية حيث بدأ غروب الفكر الماركسى .. وفى اليونان إنسحب بابا ندريو ولم تتحقق وعوده .. ولم يبرح حلف الأطلنطى والسوق المشتركة كما وعد من قبل بل حافظ على قواعد أمريكا فى اليونان وفى إيطاليا تحول بتينو كراسكى عن الاشتراكية متحالفا مع الاطلنطى واخذ يبتعد بحزبه عن الشيوعية وفى فرنسا حيث كانت الشيوعية هى أقوى الأحزاب فى أوربا الغربية رأينا كيف أن الحزب الشيوعى يحتضر مع عدم تجديد عضويته وناخبيه من الشيوخ والمسنين وانهارت النسبه من ٢٠٪ من عدد الناخبين إلى ١٠٪ فحسب ولهذا اعترف أحد الكتاب الفرنسيين : لو ان ماركس كان حيا اليوم لاعترف بالفشل : فهل تعترف به الطبعات الجديده من أولاد حارتنا .. أم انها مصره على مافعلته ولقد أسرع الرئيس الفرنسى ميتران بالتخلص من وزرائه الشيوعيين الأربعة وولى على وزارة فرنسا مليونيرا .

ويستطرد الأستاذ مصطفى عدنان قائلا وسوف يتيقن الجميع ممن عليهم هذا الأمر اليوم – ان إنتظار يوم الخلاص الذى وعدتنا به أولاد حارتنا فى الحلقات الأخيرة على يد

الشيوعى الملحد الذى قتل الله .. ان هذا الانتظار سوف يمتد إلى الأبد .. لأن الجنة التى وعدت بها الشيوعية البشر ان يأخذ كل واحد حسب حاجته ويعمل كل واحد حسب طاقته لتجرى انهار الخمر والعسل . وتمتلىء بحيرات الحليب وترتفع جبال الزبد ويشبع الجائع وينعم المحتاج لن تتحقق وها هم بعد ٧٥ عاما من مولد انبياء الشيوعية يعترفون بانهم يواجهون فى معقلها كارثة القمح (فى روسيا) وفى بولندا الخراب الاقتصادى معترف به لا ينكره أحد ... وحدث عن سائر هذه الدول بلا حرج ... نفس الشيء عمن خانوا قيم المسيح عليه السلام .

إن إنهيار الاقتصاد الستالينى الذى نشأ فى الاتحاد السوفيتى وصدرته موسكو إلى أوروبا الشرقية والصين فى ١٩٤٨ وثورة جورباتشوف وسقوط هوياويانج فى الصين والانقضاض العسكرى فى بولندا عام ٨١ والغزو السوفيتى لتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وثورات الشعوب الشيوعية ترد على مقولة الأستاذ نجيب محفوظ فى آخر سطور أولاد حارتنا – يوم فوزها وكل هذا الفشل جرى لتجربة تحدث خالق الأرض والسماء . وتطلبت فى روسيا وحدها إعدام ١٦مليون شخص (من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٣٦) غير ١,٤مليون صرعتهم المعتقلات وهذا كما يعترف نائب رئيس الادارة الدولية التابعة للحزب الشيوعى السوفيتى .. (فشلت الشيوعية حتى فى موطنها الأصلى) .

وها هى موسكو تتهم الأحزاب الشيوعية فى أوروبا بعدم الولاء لسياستها .. وان القوميات التى خلقها الله لتتعارف لم تذب كما شاء الحزب الشيوعى الأم . ثم جاءنا المستشرق الشيوعى سيمون لجوانى الكسندر وريفوفيينى السوفيتى ليعترفا فى كتابيهما ان الدين سيظل مصدر قوة للدولة بصرف النظر عن مدى تطورها .

الإســـلام والعــلم

ليس ثمة ريب فى أن الإسلام والعلم أخوان متلازمان تلازم الضوء للشمس والنور للقمر والإسلام والعلم متصالحان متوافقان متعانقان قال جل شأنه : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الأفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد** ﴾ ومن ظن ان رسالة الدين قد استنفذت بظهور العلم فقد اعظم على الله الفرية .

ومن ظن أن هناك خصاما بين الإسلام والعلم فقد أعظم على الله الفرية فلو اننا ذهبنا ننقب فى بطون التاريخ ونستنطقه لحدثتنا الحقائق بلسان اليقين ومنطق الحق المبين بأن الإسلام هو دين العلم ألم تقرأ أول خطوة من خطواته فى طريق الوحى تقول ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾

ألم تقرأ فى باب العقيدة ﴿ **شهد الله أنه لا اله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط** ﴾ وقوله تعالى ﴿**فاعلم انه لا اله إلا الله**﴾ وقوله جل شأنه ﴿**فلنقصن عليهم بعلم**﴾ وقوله تبارك اسمه : ﴿ **وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ وقوله : ﴿ **فلما تبين له قال أعلم ان الله على كل شىء قدير** ﴾ ثم الم تدر ما أعده الله لأهل العلم فى قوله : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ ومالأهل العلم من مكانة عند الله فى قوله : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ ثم ألم تقرأ قوله جل شأنه : ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه** ﴾ إلى غير ذلك مما لايتسع له المجال هنا من آيات ناطقات بأن الإسلام علم وعمل وعقيدة وشريعة وسلوك فقد اشتملت آياته على أصول العقيدة وشعائر العبادات وشرائع المعاملات ومناهج السلوك ومبادىء الأحكام وقواعد النظام واسألوا التاريخ عن ابن سينا صاحب كتاب القانون فى الطب الذى ظل يدرس ثلاثة قرون فى جامعات باريس ثم اسألوه عن الحسن ابن الهيثم وماله من علم نافذ فى الضوء والبصريات ثم اسألوه عن ابن النفيس وما له من علم ثاقب فى الدورة الدموية واسألوه عن ابن البيطار وما له من باع فى الطب البيطرى والنباتات واسألوه عن الخوارزمى ورياضياته وعن جابر بن حيان وكيميائه وثابت بن قرة والتفاضل والتكامل والمتنبى وماله فى الفلك والجاحظ وما له فى النبات والحيوان وغيرهم وغيرهم كثير لايحصره عد ولا يحيط به حد وفى هذا الباب مراتب لاتحص ومراق لاتستقصى ومن اراد المزيد فليسأل التاريخ عن مدرسة محمد التى تخرج فيها المصلح العظيم كأبى بكر والزعيم الملهم كعمر والحيى الكريم كعثمان والعبقرى الفذ كعلى والمحدث الجليل كأبى هريرة والمدرس القدير كابن عباس والمفتى الخبير كابن عمر والقائد الجبار كخالد والفيلسوف البارع كسلمان والزاهر الطاهر كأبى ذر فى أى الجامعات تخرج هؤلاء وأولئك .

لم يتخرجوا فى جامعات الشرق والغرب إنما تخرجوا فى جامعة فيها العميد المصطفى لايلحق وما حصلت عليه أوربا من قواعد الحضارة والمدنية والرق والعلوم الكونية إنما هو من نبع هؤلاء فقد عبرت تلك العلوم من شرقنا إليهم عن طريق الأندلس الفردوس المفقود وعن طريق الحروب الصليبية والقسطنطينية والتجارة ومن انكر شيئا من تلك الحقائق فقد اعظم على الله الفرية والله خير الشاهدين .

حكمنا فكان العدل منا سجية	فلما حكمتم سال بالدم أبطح
وماعجب هذا التفاوت بينا	فكل اناء بالذى فيه ينضح

فأى خصومة بين الإسلام والعلم وهؤلاء هم اساتذة العلم واساطير الفكر تنطق اعمالهم شاهدة بما للاسلام من فضل على الدنيا والله تعالى هو الذى يقول لصفيه ومصطفاه ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾ .

خاتمة

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ .

﴿ ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

وبعــد .

فليس المقصود الأهم من كتابة هذا السفر الرد على رواية من الروايات اذ الأمر أشد من أن يهمنا ذلك لكن الرد يأتى عرضا اذ المقصود الأهم الشرح والتفصيل والدفاع عن قضايا الإسلام التى تدور حول عقيدته الراسخة وشريعته الغراء خاصة مايتعلق بقضية الألوهية والنبوة والتى يحاول خصوم الإسلام أن يجعلوا منها غرضا يصوبون إليه سهامهم ونسى هؤلاء أو تناسوا ان سفينة الإسلام ستظل تمخر عباب الماء وتجرى فى موج كالجبال مهما عوت الذئاب ومهما ارتفعت أصوات البوم والغربان فمن ركبها نجا ومن قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء فإن الإسلام سيرد عليه قائلا لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وسيكون المصير وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

ولقد كانت تلك السفينة ومازالت وستظل طريق النجاة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها اما ماوراء الطبيعة فى العقيدة الإسلامية فإنه محيط اعنف من أن يمخر عبابه سباح ماهر ومن طلب المحسوس فى غير المحسوس فقد اصيب بالعمى عن المحسوس كغشاء عين الخفاش عن رؤية الاجسام البينة لنا فى ضوء الشمس انك اذا سألت الكون من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لاجابك بلسان الحال والمقال انا مخلوق للواحد الديان .

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى اثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الذبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

وكما قال أمير الشعراء :

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى	حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا	لروائــــع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه	تمحو أثيم الشك والانكار

﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا اله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل

لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾ وسبحان من بين لخلقه الطريق إلى سعادة الدارين بعد أن هبط آدم وحواء من الجنة قال مولانا تبارك اسمه ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الأخرة أشد وأبقى** ﴾ .

فإن كنت قد وفقت فى هذا الكتاب فلن ادعى لنفسى فضلا فالفضل كله لله يؤتيه من يشاء وان كانت الاخرى فمن نفسى وماأبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء الا من رحم ربى ان ربى لغفور رحيم وأقول للذين يحاولون أن يثيروا الشبهات حول الإسلام انهم كمثل الذين يحاولون ان يثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا والله تعالى يقول لهم ولأمثالهم إلى يوم القيامة **قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون تباركت ربنا وتعاليت فإنهم فى غيهم يعمهون وفى غيبهم يترددون** ﴿ **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ فلمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون والله المستعان على ما تصفون والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون والله المستعان وعليه التكلان .

مايضر البحر أمسى زاخرا ان رمى فيه غلام بحجر .

وما ضر الورود وماعليها اذا المزكوم لم يطعم شذاها .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على سمعه غشاوة فمن يهديه من بعد الله فلا تذكرون** ﴾ ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ .

اللهم انا نسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ونعوذ بك من علم لاينفع ونفس لاتشبع وقلب لايخشع ودعاء لايسمع .

انتهت كلمتنا فى الرد على أولاد حارتنا .

عبد الحميد كشك

الفهـــرس

رقم الايداع بدار الكتب ٩٤/١٠٢٤٤

977-220-100-3


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET